



ميكل ووتر

المجتمع المصري تحت الحكم العثماني

ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم

مراجعة: د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ



ميكل ونتر

المجتمع المصري تحت الحكم العثماني

ترجمة

إبراهيم محمد إبراهيم

راجع وعلو عليه

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠١

الألف كتاب الثاني
نافذة على الثقافة العالمية

المشرف العام
أ.د. سمير سرحان

رئيس التحرير
أ.د. محمد عناني

مدير التحرير
عزت عبد العزيز
المشرف الفني
محسنة عطية
سكرتير التحرير
هند فاروق

تصحيح
محمد حسن
بدر شفيق

Michel winter

**Egyptian society
under ottoman rule**

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١١	تقديم
١٣	الفلاح لما ملك
١٤	تهريب الاموال واخفاؤها
١٧	الممالك المصريون — حركات وانسداد
٢٠	اللية — لمحات من تاريخها السياسى والاجتماعى
٢١	منهجان فى كتابة التاريخ
٢٦	أولا : دور المغاربة فى الحياة السياسية المصرية
٣٠	المقدمة
الفصل الأول	
٣٥	خلفية تاريخية
٣٥	السلطنة الملوكية (١٢٥٠ — ١٥١٧)
٤٤	الفتح العثمانى
٥٤	التمرد الملوكى ورسوخ الحكم العثمانى
٥٩	موجز للتاريخ السياسى لمصر العثمانية
الفصل الثانى	
٧٣	تقلبات الطبقة الحاكمة
٧٣	اتجاهات المصريين نحو العثمانيين — ملاحظات عامة
	الجيش المصرى فى القرن السادس عشر —
٨٤	الجيش فى قانونى نامه مصر
٨٨	الشروخ الأولى فى النظام العسكرى
٩٣	الطواشية

٩٤	• • • • •	تغلغل غير النظاميين في الجيش
٩٨	• • • • •	بقاء المماليك في ظل الحكم العثماني
١٠٢	• • • • •	القرن السابع عشر
١١٤	•	نحو صعود نجم البكوات المماليك في القرن الثامن عشر
١١٥	• • • • •	تدهور وضع الوالي العثماني
١١٨	• • • • •	تدهور الأوجاقات
		المجتمع المملوكي في القرن الثامن عشر ،
١٢٤	• • • • •	الولاءات والعصبات
١٢٨	• • • • •	المماليك الذين يملكهم المدنيون
١٣٠	• • • • •	البيوتات والاسر المملوكية
١٣٢	• • • • •	امراء المماليك كحكام
١٣٤	• • • • •	المماليك ، سماتهم ووعيتهم

الفصل الثالث

١٤١	• • • • •	العلاقة بين الدولة والعرب البدو
١٤١	• • • • •	تقديم
١٤٣	١٥٢٤ - ١٥١٦	دور العرب في أحداث مصر السياسية ،
		وجهة النظر الرسمية عن مشايخ العربان في النصف
١٥٧	• • • • •	الثاني من القرن السادس عشر
١٥٨	• • • • •	وظائف مشايخ العرب
١٦٠	• •	مشايخ العرب والكشاف في الفرمانات العثمانية
١٦١	•	مساواة مشايخ العرب بغيرهم من أصحاب المناصب
١٦٣	• • • • •	مشايخ العرب كقادة للجيش
١٦٤	• • • • •	تمويل مشايخ العرب
١٦٧	• • • • •	مشايخ العرب كحكام ظلمة
١٦٨	• • • • •	احلال الامراء محل مشايخ العرب
١٧٢	• • • • •	القرن السابع عشر
١٧٤	• •	القرن الثامن عشر ، ذروة قوة القبائل العربية

الفصل الرابع

١٨٠	علماء الدين
١٨٠	بين الحاكم والمحكوم
١٨٣	العلماء كقضاة
١٨٦	المذاهب
١٨٧	التكوين العلمى للعلماء
١٨٩	أحوال العلماء الاقتصادية
١٩١	الانقسامات العرقية
١٩٢	نمو الأزهر أثناء الحقبة العثمانية
١٩٣	بنية الأزهر
١٩٤	منصب شيخ الأزهر
١٩٩	الأزهر فى الحياة العامة
٢٠٣	الخاتمة

الفصل الخامس

٢٠٥	التصوف والمتصوفة
٢٠٦	أثر الفتح العثمانى على الصوفية المصرية
٢٠٩	الطرق الصوفية
٢١٢	الطرق الصوفية الرئيسية
٢٢٥	الشيخ البكرى
٢٢٧	السادات. الوفائية
٢٣٥	تنظيم الطريقة
٢٣٧	أخيراً ، مسألة العضوية المتعددة فى الطرق
٢٣٧	الجوانب الاجتماعية لهذه الطرق
٢٤٣	الأقسام العرقية فى مجتمع المتصوفة
٢٤٩	تنويعات عن علاقة المتصوفة — العلماء فى مصر العثمانية
٢٥٤	المتصوفة والحكام

الفصل السادس

٢٥٧	الدين على المستوى الشعبى
٢٥٧	ملحوظة منهجية
٢٥٨	الأولياء والملماتية
٢٦٠	زيارة القبور والأضرحة
٢٦٨	الموالد (مقدمة)
٢٦٨	الأولياء واقامة موالدهم
٢٧٢	أوقات الموالد ومددها
٢٧٤	المشاركون فى الموالد
٢٧٧	الجانب التجارى للموالد
٢٧٨	الجانب العلمانى للموالد
٢٧٨	الجوانب موضع الاعتراض فى الموالد

الفصل السابع

٢٨٠	الأشراف ونقيب الأشراف
٢٨٠	الأشراف
٢٨١	انشاء الشرافة
٢٨٢	أصل الأشراف المصريين
٢٨٣	نفوذ الأشراف المصريين وتميزهم الاجتماعى
٢٨٩	نقيب الأشراف
٢٩١	نقيب الأشراف كموظف عثمانى
٢٩٣	نقل المنصب الى أعيان محليين
٢٩٥	عمر مكرم

الفصل الثامن

٢٩٨	الذميون : اليهود والمسيحيون
٢٩٨	الفتح العثمانى والذميون
٢٩٩	الذميون اثناء الفترة الاولى من الحكم العثمانى

٣٠٣	اليهود كصرافين
٣٠٦	موظفو الجمارك والتجار
٣١٠	سياسة الباشوات تجاه اليهود
٣١٢	الجزية ، أو الجوالى ، أو ضريبة الرأس
٣١٥	قوانين خاصة بالزى والمظهر الخارجى
٣١٦	الحمائم
٣١٧	العبيد الذين يملكهم ذميون
٣١٩	الاحياء اليهودية والمسيحية
٣٢١	مقابر اليهود
٣٢٢	الجالية اليهودية فى الاسكندرية
٣٢٤	المسيحيون واليهود
٣٢٨	الاتجاهات الدينية نحو الذميين

الفصل التاسع

٣٣٠	الحياة فى القاهرة العثمانية
٣٣٠	ديموجرافية السكان والنمو الحضرى
٣٣٣	الجماعات العرقية فى القاهرة العثمانية
٣٣٥	الامن والجريمة والرذيلة والعدل
٣٣٨	الامن وحفظ السلام فى القاهرة
٣٤١	العقوبة
٣٤٣	السجون
٣٤٣	الصحة العامة
٣٤٣	الطاعون
٣٤٦	النظافة
٣٤٩	الحمائم العمومية
٣٥٠	النقل
٣٥٢	الاحسان
٣٥٤	الاحتفالات العامة : شعب محب للمرح

٣٥٧	الترفيه والتسلية
٣٥٨	التقسيم الطبقي الاجتماعى والاقتصادى لسكان القاهرة
٣٦٣	الحرف
٣٦٧	علاقة الحرفيين والتجار بالجيش
٣٧٠	الخاتمة
٣٧٢	الحواشى وقائمة المصادر
٣٧٣	هوامش الفصل الاول
٣٧٦	هوامش الفصل الثانى
٣٨٦	هوامش الفصل الثالث
٣٩٣	هوامش الفصل الرابع (العلماء)
٣٩٧	هوامش الفصل الخامس (الصوفية)
٤٠٤	هوامش الفصل السادس
٤٠٩	هوامش الفصل السابع
٤١٥	هوامش الفصل الثامن (الذميون : اليهود والنصارى)
٤٢٢	هوامش الفصل التاسع
٤٢٩	قائمة المصادر

ثانيهما : أن المؤلف دخل حلبة التأليف فى هذا المجال متسلحا بخلفية ثقافية عريضة انعكست فى منهجه ، فهو لم ير أنه خرج عن الموضوع عندما سجل ملاحظاته بشئ أن كثيرا من الظواهر المتعلقة بالصوفية والأضرحة ظلت كما هى حتى القرن التاسع عشر ، وكان الرجل ملما بمجمل التاريخ المصرى عندما أرجع بعض الممارسات المتعلقة بالموالد الى التاريخ المصرى القديم ، كما كان متسلحا بدراسات اجتماعية بشكل واضح ، عندما فسر انتشار الطرق الصوفية ، واقبال أهل البلاد والفلاحين عليها ، بالرغبة فى (الانتماء) طلبا (للحماية) فى مجتمع يتسيد فيه العسكر المماليك ، وكان رائعا عندما توقف ليعرف رأى النساء فى العناصر العسكرية : أهن يملن للعسكر المماليك أم للعسكر الترك (الانكشارية) ؟ فرأى النساء - فيما يقول - مهم ، فالبعض يحرص على أن يفعل ما يرضى النساء ، وبالتالي فهن أحيانا كثيرة يشكلن النموذج المطلوب ، أو الذى يحرص البعض على تشكيل نفسه وفقا له . وتسليح المؤلف بمعرفة عريضة بالأعراق أو الأصول الاثنية وفسر بها بعض الأحداث تفسيرا مقبولا ، ففسر على سبيل المثال انقلاب خاير بك (المملوك) على بقية المماليك بأنه كان جورجيا ، بينما كانوا هم شركس ، كما فسر غلبة العنصر الفلاحى على طلبة الأزهر ، بأن الالتحاق بالأزهر كان هو السبيل الوحيد الذى يسمح بمقتضاه للفلاح أن يقيم فى القاهرة ، وتعرض للمماليك الأباطية وغيرهم .

يقول أبو زيد الهلالي سلامة (ولا كل من ركب الحصان خيال) ونقول على منواله (ولا كل من عنده وثائق مؤرخ) ، فقد خلص المؤلف بمعلومات طريفة ومفيدة من خلال المصادر نفسها التى رجع اليها آخرون ولم يفتنوا لما فطن اليه . لقد حدثنا عن جماهيرية بعض العلماء والصوفية ، لكنه حدثنا أيضا عن أن هذه الجماهيرية فى بعض الأحيان كانت من صنع المماليك أنفسهم ، فالعالم أو الصوفى لا يجد مبررا للاقتراب من أصحاب السلطة الا القول بأنه يسعى فى حوائج الناس ، وحوائج الناس فى أيدي السلطة ، وهكذا فالعالم أو الشيخ الذى تقبل السلطة وساطته أو شفاعته تحقق له عند أصحاب الحاجات (جماهيرية) ومن تتباطأ فى الاستجابة لشفاعته أو وساطته تقلل - بذلك - من شأنه ، ويسوق المؤلف سياقات أخرى لتفسير أن الصوفية والعلماء ، كانوا فى الغالب لا يمثلون للسلطة معارضة حقيقية ، وأنهم مالوا لثراث مؤداه ضرورة طاعة ولى الأمر .

وليس من هدفنا في هذه المقدمة استعراض كل ما ورد في الكتاب ومناقشته ، فهو كثير ، وإنما أكتفى هنا ببعض الأفكار ذات الدلالة من النوع الذى يؤكد حيوية التاريخ .

الفلاح لما ملك

بعد الخلفية التاريخية ، قسم المؤلف بحثه الى فصول جاعلا كل فصل لمكون من مكونات المجتمع المصرى فى العهد العثمانى ، مع استطرادات ضرورية تعود بالحدث الى ما قبل العصر العثمانى ، أو تتابع تطوره بعد ذلك . فجعل فصلا للطبقة الحاكمة ويقصد بهم العسكر سواء أكانوا عثمانيين أم مماليك ، وكما هو مفهوم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت الهيمنة الحقيقية للمماليك . كما حدثنا عن الجيش فى القرن السادس عشر ، وفى الفصل الذى يليه ينتقل الى مكون آخر وهم العربان ، ثم بعد ذلك يحدثنا عن العلماء والمقصود علماء الأزهر وهو يعرض فى هذا الفصل للبيئة الأزهرية عموما ، وفى الفصل الذى يليه يحدثنا عن الصوفية ، وهو فى الحالتين - عند حديثه عن العلماء وعند حديثه عن الصوفية - يورد فقرات خاصة بالأعراق *ethnic groups* ، وهى مسألة مهمة كما أشرنا من قبل ، وفى فصل آخر يحدثنا عن الأشراف وتقييهم ، فقد آثر لأسباب سنوضحها أن يفرد لهم فصلا رغم حديثه العرضى عنهم فى فصليه عن العلماء والصوفية . يرى المؤلف أن الدولة العثمانية حاولت تشجيع تركيبات أو تكوينات أو عناصر محلية غير مملوكية لاحداث نوع من التوازن الداخلى مع المماليك ، لهذا فهو يرى أن نقابة الأشراف صناعة عثمانية ، رغم وجود الفكرة على نحو ما منذ العصر العباسى ، كما أشار من قبل الى أن المراسيم السلطانية كانت أحيانا توجه الى الباشا ونقيب الأشراف ، بل وأحيانا كان يذكر فيها بعض مشايخ الطرُق الصوفية . . الخ .

وأخيرا يحدثنا عن أهل الذمة . المؤلف اذن لم يفرد فصلا للفلاحين . ألا يعد هذا خطأ منهجيا ؟ لم يكن المؤلف غافلا عن ذلك ، فاعتذر بقلة المعلومات المتاحة ، اذ يبدو أن الوثائق العثمانية أفردت دفاتر مهمة (مهمى دفترى) للعناصر العسكرية فقط ، كالمماليك والبدو ، أو للعناصر التى يمكن أن تقوم بدور سياسى ، أو يمكن أن تكون أداة فى أيدي السياسيين العثمانيين كآل البيت (الأشراف) ، أما الفلاحون فكانوا كما هملا ، ومع هذا فقد أشار المؤلف لمراسيم وأوامر عثمانية بضرورة معاملة الفلاحين معاملة حسنة ، وهو الأمر الذى كان يصعب متابعته لوضع مصر

الخاص شبه المستقل من الناحية الفعلية فيما يتعلق بالأمور الداخلية على الأقل .

ومع هذا فقد أشار المؤلف للفلاحين فى فقرات متفرقة فى سياق فضوله ، لكن أطرف هذه الاشارات اشارته (لعصبة الفلاح) ، والفلاح هنا هو الحاج صالح (المتوفى سنة ١٧٥٥) وهو منوفى نشأ يتيما فقيرا ورهنه سيده لقاء دين كان يدين به للملتزم ، ولما سدد سيده الدين رفض صالح أن يعود للقرية ، ومن المفهوم أن سيده الجديد (الملتزم) عطف عليه وأيده ، وظل صالح فى بيت الأمير ومع مرور الوقت ازدهرت حالته واشترى ممالك وجوارى ورتب زيجات بينهم واشترى لهم دورا ، وزودهم بمصادر للدخل . . . لقد قلد هذا المنوفى الفلاح الأمراء الممالك وسار فى ذلك قدما فقدم الرشاوى ومارس أساليب التحايل كى يلحق ممالكه فى الأوجاقات وعمل على ترقيتهم ، واشترى ممالكه ممالك بدورهم وشكلوا جماعة شديدة البأس . ويبدو أن هذا الفلاح المنوفى كان مدبرا يضع الأقمشة (*) على الأقمشة فكون ثروة ، لدرجة أنه كان يقرض إبراهيم كتخدا وزوجته .

لكن هذه القروض لم تكن ترد ، وتقول المصادر ان (صالح) المسن - حتى وهو فى ذروة سلطته - كان يركب حمارا ولا يتبعه سوى خادم واحد . وهذا سيقودنا الى الحديث عن الظروف التاريخية الاجتماعية التى جعلت للمصرى أساليب مختلفة فى اخفاء الثروة .

تهريب الأموال واخفاؤها

من الطبيعى أن يكون المظهر الدال على الثراء والقوة لازمة من لوازم حياة الأمراء الممالك ، أو الممالك الذين اشترتوا بدورهم ممالك ، أو العلماء والصوفية الذين اشترتوا - فى مرحلة لاحقة - ممالك . لكن كيف يطمئن أى من هؤلاء على ثروته ، فالمصادرة أمر وارد ، ووصول عصبة مناوئة للسيطرة على زمام الأمور رغم وجود الباشا العثمانى أمر وارد . . . لذا كان المعتاد أن يكون هناك مكانان أو موضعان للأمير أو للمملوك الثرى ، قصره الذى يسكن فيه ، ومكان آخر سرى يحفظ فيه جانباً من ثروته ، ويضع عليه حراسا لحسابه ، ولا يتردد عليه بشكل علنى ، وفى بعض الأحيان كانت هذه الثروات المخبأة توضع فى أحياء لها قداسة خاصة بالقرب من الأزهر أو الحسين . . . وعلى أية حال ، فقد كان الحراس سرعان

(*) بضم الالف وتسكين القاف - عملة صغيرة .

ما يقرون بالحقيقة بعد تعريضهم للضرب المبرح ، ولم يكن الدرويش ليعلم تعليلا يخون به سيده حتى بالقرب من الأزهر أو الحسين - اذا حان الجد ، وقلب الدهر ظهر المجن .

أما الطريقة الثانية ، فقد تجلت في الحاج صالح الفلاح المنوفى الآنف ذكره ، وهي أن يظهر صاحب المال بمظهر زرى ، فالحاج صالح صاحب المماليك كان لا يركب الاحمارا ولا يتبعه سوى خادم . لكن الحاج صالح - على أية حال - كان ربيب الأمراء ، فماذا عمن هم دونه ؟ استثناسا بمنهج المؤلف الذى مفاده أن الأوضاع الاجتماعية لا تتغير تغيرا مفاجئا ، نستأذن فى النقل عن الرحالة بوركهارت (١) ما نصه :

« شيوع عادة اخفاء الثروة وأسبابها فى الدولة العثمانية (النص : تركيا) وأسبابها تتضح من خلال الحادثة التالية : لقد حدث فى القاهرة سنة ١٨١٣ أن طلب محمد على ١٥٠٠٠ كيس من القبط العاملين فى المجال المالى بمصر ، فقسم القبط المبلغ بين أنفسهم ، وكان على المعلم فلتوس وهو رجل كبير السن - وكان قبل ذلك ماليا كبيرا - أن يدفع ألفا ومائتى كيس (حوالى ١٨٠٠٠ جنيه استرلينى) فادعى الفقر ، وبعد مساومات طويلة قبل أخيرا أن يدفع مائتى كيس ، فأرسل الباشا فى طلبه وهدده فأصر ، فأمر الباشا بضربه ، وبعد أن تلقى ٥٠٠ جلدة وأصبح نصف ميت تقريبا أقسم أنه لا يمكنه أن يدفع أكثر من مائتى كيس ، فظن محمد على أنه صادق ، الا أن ابراهيم باشا ابن محمد على الذى كان حاضرا قال انه متأكد أن هذا الرجل لديه أموال أكثر من ذلك ، وبناء عليه تلقى فلتوس ثلاثمائة جلدة أخرى ، وبعدها اعترف أن لديه المبلغ المطلوب وأنه سيدفعه ، فسمح له بالعودة الى بيته ، وبعد أسبوعين بعد أن شفى من آثار الضرب بدرجة تسمح له بالمشى أرسل الباشا اليه مندوبين فى بيته وتم استدعاء العمال ، فنزل فلتوس معهم الى مراحض (كنيف) ، وفى قاع المراحض (الكنيف) أزاخوا حجرا كبيرا كان يسد حفرة على شكل ممر يحوى كوة مقنطرة بها صندوقان من الحديد ، وعند فتحهما وجدوا ألفى كيس من السكينات ، فحملوا منها للباشا المطلوب وتركوا الاكياس الباقية له ، الا أن فلتوس مات بعد ذلك بثلاثة أشهر ليس بسبب الضرب وانما حزنا على ماله الذى فقده . وعبتا حاول رجال محمد على بعد موته الوصول لبقية أمواله ، فلم يجدوها فى الموضع الذى

(١) رحلات فى شبه الجزيرة العربية ، ترجمة د. عبد العزيز الهلابى ود. عبد الرحمن

عائنها فيه قبل موت فلتوس ، ولم يجدوها فى أى مكان آخر . هل استطاع فلتوس رغم مرضه الشديد أن ينقل كنزه سرا فى مكان أمين ؟ ربما فعل ، فلم يكن هناك حارس معين على منزله عقب وعده بالدفع ، وقد ظن الياشا أن هذه الأموال خبثت فى بعض الأماكن السرية وفقا للعادة السائدة بشكل عام فى بلاد الشرق ، (*) . لا نسوق هذا النص للتدليل على أن عددا من أهل الذمة كانوا قد أحرزوا ثروات كبيرة ، فقد خصص المؤلف فصلا لذلك - وانما لنشير الى الأسلوب الثانى أو الطريقة الثانية فى اخفاء الثروة ، ولنسمها الطريقة « الفلاحى » وهى التظاهر بالفقر ، فلم تحدثنا الرواية عن قصر يمتلكه فلتوس ، أو آثار للنعمة بادية عليه ، وقد ظل الرجل يضرب ثم يضرب وهو يقسم أنه رجل (غلبان) . . ولا شك أن الثروة الهائلة التى كان يمتلكها بتناقضها مع مظهره وطريقة حياته ، جعلته منار دهشة ، وربما اعجاب ظل فى الضمير الشعبى فترة طويلة ، فقد تحور اسمه بعد ذلك الى فرطوس . . فاذا أظهر شخص ما قدرا كافيا من الحيطة والحذر والمكر فهو (ابن الفرطوس !) وهى عبارة لازالت تتردد رغم نسيان أصلها التاريخى .

وقد تداخلت عناصر أخرى لاختفاء النعمة لدى العامة - خاصة الفقراء والطبقة المتوسطة - مع العامل السابق ، كالخوف من الحسد وطلب الستر وما الى ذلك ، حتى أصبحت لازمة شعبية تظل باقية رغم اختفاء السبب أحيانا ، وكان محمد على باشا على وعى بهذه « الخصلة » فوصف الفلاحين « باللؤم والمكر » . . لكن التعمق فى الجذور الثقافية للظواهر يوضح كثيرا من الأمور المعاصرة وأظن أن تلك واحدة من أهداف التاريخ كعلم مفيد ، وعلى هذا أليس من الضرورى وضع ذلك فى الاعتبار عند تحديد عدد الفقراء أو من هم دون خط الفقر ، فكثير من الفقراء من ذوى الأصول الفلاحية أقل فقرا بكثير مما يبدو عليهم ، والبعض من ذوى المظهر المملوكى الباهر (الفشخرة) ربما كانوا فقراء .

وإذا أضفنا تراث التقية الفاطمى أو الشيعى (التقية بتشديده مع فتح التاء والياء) الى ذلك اتضح عمق هذا الأسلوب الثانى ، وتقضى التقية أن يكتم المرء (ذهبه ومذمعه وذهابه) أى لا يبدي أو لا يظهر أيا منها ، وأسهمت الحركة الديرية المصرية هربا من الاضطهاد البيزنطى فى تعميق ذلك أيضا . لذا ، فمسئولية تقدير الضرائب بشكل صحيح مسئولية صعبة فى ظل هذه الظروف التاريخية .

المماليك المصريون - حركات وأنداب

ظل المماليك المصريون لفترة طويلة لا يواجهون أعداء خطرين « اذ ان الفرنجة قد طردوا سنة ١٢٩١ ، ومع مطلع القرن الخامس عشر بعد انسحاب تيمور لنك من الشام لم يعد المغول يشكلون تهديدا أيضا ، فلم يطور الجيش طرقا فنية عسكرية جديدة كما لم يتخذ تكنولوجيات عسكرية جديدة . ذلك أن المماليك رفضوا استخدام الأسلحة النارية وهى التسليح الحديث لذلك الزمان ، معتبرين أنها أسلحة لا تمت للفروسية أو الرجولة أو الاسلام كما لم يكن من الممكن استخدام البندقية من فوق صهوة جواد ، وبذلك لم تعد محل تفكير لدى المماليك ، بهذا المعنى ، فالمهارة العسكرية والعسكرية القتالية لدى المماليك قوامها الفروسية ، ونتيجة لذلك مر الجيش المملوكى بفترة طويلة من الركود ولم يضم أراضى جديدة تحت الحكم المملوكى ٠٠٠ ، (*) . لقد انغلقت العسكرية المملوكية اذن على نفسها ، واقتنعت بأنها فى أمان من العدو الخارجى ، لكن كان لا بد لها من تصريف طاقاتها بشكل أو بآخر ، فتم تفرغها من المضمون القتالى الحقيقى ، وتحولت التدريبات العسكرية الى ما يشبه الألعاب الرياضية ، واستخدام الصوت كالصيحات المرعبة وما الى ذلك ، واللعب بالسيف ، و اظهار الحركات البارعة على الأرض أو على ظهور الخيل ، وامتناع المماليك عن اقتناء الأسلحة النارية يرجع فى سببه الحقيقى الى عدم ضرورتها لحفظ الأمن الداخلى وفقا لمفهوم ذلك العصر ، فالبنقدية كانت سلاحا متطورا للمواجهات الخارجية التى أغمض المماليك عيونهم عنها لأكثر من مائة عام . والمتصفح لكتاب ابن زنبيل الرمال عن واقعة السلطان الغورى مع السلطان العثمانى سليم الأول العثمانى ، والذى نشر بعنوان (آخرة المماليك) يدرك مفهوم هذا التحليل ، فابن زنبيل يحدثنا عن مهارة المماليك فى (الأنداب) ، وهو مصطلح يوازى ما نسميه (الحركات) بالبعد الشعبى للكلمة . وكانت (أنداب) المماليك تشير بالفعل اعجاب العسكر العثمانيين : قفز فوق الحصان ، ودوران من أسفله ، ولعب بالسيف وتحريك للرمح ، ٠٠٠ الخ لكن عند الحرب الحقيقية كانت النتيجة صفرا سواء فى مرج دابق (الشام) أو الريدانية (مصر) ومما عمق هذا الاتجاه (الأنداب أو الحركات) أن طائفة أولاد الناس كانوا لفترة ما لا يلتحقون بالجيش المملوكى ، وانما يتم توجيههم للعمل فى مضممار التجارة أو الاشتغال بالعلم ٠٠ الخ ، ولأنهم من بيوتات عسكرية واءموا بين حياتهم الجديدة ونوع من التدريبات (الأنداب)

الرياضية المفرغة من معناها العسكرى ، ٠٠ وتوارثت الأجيال هذه الأنداب (الحركات) حتى بعد أن ذبح محمد على عددا منهم فى مذبحه القلعة الشهيرة ١٨١١ ، فقد ظل عدد كبير منهم ومن أولادهم فى الجهاز الادارى ٠٠ لكن هناك شواهد كثيرة تشير الى أن هذا التراث بدأ يتقلص فى مصر الحديثة ، فقد بات واضحا للعيان الاهتمام بالهدف وتحقيقه لا مجرد (الأنداب) أو (الحركات) بصرف النظر عن النتيجة ، وأوضح مثال على هذا حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، فقد حققت القيادة المصرية بجيش مصر (الهدف) المحدد سلفا ، وفقا لقدراتها ولم تعبأ بمزيد من (الأنداب) ٠٠ حتى فى مضمار الكرة ، كانت البراعة فى (ترقيص) الخصم واثارة اعجاب المتفرجين بحركات (أنداب) تعمى عن تسجيل الأهداف - كان هذا فى جيل على الأقل ، وأظن أن احراز مصر لنصر عالمى فى عام ١٩٩٨ يعد أيضا علامة على هذا التحول الذى نتحدث عنه ، وهناك اشارات أخرى تدل على هذا التحول ٠٠

لقد كان تقدم الجيش المملوكى بقيادة قنصوه الغورى نحو الحدود الشمالية العثمانية فيما يقول ونتر « بمثابة خطوة غير عادية ، حتى ولو كانت دفاعية فحسب ٠٠ » يريد ونتر أن يقول انها كانت مجرد حملة مظهرية لم تكن تقصد القتال ، ويؤكد هذا رأى الى حد كبير ابن زنبيل الرمال فى كتابه الذى أشرنا اليه آنفا . انها كانت مجرد (أنداب) أو (حركات) ، وكانت العاقبة وخيمة ، وفى التاريخ المعاصر حدث شئ كهذا ، وكانت النتيجة نكسة . لكن الأمور تغيرت تغيرا وئيدا مبتعدة عن التراث المملوكى فى هذا الشأن ، والذى ترعرع فى فترة السلم الطويلة ، وان كان هذا لا يمنع من بقايا لهذا التراث تبدو واضحة على المستوى الفردى فى الشارع المصرى ، فلا بأس أن يندفع صبى بدراجته نحو فتنزعج حتى اذا أوشك أن يدهمك ، تراه قد تحول بعيدا عنك فجأة بدراجته ، وهو يضحك . انها (أنداب) مملوكية ! حركات . وقد يفعل راكب السيارة أو الأوتوبيس الشئ نفسه . أنداب ! أو حركات لها جذورها ، فالتراث الثقافى ينتقل من جيل الى جيل على النحو نفسه - تقريبا - الذى يرث فيه الأبناء ملامح آبائهم ٠٠

ويعيب ابن اياس على الحكم العثمانى أنه أبطل المهرجانات الكثيرة التى كان يقيمها المالك « فيعرضون فيها مهاراتهم الفذة فى العروض والمهرجانات وفنون القتال » (٢) .

ومن الأمور الطريفة أن ونتر استقصى آراء قطاعات بعينها من المجتمع المصرى - من خلال الوثائق ، وقال انه من المفيد أن نعرف آراء النساء ، هل كن يفضلن المماليك أم العثمانيين ؟ وانتهى من خلال وثائقه أنهن كن يفضلن أصحاب الأنداب والحركات والمهرجانات - أى المماليك ، واذا تقدم لاحداهن عثمانلى ومملوكى اختارت - بلا تردد - المملوك (أبو الحركات) .

ورأى النساء - فيما يقول ونتر - دائما رأى له وزنه ، لذلك ليس غريبا أن نجد الكتائب العثمانية فى خاتمة المطاف تصبح أقرب الى الطبيعة المملوكية ، بدلا من أن تؤثر هذه الكتائب النظامية - أو التى كانت نظامية فى بدايتها - فى الشخصية المملوكية ، ومن المفهوم أن سلطة الباشا العثمانى والانكشارية ظلت تضمحل شيئا فشيئا ، وعندما أتى بونابرت الى مصر واجه - فى الأساس - المماليك .

وقد حاول الفلاح المصرى عندما أتحت له الفرصة أن يتشبه بالمماليك فى تكوين عصبية له بالشراء ، لكنه لم يفلح بطبيعة الحال ، وان ظل هذا أملا عزيزا لديه ، وهو ما أفردنا له فقرة فى هذه المقدمة (الدراسة) .

لقد حقق النظام المملوكى فى بواكيره أهدافه على مستوى الدفاع عن البلاد ضد الغزو الخارجى ، لأنه كان تنظيما عسكريا ذا أهداف عسكرية ، لكنه بعد ذلك ظل (عسكريا) دون هدف (عسكري) واضح ، فتوجهت طاقاته للجبهة الداخلية ، فارتبط بالحرف والحرفيين ، وسيطر على تشكيلاتهم ، وارتبط بالتجارة والتجار ، فكان من المحال ظهور تاجر كبير بعيدا عن سطوته ، وتغلغل حتى فى الطرق الصوفية والأوقاف ، ووجه العلماء (رجال الدين) وتحكم فى نفوذهم ، وكان على وعى كامل بكيفية صناعة شعبية لبعضهم وسلب شعبية آخرين ، كما هو واضح فى الفصل الذى كتبه ونتر عن العلماء .

لقد حاولت الدولة العثمانية اسباغ الشرعية على قوى مختلفة فى المجتمع المصرى لتوازن بهم قوة المماليك ، لكن التراث المملوكى كان يتغلغل فى هذه القوى الجديدة ، فحتى البدو تشبهوا بالمماليك ، ويضرب لنا ونتر مثلا بالهواره فى الصعيد الذى حموا المماليك الآبقين وتزواجوا معهم .

اللحية - لمحات من تاريخها السياسي والاجتماعي

يحدثنا ونتر أن السلطة العثمانية حرصت في بداية الأمر على عدم ادماج المماليك في الجيش العثماني في مصر وألزمتهم بأن يستمروا في لبس الزمت الأحمر المعتاد ، لكن هذه السياسة تغيرت بعد ذلك ، وصدرت الأوامر بأن يلبسوا كما يلبس الجنود العثمانيون ، ولم يكن في ذلك ما يثير المشاكل ، وإنما المشااكل سببها اللحية ، فقد كان الجنود العثمانيون حليقي اللحية ، بينما أصر المماليك على الاحتفاظ بلحاهم . . . « وفي إحدى المناسبات حين تفقد خاير بك المماليك وهو والى مصر العثماني ، يقال انه قص لحية كل مملوك وأعطاهها له وقال : يجب عليكم الخضوع للقانون العثماني ، فاحلقوا لحاكم ولتكن أكمامكم ضيقة . . . » .

ومن السهل أن نتصور أن هذا الاجراء لم يكن يعجب المماليك جنودا أو أولاد ناس ، لأن اطلاق اللحية كان مرتبطا لديهم بمناسبة عزيزة ، فلم يكن الأستاذ أو الأمير يسمح لأى مملوك من مماليكه باطلاق لحيته الا اذا اعتقه ، فطالما كان المملوك فى حوزة سيده ، فلا بد أن يكون ناعم الخدين فربما يحتاجه سيده فى أمور تتطلب نعومة الخدين ، أما وقد سمح له باطلاق لحيته فهذا يعنى أنه أصبح حرا .

وفى البلاد التى ظهرت فيها حركات سلفية قوية فى القرنين التاسع عشر والعشرين كان حلق اللحية بمثابة اعلان للمعارضة ، وكانت السلطة تتعامل بالفعل مع حلقى اللحي كمعارضين ، وتشسير الى ادراجهم فى كشوف خاصة تمهيدا لاتخاذ اجراء ما ، وكان بعض الحليقين اذا أحس الواحد منهم بقرب اتخاذ اجراء ما ، أعفى لحيته وتركها تطول لتكون له - عند اللزوم - شفيعا يكذب التقارير .

ويتخذ غالب أهل الخليج لحية وسطية ، أى غير مكتملة من الجانبين ، وذلك لتمييزوا عن أصحاب اللحي فى دول مجاورة ، فاللحية ذات الخواص الخاصة هنا تعبر عن انتماء وطنى .

وانشرت اللحي بين عدد كبير من المصريين العائدين مؤخرا من شبه الجزيرة العربية ، وكان ذلك فى جانب منه لأسباب اقتصادية ، فقد ارتبط فى شعورهم - أو لا شعورهم - الثراء المادى باللحية ، وهذا من قبيل الربط بين أمرين لا صلة بينهما فى الواقع .

منهجان فى كتابة التاريخ

سنقارن هنا بين نموذجين من نماذج الكتابة التاريخية ، أحدهما لأستاذ مصرى فاضل أتىح له من المصادر ما لم يتح لغيره ، وثانيهما النموذج الذى قدمه لنا ونتر مؤلف هذا الكتاب ، ولتكون المقارنة ذات دلالة ، لابد من اختيار موضوع واحد تناوله كل منهما . فليكن هذا الموضوع هو « العلماء » والمقصود طبعا علماء الأزهر وطلبته .

فنحن نجد المؤرخ المصرى يكتفى بالوصف الظاهرى أو الخارجى ، وسنورد هنا كل ما أورده :

كان علماء الأزهر وطلابه فئة اجتماعية لها مكانة متميزة ، فالأزهر مركز التعليم الإسلامى بمذاهبه المختلفة ، وهو منبع الحياة الفكرية فى مصر ، والمركز الأول فى العالم الإسلامى الذى له مكانة متميزة ، وكانت أروقته تضم طلابا من مختلف أرجاء العالم الإسلامى ، وكانت السلطات العثمانية والملوكية تعترف لرجال الأزهر بمكانتهم ، وتعتبرهم زعامة شعبية يخشى جانبها ، وقد أدرك عامة الناس والتجار والحرفيون هذه المكانة وتلك الزعامة ، فكانوا يلجأون الى الأزهر ، كلما اشتد بهم الجال ، فيذكر مصدر معاصر أنه بسبب غش العملة « ضاعت رساميل الخلق ، واشتد الحال على الناس ، وزاد الكرب ، فاجتمع أهل الأسواق ، ودخلوا الجامع الأزهر ، وشكوا أمرهم الى العلماء ، وألزمهم بالركوب الى حضرة الوزير ، فى شأن ذلك الأمر ، فركب الشيخ محمد النشترى ، وركب خلفه جميع العلماء ، وتوجهوا الى الديوان ، وأفهموه على القضية ، وتضرر الناس » فعقد الباشا الديوان ، ووضع الديوان حدا لهذه الأزمة التى ألت بأهل القاهرة ، وكان ذلك يوم السبت ٤ شوال ١١١٤ هـ / ٢١ فبراير ١٧٠٣ م .

واستمرت معاونة العلماء للعامّة واستعمال نفوذهم ، طوال فترة القرن الثامن عشر ، التى اشتعلت بالصراعات الملوكية ، وكثرة تعدى الأمراء المماليك على أموال وأحياء القاهرة ، ففى ربيع الأول ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٦ م ، وقع تعد من حسين بك على أهل الحسينية ، فذهب أهل الحسينية « الى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامّة والجعيدية وبأيديهم نبايت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير ، فونسهم وساعدهم وقال لهم أنا معكم ، فخرجوا من نواحي الجامع ، وقفلوا أبوابه وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات ،

يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا بالأسواق فى حالة منكرة وأغلقوا الحيوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير ، فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ، ومصر القديمة ، وأركب معكم ونههب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء ، أو ينصرنا الله عليهم ، فلما كان بعد المغرب حضر سليم أغا مستحفظات ، ومحمد كتخدا أنزؤود الجلفى كتخدا ابراهيم بك وجلسوا فى الغورية ، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه من تضاعف الحال ، وقالوا للشيخ اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ، ونأتى بها من محل ما تكون ، وانفقوا على ذلك ، وقرأوا الفاتحة وانصرفوا » .

هكذا استطاع شيخ من شيوخ الأزهر أن يضع حدا لصلف المماليك وطغيانهم واستطاع أن يجبرهم أن يردوا ما نهبه حسين بك ورجاله من أهل حى الحسينية . والأمثلة كثيرة على وقوف علماء الأزهر فى وجه أى ظلم أو عدوان كان يحدث على السكان ، وأصبح علماء الأزهر خلال العصر العثمانى ، القوة التى تمثل رأى العام ، وتطالب برفع المظالم عنهم ، بطيب قلب وانشراح صدر ، وأصبحت لهم مكاتهم الاجتماعية المتميزة التى يجلبها العامة ، ويقرها الحكام ، وأصبحوا شريحة ذات مكانة من شرائح مجتمع القاهرة .

فالمعانى الأساسية فى النص لا تخرج عما يلى :

- الأزهر كانت له مكانة كبيرة .
- كان يضم طلابا من جنسيات مختلفة .
- معاونة العلماء للعامة . (وأمثلة على ذلك) .

ولنقارن هذه الطريقة فى التناول التاريخى بما يطالعه القارىء فى كتاب ونتر هذا عن الأزهر وعلمائه اذ نفهم ما يلى :

- « من الأمور التى لها دلالتها أنه لم يوجد واحد قط من مشايخ الأزهر فى القرن الثامن عشر (بل والتاسع عشر) من مواليد القاهرة ، بل كانوا جميعا من قرى مصر » اذن لقد كان الأزهر نافذة أطل من خلالها أهل البلاد الأصليون (الفلاحون) على الحياة العامة ، أو ظهروا من خلالها على سطح التاريخ ، وكان من الطبيعى - رغم كونهم علماء - أن ينظر اليهم - أحيانا - الانكشارية (المستحفظان) أو العربان أو التفكجية أو الجركس . . الخ كعنصر مختلف لا يحول بينهم وبين احتقارهم سوى

العلم الدينى ٠٠ وكان من الطبيعى أيضا أن يحس بعض علماء الأزهر (الفلاحين) بشئ من الدونية أمام العناصر الأخرى التى أشرنا إليها آنفا ، ولم يحل بين نمو هذا المنحى الدونى أيضا سوى العلم الدينى الذى يحملونه ٠ يقول ونتر : « فبعض العلماء كانوا يخجلون من أصولهم الريفية ويحاولون إخفاءها ، ومن ناحية أخرى حافظ الآخرون على صلاتهم بقراهم مدى الحياة (بلدياتهم) حتى بعد أن تكون أسماءهم قد لمعت فى العاصمة ، وكانوا يسافرون الى قراهم مرة أو مرتين فى العام ويصدرون الفتاوى للقرويين ويبرمون عقود الزواج ويفضون المنازعات ٠٠ الخ ٠٠ » فكلمة الأزهريين اذن مرادفة - الى حد ما - للفلاحين ، وعندما نقول قام طلبة الأزهر وعلماءه بكذا أو بكذا فكأنما نقول قام الفلاحون أو أولاد الفلاحين بكذا وكذا ٠٠ ومعنى هذا أن الأزهر الشريف رغم أنه قد دخله بعد ذلك عدد من أهل المدن من أصول أولاد الناس ، ومن المغاربة وغيرهم يمثل فى حقيقة الأمر التراث الفلاحى ، وربما ظل الأمر كذلك الى حد ما حتى الآن ، وربما أيضا يفسر لنا هذا العلاقة الحميمة بين الكنيسة القبطية والأزهر ، فكلاهما من عناصر فلاحية ، انها نتيجة منطقية وحقيقته تاريخية اذن ألا نجد أزهريا واحدا متورطا فى عمليات الارهاب التى استهدفت أقباط مصر ، كما أن الاتجاه الغالب فى الأزهر هو محاولة تطوير الطرق الصوفية وتخليصها من البدع التى تخالف الدين صراحة ، لا مواجهتها وتحديها ٠ بل لقد كان أحد مشايخ الأزهر فى الفترة الأخيرة صوفيا ، وكان له لحية كريمة ذات شعبتين ، وكان فى طريقة دعوته ومظهره العام وتركيزه على الكرامات والمعجزات لا يختلف عن أى بابا من باباوات الكنيسة القبطية ٠

- ويستعرض ونتر الأعراف التى كانت موجودة فى الأزهر من خلال الأروقة ، رواق الأتراك ، رواق المغاربة ، رواق الصاعدة ٠٠ الخ وهذا أمر معتاد كما يشير الى الخلافات والنزاعات العرقية ، وهذا أمر مفهوم ، لكنه يضيف الى ذلك بعدا جديدا عميقا وهو أن المذهب الشافعى (مذهب الفلاحين خاصة) كان له السيادة ، وأن صراعا بدأ ينشب بشكل صارخ بين الشافعية ، والأحناف ، واعتبر ذلك تعبيرا عن الوطنية المصرية بشكل مبكر ، لكنه يعود فيورد وقائع تاريخية تؤكد أن النزعة الى دولة الاسلام تغلبت فى النهاية على الوطنية بمفهومها الوطنى (المصرية) ٠٠ ولنورد أفكاره المعبرة عن هذا هنا :

« وقد أخبر الشيخ العريشى ابراهيم بك شيخ البلد أن الشيخ الدمنهورى - شيخ الأزهر - رشحه وهو فى فراش مرضه نائبا له ، ونال

العريشى تأييد الأمراء والشيخ السادات من زعماء الصوفية ، فعينه الأمراء شيخاً للأزهر (أى عينوا العريشى الحنفى مذهبه) ، فأغضب تعيين العريشى مؤسسة الأزهر التى يسيطر عليها الشافعية الذين اعتبروه مغامراً غريباً ، وقال العلماء ان منصب شيخ الأزهر حق للشافعية وليس من حق حنفى أن يطالب به ، ٠٠ وأرسل الشافعية بزعامه محمد ابن الجوهرى ، وهو شيخ وقور مستقل شكوى لابراهيم ومراد الحاكمين مطالبين بتعيين الشيخ أحمد العروسى الشافعى بدلا من العريشى . الا أن البكوات الذين كانوا عادة يترددون فى أن يساقوا الى خلافات العلماء . اعتبروا الشكوى تحديا لسلطتهم ، فقال ابراهيم بك : من المستحيل أن يغير الصغار ما فعله الكبار ، واعتبر أن الاعتراض على تعيين حنفى شيخاً للأزهر شئ غير منصف وغير اسلامى وقال : أليس الأحناف مسلمين ؟ أليس هذا هو أقدم مذهب ؟ وأليس الأمراء والقاضى بأحناف ؟ أليس السلطان نفسه حنفيا ؟ ٠٠ وبدت حجة ابراهيم بك معقولة ومنصفة ٠٠ ويجب أن نكرر أن الطبقة الحاكمة سواء من العثمانيين أو المماليك لم تفرض أبداً مرشحاً من مذهبها على الأزهر ، ويستطرد وتتر ذاكراً ما يفيد أن المذهب الشافعى ارتبط كثيراً بأهل البلاد الأصليين ، وبدوى الأصول الفلاحية أو القروية على نحو خاص فيواصل قائلا : « وذهب العلماء الى ضريح الامام الشافعى ليلة الجمعة وقضوا الليلة هناك . ان مثل هذه الزيارة المنظمة الى ضريح الولى وصلت الى حد المظاهرة بين علماء الشافعية ومؤيديهم من غير العلماء ٠٠ وكان المتحدث عن العلماء هو الشيخ محمد بن الجوهرى ٠٠ الذى كان يحظى باحترام الأمراء لأنه على النقيض من غيره من العلماء لم يسع إلى صحبتهم ولم يطمع فى هباتهم ٠٠ أخبر الشيخ الجوهرى مراد بك « باسم الامام الشافعى سيد البلاد ٠٠٠٠ » .

الشيء الطريف أن المصادر التى رجع اليها وتتر هى نفسها التى رجع لها غيره ممن اکتفوا ، بالوصف الظاهرى وهو الاتجاه السائد لدى المؤرخين الجامعيين المصريين ، وهو اتجاه مطلوب ولا أحد يقلل من شأنه لكنه اتجاه وثائقى أو أثرى وليس هو التاريخ ، وانما تبدأ من عنده مهمة المؤرخ ، ولا تنتهى اليه .

— وكما حدثنا وتتر عن أبعاد المذهب الشافعى ، وأبعاد المذهب الحنفى الذى كان ينظر اليه كمذهب للحكام (الترك والمماليك) ، يحدثنا أيضاً عن ارتباط المذهب المالكي بأهل المغرب فى مصر ، ونفهم أن كثيرين من المغاربة كانوا قد أصبحوا من سكان الريف المصرى الى جانب من سكن

منهم في القاهرة ، بالإضافة للبدو المغاربة (العربان) في الصحراء الغربية وفي ضواحي القاهرة أيضا ، وكان بعض شيوخ الأزهر الأوائل فلاحين مستقرين (من أصول مغربية) قدموا من ريف مصر والتحقوا بالأزهر . . . لكن بمرور الوقت كانت السيادة العددية للشافعية خاصة منذ أصبح الشيخ العروسي شيخا للأزهر بلا منازع ، وهذا يعني سيادة العناصر الفلاحية أو الريفية من القبط المسلمين . . . وفي ظل هذه المعلومات نفهم أن الجبرتي رغم عدم احترامه للشيخ الشرقاوي (ت ١٨١٢ م) لأمور أوردها ، ذكر أنه - أي الشيخ الشرقاوي - كان يدافع عن حقوق الفلاحين ضد غبن الأهرء ، لكن دفاعه على أية حال كان دفاعا هادئا أو لنقل شافعيا .

ويذكر ونتر أن المغاربة في الأزهر (وكذلك الشوام) كانوا يتسمون بالعدوانية الشديدة ولم يكونوا مسالمين كالشافعية ، فقد منع بعض المغاربة الشيخ العروسي شيخ الأزهر من دخول المسجد واحتجوزه للمطالبة بمخصصاتهم . . . وفي سنة ١٧٧٢ ، طالب المغاربة بأملك وقف فقام نزاع بينهم وبين يوسف بك ، فوقف الشيخ دردير الزعيم المالكي الشهير بتصلب الرأي الى جانب المغاربة ضد يوسف بك (مالكي في هذه الفترة تعنى أنه غالبا مغربي) وحدث صدام قتل فيه بعض المغاربة وجرح آخرون ، وتدخل اسماعيل بك لانتهاء النزاع والحقيقة أن الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (*) يعطينا صورة وثائقية لسطوة العنصر المغربي وأماكن تمركزهم على الخريطة المصرية (الفيوم ، امبابة ، بعض مناطق الوادي . . . الخ) ، وهو يورد لنا هذه المرة تحليلا رائعا يفسر سبب تمرد المغاربة المصريين (أي المصريين من أصل مغربي) في عهد الدولة العثمانية بينما لم يتمردوا على هذا النحو العنيف في عهد الحكم المملوكي المباشر ، وهو بذلك يقدم لنا دليلا قويا على الدور الحضاري المهم الذي حاولت الدولة العثمانية أن تلعبه في تنظيم ولاياتها ، لكنها لم تستمر فيه للنهاية وتركت النظم المحلية تتصرف في أمور البلاد الداخلية ووجهت همها للقوى الخارجية .

« سار العثمانيون ، بعد بسط نفوذهم على البلاد العربية ، على سياسة كان اطارها العام قائما على عدم تعقيد الأمور ، طالما ظلت هذه البلاد تقدم الخزينة المطلوبة منها سنويا ، وجريا على هذه السياسة

(*) في كتابه فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ،

فان العثمانيين ، لم يحاولوا طوال فترة حكمهم ، وضع عوائق أمام انتقال الأفراد من بلد عربى الى آخر ، ولم تعرف البلدان العربية ، التى خضعت للحكم العثمانى ، الحدود السياسية ، بالمعنى المعروف لنا الآن ، ولذا فان كثيرا من الأفراد كانوا ينتقلون من بلد عربى الى آخر ، ويشتملون فى البلد الذى ينتقلون اليه بالمهنة التى يريدونها ويرغبون فيها ، ما دامت قدراتهم الفنية تمكنهم من الاشتغال بهذه المهنة . وقد أتاحت هذه السياسة الفرصة لكثير من المغاربة ، أن يستقروا فى مصر ، وان كان استقرار بعض المغاربة فى مصر سابقا للوجود العثمانى فى البلدان العربية ، ولكن الوجود المغربى ازداد فى بلدان المشرق العربى فى العصر العثمانى بصورة عامة وفى مصر بصورة خاصة لأسباب كثيرة ، سوف تبرزها هذه الدراسة فى حينها ، هذا بالإضافة الى وجود بعض قبائل العربان المغاربة التى أتت الى مصر فى فترات مختلفة ، وكانت تتجول فى ريف مصر وقراه ، حتى أصبحت تشكل قوة تخشاهما السلطة وتعمل على محاربتها ، كما سنرى فيما بعد ، وقد أتاحت لها نظام الحكم العثمانى أن تلعب دورا بارزا فى أحداث تاريخ مصر فى تلك الفترة ، فى مختلف جوانبه السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، وهذا ما سوف تحاول هذه الدراسة أن تبرزه .

أولا : دور المغاربة فى الحياة السياسية المصرية

سبقت الإشارة الى أن استقرار المغاربة فى مصر ، كان سابقا للفتح العثمانى ، ويتضح من أقوال المصادر المعاصرة أنه كان لهم تأثيرهم ومكانتهم فى داخل المجتمع المصرى ، وقد شاركوا فى محاولة صد العثمانيين عن مصر ، حيث يذكر مصدر معاصر أن التجريدة التى أعدها السلطان طومان باى لملاقاة السلطان سليم ، كان يتقدمها نحو مائتين من الرماة والتركان والمغاربة ، ولذا فان السلطان سليم لم يستطع أن يتناسى المغاربة حينما أراد تفسير بعض الفئآت من مصر الى استانبول ، فكان من بين الفئآت التى وقع عليها اختياره « أعيان تجار المغاربة » ومن الذين سافروا من تجار المغاربة « الشيخ سالم ، وسعيد التاجورى ، وسعيد اللبدي وأبو سعيدة وآخرون » ويستفاد من هذه الأقوال صراحة ، مشاركة المغاربة فى أحداث الحياة السياسية فقد وقفوا يدافعون عن مصر ، وتعرض التجار المغاربة - وكان التجار فى ذلك العصر يلعبون دورا بارزا فى الحياة السياسية - الى ما تعرض له غيرهم من طوائف المجتمع المصرى ، على يد السلطات العثمانية فى بداية الحكم العثمانى . ولكن الدور السياسى البارز الذى لعبه المغاربة فى الحياة السياسية المصرية فى العصر

العثماني يبرز بصورة واضحة فيما قامت به قبائل العربان المغاربة التي كانت تنتشر في أرجاء البلاد شمالها وجنوبها ، وبصورة خاصة منذ القرن السابع عشر حينما بدأ النفوذ العثماني يصاب بشيء من الضعف ، نتيجة لبروز العنصر المملوكي على مسرح الحياة السياسية المصرية ، واستئثار الأمراء المماليك بمعظم المناصب الادارية ، وبسط نفوذهم على الحامية العثمانية ذاتها ، منذ ذلك الوقت ازداد نفوذ عربان المغاربة في مصر ، وقاموا بكثير من الأعمال السلبية التي سببت ازعاجا لسلطات القاهرة ، فتذكر المصادر المعاصرة أن أحمد باشا والي مصر في عام ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م ، جرد حملتين على رأس كل منهما صنجق احدهما الى البحيرة في الدلتا ، والاخرى الى البهنسا بالصعيد ، لمحاربة عربان ابن وافى المغاربة ، ويبدو من أقوال هذه المصادر ان هاتين الحملتين رغم ما بذلتاه من جهود لكسر شوكة هؤلاء العربان ، فانهما لم تستطعا تحقيق الهدف المراد منهما ، لذا فاننا نجد الباشا يرسل خلفهما قوة ضخمة أخرى تتضح ضخامتها مما تذكره المصادر من انه كان على رأسها « اسماعيل بيك وجميع الكشاف وكتخدا الباشا ، وأغوات البلكات ، وكتخدا الجاويشية ، وبعض اختيارية وحاربوا ابن وافى وعربانه مرارا ، ثم وقعت بينهم وقعة كبيرة فهزم فيها الأحزاب ، وولوا منهزمين نحو الفرق » ، ويبدو أن هذه الجهود الحربية التي بذلتها سلطات القاهرة ، لم تستطع القضاء على نفوذ العربان المغاربة وعيبتهم بالحياة في ريف مصر ، مما سبب كثيرا من الاضطراب للسلطة في القاهرة ، حتى وصل أمر عصيان عربان المغاربة للسلطة السياسية في مصر ، الى السلطات السياسية العليا في استانبول ، فاضطرت سلطاتها في ١١١٠ هـ / ١٦٩٩ م ، أن تصدر مرسوما الى حسين باشا واليها في القاهرة بأن يعمل جادا في القضاء على « عبد الله بن وافى » المغربي بجهة قبلي ، ومن معه من العربان واجلائهم عن البلاد ، وتنفيذا لهذا الأمر جمع حسين باشا الأمراء والأغوات ، وناقشهم في أمر عربان المغاربة ، وأعمالهم التي باتت تحرك سلطات الدولة العثمانية في استانبول ، فاتفق رأى هذا الجمع على « اخراج تجريدة ، وأميرها ايواظ بيك ، وصحبته ألف نفر من الوجاقات » ، ويبدو أن مقاومة عربان ابن وافى وأنصاره لهذه التجريدة كانت عنيفة ، مما اضطر ايواظ بيك أن « يطلب المدد لكثرة جموع العربان ، فعمل الباشا ديوانا ، واتخذوا قرارا بارسال نجدة مكونة من خمسة من الأمراء الصناجق ، وأغوات الاسباهية الثلاثة وأتباعهم وأنفارهم ، فتهيئوا للسفر ، ونزلوا الجيزة ، وأقاموا أياما ثم ورد لهم الخبر بأن ايواظ بيك يحارب

مع العربان وهزمهم ، وفروا الى الوجه البحرى من طريق الجبل ورجع
الأمراء الى مصر » .

« . . . ومع كل هذه المطاردات المتصلة ضد عربان المغاربة ، فانهم لم يستكينوا لسلطات القاهرة السياسية ، بل ظلوا يسببون لها الازعاج ، وعدم الاستقرار ، بصورة مستمرة ، وهذا ما لم يحدث منهم فى العصر المملوكى ، مما يدعو الى التساؤل ، ما اللوائح التى دفعتهم للقيام بمثل هذه الأعمال ضد السلطات العثمانية - المملوكية فى الفترة موضوع البحث ربما كانت الاجابة عن هذا التساؤل ترجع الى أن هذه السلطات حاولت منذ بدء عهدها ان تضع حجرا على حركة العربان عموما والحد من امتيازاتهم التى حصلوا عليها فى ريف مصر ، حيث نجد أن قانون نامه مصر ، الذى صدر فى عهد السلطان سليمان بن سليم تضمن فصلا عن أحوال العربان يشمل المواد ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، من مواد هذا القانون هى فى مضمونها عبارة عن قيود والتزامات على العربان وشيوخهم ، ونص انه يجب على الكشاف « ان يوقعوا عليهم الجزاء دون خوف بعد الرجوع الى أمير الأمراء وناظر الأموال ، وهذا الأسلوب لم يألفه العربان من قبل فى العهد المملوكى هذا بالاضافة الى ان نظام ادارة الأراضى الزراعية الذى سار عليه العثمانيون - سواء كان نظام المقاطعات ، أو ما عرف بنظام الأمانات ، أو نظام الالتزام - مكن الأمراء المماليك ورجال الحماية العثمانية من معظم الأراضى المصرية ، وأوجد حجرا على معظم امتيازات العربان ، مما جعل العربان عموما بمن فيهم عربان المغاربة يقفون موقف المقاومة من سلطات القاهرة ، ويشاركون فى كل الحركات المضادة لها ، والهادفة الى اضعافها » .

ونظرا لشدة بأس البدو المغاربة كان البكوات المماليك يستعينون بهم فى كثير من الأحيان بدلا من مقاومتهم ، مخالفين بذلك أوامر الباب العالى ، وانتهى الأمر بما يشبه التحالف بين البكوات والبدو فى حالات كثيرة ؛ مما يفسر ما لعبه هؤلاء المغاربة البدو فى الحياة الاقتصادية بعد ذلك كما يتضح من هذا التقرير للمؤلف نفسه :

« ان الدور الذى لعبه المغاربة فى الحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ، لا يقل أهمية عن دورهم فى الحياة السياسية ، وان تميز بأنه كان دورا ايجابيا وذا فاعلية ، نتيجة للنفع الاقتصادى الذى عاد على المجتمع المصرى من وراء هذا النشاط الاقتصادى عن طريق نشاط

المغاربة التجارى داخل مصر أو نتيجة للمتاجرة بين مصر وبلاد المغرب العربى ٠٠٠٠ ووثائق العصر التى لا يمكن حصرها فى مثل هذه الدراسة تزخر بالأسانيد التى تثبت فاعلية هذا الدور وأثره على الحياة الاقتصادية المصرية (٣٠ مكرر) ، فقد اشتمغل المغاربة بالمتاجرة فى جميع أنواع السلع التى كانت رائجة ، وتمثل عصب الاقتصاد فى ذلك العصر ، وبخاصة تجارة عصر الزيوت ، حتى ان المتتبع للوثائق الخاصة بالتجار الذين كانوا يمارسون نشاطهم بوكالة الزيت ببولاى ، يكاد يجزم بأن هذه التجارة كانت حكرًا على المغاربة فقلما يعثر على تاجر يعمل بهذه التجارة غير مغربى ، وبخاصة أهل تونس وطرابلس الغرب ، وربما كان تعليل هذه الظاهرة يعود لجودة نمو أشجار الزيتون ببلاد المغرب العربى ، وعلى وجه الخصوص تونس التى أصبحت تعرف لدى الشعب المصرى عامة باسم « تونس الخضراء » ، وأيضًا فان اشتغال المغاربة بتجارة البن يمثل على ضخامة الثروة التى تكونت لدى معظمهم ، لأن هذه التجارة فى تلك الفترة كانت من التجارات المربحة ، وكان الذين يعملون بها من أصحاب رؤوس الأموال الضخمة لما تحتاجه من عمليات استيراد وإيجاد وكلاء لهم فى موانئ البحر الأحمر ، وبخاصة ميناء مأجدة » .

ولا شك أن الأخ ابراهيم محمد ابراهيم قد بذل جهدًا طيبًا فى نقل هذا الكتاب الى العربية ، وأدى به حرصه على دقة المعنى الى التسامح قليلا فى جمال الأسلوب ، فالمؤلف قد أكثر من الجمل الاعترافية ، وكانت جملة فى غالبها طويلة مركبة ، لكن الأخ ابراهيم ظل يندق النص دقا ويبدأ حتى فك مغاليقه ، كما اجتاز بنجاح عقبة مصطلحات العصر فأتى كتابه مقبولًا نرجو أن يحقق غرضه ، فقد أطال ابراهيم الدق حتى أخرجه سويًا ، فالرجل اذن دقاق - بتشديد القاف وفتحها ، نرجو أن يمد المكتبة العربية بمزيد من الترجمات .

وعلى الله قصد السبيل .

د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ

بالنسبة للفترة المملوكية اذا ما قورنت بالفترة العثمانية . ومع ذلك ، تعد دراسة تاريخ مصر العثمانية مهمة مثيرة للتحدي . فبالنسبة لهذه القرون الثلاثة ، لدينا مصادر أرشيفية تركية وعربية وأوربية (فرنسية بصفة رئيسية) - ومثل هذه المصادر - غائبة كلية تقريبا - بالنسبة لزمن المماليك .

ان روايات الرحلات التي تصف مصر العثمانية والتي كتبها رحالة أتراك وأوربيون وآخرون من شمال أفريقية تتفوق من حيث الكم والكيف على ما يوجد عن السلطنة المملوكية .

وتعتبر دراسة التاريخ الاجتماعى لمصر العثمانية دراسة جذابة من وجهة نظر أخرى . اذ افتتن المؤرخون بتفرد الظاهرة المملوكية . لقد كانت هذه الظاهرة غير انسانية من بعض النواحي (مثلا كان المماليك يحرمون من فرصة توريث ممتلكاتهم وامتيازاتهم لأبنائهم) ، غير أن هذه الظاهرة زودت الاسلام بقوة عسكرية رائعة ونظام سياسى راق . فكان النظام الاجتماعى فى الدولة المملوكية صارما وقائما على بناء هرمى . غير أن المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى كان أكثر مرونة (*) : اذ صارت الخطوط الحادة التى تفصل النخبة المملوكية عن شرائح المجتمع الأخرى ، خاصة داخل الجيش أقل تميزا .

وابتداء من أواخر القرن السادس عشر ، حين ضعفت قبضة اسطنبول على الولاية (مصر) ، يستطيع المرء أن يتكلم عن وجود حراك اجتماعى أكثر وضوحا : فقد ظهرت فى الصدارة عناصر اجتماعية محلية مثل العرب البدو ، وعلماء الدين والصوفية ، والأشراف محققين نفوذا وسلطة الى درجة لم يكن من الممكن حدوثها تحت حكم السلاطين المماليك . لذا ، فان

(*) تحليل فى منتهى الخطورة ، ولا نتفق معه إطلاقا ، وان كان المقصود بصرامة النظام العسكرى المملوكى انه حقق بعض الانتصارات العسكرية ، ففى ظل الدولة العثمانية - وكان جانب كبير من نظمها ذا طابع مملوكى أيضا - تم فتح شرق أوربا كله ، بالإضافة لمناطق أخرى . وقد تعرضنا لهذه النقطة بالتفصيل فى المقدمة التى كتبناها لهذا الكتاب - (المراجع) .

البنى الاجتماعية الصارمة تزود مؤرخى مصر العثمانية باطار ملائم للمقارنة (*) .

كما سبق أن قلنا ، كانت مصر العثمانية ، مجالاً للدراسة طال اهماله . وبدأ الاهتمام به ينمو مع التقدم الهائل الحديث الذى أحدثته الدراسات العثمانية بصفة عامة . ذلك أن الاستخدام الموسع للمحفوظات العثمانية ابتدأ بدراسات عن مصر العثمانية قام بها ستانفورد ج . شو Stanford J. Shaw ، فتحت آفاقاً جديدة للبحث .

يجب دراسة مصر بين القرنين السادس عشر والسابع عشر (وفى القرن الثامن عشر أيضاً) من حيث خلفيتها العثمانية ، آخذين فى الاعتبار ، الملامح الخاصة للتاريخ والمجتمع المصرى .

وليست القرون الثلاثة للحكم العثمانى فى مصر ، أيضاً موثقة بدرجة واحدة توثيقاً جيداً ولم يكتب عنها ما يكفى من الحوليات : فهناك الكثير مما يعرف عن القرن الثامن عشر أكثر مما يعرف عن المائتى سنة السابقة . فبالنسبة للقرن الثامن عشر ، توجد عدة دراسات أساسية : منها عمل أ . ريمون Raymond عن القاهرة ، ومقالات د . أيلون Ayalon التى يقارن فيها بين المجتمع العسكرى المملوكى فى ظل الدولة العثمانية بنفس المجتمع تحت حكم السلاطين المماليك . وكتاب ب . جران Gran عن الحياة الاجتماعية والفكرية ، ودراسة كريسيلىوس Crecelius عن عهدى على بك الكبير ، ومحمد بك أبو الذهب . وهذان الحاكمان من الحكام المماليك البارزين ، وكذلك دراسة عبد الرحيم عبد الرحمن عن الريف .

وهناك حاجة الى القيام بمزيد من الدراسة للقرنين السادس عشر والسابع عشر، رغم أن ب . م . هولت P. M. Holt قد درس النخبة العسكرية فى القرن السابع عشر كما وصف ج . ه . النحال النظام القضائى .

وآمل فى أن يسهم الكتاب الحالى فى البحث فى التاريخ الاجتماعى لمصر العثمانية ، عن طريق تقديم ما توصلت اليه من خلال المحفوظات

(*) والعبارة أيضاً تعنى أن البنى الاجتماعية العثمانية هى - الى حد ما - بنى مملوكية ، فالفارق فى الدرجة وليس فى النوع - (المرجع) .

والحوليات وغير ذلك من المصادر ، واثقا في أنه سيكون من المفهوم أن كتابتي عن الفترة المتأخرة تعتمد على الأسس الصلبة التي وضعها دأرسون آخرون ، بينما في الفترة المبكرة ، كانت هناك حاجة كبيرة الى التنقيب عن الأصداف قبل أن تظهر الخطوط العريضة لتاريخ مصر الاجتماعى بصورة أوضح .

وتحاول هذه الدراسة أن تتبّع تطور التكوينات الاجتماعية الأساسية عبر تلك الفترة ، وذلك بوصف التغيرات وتفسيرها . وانى على علم تام بمزالق هذا المنهج . ذلك أن الفترة الزمنية التي يغطيها هذا الكتاب من الطول بحيث تقتل الموضوع أو تستنفده . والمعلومات المتاحة فى غالب الأحيان نادرة ، وغير كاملة ، بل وأحيانا مشتتة وغير مترابطة . ولقد حددت طبيعة المعلومات والمصادر ، الطريقة التي تم بها تناول كل مبحث . وتعد الوثائق الأرشيفية هي المصادر الرئيسية بالنسبة لبعض التكوينات الاجتماعية مثل الجيش والعرب والبدو واليهود . ومن ناحية أخرى ، كان من الضروري الاعتماد فقط تقريبا على الحوليات وكتب التراجم لمثل تلك المباحث التي تتناول العلماء والصوفية والأشراف . ان الوضع المثالى - الذى تكمل فيه الوثائق الرسمية ، والحوليات وحكايات الرحلات سردنا التاريخى - لا يظهر كثيرا بكل أسف . فمعظم المحفوظات فى اسطنبول . وهذه بها نقاط القوة ، وكذلك نقاط الضعف التي توجد فى الوثائق الرسمية التي تصدرها ادارة مركزية مسئولة عن احدى الولايات . وكذلك الحوليات التي قام مصريون بكتابتها باللغة العربية أو التركية فانها تمثل النظرة المحلية للأحداث والشخصيات .

لم أتمكن من تخصيص فصل منفصل للطبقة الاجتماعية التي تشكل غالبية سكان مصر فى الفترة العثمانية ، وأعنى بها طبقة الفلاحين . ذلك أن تناول هذا الموضوع بأى قدر عادل كان سيتطلب المزيد من المعلومات أكثر مما هو متاح لدى فى الوقت الحاضر .

الفصل الاول

خلفية تاريخية

السلطنة المملوكية (١٢٥٠ - ١٥١٧)

بعد فترة طويلة من الانحدار والسلبية تحت حكم الخلفاء الفاطميين الأواخر ، أصبحت مصر ، مرة أخرى ، مركزا لدولة قوية يحكمها صلاح الدين وخلفاؤه من الأيوبيين (١١٧١ - ١٢٥٠) .

وتجمعت حول مصر امارات الشام والعراق التي يحكم كلا منها حاكم من الأسرة الأيوبية ، وكان هؤلاء الحكام يعترفون عادة بحاكم مصر باعتباره سلطانا عليهم لما لمصر من موارد اقتصادية ووضع جيوبوليتيكي مهم .

وكان الصليبيون يتحرشون بالدولة الأيوبية ، وكانوا ما يزالون يتشبثون بعناد بسواحل الشام وفلسطين كما كان يأتيهم ، من آن لآخر ، دعم من الخارج بالرغم مما اعتراهم من الضعف الشديد بسبب الهزيمة الساحقة التي ألحقتها بهم قوات صلاح الدين في حطين بفلسطين عام ١١٨٧ م .

وحين أدرك المسيحيون أن الجهود يجب أن توجه نحو مصر وليس الشام ، قاموا بشن هجومين كبيرين ضد مصر (١٢١٩ - ١٢٤٩) وفشل هذان الهجومان ، غير أن هزيمة الصليبيين لم تكن أمرا سهلا .

فقد أدى موت الملك الصالح نجم الدين أيوب آخر السلاطين الأيوبيين للمهين أثناء المعركة مع لويس التاسع الى حدوث أزمة في الدولة .

وبعد أن استولى الفرنجة على ميناء دمياط في ١٢٤٩ ، توجهوا نحو المنصورة ، التي تقع على بعد خمسين ميلا الى الجنوب ، حيث هزمهم المسلمون بالاعتماد على قوات الملك الصالح التي تسمى المماليك البحرية ، (فبراير ١٢٥٠) . فمهد هذا النصر الطريق أمام المماليك لاغتصاب السلطة وانشاء سلطنتهم ، التي دامت قرنين ونصف قرن .

ولقد كانت دولة المماليك كيانا سياسيا فريدا من نوعه (١) فلم تكن بصفة عامة تحت حكم احدى الأسر الحاكمة ، وانما تحت حكم أقلية من الجند ، أو المماليك ، أو العبيد العسكر الذين نالوا حريتهم . وكان المماليك عبيدا بيض البشرة تم شراؤهم وتربيتهم ثم تدريبهم كصفوة عسكرية . ولقد ولدوا خارج نطاق سلطان الاسلام ، عادة في سهول أوراسيا الشاسعة شمال بلاد الاسلام أو في القوقاز لوالدين غير مسلمين يفضل أن يكونوا من سلالة تركية ، وكانوا يستجلبون وهم ما يزالون صبية ، أو مراهقين عن طريق النخاسين (تجار الرقيق) . وكان نظام استخدام الرقيق للأغراض العسكرية يمارس منذ أزمئة مبكرة في العصر الاسلامي ، وتوطدت أركانه أثناء حكم الخليفة العباسي المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) ، ثم انتشر في جميع أنحاء أرض الاسلام .

ولقد اشترى الملك الصالح المماليك بأعداد كبيرة ، وهي سياسة مهدت لاستيلاء المماليك على الدولة بشكل نهائي . وكانت ظاهرة جلوس العبيد السابقين في أماكن سادتهم غير مسبوقه ؛ لذا كان وضعهم غير مقنن شرعا . اذ كانوا في حاجة الى اضافة الشرعية على حكمهم وأن يزيلوا بقايا الأيوبيين . وسنحت لهم الفرصة حين دحروا المغول الذين كانوا يبدون في حالة من المنعة في عين جالوت ، بفلسطين (١٢٦٠) ثم أحضر الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) الى القاهرة واحدا من سلالة الخلفاء العباسيين ببغداد ، بعد أن محيت هذه الأسرة تقريبا أثناء احتلال المغول للمدينة ببغداد ، في ١٢٥٨ ، وبذلك أضفى على حكمه هالة من الشرعية .

لقد كان بيبرس ، مؤسس السلطنة المملوكية حاكما قديرا وفريدا الى جانب كونه قائدا عسكريا . اذ حول مصر والشام والحجاز الى وحدة

مترابطة وأكثر قوة . وفيما بعد ، وضع هذا النظام حدا لوجود الفرنجة فى الشرق ، ورد المغول الى ما وراء نهر الفرات .

وتحت حماية الفرسان المماليك المهرة ، شيدت السلطنة الجديدة حياة اجتماعية دينية قائمة على مبادئ المذهب السننى المحافظ وبذلك استمرت فى سياسة الأيوبيين الدينية . فرعت العلم وقامت بحماية قافلة الحجيج السنوية الى مكة والمدينة كما أقامت آثارا رائعة فى المدن الرئيسية فى مصر والشام .

وكانت هذه الانجازات وغيرها تمول من عوائد الزراعة والتجارة الدولية وبصفة رئيسية تجارة التوابل الشرقية المربحة التى كانت تمر عبر السلطنة الى أوروبا .

وكان المماليك يميزون تمييزا حادا بين الحكام والمحكومين . فكانت السلطة السياسية لا تتركز سوى فى أيدي المماليك .

وأثناء النصف الأول للسلطنة (١٢٥٠ - ١٣٨٢) كان معظمهم من سلالة الكيبتشاك Quipchak التركية وبعد ذلك، حتى عام ١٧١٥، كانوا يأتون من القوقاز وكانوا من الشركس . وكانت المصادر العربية وسكان البلاد الأصليون من الناطقين بالعربية يطلقون عليهم المماليك الأتراك، سواء كانوا من الأتراك أو الشركس أو من أصول أخرى لأنهم جميعا كانت أسماءهم تركية ، كما كانوا يتكلمون بالتركية . ولقد أبعدها هذا التتريك المماليك عن محكوميههم ، الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية وأسماءهم عربية . وبالرغم من جميع هذه الفوارق بين المماليك ورعاياهم ، الا أن حكم المماليك كان ينظر اليه باعتباره كامل الشرعية بما أن المماليك كانوا مسلمين حريصين على الدين وأثبتوا قدرتهم على الدفاع عن الاسلام ، ويحافظون على الأمن الداخلى . وكان المماليك يعتنقون الاسلام ويتدربون كجند وينالون حريتهم . وكان أكثرهم موهبة وطموحا يشق طريقه الى أعلى البناء الهرمى فيصبح الواحد منهم ضابطا أو أمير عشرة رجال أو

وتجارا أثرياء وكتبة . ورغم حياة الرخاء التي كان يحيهاها هؤلاء ، وما يتمتعون به من نفوذ الا أن هؤلاء الوسطاء كانت تنقصهم القوة السياسية . فقد كان في مقدور سلطان قوى الارادة أن يلقي بأى ذى منصب عال فى غياهب السجن دون محاكمة حقيقية ، بل ويصادر ممتلكاته . ويروى أن أحد السلاطين بلغ به الغضب مداه عندما رفض قضاة المذاهب الأربعة الموافقة على اعدام موظف كبير لاتهامه بالزنا ، فأصدر أمرا بعزلهم جميعا وعين قضاة آخرين بدلا منهم .

وكان معظم الجهاز الادارى من المسلمين ، لكن هذا لم يمنع من أن المسيحيين واليهود قد لعبوا دورا حيويا كجامعى خراج وعشور ومراقبى حسابات وصرافين ومسئولين عن دور السك . وفى مقابل دفع ضريبة الرأس (الجزية أو الجوالى) (*) تتمتع هذه الأقليات (أهل الذمة) بالعيش فى أمان وممارسة شعائر دينهم دون اعتراض ، الا أنهم فى بعض الأحيان كانوا عرضة للاضطهاد والابتزاز .

وكان غالب السكان يعيشون فى قرى ومدن صغيرة وكانوا فلاحين يزرعون الأرض خصبة التربة فى وادى النيل . ويتعرض هؤلاء الفلاحون لضرائب باهظة لا ترحم كما يتعرضون لظلم فادح : ان ظروفهم المعيشية وما يتعرضون له من استغلال تعد أمرا مرعبا اذا قارنا أوضاعهم بأوضاع المسلمين المعاصرين أو الأوربيين . وتشكل القبائل العربية عنصرا مهما من سكان القرى والصحراء ، وثمة بعض البدو ، وأنصاف البدو يعيشون جانبا من العام فى القرى . وكان العرب ، وهو لفظ كان يشير فى ما قبل العصر الحديث الى البدو ، هم المجموعة الوحيدة بجانب الجيش التي كانت تتركب الخيول وتحمل السلاح .

وكانوا كثيرين ، ويشتهرون بالشجاعة وغالبا ما هبوا فى تمرد ضد الممالك . غير أنهم لم يشكلوا قط تهديدا جديا لسيطرة الممالك ، اذ كانوا يفتقرون الى الوحدة ، والانضباط والتدريب .

(*) الجوالى جمع جالية وهى مصطلح مملوكى ، وفى سنة ١٨٥٤ استخدم المصطلح التركى ويركو التي كانت تجبى من الشخص بصرف النظر عن دينه ، لكن الجوالى ظلت فى مصر خاصة لسيطرة ثقافة الممالك - (المراجع) .

وكان سكان المدن ، ونحن هنا نشير الى دمشق وحلب فى الشام ، والقاهرة التى كانت كل مدن مصر قرما الى جانبها ، كان سكان هذه المدن من الحرفيين وأصحاب محال التجارة ولم تكن لهم طوائف (نقابات) تحمى حقوق الأعضاء ومصالحهم ، ولم يكن يحد من جشع الأمير أو استغلال طبقات سكان المدن سوى الترتيبات الخاصة أو الوساطة وليس حكم القانون .

وعند سفح الهرم الاجتماعى كانت طبقة العمال المطحونة ، أى أفقر الناس الذين أصبحوا يقومون بأشق الأعمال وأدناها . فكان هؤلاء يمارسون العنف ضد الأقليات الدينية أو ينهبون منازل الأمراء الذين يقعون خارج السلطة وقل نفوذهم - إذا ما أتيحت لهم الفرصة، ومن بين حثالة المجتمع كانت هناك جماعات منظمة من الزعر (*) والحرافيش .

ولكن الاسلام منح ترابطا لمجتمع يتكون من العشائر ، والقبائل وأحياء المدن . فكان العلماء أو طلاب العلوم الدينية ورجال الشرع يشكلون عنصرا هاما فى المجتمع وكانوا يؤثرون فى جميع طبقات المجتمع، إذ كانوا يتصرفون باعتبارهم مناصرى الدين ومعلميه ومفسريه وكان أكثرهم نراء وأكثرهم تميزا - غالبا ما يحتفظ بصلة الحكام ويعين قاضيا أو موظفا بالدولة أو معلما .

ويمثل الصوفيون عنصرا مهما آخر فى الحياة الدينية ، وكانت لهم حظوة خاصة لدى الطبقات الدنيا ، رغم أن هذه الحظوة لم تكن لهم وحدهم .

وفى أواخر العصر الوسيط كان تأثير الاسلام الرسمى النمطى كما يقدمه العلماء قد صار شيئا لا يكاد يكون مذكورا ، من الناحية العملية ، فى الريف المصرى . فبينما كان يتصارع الصوفية مع العلماء فى المدن

(*) الزعر (بتشديد الزاى وفتحها) والمفرد : أزرع - (المراجع) .

من أجل التأثير فى المجتمع المسلم ، فهم - أى الصوفية - حلوا محلهم فى الريف .

وتعد فترة حكم الشركس أو المماليك البرجية فترة اضمحلال اذا ما قورنت بفترة المماليك البحرية الأتراك .

ولم يعد للسلطنة أعداء خطرون ، اذ ان الفرنجة كانوا قد طردوا عام ١٢٩١ م ، ومع مطلع القرن الخامس عشر ، بعد انسحاب تيمورلنك من الشام ، لم يعد المغول يشكلون تهديدا أيضا . فلم يطور الجيش طرقا فنية عسكرية جديدة (تكتيكات) ، كما لم يتخذ تكنولوجيات عسكرية جديدة . ذلك أن المماليك رفضوا استخدام أسلحة نارية ، وهى التسليح الحديث لذلك الزمان ، معتبرين أنها أسلحة لا تمت للفروسية ، أو الرجولة أو الاسلام . كما لم يكن من الممكن استخدام البندقية من فوق صهوة جواد وبذلك لم تعد محل تفكير لدى المماليك ، بهذا المعنى ، فالمهارة العسكرية والعبقرية القتالية لدى المماليك قوامها الفروسية . ونتيجة لذلك ، مر الجيش المملوكى بفترة طويلة من الركود ولم يضم أراضى جديدة تحت الحكم المملوكى ، الا قليلا فظلت حدود السلطنة على ما كانت عليه تقريبا تحت حكم بيبرس فى القرن الثالث عشر .

وبينما كانت السلطنة المملوكية تضحل ، حققت جارتها الشمالية، الدولة العثمانية تقدما سريعا (٤) . فقد تطورت الامبراطورية العثمانية من امارة صغيرة أقيمت فى بداية القرن الرابع عشر فى الركن الغربى الشمالى من الأناضول كواحدة من بين العديد من الامارات التركية واشتبكت فى الحرب المقدسة ضد البيزنطيين . وحين توسع العثمانيون باطراد على حساب الحكام المسيحيين فى البلقان الممزق وعلى حساب الامارات التركية فى الأناضول ، أصبحوا قوة شديدة تحت حكم السلطان محمد الثانى (١٤٥١ م - ١٤٨١) الذى حقق الحلم الاسلامى القديم بفتح القسطنطينية التى سرعان ما أعيد تسميتها باسطنبول (١٤٥٣) . وحتى ذلك الوقت ، لم يكن هناك سوى قليل من الاتصال بين العثمانيين والمماليك ، باستثناء منازعات صغيرة من آن لآخر تتعلق بصفة رئيسية بالحج الى مكة .

وبعد أن استولى العثمانيون على القسطنطينية ، تزايد توجس المماليك ، من التوسع العثمانى .

وقرب نهاية القرن الخامس عشر (١٤٨٥ - ١٤٩١) ، زاد الموقف توترا وتفجر فى صراع عسكرى من أجل السيطرة على الامارات التركمانية فى الأناضول . وكانت هذه الامارات فى الاقليم الواقع على الحدود بين الامبراطوريتين (العثمانية والملوكية) .

وكان ثمة مجال آخر للاحتكاك ، ألا وهو اللجوء السياسى الذى أعطاه السلطان المملوكى للأمير العثمانى الذى كان قد فر من اسطنبول . وفى نهاية القرن ، صارت العلاقات الدولية فى الشرق الأوسط فجأة أكثر تعقيدا . اذ حرم اكتشاف البرتغاليين لطريق الرأس الى الهند مصر من عوائد تجارة التوابل ، فأسهم ذلك فى مصاعب الدولة الشديدة أصلا . كما أدى امتداد النشاط البرتغالى التجارى والعسكرى الى المحيط الهندى الى تهديد البحر الأحمر ، والأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز .

ولم يستطع المماليك أن يتخذوا موقفا ضد البرتغال لأنهم لم تكن لديهم قوات بحرية ، مما دعاهم الى الاتجاه للعثمانيين من أجل العون البحرى وحصلوا عليه .

وثمة عامل آخر لتعقد الموقف يتمثل فى صعود الأسرة الصفوية الشيعية للسلطة فى فارس . فبعد قرون من عدم الاستقرار ، والتشرذم ، توحدت البلاد على يد اسماعيل شاه الذى جعل من المذهب الاثنى عشرى الشيعى المذهب الرسمى للدولة . فشعر العثمانيون بالتهديد ، اذ ان أراضيهم فى شرق الأناضول التى كانت تسكنها قبائل تركمانية كانت عرضة للدعاية الشعبية العلوية التى يشنها الحاكم الصفوى ، وهو نفسه من أصل تركمانى . فذبح السلطان العثمانى سليم الذى يكنى (يفوز) - أى المتجهم - المتعاطفين مع المذهب الصفوى (الاثنى عشرى) فى الأناضول .

ثم هزم سليم اسماعيل فى موقعة تشالديران (*) عام ١٥١٤ ، فى أذربيجان ، ورغم الضعف الذى حاق بالصفويين ، الا أنه لم يتم القضاء عليهم نهائيا .

(*) أو جالديران أو بكاف فارسىه كالديران .

وخشى العثمانيون من امكانية عقد معاهدة بين المماليك والصفويين .
غير أنهم كانوا يعتبرون الصفويين التهديد الأخطر . فحين قاد سليم
جيشا قويا نحو شمال الشام ، لم يكن واضحا ما اذا كان يوجه جيشه
نحو المماليك أو الفرس .

وكان تقدم الجيش المملوكى بقيادة قنصوه الغورى نحو الحدود
الشامية العثمانية بمثابة خطوة غير عادية ، حتى ولو كانت دفاعية فحسب،
وكان لسليم مبرره فى اعتبارها عملا حربيا (٥) . وهزم المماليك فى
الموقعة القصيرة التى حدثت فى أغسطس عام ١٥١٦ على سهل مرج
دايق ، شمال حلب ومات السلطان المسن فى ميدان القتال ، ربما بسبب
الصدمة .

ومكنت الأسلحة النارية العثمانيين من التفوق التام على المماليك
الذين انخفضت معنوياتهم وتفرقوا كما أن العثمانيين فاقوهم عددا ربما
بنسبة واحد الى ثلاثة (حوالى ٦٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠) . كما ساعد على
انتصار العثمانيين غدر خاير بك ، الذى كان حاكما على امانة هامة من
الناحية الاستراتيجية من حيث الموقع ، وهى حلب ، والذى كان عليه أن
يقود مفرزة من المماليك ضد العثمانيين ، الا أنه فى لحظة حرجة انحاز
الى العثمانيين كما كان متفقا عليه سابقا . فاستحوذ العثمانيون بيسر على
الشام .

لم يندم المماليك على أنهم اعتبروا مصر دائما مركزا لسلطنتهم ،
التى لم تمثل الشام فيها سوى وضع المنطقة العازلة . فكانت العقود
الأخيرة لحكم المماليك للشام مليئة بالمتاعب والحروب الأهلية والتدهور
الاقتصادى . فلا غرو فى أن السكان المحليين فى الشام نظروا بلا مبالاة
لهزيمة المماليك ، بينما كانت بقايا جيشهم تتراجع نحو مصر .

وفى القاهرة ، أجبر كبار الأمراء طومان باى ، نائب الغورى ،
على أن يتولى السلطنة . ولما كان رجلا مخلصا وشجاعا ، فقد حاول إعادة
تنظيم ما بقى من المماليك ومساعدتهم من البدو ، بالرغم من أن خزائنه
كانت خاوية .

أثناء ذلك بدأ سليم يتقدم بجيشه عبر صحراء سيناء . وقام ببضع محاولات تتسم بالتردد للتفاوض للوصول الى تسوية بدلا من أن يحاول فتح مصر . فاقترح على طومان باى الاستمرار فى حكم مصر بعد الاعتراف بسيادة سليم ، وهو ترتيب لم يكن بحال مناقضا للسياسة العثمانية العامة . وحين فشلت المفاوضات بسبب اصرار خاير بك على سحق المماليك أو لأن تحركات سليم الدبلوماسية لم تكن مخلصه ، أو لأن مستشارى طومان باى قتلوا مبعوثى سليمان - صار القضاء على السلطنة المملوكية أمرا حتميا (٦) .

وفى يناير ، ١٥١٧ ، هزم العثمانيون المماليك فى الريدانية ، الواقعة تماما فى شمال القاهرة . وذهبت جهود طومان باى فى الاستمرار فى القتال بلا جدوى . ففر الى اقليم البحيرة ، حيث لجأ الى منزل حسن ابن مرعى ، وهو أحد شيوخ البدو الذى كان مدينا له . فأقسم الشيخ العربى سبع مرات على المصحف بأنه لن يسلم طومان باى للعثمانيين ، غير أنه سرعان ما حنث بيمينه . وخان طومان باى وسلمه الى سليم الذى أمر بشنق السلطان المملوكى كما لو كان مجرما عند باب زويلة بالقاهرة .

وكان اعدام سلطان بهذه الطريقة أمرا غير مسبوق وكان المنظر مؤثرا كما وصفه ابن اياس وهو شاهد عيان على الفتح . أما سليم ، فقد حقق غرضه : وراح يذكى الشائعات القائلة بأن طومان باى كان ما يزال يقاوم العثمانيين ، لذا فقد عوقب بالقتل وعرف الأهالى المصريين أن السلطة المملوكية قد انتهت (٧) .

الفتح العثماني

وقع الفتح العثماني وقع الصدمة - شأنه شأن أى احتلال عسكري على السكان . فابن اياس الذى يروى الأحداث بالتفاصيل ، يقارن الفتح بفتح نبوخذ نصر لمصر فى الأزمنة القديمة ، الذى يفترض أنه خرب البلاد كلها ، كما يقارنه بتدمير بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨ ، ذلك الدمار الذى كان يعتبر لكل مسلم له وعى بالتاريخ كارثة شديدة (٨) .

وبلا جيساد . ومن الواضح أن العثمانيين لم يكونوا قد قرروا كيفية معاملتهم . في البداية حظر على المماليك أن يرتدوا ملابس العثمانيين وأمروا أن يرتدوا « زمت أحمر ومالوتة » وهو الزي المعتاد للمماليك . وانقلب الأمر في عام ١٥٢١ . إذ حذر المماليك بأن يفقدوا حياتهم إذا ارتدوا ملابسهم المعتادة وصدرت لهم الأوامر بارتداء ملابس عثمانية . وكان أوضح تمييز بين الجماعتين هو أن العثمانيين كانوا حليقي اللحى بينما كان المماليك ملتحين . وفي إحدى المناسبات حين تفقد خاير بك المماليك ، وهو والى مصر العثماني ، يقال انه قص نصف لحية كل مملوك ، وأعطاه له وقال : « يجب عليكم الخضوع للقانون العثماني ، فاحلقوا لحاكم وضيقوا أكمامكم ، وكونوا في كل شيء كالعثمانيين » . ولا تعطى المصادر أسباب هذه التغيرات ، غير أنه لا بد أن لها علاقة بالشجار الدائم والمعارك الحامية الدامية بين المماليك والعثمانيين .

ولقد تنوقلت الأخبار بخروج المماليك والعثمانيين لیسلا لارتكاب الجرائم وكل منهم متنكر في زي الآخر . ولقد عانى المماليك من التمييز : إذ كانت روايتهم تدفع بعد تأخير سبعة أشهر وكان تدهورهم الاجتماعى ناديا للعيان ، في حين أن البيروقراطيين (الموظفين) تجاسروا الآن على الاقتران بأرامل المماليك أو أخواتهم ، ولم تعد فرق الموسيقى تقف على أبواب كبار أمراء المماليك لتعزف الموسيقى .

ومع مرور الوقت ، على كل حال ، تحسن وضع المماليك . فمركة أخرى كان يتم تعيين أمراء المماليك لفرض النظام على الفرق العثمانية المتمردة ، وحدث هذا بعد الفتح بستة عشر شهرا فقط فارتفعت الروح المعنوية لدى المماليك ارتفاعا كبيرا بعد أن مات السلطات سليم ، وخلفه ابنه سليمان ، الذي عرف فيما بعد بسليمان القانوني أو العظيم حسب المصادر الأوربية في سبتمبر عام ١٥٢٠ . وأصبح خاير بك ، الذي كان يسمى المماليك (صرم قديمة) - أصبح الآن يخاطبهم باحترام بلقب أغا . كذلك ساعدت جنود وحدة مملوكية ، تتكون من عدة مئات من الجنود ،

كان سليم قد نفاهم الى اسطنبول - على فتح جزيرة رودس عام ١٥٢٢ .
 وحين شهد سليمان أداءهم فى القتال ، عبر عن دهشته من أن « مثل هؤلاء المماليك المدهشين » كانوا يقتلون فى عهد أبيه . وهكذا قبل السلطان المماليك ، أخيرا كجزء لا يتجزأ من الجيش الامبراطورى غير أن أوضاعهم مع الوحدات كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار .

فلقد أصيب ابن اياس من فسوة العثمانيين فى مصر لأنه قد عرف عنهم أنهم كانوا مجرد حكام فى بلادهم . فهو يصور سليم على أنه رجل متعطش للدماء فظ عصبى لا ذوق له . لا يحافظ على كلمته ، ولا يعدل بين الناس ، كما كان يتعاطى الخمر فيصبح ضعيف الشخصية ، فلم يتمتع بكرامة الملوك أو ما يتحلون به من آداب السلوك .

ويقول هذا المؤرخ الحولى ان الجنود العثمانيين كانوا عامة ممن يشربون الخمر وكانوا من مدمنى الشبك (*) ، كما لم يكونوا ينتهكون حرمة شهر رمضان ، ولم يكن بعضهم حتى يقيم الصلاة ، وكانوا ينتهكون حرمة الأضرحة والأماكن المقدسة (١٠) . كذلك ، كثيرا ما كان الجنود يسرقون الطعام من أصحاب الحوانيت أو لم يكونوا يدفعون الثمن المقرر . وكان الناس يكرهون على جذب المدافع الثقيلة أو يشحنون أعمدة الحجارة . التى يكون العثمانيون قد انتزعوها من بعض القصور ، داخل بعض السفن المتجهة الى اسطنبول . كما كان الرخام يخلع من المباني ويشحن الى الحاضرة العثمانية . وكثيرا ما كان الجند العثمانية يتحرشون بالنساء والصبية فى الدروب . ولقد منع أحد القضاة العثمانيين النساء القاهريات من الخروج الى الطرقات ومنعهن من ركوب الحمير ، حتى لا يفسدن الجنود ، كذلك حظر على العثمانيين ألا يتزوجوا من نساء مصريات ، والا عرضوا حياتهم للخطر . كما قام الاحتلال العثماني بتغيير نظام المهرجانات . فإثناء زمان المماليك ، كان المصريون يشاهدون احتفالات رائعة ، ومراسم متعددة الألوان كان يعرض فيها الفرسان المماليك مهاراتهم الفذة فى العروض والمهرجانات وفنون الحرب .

(*) غليون طويل القصبه .

أما الآن ، فقد ساء المصريين ما يبدو من روح المساواة التى كانت سائدة فى الجيش العثمانى ، التى كانت عديمة القيمة ، حيث لم يكن من الممكن للمرء أن يتبين الأمير من الجندى العادى .

ولم يطرأ على بال ابن اياس الذى أسف على زوال هذه العروض أن ما كان يديه المالك من مظاهر زهو وفخار وعجب ان هو الا دليل على تدهور مهاراتهم العسكرية . وعلى النقيض من ذلك ، فالمؤكد أن الجيش العثمانى الكفاء الحريص لم يبدد الوقت والمال فى الاحتفالات البراقة فى مصر ، التى كانت بعيدة عن الحاضرة العثمانية . فيكتب ابن اياس بأسى أن الاحتفالات السنوية بالمولد النبوى مرت دون أن يشعر بها أحد فى ظل العثمانيين . فلم يحدث الاجتماع التقليدى بين القضاة الأربعة والامراء فى بلاط السلطان ، كما تم الغاء توزيع الطعام على الأهالى . وباع العثمانيون الخيمة الكبيرة التى تستعمل فى هذا الاحتفال ، والتى كلفت السلطان المملوكى قايتباى ٣٠٠٠٠ دينار ، باعوها لتجار مغاربة لقاء ٤٠٠ دينار . وقد كانت إحدى روائع الدنيا . إذ احتاج الأمر الى ٥٠٠ من الخدم لنصبها . وكانت الخيمة ، على حد قول ابن اياس ، إحدى رموز المملكة . وبيعت بأبخس ثمن . إذ لم يفهم العثمانيون قيمتها ، فاضطر من أتى بعد ذلك من الملوك الى التخلي عن استخدامها . فأحدث بها العثمانيون ضررا بليغا وكان هذا من بين أعمالهم السيئة فى مصر (١١) . وصدّم أهالى القاهرة حين علموا بما يمارسه العثمانيون من ترحيل الى اسطنبول . ذلك أن جماعات من الأعيان وأصحاب الحرف الذين كانت هناك حاجة لهم للقيام بأعمال التشييد فى اسطنبول من موظفين ، ومسيحيين ويهود تم ترحيلهم . وكان أبرز مثال هو آخر الخلفاء العباسيين ، المتوكل بن المستمسك يعقوب ، وقد كان موضع احترام رغم انعدام سلطته السياسية ، وأسر فى مرج دابق ، وأجبر على الذهاب الى اسطنبول مع العثمانيين . فعامله سليم معاملة محترمة وأعطاه احساسا بالأهمية ، ونفوذا لم يتمتع به من قبل على الاطلاق .

ورغم أن الجميع كانوا يعلمون أن الخلافة عاجزة ، الا أنها كانت ممازالت لها أهمية رمزية . فكان نفى الخليفة بمثابة الإشارة بأن مصر لم

تعد مقر خلافة ، أو مركز امبراطورية ، وانما أصبحت مجرد ولاية تدار من حاضرة قصية (١٢) .

وخلفت سياسة الترحيل الاجبارى المنفيين وأسرههم التى بقيت بعدهم فى حالة من المعاناة . فبعض المنفيين قد فقدوا فى البحر ، وكان الآخرون يشعرون بالوحدة وعانوا مشقة شديدة فى اسطنبول .

وكان يسمح للمنفيين بالذهاب الى بلادهم فى زيارات قصيرة ، بعد أن تكون السلطات قد أخذت الاحتياطات التى تضمن عودتهم الى اسطنبول . وحين اعتلى سليمان السلطة ، حل احسانه محل قسوة أبيه سليم فسمح لمعظم المنفيين بأن يعودوا الى مصر (١٣) .

كما صاحبت سنوات الفتح الأولى مشاق اقتصادية . ذلك أن سيطرة العثمانيين على ممتلكات رعاياهم - بما فى ذلك الممتلكات الخاصة وعوائد الوقف والمعاشات - كانت سيطرة صارمة ، ذلك أن أولئك الذين لم يحفظوا برضى مفتشى الوقف أو الذين كانوا يقصرون فى اتباع الاجراءات الادارية كانوا يفقدون حقوقهم . فأمر أصحاب الحوانيت بأن يستبدلوا بالأوزان والمكاييل المصرية تلك المستخدمة فى اسطنبول . وتم تداول عملات جديدة ولكن لأنها كانت أقل قيمة ، فانها جعلت الأهالى يفقدون ما يصل الى ثلث قيمة مالهم . كما كان موظفو الخزنة والوكلاء ، بمن فيهم من خدموا فى أيام المماليك ، يظلمون الناس بشكل أكثر شراسة مما كان يحدث من قبل . اذ عين موظف عثمانى يسمى (قسام) كى يجبى ضرائب الميراث ، وهو ابتكار آخر بدا ظالما . كما كان ينظر اليه باعتباره ضد الشريعة الاسلامية . وكانت تصدر النظم الخاصة بمعدلات التبادل والأسعار مرات متكررة ، مما نتج عنه تضخم واغلاق للأسواق وكذلك القلق والتذمر العام (١٤) . ولم يكن من بين ما صنعه العثمانيون أكثر اثاره للاستفزاز من الابتكارات القانونية خاصة فى الأمور الحساسة الخاصة بالقوانين الشخصية . فكان هناك قدر كبير من الازدراء ازاء القوانين العثمانية غير الشرعية ، رغم قلة المعرفة بها .

• وكان أكثر التغييرات القانونية اساءة هو فرض ضريبة على عقود الزواج التى تسمى يسق Yasaq (*) وكان يطلب أن تدفع مرتين عن المرأة التى سبق لها الزواج • فاستنكر علماء القاهرة هذه الضريبة ، باعتبارها انتهاكا للسنة النبوية وتناقض عدد الزيجات لفترة من الوقت •

كان المغاربة أقل ميلا للحلول الوسط كما كانوا غير هيايين حين يتعرض الدين للخطر • ويقال ان أحد العلماء المغاربة صرخ فى وجه الكاشف « هذا قانون الكفار » يقصد اليسق (١٥) ، وثمة اجراء عثمانى آخر استخف باعتزاز القضاة المصريين المهنى كما كان يؤثر تأثيرا فى مصالحتهم •

اذ ان العثمانيين فى استهدافهم الوصول الى اقتصاد أقوى وقدر أكبر من المركزية ، قاموا بفصل الكثير من القضاة ونوابهم • واقتصرت جميع أعمال التقاضى وغير ذلك من الأمور القانونية على المدرسة الصالحية فلم يعد من المسبوح للقضاة أن ينظروا القضايا فى مساكنهم • وخضع قضاة المذاهب الأربعة لقاضى تركى ، كان أجهل من حمار ، حسب ما يقول ابن اياس ، ولم يكن لديه أى فهم بالشريعة • ففرض مدفوعات متنوعة وحد من سلطة القضاة المحليين ، كما نصب من نفسه وصيا على أخلاق النساء وذلك بالحد من حريتهن فى مغادرة منازلهن والتحرك فى المدينة (١٦) • اذ كانت فكرة العثمانيين عن العدالة تختلف عما ألفه المصريون •

فى احدى الحالات ، على سبيل المثال ، قاضى يهودى أحد أمراء المماليك على مبلغ من المال ، وحين رفض الأمير أن يذهب الى المحكمة ، أرسل القاضى التركى أحد الانكشارية لاحضاره • وظل الأمير فى الحجج الى أن وفى بمطالب اليهودى • أما تحت حكم المماليك ، فلم يكن من الممكن

(*) اليسق : الاصل اللغوى بمعنى المنع ، واستخدمت أيضا بمعنى قانون وهى من المغولية ، كما كان يطلق على القواس (الضابط) اسم اليسقى بمعنى منفذ القانون • يتصرف عن أحمد السعيد سليمان ، فأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من دخيل : القاهرة ، دار المعارف ، مادة يسق - (المراجع) •

التفكير أن يقاضى يهودى أحد الأمراء • وأصدر هذا القاضى التركى نفسه حكما لصالح احدى النساء كانت قد قاضت زوجها ، وهو أمير ذو نفوذ •

لقد حضر الى مصر الديار بكرى ، وهو مؤرخ حولى تركى ، كما كان قاضيا ، مع جيش سليم ، وهو يقول ، ان الأهالى كانوا مسرورين من مساواة الجميع ، أمام المحكمة العثمانية (١٧) ، غير أنه يبدو أن كراهية ابن اياس ، لهذا القاضى ولنظام القضاء العثمانى ، عامة ، تعكس اتجاه الأهالى بشكل أكثر أمانة • اذ كان هناك شعور بأن موقف الاسلام والشريعة قد ضعف منذ الفتح العثمانى (١٨) •

وفى واقع الأمر ، لم تكن الامبراطورية العثمانية أقل التزاما بالاسلام من السلطنة المملوكية ، كما كانت الشريعة هى حجر الزاوية فى الحياة العامة • وبمرور الوقت أدرك المصريون هذه الحقيقة الأساسية ، غير أن سلسلة من الأخطاء وكذلك اجراءات تتسم بتبльд الحس من جانب العثمانيين ، أسهمت فى استجاباتهم السلبية الأولى • ومع الوقت ، أصلح العثمانيون الكثير من أخطائهم المبكرة السابقة واعتادهم المصريون • فتلاشى تدخل اسطنبول فى طريقة الحياة المصرية •

وعلى كل ، فلقد ظهر من آن لآخر ، توتر واحتكاك أثناء القرون الثلاثة التى حكم فيها العثمانيون مصر كما سيتضح لاحقا •

ومما سهل تحول مصر من حكم المماليك الى حكم العثمانيين أن الحاکم الأول لم يكن أحد الباشوات العثمانيين ، وانما كان خاير بك ، الأمير المملوكى الذى انضم الى العثمانيين أثناء موقعة مرج دابق (١٩) • اذ توافق تعيين عضو من الصفوة الحاكمة السابقة مع مبادئ العثمانيين فى اذارة الأقاليم المفتوحة • واحتفظ خاير بك بالعديد من العادات والمراسم التى كانت موجودة فى السلطنة المملوكية • وكان لقبه الرسمى هو ملك الأمراء الذى قصد منه أن يكون ترجمة لقب التركى - العثمانى البيكلىر بك وهو رتبة يحوز عليها حاكم أحد الولايات • فلم يكن فى استطاعته أن يحمل لقباً يشير الى الاستقلال ، مثل لقب السلطان ، كما لم يكن باشا ، بما أنه لم ينحدر من المؤسسة العثمانية الحاكمة ، كما كان الحال بالنسبة

لاسلافه . وكما ذكرنا من قبل ، فلقد ساعد على انقاذ الممالك وعينهم بصفات متنوعة ، أساسا فى ادارة الأقاليم ، حيث كان لا غنى عنهم لمعرفة الوثيقة بنظام الرى وبالبدو .

ومع ذلك ، فقد ظل خاير بك وفيما لساداته العثمانيين حتى وفاته فى أكتوبر عام ١٥٢٢ . ونظرا الى أنه كان يخشى من عدم اعادة تعيينه فى نهاية كل مدة سنوية فقد كان يطيع الأوامر والنظم الصادرة من اسطنبول . وكان يبحث العلماء أن يحسنوا نقل أخباره فى اسطنبول ، تلك الأخبار الخاصة بسلوكه كحاكم ، كما كان يمنح هبات ضخمة من المال للمبعوثين العثمانيين كى يقوى من موقفه .

وتلقى خلفية خاير بك ضوءا على حياته العملية غير العادية . اذ وصل الى القيادة العليا المملوكية رغم أنه ولد فى جورجيا ، وليس فى بلاد الشركس ، مثل غالبية الممالك ، ولم يكن قط عبدا . ويعتقد ابن اياس أنه كان يكره الممالك الشركاسة ، غير أن هذا ليس قابلا للتصديق بما أن الكثير من الممالك مدينون بحياتهم له . وكان رجلا حاذقا ، يسعى الى صالحه الشخصى ويقوم المواقف حق التقويم ويناور بمهارة كى يصل الى صالحه الشخصى بين قوى غالبا ما تكون متصارعة . وشكا كل من الجنود الممالك والعثمانيين من أنه لم يكن يحسن معاملتهم . وكان شديد البخل ، وكانت الأجور المستحقة للجنود والموظفين دائما تاتى متأخرة بينما كان آخذا فى اثناء نفسه . ولم يبد أى كرم الا وهو على فراش الموت ، كما أبدى التدعيم للمؤسسات الدينية والأفراد . ويرسم ابن اياس صورة لخاير بك باعتباره شخصا سييء الطبع ، قاسيا كثير الشراب . فلقد كان قادرا على أن يحكم على الناس بالموت لسبب تافه أو مجرد نزوة . اذ أمر فى احدى المرات بشنق أحد الرجال لم تكن جريرته سوى أنه التقط بعض ثمار خيار الشانبار الذى كانت تحتكره الحكومة (كان هذا النوع من الخضراوات يستعمل كملين) ، كما أنه أعطى المستول اليهودى عن دار سك العملة سلطة فوق المسلمين ، بأن أعطاه سلطة على أموال عامة ، وهى سلطة أسىء استخدامها . وكذلك عين موظفا مسيحيا فى وظائف مركزية . ومن ناحية أخرى ، أطاح خاير بك بالأسرة الكبيرة التى احتكرت بعض الوظائف وهى أسرة بنى الجيعان ، وكانت مسؤولة عن الجهاز المالى لما يربو على قرن من الزمان .

أظهر خاير بك حصافته حين ألقى بأذن صماء لحاكم الشام ، جانباردى الغزالي الذى حاول قتال العثمانيين . وكان الغزالي أميرا مملوكا انضم الى سليم شأنه شأن خاير الا أنه على النقيض منه كان يمتاز باستقلاله فظن أن وفاة سليم وتولى ابنه عديم الخبرة جعلت الفرصة سانحة أمامه . بل ان خاير حكم على ممالك بالموت مع أنهم لم يفعلوا سوى محاولة الانضمام الى المتمردين ، بمن فى ذلك بعض عوام القاهرة الذين كانوا يشرثون باحتمال أن خاير بك قد ينضم الى التمرد (٢٠) .

وكذلك كان خاير بك ماهرا وقديرا ولولا المظالم التى ارتكبتها لكان حاكما عظيما ، حسب ما كتب عنه ابن اياس . وحين مات اختار العثمانيون حاكما أكثر صلة بالعثمانيين : فلقد أرسلوا مصطفى باشا ، عديل السلطان سليمان ليخلف خاير بك ، فى قلعة القاهرة ومقر الحكم وحل الترك محل المصريين كمستولين عن المخازن وكطهارة .

وربما كان أمرا مميذا للفترات الانتقالية أن من يعينون فى مناصب عليا لا يكونون من أمراء الممالك وانما من بين أولاد الناس أو البيروقراط وكان مثالا لهذا هو الزينى بركات بن موسى الذى كان مفتشا على السوق (محتسب) ، كما عين قائدا لقافلة الحج السنوية الى مكة والمدينة (أمير الحج) وهو منصب مسئول وله مكانة . وكان هذا المنصب لا يعين فيه زمن الحكم المملوكى سوى الأمراء الذين يحملون رتبة أمير مائة ، وهو أعلى منصب فى جيش الممالك . واعتبر الرأى العام القاهرى هذا التعيين شيئا يبين عدم احترام العثمانيين للحج . وفيما بعد ، صار ابن موسى أحد أكثر الزعماء المصريين نفوذا .

وثمة رجل آخر صار مرموقا أثناء أوائل الحكم العثمانى فى مصر هو جانيم الحمزاوى الذى كان أميرا غير أنه لم يكن مملوكا ، أى لم يكن من الممالك . فلقد كان ضابط اتصال مع اسطنبول ، وقام بدور هام فى التطورات السياسية .

التمرد المملوكى ورسوخ الحكم العثماني

قاد جانيم السيفى واينال ، وهما من حكام الأقاليم فى مصر الوسطى ، أول تمرد مملوكى فى مايو عام ١٥٢٣ . اذ بدأ الوقت مناسبا للقيام بتمرد ، بعد أن مات سليم وخاير بك ، وكان مصطفى باشا حاكما ضعيفا . كان الأمراء المتمردون يريدون أن يستردوا سلطنتهم وأيدهم فى ذلك الكثير من الممالك والعرب . وكان حاكم مصر العليا العربى القوى على ابن عمر مؤيدا سلبيا . وفى محاولة لتقوية الحكم ، منح بركات بن موسى رتبة أمير العسكرية ، غير أنه أخفق فى تكوين جيش من العرب البدو وقتله المتمردون كخائن حين كان يحاول التفاوض معهم . وفى النهاية ، تم سحق التمرد وقتل جانيم واختفى اينال . وأضاف التمرد مزيدا من التوتر فى العلاقات بين الممالك والعثمانيين . اذ انضم الكثيرون من الممالك للتمرد وقتلوا ، ويقال ان أولئك الذين ظلوا على ولائهم للدولة العثمانية ساروا ضد رفاقهم السابقين بقليل من الحماس (٢١) (*). وكان التمرد الذى حث عليه أحمد باشا ، الذى كان يعرف فيما بعد بأحمد الخائن تحديا أكبر للحكم العثماني (٢٢) ، وكان أحمد باشا قد أصبح هو الحاكم العثماني فى مصر فى سبتمبر ١٥٢٣ وسرعان ما بدأ فى الاعداد لتمرده . فصادر أسلحة الانكشارية ، لأنه استنتج عن حق بأنهم سيكونون الأكثر وفاء للسلطان من بين جميع الوحدات الموجودة فى مصر .

فتم الضغط على القابو قولارى أو جنود السلطان لكي يعودوا الى اسطنبول وتودد أحمد باشا الى الممالك ، بل وأصدر عفوا عن بعضهم من بين الذين كانوا فى السجن بسبب اشتراكهم فى التمرد السابق .

لقد استفاد الباشا كثيرا من أصله الشركسى - أما مسألة ما اذا كان هذا الأصل صحيحا أم مزيفا فهذه مسألة منفصلة خارج موضوعنا - وعلى هذا الملح الى أن السلطنة المملوكية سيتم استردادها . وبدأ فى طلب النقود من التجار وموظفى الدولة واليهود وكذلك صادر رسغيا الخيل وجميع الحيوانات التى يمكنها نقل البشر والأشياء ، كما تم نقل الأشخاص

(*) لم يحاربوا رفاقهم السابقين (الممالك ايضا) بحماس .

الذين يعيشون بالقرب من القلعة . وأمر بإطلاق سراح المشايخ العرب الذين وضعهم خاير بك فى السجن لسلوكلهم غير المنضبط .

وعين أحمد بن جيعان - الذى كان خاير بك يسئ معاملته - « دفتر دار » كما أمر الباشا على بن عمر حاكم مصر العليا والذى كان يغير على الأقاليم النوبية بأن يئمه بألف من العبيد السود ، وكان ينوى تدريبهم على استخدام الأسلحة النارية كى يحلوا محل الانكشارية . وكذلك أخذ العبيد السود من البيوت القاهرية ووضعوا تحت السلاح . لقد ثبت فشل مثل هذه المحاولة فى الماضى فى التاريخ المصرى ، وقدر لها أن تثبت فشلها مرة أخرى .

كما اختار أحمد باشا مستشارين جددا . وكان أحدهم هو ابراهيم المرقبى ، وهو بدوى استطاع أن يشق طريقه الى بلاط الحاكم ، غير أنه قد نفى الى اسطنبول ، حيث أصبح على علاقة صداقة مع أحمد باشا .

فجعل منه الأخير مستشارا له فى شئون البدو حين صار حاكم مصر ، أما جانيم الحمزاوى ، وهو أمير يدين بالولاء ، وأيضا خبير فى شئون البدو ، فتم القبض عليه ، واتهامه بالاثراء بطرق غير مشروعة .

تمرد الباشا ضد اسطنبول عام ١٥٢٤ ، واتخذ لقب سلطان ، وأمر بأن تسك النقود باسمه ، وأصدر مرسوما بأن يدعى له فى خطب الجمعة . ولكى يسبغ الشرعية على وضعه ، دعا أحمد القضاة الأربعة الكبار والخليفة العباسى الى القلعة ، فى هلال كل شهر كى يقدموا له التحية كما جرت العادة تحت حكم السلاطين المماليك .

وكانت الانكشارية واليهود هم أكثر من لحق بهم أشد الضرر . فهرب ابراهام كسترو رئيس سك العملة الى اسطنبول وهناك أبلغ عن خيانة أحمد . وفى فبراير عام ١٥٢٤ ، احتل المتمردون القلعة التى كانت الانكشارية تسيطر عليها . ففاجأت قوات أحمد الانكشارية باستخدام النفق السرى وذبحتهم . ولم يدم حكم أحمد أكثر من بضعة أشهر . اذ فاجأه جانيم الحمزاوى وجماعة من الأمراء فى حمامه ، فهرب أحمد باشا الى اقليم الشرقية ، حيث لجأ أحمد بن بقار ، أحد

مشايخ البدو ، غير أنه أسر وقطع رأسه فى مارس ١٥٢٤ ، منهايا بذلك آخر جهد مصرى جاد كى تنفصل مصر عن اللولة العثمانية ؛ حتى تمرد على بك الكبير فى ١٧٦٠ .

ورغم فشل تمرد أحمد بك المعروف بالخان ، الا أن مصر ظلت فى حالة من القلاقل ، ذلك لأن التبرد حرك البدو فى كل أنحاء البلاد . اذ كان البدو واقعين تحت وهم أن العثمانيين فى مصر أنهكوا ويمكن هزيمتهم بسهولة . وعلى أية حال ، فقد كان العرب مفكرين كما كانت أسلحتهم ومستوى تنظيمهم فى حالة أدنى ، ووصل دعم جديد الى مصر ، وأخضعت الولاية نهائيا .

وفى الثانى من أبريل ١٥٢٥ ، جاء الى مصر ابراهيم باشا ، الصدر الأعظم الشهير فى حكومة سليمان واستعاد السلطة العثمانية . (الصدر الأعظم هو المعادل المعاصر لرئيس الوزارة) .

وعبر عن استيائه من المعارك المتكررة بين الوحدة العثمانية والمماليك ، فخاطبهم قائلا : « فلنتوقف عن تسمية بعضنا البعض بالتركماني أو الشركسى فنحن جميعا خدم السلطان واخوة فى الاسلام » .

حضر المشايخ العرب الى القلعة لتقديم الاحترامات له ، غير أن ابراهيم باشالقى القبض عليهم . وتم شنق الضالعين فى تمرد أحمد باشا ، وأطلق سراح الآخرين ، وأعيد تعيينهم فى أقاليمهم .

وأثناء اقامة ابراهيم التى دامت بضعة أسابيع ، أصدر قانونى نامه مصر لتقنين الممارسة الادارية ونظم الحكم فى مصر . وهذه الوثيقة التى وصل الينا نصها بالكامل ، تعد ذات أهمية قصوى بما أنها تعكس الأحوال فى مصر بعد إعادة الفتح بفترة قصيرة ، وكذلك مبادئ الادارة العثمانية (٢٣) . لقد وضع اسم القانون ، فى المحل الأول ، أسس الادارة العسكرية ، التى ظلت سارية المفعول على مدى القرون الثلاثة التالية . وتلقى الوثيقة الضوء على ادارة الكشاف (*) للأقاليم الصغرى الذين كانوا

(*) لم يكن منصب الكاشف (جمعها الأستاذ المترجم كشفة ، وجعل مفردا أحيانا كاشف ، وهو أيضا صحيح) حديثا فى مصر العثمانية ولكنه كان موجودا زمن المماليك أيضا =

مستولين عنها ، كما كان الحال فى السابق ، مع المحافظة على نظام الرى ، والحفاظ على الأمن (عملية حماية القرويين من البدو المغيرين) والتفتيش على جباية الضرائب . وفى بعض الأقاليم ، أسندت هذه المسئوليات الى مشايخ العرب . كذلك خصصت فقرات طويلة لكيفية معاملة الفلاحين وكيفية جباية الضرائب منهم . كذلك تناول القانون عمل مسح شامل للأملك والأراضى الزراعية والأرض المراحة (الأرض التى تحرث وتترك عاما كاملا لراحتها) والأراضى التى لا يصلها فيضان النيل ، ومؤسسات الوقف ومخازن الغلال ، والموانى ودار سك العملة . وعلى الباشا ، الذى يشار اليه باسم ملك الأمراء ، عقد اجتماعات منتظمة لمجلس الدولة (الديوان) أربع مرات أسبوعيا كما هو الحال فى الديوان العالى فى اسطنبول . ومن أبرز ملامح القانون هو أن أهم ما فيه يعد استمرارا لما كان وقت المماليك ، رغم أن العثمانيين اضطروا الى قمع تمردين خطرين وسحق الاضطرابات البدوية . فالقانون ينص بصفة خاصة على أن القوانين التى تتناول الضرائب ، والجمارك ، وغير ذلك من الأمور المالية والإدارية التى أصدرها قايتباى - الذى كان مملوكا سلطانيا فى الفترة من ١٤٦٨ الى ١٤٩٦ ، والذى حارب العثمانيين فى الأناضول - تظل سارية المفعول . كذلك أعطى القانون للمماليك اعترافا رسميا . ورغم أن القانون لا يكاد يدع أى مجال للشك فى أنه سيتم التحكم فيهم تحكما وثيقا عن طريق ضباط من اسطنبول ، إلا أنه مع ذلك ، قد تم تنظيمهم فى كتائب . بل ان المعاشات والألقاب التى تم الحصول عليها فى زمن المماليك تم الاعتراف بها . ومن الملحوظ ، أنه رغم أعمال التمرد إلا أن العثمانيين قبلوا المماليك . اذ عين بعض المماليك فى منصب الكاشف وقادة قافلة الحج (أمراء الحج) .

فى ذلك الوقت ، كانت الامبراطورية قوية وتشعر بالثقة كذلك لا تتوقع وقوع تمرد من جانب المماليك مرة أخرى .

لم تصبح مصر قط مقاطعة عثمانية منتظمة ؛ اذ لم يطبق فيها التيمار (النظام الاقطاعى العسكرى) الذى كان يشير الى الاندماج التام لآخذى

= وقد اقتصر منصب الكشاف فى الصعيد الأعلى على العربان ، وكان ولاية الأقاليم تابعين له ، وغالب الكشافة كانوا مماليك وان لم يكونوا كذلك روعى الا يكون لهم عصبية . صلاح هريدى ، دور الصعيد فى مصر العثمانية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٤ .

موجز للتاريخ السياسي لمصر العثمانية : يمكن تقسيم التاريخ السياسي الى أربع فترات رئيسية (٢٥) :

١ - القرن السادس عشر حين كان يحكم مصر حكما فعليا باشوات تعينهم اسطنبول . ونشأت الاضطرابات الأولى حوالى عام ١٥٩٠ مع أعمال التمرد التى قام بها الجنود . ويقع محمد باشا (١٧٠٦ - ١٧١١) الجنود المتمردين (الكثير منهم من المماليك) وبعده أخذ الباشوات يفقدون السلطة بالتدريج .

٢ - فى القرن السابع عشر ، تنتقل السلطة الى كبار الأمراء (البكوات) .

٣ - وفى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، تنتقل السلطة الى الكتائب السبع (أساسا الى الانكشارية) الذين قد أنهكتهم المنافسات الداخلية .

٤ - طوال معظم القرن الثامن عشر ، كانت السيادة تخص بكوات المماليك الذين كانوا دوما يقتتلون فيما بينهم ، حتى عام ١٧٩٨ حين وضع الاحتلال الفرنسى حدا لنظام المماليك .

وتتوقف التغطية التفصيلية للأحداث السياسية التى قدمها المؤرخون الحوليون عند اقرار ابراهيم باشا للأمور فى مصر واصدار قانونى نامه مصر عام ١٥٢٥ . اذ ينتهى تسجيل ابن اياس التاريخى الممتاز المكتوب باللغة العربية عند نوفمبر سنة ١٥٢٢ أما تسجيل الديار بكرى المفصل المكتوب بالتركية ، فلا يتعدى عام ١٥٢٥ . وظهر مؤرخون حوليون آخرون فى القرن السابع عشر قدموا لنا حوليات قليلة متناثرة الأحداث وأدنى بكثير من المستويات والمعايير الموجودة فى التراث التاريخى المصرى الذى كان ابن اياس آخر مثليه . وقد يشير هذا الانقطاع فى التراث الحولى التاريخى الى أن حقبة سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦) وما بعد ذلك كانت مستقرة لم تحدث فيها أحداث ذات مغزى سياسى بارز وقبلت ولاية مصر بهدوء وسلبية حكم المنتصر .

فى واقع الأمر ، تبين المواد الأرشيفية (أو سجلات المحفوظات) فى تلك الفترة أن اسطنبول كانت أكثر انشغالا باليمن والحجاز الى حد كبير من انشغالها بمصر .

وكان معظم الحكام الذين أرسلوا لمصر أقوياء وأكفاء ، والمعطيات التاريخية القليلة المتاحة عنهم تتحدث عن أعمالهم أو عن الأثر الذى تركوه فى نفوس رعاياهم .

وقد يعكس تدهور كتابة التاريخ المصرى أيضا أن مصر لم تعد هى مركز الأحداث ، عند المعاصرين ، وإنما مجرد مقاطعة . ولم يشعر المصريون الذين كان المؤرخون الحوليون يكتبون من أجلهم بالظلم تجاه الحكم العثمانى ، غير أنه توجد مؤشرات على انخفاض الروح المعنوية فى دوائر المتعلمين . مما لم يشجع بالتأكيد على كتابة التاريخ . بالإضافة الى ذلك ، فإن الباشوات الذين كانت فترات حكمهم قصيرة ، فى المعتاد والذين كان من الممكن استدعاؤهم فى أى وقت ، لم يقدموا الرعاية أو حتى الانتباه للحوليين أو الكتاب بالقدر الذى كان يفعله المماليك (٢٦) .

وكما حدث فى أنحاء أخرى من الدولة العثمانية ، فقد أدى الاستقرار الى تدهور اقتصادى ومالى . فلما تآذى الجنود من التضخم ، حاولوا تعويض أنفسهم باجبار الحرفيين والتجار على الدخول معهم فى شركات ، وكذلك الحصول بالقوة على نقود مقابل الحماية (اناوات) فى المدن ، وفرض ضريبة غير قانونية وهى (الطلبة) على الفلاحين . وفى عام ١٥٨٦ ، ثار الجنود ضد الباشا . فى بداية الأمر ، هاجموا الموظفين ، والضباط غير أنه فيما بعد اعتدى على أحد الباشوات وفى ذلك الوقت ، أصبح الضباط أنفسهم متمردين . وفى سبتمبر عام ١٦٠٤ ، نشبت فتنة نتج عنها قتل ابراهيم باشا الذى عرف فيما بعد بالمقتول . فالقى خلفه القبض على العديد من المتمردين وقام باعدامهم ، غير أن النظام لم يستعد بشكل له احترامه حتى جاء حكم محمد باشا (١٦٠٧ - ١٦١١) الذى أكسبه قمعه الحازم للجنود غير المنضبطين وصف قول قيران *Qul Qiran* أى محطم الجنود المتمردين . اذ انه لدى وصوله مصر ، قام بالغاء (الطلبة) غير أن الجنود فى كتيبة الفرسان الذين كانوا موزعين فى الريف ، تجمعوا فى طنطا فى الدلتا ، داخل ضريح الولى المحبوب سيدى أحمد البدوى وأقسموا على مقاومة ذلك القرار .

وكان رد فعل محمد باشا ردا سريعا وذلك بتنظيم قوة من الفرق الموالية له ومن البدو ، التي قامت بسحق التمرد . وقتل الكثير من مئيرى الفتنة كما نفى ٣٠٠ الى اليمن . ومن غير الواضح هل كانت الانتفاضة أكثر بكثير من محاولة قام بها الجنود الغاضبون للتشبث بامتيازاتهم غير القانونية في وجه عزم الباشا على إعادة النظام والعدل .

ويحاول المؤرخون المحدثون اعتبار الانتفاضة حركة مملوكية انفصالية لاسترداد السلطنة ، غير أن الأدلة المتاحة لا تؤيد مثل هذا الاستنتاج . إذ لا يوجد دليل مقنع على أن جميع المتمردين كانوا من المماليك ، مع أنه بالتأكيد كان يوجد بعض منهم . وتقول رواية محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، وهو مراقب معاصر للأحداث ، أن المتمردين قاموا باختيار سلطان ووزير من بينهم . فلو صدقت هذه المعلومة ، فإنها تؤيد الافتراض القائل بوجود تمرد سياسى ضد العثمانيين ، غير أنه بما أن ابن أبي السرور اتخذ جانب العثمانيين ، فمن المحتمل أنه كان رجح الصدى لدعايتهم . وأيا كان الأمر ، فمن الغريب أنه بالرغم من أن هذا المؤرخ الحولى كان على دراية بالتفاصيل الدقيقة للانتفاضة ، إلا أنه لم يذكر اسم سلطان المتمردين هذا إذا وجد مثل هذا الشخص على الإطلاق (٢٧) . ورغم أن محمد باشا كان شخصا مسموع الكلمة ومعروفا بأعماله العامة ، إلا أنه لم يحاول تغيير الاتجاه القائل بضعف قبضة السلطان على المقاطعات (الولايات) . وأخذ الباشوات يفقدون السلطة باضطراد أثناء القرنين التاليين وصاروا أدوات لاسباغ الشرعية على سلطة السلطان . وقضوا وقتهم فى القلعة كسجناء نسبيا فى قصورهم . وأخذ كبار الأمراء البكوات يتخلصون من الحاكم أكثر فأكثر إذا لم تكن سياسته ترضيهم ، ويبلغون السلطات فى اسطنبول . وأصبح من المعتاد أن يعين أحد كبار البكوات مندوبا ، أو حاكما بالنيابة (قائم مقام) من قبل زملائه ويسير أمور الحكم الى أن يصل الباشا .

وتحمل العثمانيون الذين يتسمون بالنظرة الواقعية هذا الترتيب الشاذ، كما يبدو ، لتحقيق حد أدنى من أهداف الحكومة المركزية فى مصر :

١ - مجرد اعتراف رسمى بسيادة السلطان وذلك بقبول الحاكم وغيره من كبار الشخصيات العثمانية والمبعوثين ، وذكر اسم السلطان فى خطاب الجمعة فى المساجد وكذلك سك عملات تحمل اسمه ولقبه .

٢ - ارسال الخزينى أو الخزانة السنوية أو التحويل المالى .

٣ - ان الجيش المصرى (رسميا الجيش العثمانى ، المعسكر فى مصر) كان يرسل ، عند الطلب ، مفرزة من الجنود - تصل عادة الى ٣٠٠٠ رجل - للقتال ضمن حملات فى آسيا وأوربا والبحر المتوسط .
وطالما تم تحقيق هذه الأهداف الثلاثة ، كانت اسطنبول تشعر بالرضى ،
مهما بدا من استقلال الأمراء المحليين فى مصر .

لقد شهد القرن السابع عشر دخول البكوات ، أو الأمراء ذوى الرتب الرفيعة فى مصر . فمن الناحية الشكلية ، كان هناك ٢٤ من البكوات الذين كانوا يتحكمون فى مناصب حكومية مهمة ، ولقد بين هولاء البكوات - أو كما يسميهم زعماء عسكريين - كانوا خلفاء شرعيين للقيادة العليا المملوكية ، التى ظلت تحت غلالة عثمانية رقيقة ، رغم أنهم لم يكونوا من المماليك . وكانت هناك أشكال معادلة بالضبط فى سلطنة المماليك للوظائف التى كان يؤديها أمير الحج والدفتردار (مسئول الخزانة) والقائم مقام وحاكم اقليم جرجا الضخم فى الصعيد رغم أن هذه الوظائف كانت تحت أسماء مختلفة . والشئ الذى يؤيد الافتراض بأن البكواتية (البكواتية) كانت استمرارا لمؤسسات المماليك أو بعنا لمناصبهم هو أنها كانت فريدة لا مثيل لها سوى فى مصر . وغالبا ما كان يسمى البكوات المصريون بالسناجق حسب ما تذكر المصادر ، غير أن رتبة البكوات السناجق التى كانت شيئا معياريا فى الامبراطورية ، لم تستخدم فى مصر . وبينما كان لقب البك فى الأماكن الأخرى فى الامبراطورية يبنى أنه أمير مسئول عن وحدة ادارية أو اقليمية تسمى سنجق ، فان لقب سنجق أو بك ، فى مصر ، لم يكتسب أى ظلال اقليمية أى لم يكن يعنى أنه مسئول عن أحد الأقاليم ، كذلك لم تكن له علاقة بنظام التيمار الذى لم يطبق على مصر مطلقا (٢٨) . وكما سنفصل فى الفصل الثانى ، فان

البيكلية التي أدارت نفسها بهذه الطرق تغيرت في كثير من الجوانب
العديدة المهمة . فانقسمت الطبقة العسكرية الى عصبتين : الفقارية
والقاسمية ، الذين تشكل منافساتهم العنيفة الدامية التاريخ السياسي في
القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

وثمة أسطورة ذكرت في مقدمة كتاب عبد الرحمن الجبرتي عن
تاريخ مصر العثمانية ، تشرح هذه الأسطورة الاسمين اللذين استمدت
منهما هاتان العصبتان اسميهما ، وهي أن اثنين من شباب المماليك تطورت
المنافسة بينهما الى كفاح مرير قبل سليم الأول . وفي الواقع ، لم يرد ذكر
القاسمية والفقارية قبل بداية القرن السابع عشر ، ويرتبط ظهور المنافسة
بين العصبتين الى بداية العمل بالبيكلية (البكوية) . وكان لكل عصبة
حلفاؤها من البدو : الفقارية السعد ، والقاسمية الحرام . ومن بين الكنائس
كانت كتبة العزب تقليديا حليفة للقاسمية ، بينما كانت غالبية
الانكشارية فقارية .

وكان أبرز ممثل للبيكلاتية (البكوية) في القرن السابع عشر
رضوان بك الفقاري ، الذي شغل منصب أمير الحج لما يقرب من ربع قرن
حتى وفاته ، في عام ١٦٥٦ . وكان رضوان أميراً ثريا وقويا نجح في
احباط مساعي منافسيه القاسمية وعمه ولاة لاذحته عن منصبه كأمر
للحج . وسعوا لتعيينه واليا على ولاية الحبش (*) ، وهي ترقية أقرب
ما تكون الى النفى . ومما قوى من مكانته تجالته مع علي بك ، حاكم جرجا ،
وهي المديرية التي كانت تمتد القاهرة بالحبوب . وهناك من أرجع أصل
رضوان بك الى سلاطين المماليك ، وزعم أنه ينحدر عن قریش قبيلة النبي
ﷺ . وكان تأكيد أصل رضوان بك النبيل تحديا للسلسلة العثمانية . وإذا
ما اقتبسنا كلمات هولت نجد أنه يقول: « تتضمن شجرة العائلة أن رضوان
بك كان يمارس وظيفته (كأمر للحج) ليس كموفد من قبل السلطان
العثماني الكائن في بلاد بعيدة ، وإنما بأحساس من الحق الموروث استمده
من أجداده المماليك والقرشيين » (٣٠) .

(*) ارتقيا الحالية - (المراجع)

ولم يكن هذا يعنى أن رضوان أو أى بك آخر فى زمانه كان يدبر أى خيانة ضد العثمانيين فالوقت لم يكن مناسباً لذلك . بل على العكس من ذلك ، فحين كان وضع رضوان فى مصر عرضة للخطر ، اندفع الى اسطنبول ليعلم عن ولائه للسلطان ورتب أن يعاد الى منصبه كأمر الحج فى مصر .

وبعد وفاة رضوان ، أثارت عجرفة فقارية رداً فعلياً قاسمياً عنيفاً . وكان الباشاوات العثمانيون يستغلون التنافس بين المعسكرين كى يقروا من مصالحهم . فبالرغم من أن سلطتهم فى التصرف بشكل مستقل قد ولت ، الا أنهم استطاعوا أن يثيروا كل عصبية على الأخرى ، ويتخذوا جانب الجماعة التى يتصادف أن مصالحها تتفق مع غاياتهم .

وهكذا تكون تألف عام ١٦٦٠ من مصطفى باشا ، وبكوات القاسمية بقيادة أحمد بك البوسنى ، وكتيبة العزب . وفى ٢٧ أكتوبر ، ذبحت جماعة من البكوات الفقارية ، فى تراننه Tarrana وبعد ذلك بعامين ، يتسبب حاكم آخر هو ابراهيم باشا فى قتل أحمد بك البوسنى ، مما عجل بتدهور البكلكية (البكوية) . وظل البكوات يشغلون مناصب تقليدية ، غير أنهم لم يعودوا يلعبون أدواراً هامة . وحاولت اسطنبول أن تعيد تأكيد سيطرتها على الادارة المصرية اذ قصد الباب العالى الى ادارة المالية المصرية وذلك باستخدام كتبة من اسطنبول وأن تزيد العوائد من ٢٣ مليون بارة فى السنة الى ٣٠ مليون بارة .

وعموماً ، فقد فشل العثمانيون فى مواجهة المعارضة العنيدة التى أبدتها العسكريون فى مصر ، الذين كانوا قد تحولوا الى جهاز فى حد ذاته له مصالحه وأصبح لديه روح الفريق .

وحانت ساعة الكتاب السبع فى الحامية العثمانية (الأوجاقات) ، وهنا حدثت التطورات السياسية الرئيسية . ففى أثناء الربع الأخير من القرن السابع عشر ، والربع الأول من القرن الثامن عشر ، انتقل مركز الثقل السياسى الى الانكشارية ، وهى أغنى الكتاب السبع وأكبرها

وأقواها . وتحل المعارك بين الانكشارية والعزب وهي ثانی الكتائب من حيث القوة وكثرة العدد محل تنافس بيوت المماليك ، في الجوليات المصرية .

لم يعد منصب البك مطلوباً ، إذ لم يستطع الباشا أن يحصل على القدر الذي كان يتقاضاه من المرشحين للبيكلكية (البكوية) كما كان يحدث من قبل . والأمر الأكثر أهمية من ذلك ، أنه قد أصبح من المقبول ترقية ضباط من الكتائب إلى رتبة البيكلكية (البكوية) التي صارت عاجزة الآن (أصبح منصب البكوية بلا سلطات) .

وكما كان الحال بين البكوات ، فإن الصراع بين العصابات العسكرية وداخلها في الكتائب كانت له جوانب اقتصادية وعسكرية بما أن الكتائب كانت تسيطر على العديد من المزارع المربحة . فكما تبين حياة أحد صغار العسكريين كشك محمد باشودأباشي kusuk M. basodabasi أو الصغير الرتبة ، في كتيبة الانكشارية ، كيف أن ضابطاً صغيراً استطاع لبرهته أن يصبح أكثر الرجال نفوذاً في القاهرة . إذ استطاع أن يستخدم سلطته ليخفض من سعر القمح ضد مصالح المضاربين في الحبوب وأن يلغى دفع ضريبة الحماية غير الشرعية ، وبذلك لعب دور المدافع عن حقوق العامة . وتكشف حياة محمد العملية ، من عام ١٦٧٦ حين استولى على السيطرة على كتيبة الانكشارية حتى اغتياله عام ١٦٩٤ ، بعض الأحوال السياسية المعقدة في مصر في ذلك الوقت . إذ حاول أعداء محمد أن يقصوه عن موقعه الحاسم في مقر الانكشارية وذلك بنفيه إلى قبرص أو نقله إلى كتائب أخرى ، غير أنه نجح في تثبيت أقدامه سيداً على مصر لمدة عامين ونصف حتى وفاته (٣١) .

ودارت الأزمة التالية أيضاً حول الانكشارية . وكان الشخص الرئيسي هو افرانج أحمد ، وهو باشودأباشي basodabasi انكشاري . وحاولت جماعة من ثمانية ضباط انكشارية يعاونهم العزب أن يزيحوه ونجحوا في البداية ، وأجبر افرانج أحمد أن يقبل رتبة بك ، غير أنه بمرور الوقت ، تمكن من العودة إلى منصبه الأصلي ، في الانكشارية .

وانشقت القوى العسكرية فى مصر معسكرين معادين ، ولم يكن افرانج جلب معه تدعيمات من بدو الهوارة ، وبعض العناصر من الكتائب الأخرى ، خاصة العزب ، لما كان يتمتع به الانكشارية من مكانة وأرباح . فابتداء من شهر مارس الى يونيو عام ١٧١١ ، وصلت الأعمال العدائية بين المسكرين الى نشوب المعارك المسلحة . ويعطى تكوين المسكرين فكرة عن التعقيدات السياسية والعسكرية . اذ وقفت الى جانب افرانج أحمد غالبية الانكشارية ، والباشا ، ومحمد بك ، وحاكم الصعيد الفقارى الذى جلب معه تدعيمات من بدو الهوارة ، وبعض العناصر من الكتائب الأخرى ، ومعظم بكوات الفقارية وأهالى منازل مماليتهم .

وعلى الجانب الآخر كان هناك تقريبا العزب والكتائب الأخرى ، وكذلك ٦٠٠ من الفارين من الفقارية ، وبكوات القاسمية ، وقايتاظ بك ، وهو من كبار الفقارية كان قد تشاجر مع أيوب بك ، الزعيم الفقارى ، فانضم الى القاسمية . واستعر أوار المعارك فى القاهرة وحولها وأثناء القتال قصفت القلعة .

وقتل ايواظ بك وهو أحد القادة القاسمية المهمين، وغادر مصر اثنان من زعماء القاسمية المهمين ، وهما : أيوب بك ، ومحمد بك ، الذى سبق ذكره ، وهو حاكم الصعيد ، وذهبوا الى اسطنبول ، وتم أسر افرانج أحمد ، وأعدم فى (٢٢ من يونيو ١٧١١ م) ولم تكن الحرب الأهلية التى وقعت عام ١٧١١ ، علامة على هزيمة نظام الانكشارية ، والفقارية ، فحسب ، وانما ما هو أكثر مغزى من ذلك ، أنها كانت تشير الى اضمحلال هذه الأنظمة بمرور الوقت ، وصعود نجم نظام البكلكية (البكوية) الذى دام حتى الاحتلال الفرنسى عام ١٧٩٨ . اذ ان الانكشارية وغيرهم من الكتائب قد اغتراهم الضعف والوهن بعد عقد من الصراع المستمر ، وحتى أثناء الصراع نفسه ، عاودت البكلكية (البكوية) باعتبارها قوة عسكرية وسياسية مركزية (٣٢) . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا . كان صراع الفرق داخل مجتمع المماليك هو القصة السياسية لمصر فى القرن الثامن عشر . وأصبح التنافس بين القاسمية والفقارية قبيحا وداميا ، اذ كان الهدف النهائى هو القضاء التام على الجانب الآخر . كما أن

اغتيال البكوات على يد معارضيهم الذين كانوا يشعرون بالغيرة مما يتمتعون به من جاه ومال ، وأصبح شيئا كثير التكرار .

وبعد الصراع المسلح ، انتقلت زعامة القاسمية المنتصرين الى اسماعيل بك ، الابن الأكبر ذى الستة عشر عاما لايواظ بك ، الذى كان قد قتل . وبعد أن قتل ، تم اغتيال اسماعيل نفسه عام ١٧٢٤ وهو من الأمراء الذين كانوا يتنافسون معه على السيادة . وكان محمد بك شركس ، من أبرز المتنافسين الذين تلوا اسماعيل ، وهو رئيس فرع آخر داخل القاسمية . وتميز هذا الأمير المفرط فى الحكم الفردى الخالى من المبادئ بأنه كان أول من حاز لقب شيخ البلد الذى كان يحظى به كبير البكوات ، الذى كان أقوى شخصية فى القاهرة . وتسمى الحكومات العثمانية ، فى العسديد من الوثائق الرسمية ، هذا اللقب « ابتكاراً شيطانياً » ومصدر جميع متاعب مصر (٣٣) . غير أن اسطنبول ، اضطرت ، على مضض ، أن تتحمل اللقب الجديد ، الذى كان اختراعاً ابتدعه البكوات ، وعبر عن سيظرتهم وعجز الحاكم . وفى البداية تحالف محمد شركس مع ذى الفقار . وكان مغتال اسماعيل بن ايواظ أحد اثنين طامعين فى السيادة . وكان ذو الفقار يحوز على تأييد الباشا فنفى شركس فى شمال أفريقية ، وتسلسل الأخير الى مصر ، مع أتباعه وشكلوا معارضة لحكام القاهرة . فهزم فى المعركة وأغرق فى النيل فى ١٢ أبريل ، ١٧٣٠ ، بينما كان يحاول الهرب . كما قتل مؤيدو شركس (ذو الفقار) فى القاهرة بعد ذلك بيومين . وكان سقوط محمد بك شركس علامة على عودة الفقارية . وعلى كل ، كانت عصابات المماليك تميل الى الانشقاق الى أقسام أصغر فرعية تتنافس مع بعضها ، مما أفرغ انتصار البكوات من أى معنى ، كما لم يعطوا قادة الكتائب أى فرصة لحياء بعض من نفوذهم القديم . انتقلت السلطة السياسية الى حكم ثلاثي : هؤلاء الثلاثة كانوا اثنين من ضباط الكتائب ، عثمان كتحدا القزدوغلى (وهو من الانكشارية) ويوسف كتحدا (عزب) وأحد البكوات هو محمد بك قطامش . وقتل الثلاثة جميعاً بعد ذلك فى مذبحه من تدبير بكير باشا فى نوفمبر ١٧٣٦ ، وكانت واحدة من أكثر المعارك التى أريقت فيها الدماء وأسوأها فى حوليات مصر العثمانية . وأودت بحياة أحد عشر أميراً وبك ، وقائد كتيبة .

وظهر ثلاثي حاكم جديد ، يتكون أيضا من ضابطين ، أحدهما انكشارى والآخر عزب يحمل لقب كتخدا . وتحدى هذا الثلاثي ضابط انكشارى آخر ، هو ابراهيم تشافوش (شاويش) الذى يعرف على نطاق أوسع باسم ابراهيم كتخدا ، الذى سادت شخصيته القوية المسرح المصرى لمدة عشر سنوات : (١٧٤٣ - ١٧٥٤) . وكان شريكه هو رضوان كتخدا الذى قاد أيضا عصبة الجولفية الأصغر حجما ، كضابط من العزب، وساعده ابراهيم فى مطاردة عثمان بك ، المملوك وخليفة ذى الفقار ، حتى أخرجه من البلاد . ولم يشكل رضوان كتخدا أى تهديد لابراهيم بما أنه كرس وقته وطاقته لبناء مساكن رائثة ، وكذلك لرعاية الشعراء . وكان ابراهيم كتخدا هو رئيس القزدوغلية ، وهى جماعة قوية متحالفة مع الفقارية . ومن الجدير بالملاحظة . أنه لم يكن هو نفسه من البكوات ، وأنه وصل للسلطة بحكم وضعه فى كتائب الانكشارية ، والكثير من مماليكه قدر لهم أن يصبحوا من البكوات . وكان حكم ابراهيم ورضوان هو آخر مراحل التحول من حكم الكتائب - وبصفة رئيسية - الانكشارية الى حكم البكلكية المملوكية (البكوات المماليك) . فبعد وفاة ابراهيم فى نوفمبر ١٧٥٤ ، قتل مماليكه رضوان ، واختفى الجولفية Julfiyya كقوة سياسية .

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، احتكر القزدوغلية السلطة السياسية فى مصر حتى الاحتلال العثماني . ولم تتوقف المشاحنات ، حيث حلت المنافسات الشخصية بين البكوات القزدوغلية محل المنافسات بين العصابات .

بعد سنوات عديدة من عدم الاستقرار ، أصبح على بك الكبير أو بولوت كابان Bulut Kapan « صائد السحاب » شيخ البلد ، (الذى جعل الناس تطلق عليه هذا الاسم هو طموحه وعجرفته) بعد أن انقلب على على العزاوى ؛ الذى كان يسمى أيضا الكبير ، مما جعل المؤرخين فيما بعد يخلطون بين الاثنين . وكان العزاوى مملوكا لابراهيم كتخدا مثل على بولوت كابان نفسه . وكانت الفترتان اللتان قضاهما على فى المنصب كشيخ البلد (١٧٥٦ - ١٧٦٦ و ١٦٦٧ - ١٧٧٢) نقطة

تحول في تاريخ مصر العثمانية . فباعتباره طاغية ، وشديد الطموح ، كان أول حاكم منذ أحمد الناصر ، - قبل ذلك بقرنين ونصف - يحاول أن يفصل مصر عن الدولة العثمانية ويعيد السلطنة المملوكية . فأعد عدته بدقة وقسوة غير مسبوقتين . غير أنه أخل بالتوازن القديم بين القوى المحلية لكي يحقق أهدافه .

وعن طريق الاغتيال والنفي ، أزال الكثير من البكوات ، والعصابات المملوكية ، بمن في ذلك حلفاؤه السابقون . وكان أحد مساعدي علي بك والذي رشحه للقب بك ، بوسنيا يسمى أحمد باشا الجزائر . غادر ذلك الرجل مصر في الوقت المناسب كي يتقذ نفسه من طغيان علي . وعرف فيما بعد بحاكم صيدا . ومحا علي بك استقلال الانكشارية بعد أن طهرها من كبار ضباطها عن طريق الاعدام أو النفي .

وبعد هذه الاجراءات ، لم يعد لكتائب الانكشارية الا وجود شكلي وأصبحت مهامها الرئيسية هي حماية الحرفيين والتجار ، ومساعدة البكوات المماليك في سحب أموال من الخزانة بدعوى أنها رواتب الجند الانكشارية ، الذين تم تسجيل أسمائهم كجنود (المقصود : سحب أموال علي أنها أجور لجنود انكشارية مسجلين وهم في الحقيقة غير عاملين بالجنودية) .

أنشأ علي بك جيشا كبيرا يضم مماليكه العديدين والمرتزقه من شمال أفريقيا والدروز والبدو والشيعه والمسيحيين .

ومع مقدم عام ١٧٧٠ ، حطم الحكم الذاتي الذي كان يتمتع به اتحاد البدو في الصعيد والدلتا . وكان الهوارة في الصعيد قد اغتتموا تحت قيادة الشيخ همام الثرى القوى ، فرصة الصراعات المستمرة في القاهرة وحصلوا على حكم ذاتي نسبي في الأراضى الواقعة بين أسيوط وأسوان . وهرب الكثير من الأمراء المتمردين والهاربين من المعارك المتكررة الى الجنوب ، وانتظر بعضهم ظروفا أفضل بينما استقل آخرون من الهوارة . ولما كان علي بك عازما على أن يمد حكمه على البلاد بأكملها فقد هزم علي

بك هماما ، الذي توفي بعد ذلك بفترة قصيرة (١٧٦٩) . وقى نفس العام ، أسر الشيخ سويلم أهم مشايخ العرب في الوجه البحري ، وتم اعدامه . وبدأ على بك سياسة جمع المال قسرا بغلظة غير عادية . فكثيرا ما فرض ضرائب غير قانونية (أفانيات) Avanias على التجار الأوربيين في مصر ، وعلى الأقباط والأثرياء الآخرين . أما أكثر من أصابهم ضرر سياسة على ، فهم الجالية اليهودية التي ظلت لعدة قرون مستولة عن الجمارك ودار سك العملة وتغيير العملة . فقبض على بك على العديد من موظفي الجمارك اليهود وأخذ أموالهم عنوة ، وأعدمهم . وأعطى مناصبهم للمسيحيين الشوام الذين كانوا قد وصلوا حديثا ، فكان حكم على بالتأكيد هو أعنف صفة لليهود المصريين لقرون عديدة .

وبدأ على يتحدى السيادة العثمانية مباشرة . ففصل الولاية في عامي ١٧٦٨ و ١٧٦٩ ، وهي حركة عادية ، في حد ذاتها ، غير أنه أيضا لم يسمح بوصول ولاية آخرين . واتخذ امتيازات الحاكم المستقل ، وأمر بأن ينادى باسمه في صلاة الجمعة وأن يكتب على العملة . ووسع من علاقاته الخارجية ، مستهدفا ضم أراضى الحجاز والشام ، التي كانت أجزاء من السلطنة المملوكية . ولم يكن تدخله في الحجاز عام ١٧٧٠ أمرا غير عادي ، ذلك أن الحكام في القاهرة كثيرا ما فوضهم السلطان العثماني بأن يتصرفوا هناك نيابة عنه في صراعات أمر أشرف مكة المتكررة .

وفي بعض المناسبات ، أحل بك مصري محل حاكم جدة ، وكانت حملة على بك على سورية عام ١٧٧١ ، تحديا سافرا للسلطان .

وكان على بك يعتمد في تحركاته الجريئة على قوتين : الشيخ ظاهر العمر حاكم الجليل ، الذي كان مثله منكبا على محاولات للحصول على الاستقلال ، والروس ، الذين كانوا ، في ذلك الوقت ، في حالة حرب ضد السلطان ويبحثون عن حلفاء في شرق البحر المتوسط . وبدأت قوات على بك تتبدد أثناء الحملة على الشام ، فمع أن القائدين اللذين كانا

يقودان قواته اسماعيل بك ، ومحمد بك أبو الذهب هزما قوات السلطان وكانا على وشك الاستيلاء على دمشق ، الا أنه لم يتم لهما ذلك ، وتوقفا بعد أن كانا على وشك اعلان تمرد شامل ضد السلطان بالاتفاق مع الروس . وأوقفا الحملة فجأة وعادا الى مصر ، في خريف ١٧٧١ .

وكان لهما اليد العليا على علي في الصراعات التي جاءت مع مرور الوقت ، وفر علي الى صديقه ظاهر العمر ، وبقي معه لمدة تقرب من سنة . ثم تم اغراؤه بالعودة الى مصر برسائل مزيفة من مؤيديه هناك يعيدونه فيها أن يعيدوه الى السلطة ، فأسره مملوكه السابق ، وتوفى بعد ذلك بأسبوع - ربما مسموما في مايو عام (١٧٧٣) .

وعندما أصبح أبو الذهب شيخا للبلد ، جعل سياسته مع العثمانيين مناقضة تماما لسياسة علي بك الكبير فأظهر ولاءه لهم بقبوله الوالى العثمانى رافضا سياسة علي بك الكبير التي لم تكن تنهج نهجا اسلاميا ، وأظهر أبو الذهب عواطفه الدينية بتوقيع علماء الدين وبدعمه المسالى للمؤسسات الدينية الا أن حكمه لم يطل فقد مات فجأة سنة ١٧٧٥ أثناء معركة فى الشام ضد ظاهر العمر . ويقول كريسيليوس Creselius الذى كتب دراسة مقارنة بين علي بك ومحمد أبى الذهب ، أن مصر نعمت فى ظل حكم كلا الرجلين بحكومة قوية فرضت القانون والنظام اذا قارنا حكمهما بحكم من كان قبلهما مباشرة ، ومن أتى بعدهما مباشرة أيضا (٣٤) .

وتبعت وفاة (أبو الذهب) سنوات من المصاعب الداخلية ، حيث تصارع البكوات القزدوغلية Quzdughli على السيادة . ونشأ من هذه الصراعات الحكم الثنائى ، المكون من ابراهيم بك ، ومراد بك ، وكانا مملوكين من ممالك أبى الذهب . لم يتمردا بشكل سافر ضد الباب العالى، غير أنهما توقفا بالفعل عن ارسال التحويلات المالية السنوية الى السلطان .

وأصبح ابراهيم شيخا للبلد ، غير أنه كان يستشير شريكه ، مع أنهما تشاجرا وتم عقد الصلح بينهما .

وتضافرت النزاعات السياسية الداخلية بالاضافة الى سلسلة من الكوارث الطبيعية - مثل الأوبئة كالطاعون وارتفاع فيضان النيل وظهور طاعون الماشية - تضافرت كل هذه العوامل على أن تسبب للأهالى مصاعب اقتصادية مرعبة . كما كان جور الحكم الثنائى المستغل أكثر نوعا ما من المعتاد ، تحت حكم بكوات المماليك .

عند هذا الحد ، حاولت اسطنبول أن تفرض الحكم العثمانى المباشر على مصر . فغزا الأمير آلاى جزايرلى حسن باشا مصر فى أغسطس عام ١٧٨٦ ، ومزج تحركاته العسكرية ضد ابراهيم ومراد باعلانات تعدد باعادة الحكم العادل المبني على قانون نامه الذى أصدره سليمان ومبادئه الاسلام . وفى البداية ، اهتم السكان اليائسون بما قال ، ولكن مع مرور الوقت ، فقد حسن باشا شعبيته . ذلك أنه فى تعامله مع الفلاحين وسكان المدن كان ظالما شأنه شأن المماليك ، فنصححه اسماعيل بك الذى عينه حسن باشا شيخا للبلد بأن يأخذ المال قسرا كما فعل البكوات .

ثناء ذلك ، تقهر ابراهيم ومراد الى الصعيد ولم يقدر حسن باشا على ارجاعهما من هناك . وفى أكتوبر عام ١٧٨٧ ، تم استدعاء حسن باشا لأن الدولة العثمانية كانت على شفا الحروب مع روسية . وفى عام ١٧٩١ ، قضى الطاعون على أعداد رهيبية ، وكان اسماعيل بك من بين الضحايا . وكان هو الذى حكم القاهرة بعد رحيل حسن باشا . ودخل ابراهيم ومراد القاهرة مرة أخرى واستأنفا الحكم فى يوليو . ورغم أن نظامهما لم يلق تحديا أساسيا الا أن الأحوال ازدادت تدهورا ، بسبب الأزمات الاقتصادية والسياسية التى دامت وقتا طويلا .

وفى ١ يوليو ١٧٩٨ ، وصلت قوات الحملة الفرنسية الى الاسكندرية كى تعطى اشارة البدء لحقبة جديدة ، فى تاريخ مصر والشرق الأوسط . ولم يكن ابراهيم ومراد على استعداد لمواجهة الفرنسيين كما لم يكونا على علم بالرياح التى كانت تهب ، والتى وضعت حدا لنظام المماليك ، ومجتمعهم .

الفصل الثانى

تقلبات الطبقة الحاكمة

اتجاهات المصريين نحو العثمانيين - ملاحظات عامة

كما يشير عنوان هذا الكتاب ، فانه يقوم الاتجاهات المصرية نحو العثمانيين ويبحث فيها . ان المؤرخ الذى يتحمل مهمة كهذه تواجهه مشكلات منهجية معقدة . فالى أى حد كان المؤرخون الحوليون ممثلين لمجتمعهم ؟ فلقد رأينا أن ابن اياس كان يعبر عن آلام المالك الذين سقطت دولتهم . وكان الكثير من المؤرخين الحوليين اللاحقين من بين علماء الدين أو الموظفين الذين كانوا يتحدثون نيابة عن قطاعات خاصة من المجتمع ، وكانوا يعتمدون على حسن نية العثمانيين . كما يجب على المرء أن يأخذ حذره من النظر للأمور بغير منظور العصر الذى يؤرخ له . فرغم وجود التوترات العرقية زمن العثمانيين ، الا أن هذه التوترات لم تكن لها أى صلة بالأيديولوجيات القومية ، التى لم تطرأ الا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، والأكثر من ذلك ، فان العثمانيين - كما يبدو فى كتابات المؤرخين الحوليين العرب ، وكتاب التراجم والصوفية وكتاب الرحلات - ليسوا ، بالضرورة ، هم العثمانيين الذى تكشفهم الحقيقة الموضوعية ، هذا اذا ما وجدت - أى الحقيقة الموضوعية - مطلقا فى الأمور التى نهتم بها (١) فكما رأينا فى الفصل السابق ، فان ابن اياس كان ينظر للاحتلال العثمانى لمصر على أنه كارثة . كذلك فان محمد ابن طولون المتوفى ١٥٤٦ والذى كان شاهدا على الغزو وهو كاتب شامى ، كان أيضا شديد الانتقاد للنظام الجديد ، رغم أنه عبر عن نفسه بنبرة أقل مرارة وانفعالا بكثير من تلك التى اتخذها معاصره المصرى

فى السابق ، فالكثير منهم كانوا باحثين جادين ، وكان بعضهم من أفضل الباحثين فى علوم الاسلام (١٢) . وثمة تفسير آخر لشرح قبول المصريين والعرب الآخرين للسيطرة العثمانية يكمن فى خبرتهم السياسية والاجتماعية . لقد حكمهم اجانب لعدة قرون ، كانوا غالبا من اصول تركية او شركسية . اذ كانت النظرية الاسلامية والسياسية - وكذلك الممارسة - انه ما ان يستولى الحاكم على السلطة ويثبت قدرته على الحكم ؛ حتى يصبح حكمه حكما مشروعا . وليس من الضرورى أن يشارك المحكومين اللغة أو الأصل . وان كان هذا لم يمنع ظهور توترات مصرية - تركية وحالات ظهرت فيها كراهية المصريين للترك . ذلك أن الفوارق فى الطباع كانت من الضخامة بحيث لم يمكن غض النظر عنها ، اذ خلقت صورا سلبية وقوالب ثابتة لدى كلا الجانبين . فغالبا ما كان المصريون يشعرون بأن الأتراك ليسوا مسلمين صالحين . وكان الأتراك يتساءلون عن مقدرة المصريين على الحكم والقتال ، اذ كانوا يستخدمون فى وصفهم الفاظ تحقير ، مثل لفظ تات Tat او مقلاجى Miylaji حين يشيرون الى المصريين واعتبروهم أدنى منهم اجتماعيا (١٣) . كما أن استيعاب الأراضى العربية داخل الدولة العثمانية أجبر المصريين وغيرهم من المتكلمين باللغة العربية على مراجعة صورتهم الذاتية . فتحت حكم المماليك ، كانوا يعرفون أنفسهم على اسس دينية فقط . وكان المماليك يدعون أتراكا ، غير أن تركيتهم شئ أكثر وظيفية منه حق مولد ، فهى ميزتهم على رعاياهم .

ويشير المؤرخون العرب ، وعلى رأسهم ابن اياس ، الى المماليك على أنهم أتراك ، بينما كان يشار الى العثمانيين على أنهم (آروام) (تراكيما) أو (عثمانية) (١٤) . ولم يكن فى استطاعة أحد سوى نخبة المماليك استخدام أسماء تركية ، وهم وحدهم الذين كانوا يتحدثون باللغة التركية ، رغم أنها لم تكن هى اللغة الأم عند الشركاسة ، الذين وصلوا الى السلطة فى السلطنة المملوكية عام ١٣٨٢ .

لم يكن هناك شك فى عروبة مصر سواء من حيث اللغة أو الثقافة ، وكانت اللغة العربية هى لغة الحكم . ولكن بعد أن فتح العثمانيون مصر ، كان الوجود التركى فى مصر سائدا بشكل كبير ويشعر به الكثير من

طبقات المجتمع ، رغم أن الحكام الجدد لم ينظر لهم على أنهم أتراك ،
وانما كمسلمين .

أصبحت اللغة التركية هي لغة الحكومة والقضاة وغيرهم في الجهاز
الإداري ، خاصة أولئك الذين كانوا في مراتب عليا . فهم كانوا يتحدثون
بها . ويظهر في المصادر اصطلاح جديد للإشارة إلى الأهالي المحليين الذين
كانوا يتحدثون باللغة العربية : وهو أولاد العرب أو بالتركية أفلاذ
أعراب .

ومن الواضح أن المالك ، الذين بقوا تحت الحكم العثماني ، لم يعد
يمكنهم أن يعتبروا أنفسهم أتراكا ، وصاروا الآن يشار إليهم على أنهم
شراكسة (ممالك أو غز) (١٥) .

وبمرور الوقت ، ضاقت الفجوة الاجتماعية بين الأهالي ، بينما
اتسعت الفجوة بينهم وبين الأتراك . إذ شعر المصريون بأنه بالرغم من
أن مصر صارت مكانتها هي مكانة ولاية في الدولة العثمانية ، إلا أنها
مازالت بلدا منفصلا . فمن الناحية السياسية ، كانت بلاد العثمانيين
تسمى الدولة ، أو السلطنة وأحيانا الدولة الرومية ، أي الدولة التركية .
وكان يشار إلى مقاطعات الدولة المتكلمة بالتركية ، على أنها الديار
الرومية ، أي الأراضي التركية .

وعموما ، كان يشار إلى مصر على أنها الديار المصرية ، أي أرض
مصر ، بمعنى أنها بلاد منفصلة ، رغم ارتباطها بالدولة العثمانية .
إذ لم يذهب أي سلطان عثماني إلى مصر سوى سليم الأول . ولم يتابع
المصريون خلفاءه إلا على البعد ، رغم أنهم كانوا يعتبرون هؤلاء السلاطين
شخصا موقرين مبجلين محبين للخير (١٦) .

ولم يلاحظ المؤرخون الحوليون سوى اعتلائهم العرش ووفاتهم
أما ما دون ذلك فهو نزر يسير . وفي القاهرة ، كانت الاحتفالات بمولده ابن
للسلطان في اسطنبول أو بانتصار عثماني في ميدان القتال ، محدودة
بتعليق الزينات على الحوائيت والمنازل والألعاب النارية .

ويجب التأكيد على أنه قبل نهاية القرن الثامن عشر لم يزعم السلطان العثماني لنفسه لقب الخليفة ، ولكن مع قدوم هذا الوقت ، كانت الظروف السياسية قد تغيرت . فحينما كانت الامبراطورية فى قمة مجدها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كانت السلطنة من القوة بحيث لم تكن فى حاجة الى اللقب المحمل بظلال تاريخية - وهو لقب الخليفة - لكى تخلعه على السلطان .

حتى سوره الكهف

ولقد بين المؤرخون ، من قبل ، أن المزايم القائلة بأن آخر خليفة عباسى فى القاهرة نقل حقوقه الى سليم الأول بعد الفتح العثمانى لمصر ، ان هى الا أسطورة خلقت فى أواخر القرن الثامن عشر . وأحيانا كان يسمى المادحون العرب وغيرهم العثمانيين « ورثة الملك والخلافة » غير أن هذا لقب شرفى فارغ من أى مدلول سياسى أو دينى (١٧) .

الباشا : كان كبار ضباط الجيش يحكمون مصر العثمانية . والاستخدام العثمانى للفقو الذى قسم الأهالى الى فئتين أساسيتين ، عسكري ، « الطبقة العسكرية » والرعية (حرفيا ، قطع السلطان) يعكس الواقع الاجتماعى (*) . وغالبا ما كانت الطبقة الحاكمة تستخدم سلطتها كى تشرى نفسها ، بشكل قانونى أو غير قانونى . وكان بعض المدنيين يعملون بالتجارة ، وغالبا ما كانوا فى وضع مهزوز غير مأمون اذ كان من الممكن للجنود والامير استغلالهم وابتزازهم . وفى مصر - كما كان الحال فى معظم المقاطعات العثمانية - كان الحاكم (الوالى) هو أعلى مسئول من حيث الرتبة ، فهو الذى كان يدير الولاية ، باعتباره ممثل السلطان ، وكان مسئولاً عن حماية مصالح الحكومة المركزية ، بما فى ذلك جمع الضرائب وتسليمها والحفاظ على القانون والنظام ، وحماية مصالح الدولة الاستراتيجية فى مصر والاقاليم الداخلة فى مجالها الجغرافى السياسى (الجيوبوليتيكى) : كالبحر الأحمر ، والحجاز واليمن وولاية الحبش .

(*) the sultans flocks وبطبيعة الحال ليس هذا هو مفهوم الرعية فى التاريخ الاسلامى ، وإنما المقصود هو من يجب أن يرعاهم السلطان أو المسئول عنهم السلطان وقد استخدمت الكلمة منذ فجر التاريخ الاسلامى المبكر دون أن يكون لها هذه الدلالة .

ومن بين مسئوليات الحاكم تنظيم وحماية قافلة الحج الى مكة ، وتزويد مكة والمدينة بالحبوب من مصر .

وكان ينفذ واجباته الادارية من خلال الديوان ، أو مجلس الدولة ، الذي كان ينعقد أربع مرات أسبوعيا ، وكان مشكلا على غرار ديوان السلطان في اسطنبول . هناك كانت تناقش أهم الأمور، الخاصة بالدولة، ويبت فيها ، وتقرأ الفرمانات .

وكان الوالى هو القائد الأعلى للقوات في مصر ، برتبة باشا ، وقد منح عدة باشوات رتبة وزير (١٨) . وفى فرمانات القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، كان الباشا يلقب بكلكريك مصر فى المعتاد . وفى أزمنة لاحقة ، كان يلقب بوالى مصر .

ويمكن اعتبار سلطة الباشا مؤشرا مفيدا يدل على قوة اسطنبول فى مصر . وفى أثناء القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، كان الباشا هو حاكم مصر الفعلى ، وكانت سلطته هى العليا رغم تحدى الفرق المتمردة له ، اذ كانت حكومة السلطان العثماني تعطيه صلاحيات كاملة وهو ما يتضح حتى فى تركيب وصياغة فرمانات التولية . فمع أن الفرمانات كانت تعبر عن مشيئة السلطان الشخصية ، حتى فيما يخص أتفه الأمور ، مثل منح علاوة للجنود العاديين ، الا أنها كانت فى الواقع ، تعكس اقتراحات الباشا . وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، تدهورت سلطة الباشا الى مجرد ممثل لسلطة السلطان .

أما فى القرن السادس عشر حيث المصادر نادرة (١٩) ، فقد كان الباشا يلقى بظله فوق جميع أصحاب المناصب فى مصر .

ويسجل المؤرخون الحوليون بعناية تواريخ وصولهم وعزلهم ، وهذه التواريخ هى التواريخ الوحيدة الدقيقة فى هذا القرن . وكانت شخصياتهم تحظى بعناية كبيرة ، وكذلك سياساتهم وأعمالهم . ولما كانت مصر من أهم الولايات ، فإن باشواتها كان يتم انتقاؤهم من بين أفضل الاداريين ، وأولئك الاكثر قربا من السلطان وأحيانا يكونون من أقربائه .

النهرى بولاق ، أما الحاكم الذى كان يحضر برا ، فبقي فى حى العديلية Adiliyya شمال القاهرة . وكان كبار الأمراء يرحبون بالوالى عنده وضول ضباط الجيش والموظفين الذين كان يخلع عليهم الخلع (أردية الشرف) ، وكان الجيش يتوقع الترقيات لدى وصول الباشا الجديد ، الشبيهة بالعلوة التى كان يتلقاها انكشافية اسطنبول حين يعتلى العرش سلطان جديد (٢١) ، وبعد ذلك بعدة أيام ، كان الباشا يطوف بالقاهرة فى مكعب وهو فى طريقه الى سكنه فى القلعة ، مركز الحكم ، حيث كانت توجد مصلحة سك العملة والديوان ، والمكاتب المركزية . ونادرا ما كان الباشوات يغادرون القلعة ، بل انهم فى النصف الثانى من الحكم العثمانى ، كانوا سجناء نسبيا هناك . على كل ، فى القرن السادس عشر ، كان الباشوات ما يزالون يتجولون فى البلاد . اذ حارب داود باشا شخصا الكثير من البدو . ولقد تجول ابراهيم باشا (١٥٨٣ - ١٥٨٤) فى أقصى مديريات الصعيد حيث فتش على مناجم الزمرد ، كما زار الأهرام ، على أمل أن يجد كنوز مصر القديمة . وفى المحلة الكبرى ، أمر بهدم إحدى الكنائس بنيت على موقع أحد المساجد . كذلك زار ضريح الولى أحمد البدوى فى طنطا أكثر الأولياء المصريين شعبية .

وفى المناسبات القليلة التى كان الباشوات يغادرون فيها القلعة ، كانوا يحضرون احتفالات يقيمها الأمراء تكريما لهم ، فى قصور وسرادقات خارج المدينة ، فى مواضع مثل قصر العينى ، أو المقياس ، فى جزيرة الروضة .

وكان الباشا يترأس أهم المراسم والاحتفالات فى العام ، مثل فتح الخليج فى أوائل أغسطس حين يرتفع النيل وكذلك عند رحيل قافلة الحجيج الى مكة ، فى شهر شوال . وفيما عدا ذلك ، كان الباشوات يلزمون القلعة . وفى عدة مرات أثناء القرن الثامن عشر ، مع أن الباشا كان يعبر عن رغبته فى أن يقود شخصا حملة ضد قبائل البدو أو ضد أحد البكوات المتمردين ، لم يكن هذا سوى لفظة يقوم بها للتأكيد على خطورة الموقف ، ولم يلق الأمراء صعوبة كبيرة فى اثناؤه عن الذهاب (٢٢) .

ولما كانت فترة الباشوات فى الحكم قصيرة فى العادة ، فكانوا غالبا ما يحاولون أن يثروا بسرعة ، ولم يكونوا مهتمين برعاية مشروعات لن يجنوا ثمارها لأن هذه المشروعات كانت تستلزم الكثير من الجهد والوقت والمال . وعلى عكس سلاطين المماليك ، الذين كانت لهم أضرحة رائعة مشيدة فى مصر ، لم يكن الولاة العثمانيون يريدون أن يدفنوا فى مصر .

وكان الباشوات يتلقون أجورا سنوية (سليينات) Salyanes ولم يكونوا يحوزون اقطاعيات عسكرية ، بما أن مصر لم تكن تدار من خلال نظار التيمار (*) . واستفادوا ، بالاضافة لذلك ، من مصادر مختلفة للحصول على الدخول (٢٣) .

وبالرغم من افتقار الباشوات العام للحافز ، لبدء فى اقامة مشروعات مكافئة ، فلقد قدم الكثيرون منهم أعمالا خيرية ، وأقاموا منشآت عامة ومباني دينية . ولقد بين ريمون ، بطريقة مقنعة ، أنه بينما لم يثر العثمانيون القاهرة بالتاكيد بالآثار الرائعة ، كما فعل المماليك ، الا أنه يمكن مع ذلك ، اعتبار الفترة العثمانية فترة شهدت تطورا كبيرا فى المدن (٢٤) . اذ شيد الباشوات فى القرن السابع عشر ، والبكوات فى القرن الثامن عشر منشآت عدة كما أصلحوا مرافق المياه ، والخانات (أماكن استراحة القوافل ليلا) والحمامات والمنتزهات العمومية ، والقصور . كما شيدوا الكثير من المباني الدينية ، مثل المساجد والمدارس الدينية والتكايا ومدارس تحفيظ القرآن للأطفال والأضرحة . وكذلك أسهم الباشوات بالأموال لتزويد الحجاج الى مكة بمرافق للماء والطعام والراحة والأمن .

وكان الباشوات ، متأثرين فى هذا العمل ، أحيانا ، بميولهم الدينية . فعلى سبيل المثال ، كان شريف محمد باشا راعيا لمقام الحسين ابن على ، حفيد النبى ، ﷺ ، حيث كان يعتقد أن رأس الحسين يوجد بهذا المقام . ولقد وهب حاكم سابق لليمن الرواق اليمنى فى الجامع الأزهر ، وقام باشا آخر برعاية تكية للصوفية الأتراك (٢٥) .

(*) نوع من الاقطاع العسكرى .

واهتم العديد من الباشوات اهتماما خاصا بالرعاية الاجتماعية .
وذلك بأن أخذوا على عاتقهم إطعام عدد معين من الفقراء فى أوقات المجاعات
وكانوا يجبرون كبار الأمراء أن يحذوا حذوهم (٢٦) .

ويميز المؤرخون الحوليون عادة بين الحكام الخيرين والحكام الظالمين.
اذ كان بعضهم كرماء محسنين . بينما كان الكثيرون منهم ظلمة أنانيين
وغاصبين (٢٧) . فحسن باشا ، الذى عزل عام ١٥٨٣ ، كان بصفة
خاصة حاكما ظالما ومغتصبا . وفى القليل من الحالات ينحى المؤرخون
الحوليون باللوم على مندوبى الباشوات أو الكتخدا للسياسات غير
المحبوبة أو غير الشعبية . فكان بيع السلع اجباريا (كالتحاس وهو مثال
معروف) للتجار بناء على أمر الباشا قد سبب الكثير من التذمر . وفشل
بعض الباشوات فى أن يتعاملوا بكفاءة مع عصابات المجرمين ، بينما كان
الآخرون سيئى السمعة بسبب السهولة التى كانوا يعدمون بها الناس
لأقل اساءة .

وفى العصور الوسطى ، وزمن العثمانيين أيضا كانت اتجاهات
الحاكم الدينية ذات أهمية كبيرة فى تشكيل صورته العامة . فكان هناك
حاكمان هما أفيز Uveys باشا (١٥٨٧ - ١٥٩١) وابراهيم باشا
(١٦٠٤) من القضاة ، عينوا فى منصب دفتردار (*) . مثل هذه الحياة
العملية كانت غير مطروحة فى السلطنة المملوكية ، حين كانت الفجوة بين
رجال السيف ورجال القلم لا يمكن عبورها .

ولقد عرف بعض الباشوات بنعوت تشير الى ميولهم الدينية . فكان
خادم حافظ أحمد باشا (١٥٩١ - ١٥٩٥) يحفظ القرآن ، وكان يختمه

(*) الدفتردار من اليونانية Diphthear بمعنى جلد الحيوان والرق الذى يستعمل
للكتابه عليه ، ودخلت الفارسية بمعنى مجموعة الصحف ، فالدفتردار هو صاحب الدفتر .
وفى العهد العثمانى كان الدفتردار بمثابة وزير للمالية . ثم حصل بكوات مصر على
حق تعيين الدفتردار ولم يعد قسرا على المسئول المالى ، اذ كان البكوات يمنحون هذا
اللقب لشجعان الجند ورجال السياسة دون نظر فى خبرتهم المالية . وظهر فساد هذا
النظام فتم العدول عنه . (محمد السعيد سليمان ، ص ٩٨ - ١٠٤) - (المراجع) .

كل أسبوع بعد أن يصلى الجمعة جماعة • وكان اسكندر باشا (الذى عين عام ١٥٦٨) يعرف بأبى النور ؛ لأنه هو الذى أمر بان تسمح جميع مساجد القاهرة وأضرحتها وتنظف ، وزودها بالشموع • وثمة محمد باشا آخر كان يسمى غازى بعد أن قمع تمرد محمد بك ، الحاكم المملوكى لجرجا فى الصعيد عام ١٦٥٩ • ومنذ أن عرف محمد باشا أن هناك بكوات آخرين أيدوا المتمرذ ، سمى حملته غزوة وهو لفظ يستخدم فقط فى قتال الكفار والهراطقة • فحصل الحاكم على فتوى من العلماء معلنة أن محمد بك متمرذ ، وخائن • وكان العرض العسكرى قبل الحملة يشمل الذين اتبعوا سنة النبى ﷺ وشاركوا فى الذكر ، وكذلك أشرفا (أى منحدرين عن الرسول) يقودهم نقيب الأشراف • وكان هناك على الأقل ، ثلاثة من الباشوات يعرفون بأنهم صوفية ، وهو لقب دينى له أهمية خاصة : الصوفى على باشا ، (١٥٦٣ - ١٥٦٥) وكان زاهدا لا يرتدى سوى ملابس من الصوف الخشن ، ويتردد على زيارة مقابر الأولياء فى القرافة ، والصوفى ابراهيم (الذى قتله الجنود المتمرذون عام ١٦٠٤) وكان درويش مولويا (*) فى قونية • أما الثالث فكان محمد باشا (١٦١١ - ١٦١٥) •

فى وقت السلطنة المملوكية ، كان هناك من السلاطين من يوقر الصوفية ، ولكن لم يطلق على أى سلطان مملوكى وصف الصوفى ، وهو تغير يبين التقدم الذى حققه الصوفية تحت حكم العثمانيين • ويقال ان معظم الباشوات رجال أتقياء يلتزمون بالشرعية •

وعموما ، فلقد كانت هناك استثناءات : اذ وصف دو كاجين أغلو محمد باشا (١٥٥٤ - ١٥٥٦) بأنه رجل داعر لأنه اعتاد أن يذهب الى

(*) طريقة صوفية منسوبة لولانا جلال الدين الرومى ، وجلسات الذكر فيها تصاحبها الموسيقى ، وأول درجة فيها هى (محب) ثم (مرید) ثم (درويش) ثم ان كانت له قدرات خاصة - (شيخ) أو (خليفة) ، وهى طريقة متسامحة مع الأديان الأخرى ، ونلقى استهجانا من الفقهاء • وقد اختلفت تدريجيا بعد ذلك •
دائرة المعارف الإسلامية ١١ • جى • بريل - المادة - (المراجع) •

النيل حيث كان يغنى علنا ومعه آلة شبيهة بالقيثار . فاستدعى بناء على أمر من السلطان سليمان متهما بالخروج على أحكام الشريعة وأعدم . كما أعدم بيرم باشا فى ١٢٦٨ بأمر من السلطان ، على ما يقال ، بتهمة عدم احترام أحكام الشريعة . وكان الباشوات يظهرون ورعهم فى حياتهم الشخصية والعامة معا .

وكما أشرنا من قبل ، كان أحد واجبات الباشا الرئيسية تنظيم الحج الى مكة وأن يكون مسئولاً عن أمن الحجاج وراحتهم .

وكان كل حاكم عين حديثاً ، فى المعتاد ، يزور ضريح الامام الشافعى فى القاهرة . وكان الكثير من الباشوات يزورون مقابر أخرى مقدسة ويأمرون بترميمها . وكان الباشوات يشاركون فى الصلوات التى كانت تؤدى جماعة حين يكون النيل شديد الانخفاض أو شديد الارتفاع .

وربما كانت الصيغة الورعة التى يصدر بها خادم مسيح باشا (١٥٧٥ - ١٥٨٠) جميع فرمانات ، خير معبر عن عواطف الحاكم الدينية وعمله الرسمى . وهذه هى الصيغة المقصودة :

الحمد لله ، رب العالمين . والصلوة والسلام على نبينا سيدنا محمد ، وآله وصحبه . ان المؤمنين أى المسلمين اخوة فأفشوا السلام بين اخوتكم . واتقوا الله لعلكم ترحمون . يا عباد الله ، اعملوا بشرع الله .

كان الباشوات لا يفضلون أن يموتوا فى مصر ، لو كان الأمر بيدهم . وكان أولئك الباشوات الذين يعرفون أنهم على وشك الموت فى القاهرة ، اما نتيجة لمرض مميت ، أو لأنهم قد حكم عليهم بالاعدام ، كانوا يختارون مدافنهم بالقرب من ضريح شريف مثل ضريح الشافعى أو مقبرة الليث ابن سعد (٢٨) .

الجيش المصرى فى القرن السادس عشر - الجيش فى قانونى ناهه

مصر

كان أساس الجيش العثمانى هو حامية سليم مع اضافات تمت

أو الموت • وكان يتحتم ابلاغ المقاطعات والولايات الأخرى فوراً بأسماء الجنود المسرحين • والتدبير الحكيم العثمانى كان أيضاً جلياً : فالوثيقة تحدد أقصى عدد من الجنود فى كل كتيبة ، وتعطى تحذيراً صارماً ضد الحاق أى رجال قبل ظهور مكان شاغر • وحتى فى هذه الحالة ، لا تتم أى تعيينات حتى يوجد عدد معين من الأماكن الشاغرة ، أى خمسين فى الأوجاقات الأكبر • عندها فقط يمكن ابلاغ الأمر لاسطنبول ، ويتم اعداد طاب لاحلال آخرين محلهم •

ويولى هذا القانون اهتماماً مناسباً لجعل الفرق فى حالة استعداد وتادرة على أداء واجباتها • وهكذا يجب على المتطوع (الجونيليان) أن يكون قادراً على استخدام حربة من فوق صهوة جواد ويرمى بسهم بأى من يديه •

وعلى التوفينكجيان (حملة الأسلحة النارية) أن يكونوا مهرة فى اطلاق النار من أسلحتهم من فوق الخيل • وتحظر النظم على المدنيين ، بيع أو انتاج أو تخزين الأسلحة النارية أو الرصاص ، ومن يفعل ذلك معرض للاعدام • وكان الواجب الرئيسى لكتابب الخيالة هو مساعدة حكام الأقاليم أو الاداريين (الكشاف) فى جمع الضرائب من القرويين ، والحفاظ على النظام ، والتحكم فى رجال القبائل البدو • وهناك تحذير للجنود بعدم اساءة معاملة الفلاحين ، وألا يأخذوا طعاماً منهم دون دفع ثمنه • وبالمثل ، فهتم السلطات العثمانية ، فى هذا التاريخ المبكر أن الفرق المتمركزة فى المدينة كحرس وشرطة يمكن أن يتعدوا على معاش الحرفيين وأصحاب الحوانيت وذلك بالتدخل فى الأنشطة التجارية أو أخذ الاتاوات بالقوة • فكان من ينهم من الجنود بهذا العمل عرضة للخصم من راتبه •

وكان واجب كتيبتى المشاة الكبيرتين ، المستحفظان والعزب ، هو حراسة القلعة وكان على جميع الجنود بلا استثناء (بمن فيهم المتزوجون) أن يعيشوا داخل المجمع الضخم الذى يضم المنشآت العسكرية • وكانت الوحدة الأولى (المستحفظان) تقوم بعمل الشرطة فى موانى النهر أى

مصر العتيقة ، وبولاق ، والكتيبة الأخرى العزب تحرس باب السلسلة بالقلعة وكانت هاتان الكتيبتان تتكونان بالكامل من الأتراك (روملو) ، وكان الشراكسة والبسود يستبعدون من هاتين الكتيبتين بشكل خاص (٣٠) .

ويحدد هذا القانون أن أبناء الجنود ، قول أوغولارى *qul oghullari* (معناها الحرفى ، أبناء عبيد السلطان) فى هذه الكتائب يسمح لهم بالالتحاق بالجيش ، حتى أثناء حياة آبائهم .

ومن الأمور التى لها مغزى أنه فى القرن السادس عشر ، نفسه ، تخلى الجيش العثمانى عن المبدأ القاضى بالأا يتزوج الانكشارية حين يكونون فى الخدمة الفعلية وتخلى كذلك عن اعتبار الطريقة الوحيدة لقيود الجنود تكون من خلال نظام الدفشرمة (ضريبة الدم) ، الذى ينطوى على تعليم دينى وتعليم عسكري فى قصر السلطان ، أو فى الأناضول ، بالنسبة للمجندين الذين ولدوا كمسيحيين وأخذوا بعيدا عن أوطانهم فى مقاطعات الدولة العثمانية فى البلقان .

وكانت لكتيبة المماليك الشركس أهمية خاصة . فمن خلال هذه الكتيبة ، انضم المماليك الى الجيش العثمانى ، غير أن قائد الكتيبة الأغا (القائد) والكاهيا *Kahya* الكتخدا (نائب القائد) لابد أن يكونوا من الأتراك (الرومولو) وهو دليل على أن الشراكسة لم يحظوا بالثقة الكاملة . كما يدل على أن الحاجة للحفاظ على الانضباط فى صفوفهم يعبر عنها بألفاظ شديدة القوة . وعلى النقيض مع غيرها من الكتائب ، لم تكن كتيبة المماليك الشركس يشغل أفرادها المناصب العسكرية الشاغرة . وإنما يحول رصيدها الى الخزانة (٣١) . وثمة شك مشابه للشك الذى يلحق بالمماليك ، يتضح أيضا فى الفقرة التى تناقش كتيبة التشافوتشية (الجاويشية) - *Ghayush* - ومبعوثى الباشا والمساعدين والأعوان والرسل - التى تتكون من ٤٠ رجلا . فى هذه الحالة تسد الأماكن الشاغرة فقط من كتائب الخيالة ، من الجونليان *Gönüllüyan* والتوفينكجيان .

ولقد تم التأكيد على عدم دفع راتب جندى (علوفة ulufe) (*) لأى من كتائب أبناء الشراكسة والفلاحين ، (يقصد أهل البلد وليس الفلاحين بالضرورة أو البدو) . ويمكن عزل الأغا لعصيانه هذا الأمر ، بينما يواجه مندوبه وكتابه عقوبة الموت (٣٢) . ولم تكن سياسة استبعاد أى شخص ليس من أصل تركى خاصة بمصر ، ذلك أن الوثائق تبين أن هذا كان هو أيضا الحال فى الشام (٣٣) . ان الأمر الذى كان غير عادى هو ادماج المماليك الشراكسة ، بالرغم من وجود كل هذه الشكوك والتوترات . ذلك أن الأتراك قرروا أن المماليك السنيين المتكلمين بالتركية ، مع ما لديهم من تقاليد طويلة فى ادارة مصر ، يعتبرون شيئا ثمينا جدا بحيث لا يمكن الاستغناء عنه . وكان لهذا الخروج على مبادئ التنظيم العسكرى والتجنيد عند العثمانيين ، أبلغ الأثر على تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى .

الشروع الأولى فى النظام العسكرى

أثناء حكم سليمان القانونى وفيما تلا ذلك من عقود ، كان الجيش المصرى حامىة عثمانية نمطية رغم أنه كان كبير العدد بشكل واضح ، حوالى ١٠٠٠٠ منهم ٨٠٠٠ « مصرى » (٣٤) . وكانت مسئوليات هذا الجيش عديدة ، ومتنوعة : جمع الضرائب ، والمحافظة على القانون والنظام ، وحراسة قافلة الحج ، وحماية الريف من البدو المغيرين . وتمركزت قوة كبيرة من حوالى ألف وحدة - أى عشر الجيش - فى الصعيد وحده (٣٥) .

وفى القرن السادس عشر ، كان على الجيش المصرى أن يعوض أو يدعم الوحدات الشامية التى كانت دائما تعاني من نقص فى الأفراد ، كما كان على الجيش المصرى أن يقوم بالمهمة الكريمة ، مهمة اقرار سلطة السلطان فى اليمن - وبدرجة أقل - فى الحبشة (**).

(*) العلوقة هى المواد الغذائية اللازمة للإنسان والحيوان ، لكنها تعنى أيضا الراتب .
 محمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ - (المراجع) .
 (***) المقصود ولاية الحبش (ارتريا) - (المراجع) .

قضائه ، وانما تحت امرة بكلر بك مصر ، الذى ظل قائمهم وضابطهم
الأعلى .

وبمجرد انتهاء فترة عملهم فى فلسطين ، كانت تصدر لهم الأوامر
بالعودة الى مصر كى يعينوا كما يأمر الوالى (٤١) .

وكانت الخدمة العسكرية فى مصر تعد أكثر أمنا ، ويسرا وأبعث
على السرور وأكثر ربحا من أى مكان آخر فى سائر الدولة العثمانية ،
مما جلب الحسد على جند مصر (المسير قولارى) (٤٢) . وكان هذا
الشعور ومحاولة رصد مزاعم القابو قولارى (الجند القادم من اسطنبول
أو عبید السلطان) ضد المصريين ، موضوعا لرسالة (أو مقاله مطولة)
شديدة التشويق كتبها على أفندى ، فى منتصف القرن السابع عشر ،
وهو كاتب مغمور فى الجهاز الادارى للمسكرية المصرية . ولقد كتب
بالتركية ، يصف مسئولوا رفيعا فى البلاط العثمانى ، يتوقف فى مصر
أثناء الحج الى مكة . ويرد على حسن الضيافة الذى عامله به كبار الضباط
فى القاهرة ، بهجوم عنيف على الحيسة الناعمة التى يحيها الجنود
المصريون بالنسبة للحالة الخسنة التى يعيش فيها رفقاؤهم من العثمانيين .
ويجادل بأن الجنود المصريين يتقاضون أجورهم دون أن يضطروا الى دخول
الحرب ، بينما يضطر القابو قولارى أن يشنوا الحملات فى كل عام .
وبالرغم من ذلك ، فان على أفندى يدافع عن الجيش المصرى ذاكرا
الخدمات المنوعة التى يقدمها للدولة والأهم من ذلك ، أنه ، مع أن المصريين
ليسوا أقل استعدادا للقتال وليسوا أسوأ من القابو قولارى ، الا أنهم
يفوقونهم الى حد بعيد فى سلوكهم الدينى والأخلاقى . كما أن الجيش
المصرى شديد الانضباط والولاء ولا يتعدى مطلقا على سلطة الباشا
وغيره من الحكام (٤٣) .

ومع أن هذه الرسالة كتبت فى القرن السابع عشر ، الا أن الحجج
الخاصة بالجيش المصرى تنطبق أيضا على القرن السادس عشر . ومن
الممكن القول بأن هذه الرسالة منحازة ، الا أنها تعكس قضايا حقيقية .
فهنالك ما يكفى من الأدلة على أن مصر كانت بحق ، تعد مكانا آمنا ، لأداء

الخدمة العسكرية ، بل وملجأ للذين يريدون أن ينفضوا عن عاتقهم حروب الدولة الدائمة . وينص مرسوم امبراطورى بتاريخ ١٠١٣ هـ / ١٦٠٥ م صراحة على أن الجنود الراغبين فى تجنب القتال فى حملة عسكرية ، يحصلون على مرسوم (أمر شريف) بوسائل معينة ، ثم يذهبون الى مصر بذريعة القيام بعمل رسمى . ويؤمر باشا مصر بتجاهل هذه المراسيم التى لم يتم الحصول عليها بطرق سليمة ، ويرسل بالرجال الى الجبهة (٤٤) . والأسوأ من ذلك ، فان صياغة العديد من الأوامر السلطانية تكشف أن القيادة العليا العثمانية قد فقدت الثقة فى نظامها وترباطها ، مع نهاية القرن السادس عشر ، على النقيض من تحكم اسطنبول المطلق تقريبا فى الشئون المصرية فى بداية الفتح العثمانى . ذلك أن الأوامر المؤرخة ٩٩٩ هـ / ١٥٩١ م و ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٥ م تبليغ البكلربكوات فى مصر أن هناك بعض الأفراد يحصلون على تعيينات رسمية فى الادارة المصرية من خلال صلاتهم فى اسطنبول . لذا كان الوالى يؤمر بتجاهل هذه المراسيم والتعيينات (بيرات berat) : وألا يعين أى شخص قبل أن يصبح هناك منصب شاغر (محلول) وأن يعتمد على فطنته حتى لا يحمل الخزانة ما لا تطيق . وفى الوقت نفسه ، تسلم اسطنبول بأن الوضع فى مصر فى غاية الفوضى ، والارتباك ، وتحاول تحديد عدد الجنود بدقة ، وتحديد أجورهم ورتبهم (٤٥) .

ولقد أسهمت الحياة الطيبة نسبيا فى مصر ، وكذلك بعدها عن اسطنبول فى نمو البيروقراطية المصرية والجيش ، وهو أمر كان موضع انتقاد المراسيم الامبراطورية . اذ يقرر أحد المراسيم المؤرخ ٩٧٥ هـ / ١٥٦٨ م أنه يوجد عدد كبير من المطلوب من التشافوش *Chavush* والجنود المتفرقة فى مصر أكثر من اسطنبول نفسها (٤٦) . كما يضيف على ذلك أن الأعداد لا يجب أن تتعدى تلك الأعداد المحددة فى القانون (*) (حيث لا يسمح بأكثر من ٤٠ تشافوشى) اذ انه فى سنة ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م ، كان هناك ٤٥٠ تشافوشى (جاويش) ، مع أنه لم يكن مسموحا فى ذلك الوقت سوى ب ١٨٠ من الشافوشية و ١٨٠ من المتفرقة . كذلك

(*) المقصود قانون نامه مصر الذى سبقت الاشارة اليه .

كانت هناك زيادات كبيرة فى الوحدات الأخرى : ففى ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م ، كان هناك ١٤٠٠ من الانكشارية بدلا من الألف التى كان مسموحا بهم ، و ٧٠٠ من جنود العزب بدلا من ٥٠٠ (٤٧) .

وتبين العديد من المراسيم أن النظام العسكرية والمالى قد تدهور أثناء النصف الثانى من القرن السادس عشر . اذ كان راتب الجندى يتكون من أجره الأساسى (ابتداء) حسب كنيته ورتبته ، زائد (تراقى) (أى منح) . وكان من حق الجندى أن يتقاضى أجرا اضافيا اذا ما اشترك فى احدى الحملات ، أو كانت هناك توصية خاصة بشأنه . كذلك حين كان يتولى باشا جديد منصبه ، كانت القوات تطلب مبلغا خاصا وعادة ما كانت تتسلمه . ففى ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ - ١٦٠٦ م حين رفض أحد الباشوات أن يقدم هذه الزيادة ، حطم الجنود المتمردون خيمته فوق رأسه (٤٨) .

بالاضافة الى أجرهم المنتظم (العلوقة) ، كان من حق الجنود أن يحصلوا على تموين من الحبوب من مخازن الغلال الامبراطورية (*) فى القاهرة وكذلك الحصول على علف لحيواناتهم . وكان الجنود المحالون الى التقاعد ، والأيتام وأرامل الجنود المتوفين أيضا يتلقون أموالا من الخزانة . وكانت الفروق فى الأجور فروقا كبيرة . فحسب ما ورد فى أحد مصادر منتصف القرن السابع عشر ، كان الراتب الأساسى كما يلي : يتقاضى الجندى من المتفرقة ١٢ من الأقساات يوميا (كانت الأقسا عملة فضية صغيرة ، بل هى أصغر وحدات العملة العثمانية) : والشافوش ١ ، والجنولو ١٠ ، والتافينجى ٩ ، والشركسى ٨ ، والانكشارية ٧ ، والعزب ٦ (٤٩) . غير أنه فى القرن السادس عشر ، كان الأجر الفعلى أعلى بكثير ، حيث كان الجندى من المتفرقة يحصل على ما يتراوح بين ٥٠ الى ٦٨ أقشا ، يوميا ، بالاضافة الى نصيب من الحبوب وغير ذلك من الترفقيات ، أى المنح (٥٠) . فشكا القاىو قولارى من أنهم

(*) المقصود العثمانية ، أى المخصصة للارسل الى عاصمة الدولة .

يتلقون مرتباتهم مرتين أو ثلاثا فى السنة ، بينما يحصل المصريون على رواتبهم كل شهر (٥١) .

وكانت رواتب الأمراء والباشوات أعلى بكثير إذا ما قورنت برواتب رجالهم . اذ كان البك السنجق فى القرن السادس عشر يتقاضى عادة ٢٠٠٠٠٠٠ أقتشا سنويا ، وكانت تصل منحه الى ما هو أكثر من ٢٠٠٠٠٠ . وكان أهم الأمراء وأكبرهم أجرا ، هو الدفتردار ، أو مدير الخزانة الذى كان دخله السنوى ٢٠٠٠٠٠ زائد منح تبلغ ٣٠٠٠٠٠ أقتشا (٥٢) .

وكان الشافوشات وجنود المتفرقة من وحدات النخبة ولم يكن أعضاؤهم من الأمراء ولا من الجنود النظاميين . وكانت الحكومة تثق بهم حتى أثناء انهيار الانضباط . وثمة مرسوم يأمر الباشا بأن يحجم عن تعيين البكوات السناجق والأغوات (من أمراء وقادة كتائب) فى الأمور المتعلقة بمخازن الغلال ، ولا يستخدم سوى المتفرقة والشافوشات (الجاويشية) . فكان جنود هاتين الكتبتين غالبا ما يعينون كشافا وأمناء (مفتشين ماليين) وهكذا يزيدون من فرصهم فى الترقى الى البكلكية . وكانوا يزيدون من دخولهم بالعمل مدرءا أو أوصياء على مؤسسات الوقف (٥٣) أو بجمع ضرائب العزب .

الطواشية

كان الطواشية والأغوات السود الذين يرسلون من قصر السلطان الى مصر ليعملوا كمدرءا للوقف جماعة خاصة تتقاضى رواتب ومعاشات فى مصر .

وكان الجنود المصريون يمتنونهم أشد المقت وكانوا يشعرون بالغيرة لما يتقاضونه من رواتب مرتفعة وما لهم من صلات فى اسطنبول (٥٤) . وكان الأغوات السود فى الأساس من مصر وعن طريقها يرسلون الى مجمع حريم السلطان فى اسطنبول . فمنذ بداية الحكم العثمانى ، كان يطلب من باشا مصر أن يرسل أغوات سودا لطيفى المنظر من الأجانب (عجم) لا يفهمون اللغة التركية (٥٥) .

٩٨٧ هـ/١٥٧٨ م شكوى ضد أمراء وأغوات يتاجرون فى الطعام وغيره من المؤن محققين احتكارا لمواد معينة ، مما أدى الى نقص فى الطعام فى اسطنبول (٥٨) . اذ اعتاد أن يحضر رجال فى خدمة الأمراء الى القرية ويأخذوا النقود من الفلاحين عنوة فى مقابل حماية غير قانونية ضد الكشاف ومشايخ العرب ، الذين كانوا مسئولين عن ادارة الأقاليم (٥٩) . وينص مرسوم صادر فى ٩٨١ هـ/١٥٧٤ م ، أن الضباط الذين يقومون بوظيفة الكشاف والأمين كانوا يقتلون الأشخاص بلا مبرر . وكان أمر السلطان لا لبس فيه : اذا كان الناس قد قتلوا انتهاكا للشريعة ، فيجب معاقبة القتلة طبقا لها ، حتى لو كانوا من السباهية (المصرين) أو عبيد الباب العالى ، ولم تكن هناك حاجة حتى الى احالة الأمر للسلطات المركزية (٦٠) .

واجهت القيادة العليا العثمانية مشكلة أساسية من النسل المستمر للعتاصر غير المأذونة أو المفوضة الى جيش مصر وغيرها من الولايات . ولقد تنبأ بالمشكلة وأضع قانونى نامه مصر الذى أشرنا اليه كثيرا فيما سبق والذى اشترط أن الجنود الحقيقيين فقط (قول) هم الذين يتم تعيينهم ، وليس الرجال الذين يعملون فى خدمة الباشوات أو الأمراء (٦١) . ويمكن للمرء هنا أن يتبين ميل المسئولين رفيعى المستوى ابتداء من الباشا حتى الأمراء والأغوات ، الى أن يضعوا عبيدهم وأتباعهم فى الجيش لكي يزيدوا من سلطتهم ونفوذهم . وكان الباب العالى على وعى بهذا التطور وحذر منه ولكن على ما يبدو دون طائل .

ان هؤلاء الجنود الذين هم دون المستوى والذين لم يجندوا أو يدربوا فى نظام الدفترمة *divsirme* العثمانى النظامى كان يعتقد أنهم يحدثون مشكلات فى الانضباط . اذ يقال ان خدم البكوات والأغوات والدفترتارات كانوا متهمين بالقيام بتعدييات ، وكان الباب العالى يريد من كل صاحب منصب أن يكون مسئولاً عن الرجال الذين هم فى خدمته (٦٢) .

فى القرن السادس عشر ، ارتقى الكثير من أمثال محدثى النعمة *carvenus* هؤلاء الى مراكز بارزة ، كما يبين لنا وضع اثنين من أمراء

الحج ، فأيدى Aydin بن عبد الله الرومى الذى عمل أميرا للحج عام ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م ، ربما كان من أصل تركى كما يشير نعتة بالرومى . وغالبا ما كان يوحى اسم ابن عبد الله أن أبا الشخص مجهول أو غير مذكور ، اما لأنه من معتقى الاسلام أو لأنه مملوك . وقيل عنه انه بدأ حياته كبائع متجول فى سوق خان الخليلى بالقاهرة . ومن هذه الأصول شديدة التواضع ارتفع شأن أيدى كى يصبح ضابطا ثم كاشفا وأخيرا أميرا للحج . وكانت حياة مصطفى وهو الآخر ابن عبد الله رومى أكثر من ذلك مدعاة للدهشة فهو أيضا كان شديد الفقر ، فى صغره . وبعد أن عمل سروجياً فى الجيش ، أصبح غنيا عن طريق نهب خزانة أحمد باشا « الخائن » . واستطاع أن يعين كاشفا وبعد ذلك أصبح أمير الحج . وبهذه الصفة نال كنية النشار ؛ لأنه كان يقتل قطاع الطرق بنشرهم الى نصفين (٦٢) . وبد أن خدم كأمر للحج لمدة تسع سنوات من ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م ، نصب مع مرور الوقت حاكما على اليمن وأخيرا حاكما على مصر نفسها (١٥٦١ - ١٥٦٤) (٦٤) .

ومن أهم أسباب انهيار نظام التجنيد فى الجيش هو الحاجة لارسال آلاف من الجنود الى اليمن والى الحبشة ، (المقصود ولاية الحبش وهى ارتريا الحالية) بدرجة أقل . وكان قمع الاضطرابات العديدة والعنيفة التى كانت تشعلها القبائل العربية بقيادة الأئمة الزيدية فى اليمن عالية التكلفة من الناحية المالية والقوى البشرية بالنسبة للباشوات المصريين . اذ كانت الخدمة فى ولاية اليمن الخطرة الجبلية القصية شيئا ممقوتا بشدة ، حيث كان الجنود العثمانيون الذين يرسلون من اسطنبول والشام ومصر يمقتون الخدمة هناك . ويتضح من الفرمانات العثمانية العديدة التى توجه الى باشا مصر والمتعلقة بالشئون اليمنية أن الحكومة العثمانية لم يكن لديها فكرة حقيقية عن عدد الجنود الذين ذهبوا بالفعل الى اليمن ، وعدد من بقوا هناك ، ولا بد أن عدد الخسائر فى الأرواح ، وكذلك الفارين كان مرتفعا جدا . فوجد الباب العالى من المستحيل عليه تقريبا أن يقدم تدعيما كافيا للحكام الواقعين تحت ضغط شديد وحصار . فأمر على باشا السمين والى مصر ١٥٤٩ - ١٥٥٤ بأن يرسل ٥٠٠ رجل

غير أنه لم يتمكن من ارسال سوى ٢٢٠ (٦٥) ٠ وفى ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م ، لم يذهب الى اليمن سوى ٥٠٠ رجل بدلا من ٣٠٠٠ كانوا مطلوبين (٦٦) ٠ ولكي تحل اسطنبول هذه المشكلة ، جزئيا ، على الأقل ، اتخذت اجراءات متنوعة لاغراء الجنود بالخدمة فى اليمن ٠ فوجد أولئك الذين ذهبوا بالمنح ، أما من رفضوا الذهاب فهددوا بالتسريح من الجيش ٠ كما ألح على ولاية مصر بأن يشجعوا جنودهم على الخدمة فى اليمن ٠ ويخدم الجنود المصريون هناك بالدور ، (المقصود لفترة محدودة) عادة لمدة ثلاث سنوات (٦٧) ٠ غير أن هذا لم يكن كافيا ، فاضطرت الحكومة الى تجنيد رجال من خارج الجيش النظامي ، كأبناء الجنود ، واخوانهم (قول أوغلو فى قريندashi (qul Oghlu ve qarindashi) وكان هؤلاء يقيدون اذا كانوا من الأتراك روملو ، (روم أوغلانى) كعبيد ومن حراس الأمراء ، وغيرهم من الشخصيات البارزة باغرائهم بأن يتم قبولهم كجنود مصريين نظاميين (٦٨) ٠ وفى عام ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٨ م ، حين ألحق الجنود ليخدموا فى اليمن ، هرب الكثير من العبيد البيض والسود من مالكيهم كى ينضموا الى الجيش ٠ ويقال ان الحرفيين والصناع قد اختطفوا بالقوة من شوارع القاهرة وألحقوا بالجيش (٦٩) ٠

ونتيجة لذلك ، فانه مع أن السياسة كانت تقتضى ضم من هم من أصل تركى فحسب ، تسلل أولاد العرب الى الجيش ٠ وكان بعضهم من المصريين أبناء البلاد ، بينما جاء آخرون من المقاطعات العربية فى الدولة ٠

ويذكر وجود أولاد العرب فى الجيش لأول مرة قرب نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر حين تمرد الجنود ٠ اذ عكست أعمال التمرد هذه ، التدهور العام الذى حدث للأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى الدولة (٧٠) ، فقد أدى التضخم وغيره من العوامل الاقتصادية الى اضطرابات فى الأناضول ، وهو ما يسمى بتمردات الجلالى 'Jelali revolt' (٧١) ٠ ولم تنج الولايات العربية من أعمال التمرد المشابهة ، التى نشبت فى اليمن فى الستينات من القرن السادس عشر ، والشام (بعد عام ١٥٧٤) ومصر فى (١٥٨٩ - ١٦٠٩) ذلك أن أجور

الجنود التى تم تثبيتها منذ عقود تآكلت بسبب التضخم وانحطاط قيمة العملة . فاستولت الكتائب فى المدن والأقاليم الريفية على النقود بالقوة من الأهالى كى يزيديا من مكاسبهم ، وحين حاولت الحكومة المركزية وولاتها إيقافهم ، كان رد فعل الجنود عنيفا . وحين ثار الجنود فى تمرد لأول مرة أثناء ولاية أوفيز Üveys باشا (حاكم مصر من ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م - ٩٩٩ هـ / ١٥٩١ م) ، نادوا فى شوارع القاهرة ألا يستخدم أولاد العرب عبيدا أترাকা أو يشتروا ممالك (٧٢) . وقام السباهيون (الخيالة) بمحاولة فاشلة لاغتيال الباشا ، حين حاول أن يستعيد النظام . ورفع السباهيون المتمردون مطالبا مشابها أثناء حكم محمد شريف باشا ، (٩١٤ هـ / ١٥٩٦ الى ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٨ م) ، الذى أعلن أنه سيلتزم بحزم بما جاء فى قانونى نامة مصر . وأعلن بلا مواراة : لن أعطى رواتب للفلاحين (أى للمصريين المتكلمين باللغة العربية ، وليس بالضرورة الفلاحين) فالرواتب فقط للأتراك (الرومو أوغلانى Rum Oghlani) فبلغت موجة التمرد ذروة جديدة باغتيال ابراهيم باشا ، عام ١٦٠٤ م ، المعروف بالمقتول ، وهو أول حاكم فى مصر العثمانية تقتله قواته (٧٣) .

وكما ذكرنا آنفا ، فان السباهيين المتمردين قد عوقبوا عام ١٦٠٤ م بواسطة قول قيران محمد باشا ، الذى قام بإلغاء الطلبة (بضم مع تشديد الطاء وسكون اللام وفتح الباء) وهى ضريبة غير قانونية كانوا قد فرضوها على القرويين .

وفى الأوقات العسيرة ، لم يرد الجنود المتكلمون بالتركية أن يتقاسموا رواتبهم مع الأعراب وناضلوا لطرده أولاد العرب من الجيش ، واستمر هذا النضال حتى القرن التالى .

بقاء الممالك فى ظل الحكم العثمانى

يعد بقاء الممالك هو القضية الأكثر غموضا فى التاريخ الاجتماعى للجيش المصرى تحت الحكم العثمانى لكنها أيضا قضية مثيرة للباحث . ومن بين العقبات التى تقف حائلا دون تقصى تاريخهم ، ندرة المصادر التى يرجع تاريخها الى العقود الأولى للفتح العثمانى . اذ انه كما أثبت ديفيد

ايالون David Ayalon فى دراسة حول تحول مجتمع المماليك تحت الحكم العثمانى « فان الصفة المميزة للمماليك ، وهى أسماؤهم التركية ، اختفت لأن أعضاء من الطبقة الحاكمة التى كانوا يشكلون جزءا منها ، - بمن فى ذلك السلاطين - كانت لهم أسماء عربية » .

ولا يشكل هذا التغيير الأساسى صعوبة أمام المؤرخ فحسب ، وإنما يعكس أيضا واقعا سياسيا واجتماعيا جديدا . ذلك أن الخط الفاصل بين المماليك وغير المماليك لم يعد واضحا كما كان من قبل . فأصبح الحراك الاجتماعى بين طبقة المماليك ، والجنود غير المماليك والمدنيين ، ممكنا بشكل متزايد . وكان التغيير الرئيسى الثانى الذى أكد عليه ايالون هو التخلي عن المبدأ الذى كان بالغ الأهمية فى السلطة وهو أن مكانة الملوك ليست وراثية ، لكن الذى حدث فى عصر العثمانية أن أولاد المماليك غالبا ما كانوا يرثون رتب آبائهم فى مصر العثمانية ، وكذلك ثرواتهم ووضعهم الاجتماعى (٧٤) .

لقد سبق لنا أن ناقشنا ضم المماليك فى الجيش من خلال الأوجاقات الشركسية Charakise Ojagi أو الكتيبة الشركسية ، عند حديثنا عن قانونى نامه مصر . إذ كانت نية اسطنبول هى الحط من المماليك بحيث يصبحون قوة من الدرجة الثانية من حيث الأهمية ووضعهم تحت رقابة صارمة . وفى حقيقة الأمر ، لم تتخذ هذه الكتيبة أى دور مهم ، ولم تزد عن كونها واحدة من كتائب الخيالة السبع غير أن المماليك لم يوجدوا فى الكتيبة الشركسية وإنما فى وحدات أخرى أيضا ، خاصة بين البكوات الشركس (البكلارية الشركسية) التى صسارت مرموقة فى القرن السابع عشر .

ورغم أن واضعى المراسيم العثمانية كانوا مترددين بشكل واضح فى الإشارة الى أى جماعات عرقية ، فيما عدا الأتراك ، الا أن هناك وثيقة جلية بتاريخ ، ٩٩٤ هـ / ١٥٨٦ م تأمر بأن يرسل الجنود القادرون من الترك والشركس (يرار قو رومولو وى شركس قولوندان) الى اليمن (٧٥) . ولا يمكن لأحد أن يخطئ التأكيد العرقى ، ذلك أن الترك والشركس عنصران

وإلا يحصل أحد على البكوية قبل أن يوجد منصب شاغر (٧٩) . وحين قام قسول قيران محمد باشا بإعادة تنظيم الجيش بعد سحق التمرد السيباهى ، عام ١٦٠٩ ، سرح الجميع عدا اثنى عشر من أجدر البكوات ، أما السبعة عشر الآخرون فقد تم نفيهم إلى اسطنبول . غير أن هذا الاجراء سرعان ما تم التخلي عنه ، شأنه شأن اصلاحاته الأخرى (٨٠) .

من الناحية المبدئية ، كان لابد أن يأتى البكوات وغيرهم من أصحاب الرتب الرفيعة من بيت السلطان ، كما لاحظ مصطفى على حين زار القاهرة عام ١٥٩٩ م . غير أنه أثناء زيارته للقصر ، فى سنة ١٥٦٨ م ، لم يجد تحقيقا لمطلبه ، الا فى ثلاثة فقط من بين البكوات الثلاثين الذين التقوا به . أما البقية ، فكانوا من الأجانب والمتسلقين الذين وصلوا إلى مناصبهم العليا بطرق متنوعة ، وفى الغالب مشبوهة (٨١) . فكانت مهمة البك أو السنجق أحيانا ما تعطى لابن أحد الباشوات ، أو أحد أشرف مكة . بل حتى لأحد مشايخ العرب . اذ كما قال هولت ، فانه قد حدث عكس تام للعرف العثمانى ذلك أن السنجق (علم) لم تكن له أهمية فى مصر التى هى مجرد منطقة تحت حكم أحد البكوات ، وانما هو بالأحرى كان يشير إلى رتبة البك . وغالبا ما كان البكوات يقومون بافتمال المناصب الأدبية كدفتردارات ، وكشاف ، أو أمراء حج أو قادة لقوات مهمات خاصة (سردارات) . وعموما ، فلقد بدا أنه من الصعب التحكم فيهم . وهم يقفون خارج نظام الأوجاقات وفوقه (٨٢) .

وفى القرن السادس عشر كانت اسطنبول قلقة أصلا من احتمال أن يكون للبكوات المصريين الكثير من الأتباع قادرين على أحداث المتاعب . وتوجد أدلة على أن البكوات كانوا يميلون إلى ظلم الرعية ، وكان من المفضل أن يتعامل مع الأهالى المدنيين ضباط أقل رتبة وأكثر اعتمادا على الدولة مثل الأمناء ومن هم أدنى منهم (٨٣) . ومن المهم أن نؤكد على أنه ، رغم أن البكوات لم يكونوا جميعا من المماليك ، إلا أن عددا كبيرا منهم كان كذلك ، حتى أن طريقة الحديث فى القرن السادس عشر ، تفرق بين البكوات والبكوات الشراكسة ، اذ كانت المراسيم تتحدث عن

(★) المقصود أن مصر لم يكن لمنصب السنجق أو حامل السنجق فيها قيمة .
بعكس الولاية العثمانية الأخرى .

أمراء مصر وأمراء الشركس أو محافظة بكلارى ، « أو البكوات المدافعين »
أو شركس بكلارى (٨٤) وينبغى أن ينصرف انتباهنا الى هذه الجماعة
الأخيرة .

القرن السابع عشر

ويقدم لنا ترمذ السباهيين فى القرن السابع عشر ، وقمعه بواسطة
القول قيران Qul Qiran وحمد باشا ، عام ١٦٠٩ م والانتقال الكبير ،
والصراعات المسلحة داخل الجيش المصرى فى القاهرة فى ١٧١١ م -
كلها تقدم اطارا مناسبة لمناقشة التطورات الاجتماعية والسياسية فى
الجيش العثمانى بمصر فى القرن السابع عشر ، وهى فترة تم فيها الاسراع
بالاتجاهات السابقة عليها اسرعا شديدا . اذ صار انهيار الباشوات
أكثر وضوحا ، وظهرت البكلكية باعتبارها القوة المركزية المستقلة
تقريبا . وفى أثناء العقود الأخيرة من القرن السابع عشر والعقود الأولى
من القرن الثامن عشر ، تمت تقوية كتيبة (أوجاق) الانكشارية بشكل
مبهر اقتصاديا وسياسيا . وفى أثناء القرن السابع عشر ، كان الباشا
(الوالى) يلقى احتراما عاما باعتباره ممثلا لسلطة السلطان وكان
ما يزال قادرا على فرض ارادته . غير أنه كان عليه أن يعامل القوى
الأخرى ليس على أنهم تابعون له وانما كشركاء تقريبا . وفى ١٦٢٣ ،
رفض الجيش ، لأول مرة ، أن يقبل « باشا جديدا » . وتمت تلبية طلبهم
وحين وصل الوالى المعين الى الاسكندرية ، طردته الحامية . وفى عام
١٦٣١ م ، نما صدام خطير آخر بين الجيش (المماليك) والباشا . فقرر
موسى باشا ، الوالى ، التخلص من قايطاس Qaytas ، وهو أحد زعماء
البكوات الذين تحدوا سلطته . فحين أتى قايطاس لتحية الباشا فى أحد
الأعياد ، أمر الباشا باغتياله . فانتقم البكوات لمقتل رفيقهم ، بخلع
الباشا وتعيين واحد من بينهم ، كقائم مقام ، أو نائب للحاكم وأبلغوا
استنبول بالحادثة . فأصبح ذلك سابقة : ان ايقاف الباشا عن طريق
العسكريين الكبار وقبول الباب العالى للأمر الواقع عن طريق ارسال من
يحل محله ، أصبح شيئا روتينيا فى القرنين السابع والثامن عشر . فعلى
سبيل المثال ، فى عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٦ م عزل كبار قادة الجيش أحمد
باشا ، لأنه فرض ضرائب غير عادية ، وخفض من دخول بعض وحدات

الجيش • وعومل الباشا الموقوف بالاهتمام المناسب ، وكانت تتم العناية به مؤقتا فى خيمة كبيرة داخل القلعة أو فى أحد المنازل فى المدينة حتى رحيله (٨٥) •

فى معظم الحالات ، كانت خلفات الباشا مع الجيش ومع البيروقراطية المصرية والباب العالى خلفات مالية ، ولم تكن سياسية • وصار اجراء مستقرا لدى كل باشا جديد أن يفحص حسابات سلفه قبل أن يسمح له بمغادرة مصر ، وكان لابد من تسوية ديونه للخزانة • ففى عام ١٠٢٩ هـ / ١٦٢٠ م ، قبض حسين باشا على الباشا السابق قبل أن يتمكن من الرحيل ، غير أن الأخير تمكن من الهرب أثناء التحقيق معه • (وأطلقت قذيفة مدفعية على مركبه فى ميناء الاسكندرية ولم تصبه) ولقد اتهم شاه سيفار أوغلو غازى محمد ، باشا ١٦٥٧ - ١٦٥٩ م ، (وهو حاكم قوى ، قمع تمردا قام به حاكم الصعيد) بابتزاز مبلغ ضخيم من المال يعادل خزينة ، أى التحويل المالى السنوى الى اسطنبول - وأعدم لهذه الفعلة فى القاهرة • وبعد ذلك ، بفترة قصيرة ، وصل فرمان آخر ، ولكن بعد فوات الأوان ، من الباب العالى طالبا أن يرسل دون أن يلحق به أى ضرر الى العاصمة العثمانية (٨٦) • وفى القرن السابع عشر ، كان فى امكان أى من الباشوات ، حتى الضعفاء منهم ، أن يجعل ارادته تسود ، لو أنه تصرف بحزم • فلعدة لحظات من الأزمة أثناء تمرد عسكرى ، كان الباشا يرفع راية السلطنة ويأمر خدم السلطان المخلصين بأن يتجمعوا تحت الراية ، أما أولئك الذين يقصرون فى القيام بذلك ، فكانوا يهددون بالطرد من الجيش أو بما هو أوخم من ذلك • وكان أول من فاز بتأييد الجيش بهذه الطريقة هو قول قيران محمد باشا ، وتكررت هذه الطريقة الدرامية فى مخاطبة الموالين وعزل المتمردين عدة مرات عن طريق الباشوات بعد ذلك (٨٧) •

وربما كان أهم تطور حدث فى مصر فى القرن السابع عشر هو نشوء البكلكية كقوة سياسية كبرى • ذلك أن هذا التطور لا يشير فحسب الى جهد كبار القادة العسكريين الأقوياء لتشبيت امتيازاتهم ازاء حكومة

مركزية ضعيفة وممثلها وهو الباشا ، وانما كان يشير أيضا الى التأكيد على التقاليد والطموحات الماوكية . ولهذا دلالته المهمة .

فهو يعنى احياء التراث السياسى المملوكى ممثلا فى ظهور نزعة الانقسام (التشرذم) الى عصابات ، كما تجلّى فى حالات الثأر التى لا تنقطع بين الفقارية والقاسمية ، والتى ترجع جذورها الى زمن السلطان سليم الأول ، اذ نشأ هذا التشرذم نتيجة نزاع بين أخوين يسميان « ذو الفقار وقاسم » فحمل الفصيلان المتنازعان اسميهما ، غير أن الاصل التاريخى الفعلى لهذا الانقسام غامض (٨٨) . ويرجع تاريخ أول اشارة يعطيها المؤرخون الحوليون الى الجماعتين الى تمرد السيباهيين الذى وقع عام ١٦٠٩ . ويوحى السياق الذى تذكر فيه احدى العصبتين أنه قد تم اقرار ادعائها بحكم بعض الأقاليم (٨٩) . وظل الصراع بين العصبتين للقرنين التاليين موضوعا محوريا فى الحياة السياسية لمصر العثمانية مع اختلاف فى درجة الحدة من آن لآخر وكذلك اختلاف فئات المشاركين (من بكوات وضباط كتائب ، وجنود ، ورجال قبائل من العرب) الا أن هذه الصراعات كانت تتميز بالمواجهات بين التحالفات التى كانت غالبا مبنية على علاقة غير رسمية بين عميل وراع(*) على النمط المملوكى الذى حل محل الأوجاقات ، التى ظلت رسميا دون أن تمس ، رغم ما ألم بها من ضعف ، حتى نهاية الفترة العثمانية فى مصر (**). وكانت الصراعات دامية وعنيفة ، وكانت المصالح الاقتصادية والسياسية والشخصية عرضة للخطر ؛ لأن البكوات كانوا يحتكرون نسبيا جميع مواقع السلطة ومصادر الدخل خلال قسم كبير من القرن السابع عشر ومعظم القرن الثامن عشر فمع منتصف القرن السابع عشر على أكبر تقدير ، شغل البكوات أكثر المناصب سلطة وربحا . وأطلق عليهم لقب قائم مقام ، حين يكون الباشا غائبا أو معزولا .

وأمتلك الكثير من هؤلاء البكوات ممالك ، وغيرهم من الأتباع ، كما استخدموا ثروتهم للفوز بتأييد الباب العالى ، أو باشا مصر أو الأوجاقات .

(★) client-Potion أى مملوك وتوابعه أو رجاله - (المراجع) .

(★★) المعنى : استطاع التشرذم المملوكى أخيرا أن تكون له الغلبة حتى على

المؤسسة العسكرية نفسها (الأوجاقات) أو الوجاقات - (المراجع) .

حسب ما كانت تسمح تعقيدات الموقف السياسي (٩٠) • وثمة صراع نموذجي وقع عام ١٦٤٧ م بين القاسمية والفقارية ، تورط فيه رضوان بك الفقارى ، الذى سبق ذكره ، وأمير الحج ، وحليفه على بك ، حاكم الصعيد (٩١) الذى طمع فى ممتلكاته أميران من القواسمية، قنصوه بك ، ومامى بك ، (أو مامى Mumay) اللذان تمتعا بتأييد الباشا • وحاول كلا الجانبين الفوز بتأييد الباب العالى ، وربما كان نجاح الفقارية هو الذى رجح كفة الميزان فى صالحهم • غير أن مساندة الأوجاقات فى القاهرة كان أمرا حساسا • اذ استدعى رضوان بك على بك من جرجا ، فحسم المعركة بظهوره تحت قلعة القاهرة على رأس جيش ضخم من جنوده النظاميين وغير النظاميين وكذلك البدو • وجعل استعراض القوة الذى كان مصحوبا بتوزيع الهدايا من المال والطعام بين الأوجاقات جعل هذا كله يحسم من هو المتحكم فى الموقف • وبنداء عام من القوات أو الفرق المجتمعة ، نودى به كى يحقق فى الاتهامات التى تقول ان قنصوه ومامى قد اختلسا أموالا من الخزانة • فالح مؤيدو اثنين من بكوات القاسمية عليهما بأن يرفضا أن يؤخذا الى داخل القلعة للتحقيق ، غير أنهما لم يكثرنا ، ربما لأن ثقتهما فى الباشا كانت فى غير محلها • وفى الليل ، تم شنقهما ، وفى اليوم التالى أنزل تابوتاهما من القلعة •

وحدثت أحداث مشابهة ، مرتين على الأقل ، أثناء تمرد محمد بك ، وهو حاكم آخر للصعيد ، عام ١٦٥٩ ، وأثناء الاضطرابات الكبرى عام ١٧١١ م (٩٢) •

وأثناء الصراع ، أظهر على بك سلوكا غير ودى نحو الباشا وذلك بأن رفض تقديم احتراماته له فى القلعة (وربما شك أيضا فى وجود شرك) ، كما حاول السيطرة على القلعة • كذلك كان على متباطنا فى اطاعة أمر الباشا بأن يعود الى اقليم (الصعيد) • وحين نفذ صبر الباشا ، حاول أن يرسل حملة ضد البك الذى أخذ يتراجع ببطء ، غير أن الجيش عصى أمر الباشا • وقالت الانكشارية : « ان واجبنا هو جباية الضرائب » • وقالت الجاوشية والمتفرقة أيضا القول نفسه • ومع تسليم كتائب السيباهية بأن الحملات العسكرية من هذا النوع من مسئوليتهم الا أنهم انحازوا الى على بك ، وهكذا لم يقلق لعدم خضوعهم

وتمت عملية تطهير دقيقة للأوجاق ، من مؤيدى البك المهزوم ، فاطمان رضوان وعلى على منصبيهما مدى الحياة .

وبعد ذلك باثنتى عشرة سنة ، أظهر خلف على بك ، كحاكم للصعيد ، محمد بك ، استقلالا مشابها ، حين تحدى سلطة الباشا وذلك باستعراض للقوة تحت القلعة . لقد كان عادة متهورا عدوانيا غير أنه واجه حاكما عنيدا قوى العزم ، هو غازى محمد باشا . وبما أن الجيش لم يؤيد محمد بك ، فلم يواجه الباشا الا مقاومة ضئيلة ، فى الاعلان عن أنه متمرد وبالتالي تنظيم حملة تأديبية ضده . فى هذه المرة ، كان اتجاه الباب العالى ، أيضا مختلفا . إذ قام السلطان بتنصيب محمد بك حاكما على الحبشة (*) ، بسبب تأثر السلطان بخبير فى الشئون المصرية كان يفهم أن محمد بك كان يأمل فى أن يصبح حاكما مستقلا . ولكن حين ازدرى محمد بك هذا التعيين ، اتجهت قوة عسكرية كبيرة الى مقره فى منفلوط وسحقت التمرد ، وأعدم محمد بك فى ٨ مارس عام ١٦٥٩ م .

لقد كان تمرد محمد بك حادثا غير عادى ، لأنه مع أن البكوات ، كانوا أحيانا يتحدون سلطة الباشا ، الا أنهم كانوا يبذلون جهدا كبيرا كى يظهروا ولاءهم للسلطان والدولة العثمانية . حتى رضوان بك ، أمير الحج العظيم ، الذى ادعى أنه ينحدر من سلالة سلطاني المماليك الشركسيين برقوق وبرسباى ، وأنه من أصل قرشى (وهكذا مقرا قرابته بقبيلة النبی ﷺ) الا أنه كان شديد الحرص على الحفاظ بوشائج جيدة من الباب العالى ، مدركا أن حياته العملية لن تدوم أو تصمد أمام عدم رضى السلطان . وتبين شجرة العائلة الزائفة التى زعمها رضوان أن الوعى السياسى المملوكى وكذلك الذكريات كانت حية تماما وبشدة فى القرن السابع عشر ، أكثر مما كانت فى الخمسمائة سنة التى تلت الغزو العثمانى لمصر (٩٣) . ونحن على تمام الثقة من أن أكبر الممثلين لهذا الكيان المملوكى كانوا من المماليك الشركس ومن انحدروا عنهم ، رغم التسليم بأن هذا الوعى لم يكن مقصورا عليهم وحدهم ، إذ كان هناك الكثير من البكوات ممن لم يكونوا من الشركس

(*) المقصود ولاية الحبش ، ارتديا الحالية - (المراجع) .

أو من الماليك • وكما يخبرنا افيليا شلبي الرحالة التركي الشهير الذي زار مصر في السبعينيات من القرن السابع عشر ، فإن الماليك أتوا من أقاليم مختلفة ، ومن جماعات عرقية متنوعة • ورغم أن الشركس يبدو هم العنصر البارز ، فكان هناك أباطية Abaza وجورجيون وروس ، وأمريتيون Imeretians ومينجرليون Mingrelians وغيرهم (٩٤) • ومع ذلك ، فإن ظاهرة وجود عنصر شركسي واضح في الجيش ، وهي الظاهرة التي أشرنا إليها سابقا ، في القرن السادس عشر ، تصبح أكثر وضوحا وجلاء في القرن السابع عشر • وليس الأوجاقات الشركس هم الجديرين بانتباهنا ، وإنما البكوات الشركس بالأخرى والذين يشتمل اليهم كجهاز منفصل ، يتميز بوضوح عن غيره من البكوات (٩٥) ، الذين يسمون ببسناطة بكوات أو سناجق بكلاية • إذ كان البكلاري (البكوات) الشركس يسرون ، في المواكب الاحتفالية ، تحت الأعلام الخاصة بهم ، بشكل منفصل عن غيرهم من البكوات • وحين كان المؤرخ الحولى يصف قوة مصرية أرسلت لقمع تمرد في الحجاز ، عام ١٦٣١ - ١٦٣٢ م فهو يميز تمييزا واضحا بين البكوات المصريين (النظاميين) والبكوات الشراكسة (٩٦) • وفي سياق آخر نجد إشارة عارضة مرة إلى جند شراكسة ومرة إلى جند مصرية (مصرية) وثمة أدلة أخرى يمكن الحصول عليها من الفرماتات التي نجد أنها بينما تأمر أن تنضم المفرزات المصرية إلى الجسم الرئيسي للجيش العثماني ، نجدها أيضا تأمر بأن ينضم عدد معين من البكوات الشراكسة إلى الجنود (٩٧) •

ويقدم لنا افيليا شلبي (سلبى) ملحوظات قيمة عن الماليك • والأدلة التي يقدمها ذات أهمية خاصة ، بما أنه كان حاد الملاحظة ، رغم ما يعرف عنه من حالات عدم الدقة ، إذ كان يهتم بالأمر اللغوية والثقافية والاجتماعية • انه يرى مصر كشخص خارجي - باعتباره تركيا عثمانيا - ولكن ليس كشخص غريب تماما • فهو يقارن الماليك بيوسف كما جاء في القرآن الكريم ، والذي تربى في مصر ، وبمرور الوقت صار سيد هذه البلاد • فالماليك ، بالمثل ، تم استيرادهم من أقاليم مختلفة وأرسلوا إلى بيوت تلقوا فيها تعليما جيدا ، وازدهروا حتى صاروا «عزيز مصر» ، وهو نعت قرآني يعنى حاكم مصر •

ويقول افيليا ، ان هؤلاء المماليك ، يتنكرون للغتهم الشركسية أو الأباطية ، ويتحدثون باللغة العربية الممزوجة بالتركية ، وبذلك يوجدون لهجة شاذة غريبة على مصر ، أى لهجة تركية بها نسبة كبيرة من الكلمات العربية . ويجب أن نلاحظ بالطبع ، أن التركية العثمانية الصحيحة كانت تحتوى على الكثير من الألفاظ العربية (٩٨) كما يكشف افيليا اتجاه المماليك نحو الامبراطورية العثمانية . اذ يكتب أنه فى كل مرة يمر فيها الشركس بجماع وضريح خاير بك ، كانوا يشيخون بوجههم ، لأنهم كانوا يتذكرون أنه الحاكم الذى أعطى مصر للعثمانيين . ومن ناحية أخرى ، كانوا يولون الكثير من التوقير لقبر طومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، الذى أعدهم سليم كما كانوا يوقرون قبر أحد أمراء المماليك هو قورت باى الذى قاتل بشجاعة ضد جيش سليم ، وقتل سنان باشا ، الصدر الأعظم للسultan سليم (٩٩) .

وفى وصفه لمدينة منوف Minuf ، يتناول افيليا سكانها شديدى المراس . اذ انهم لو كانوا موحدين ، كما يقول ، لاستطاعوا طرد الأتراك ، بل وتمكنوا من السيطرة على الحجاز . غير أن الله برحمته ، جعلهم يعيشون تحت حكم سلالة طاغية من المماليك ، الذين لم تأخذهم بهم رحمة (*) . ويهتم اهتماما خاصا بأن يذكر أن هؤلاء الجنود أو المماليك ، لم يتكلموا اللغة التركية وأن أسماءهم لم تكن تشبه أسماء الأتراك . اذ يستخدمون أسماء مثل أزبك Ozbek وتيمورتاش ، وتمراز ، وقنصوه والغورى ولاجين ، وقورت باى ، وشاهين ، وجنفردى وجامبولاد وهم أباطية وشركس وجورجيون وأحباش سود (١٠٠) . ومن سوء الحظ ، أن المعلومات المذكورة فى هذه الفقرة ، لا يمكن تحقيقها بواسطة أى مصادر أخرى (١٠١) . فهى توحى بأن تحول الأسماء المملوكية من اللغة التركية الى العربية تحت حكم العثمانيين ، رغم أنه صحيح ، على وجه العموم ، خاصة بالنسبة للقرن الثامن عشر ، الا أنه لم يكن قد اكتمل فى القرن

(*) المقصود طبعا هنا أهل معد بشكل عام ، ولأنه قابل أهل منوف ، فحديثه هنا من قبيل إطلاق الجزء على الكل .

السابع عشر • فمعظم الأسماء المذكورة في الفقرة السابقة ، هي أسماء تركية ويرجع تاريخها الى السلطنة المملوكية •

وكانت الأوجاقات ، فى القرن السابع عشر أكبر كتلة فى الجيش • ومن الناحية النظرية ، كان هناك ما يزال خط يفصل البادى شاه أو عبيد الساطان أى الجنود النظاميين عن عبيد كبار الشخصيات أى المماليك وغيرهم من الحاشية • وكانت الحكومة العثمانية تحاول المحافظة على هذا التقسيم ، رغم أن نجاحها فى ذلك كان نجاحا محدودا (١٠٢) • إذ أن تركيبة الجيش الاجتماعية قد مرت بتغير مستمر ، أفقده بالتدريج طابعه التركى العثمانى النقى ، وأصبح أكثر اختلاطا من الناحية العرقية • ومن الصعب قياس مدى هذه التغيرات ، غير أن التطورات الرئيسية تبدو واضحة • إذ لابد أن غالبية الجنود كانوا من الأتراك أو من المتكلمين بالتركية ، غير أن نسبة المتكلمين باللغة العربية ، أو أولاد العرب ارتفعت ارتفاعا كبيرا ، وهو تغير خلق توترا • وفى النهاية ، تم طرد العرب من هذه الكتائب • وتطور نوع أعمق من الاحتكاك بين الميسرى قولارى Misri qullari أو الجنود المصريين النظاميين ، والروم أوغلانى Rum Oghlani الأتراك ، وهو فى الحقيقة صراع بين فريقين من الناطقين بالتركية • وكان الميسرى قولارى مصريين مدجنين domesticated ، من الذين ربما ولدوا فى مصر ، وكانوا مرتبطين بها ارتباطا قويا • أما الروم أوغلانى فكانوا من القادمين الجدد من الأتراك بينما كانت جذورهم فى مكان آخر • فكانت تشكيلاتهم عددها أقل فى الجيش المصرى ، وخدم معظمهم كحملة بنادق نظاميين ، (سيكيان) ، مع قادة عسكريين أفراد ، مثل حاكم الصعيد • وبينما يعد التقسيم العرقى بين أولاد العرب وغيرهم تقسيما واضحا محددًا ، فإن الفوارق بين النظاميين من الروم أوغلانى والمصريين متداخلة وغير واضحة الى حد بعيد (١٠٣) • فنحن نذكر أن رد فعل الجنود النظاميين ضد أولاد العرب قد بدأ فى القرن السادس عشر • ويوحى الدليل المتاح بأن الصراع كان محدودا ؛ باعتباره موجها ضد أصحاب الرتب العالية من البيروقراطيين العرب، الذين كانوا يستخدمون عبيدا وخدمًا يتكلمون التركية • وعلى أية حال ، فقد غمر العرب الكتائب فى القرن السابع عشر • وكان للصراع الذى سبق ذكره بين رضوان بك وعلى بك ، ضد قنصوه بك ومامى بك ، عام ١٦٤٧ م - كان له جانب معاد للغرب • إذ رأس على بك ، حاكم الصعيد جيشا كبيرا ودخل القاهرة لمساعدة حليفه • وحين قام على بمبادرته ، أعلن أن جميع أولاد العرب فى

الكتائب ، يجب أن يتخلوا عن مناصبهم فى الجيش فى تاريخ محدد ، سواء كانوا مصريين أو من أبناء دمشق ، أو حلب ، أو بغداد • ولم ينطبق هذا المرسوم سوى على المتفرقة ، وكتائب الجاوشية الحiale ، وليس على كتائب المشاة الكبيرة من انكشارية وعزاب الذين زعموا أن رفاقهم كانوا فى الحملات على كريت ، واتضح أن غالبية الانكشارية كانوا من أولاد العرب وكان من الطبيعى أن يجد سكان القاهرة من المصريين أن من السهل عليهم أن يدخلوا الكتائب المدنية والمشاة الخاصة بالانكشارية والعزاب التى كانت متمركزة فى المدينة ، بدلا من دخول وحدات السيباهية ، أى القوات الراكبة فى الريف • فسأل ضباط الانكشارية والعزاب : اذا تم طرد أولاد العرب من الكتائب ، فمن سيذهب للحرب فى خدمة السلطان ؟ فرد على بك بعنف ، لدى الكثيرون من غير النظاميين من الأتراك الرومى أوغلانى من حملة البنادق • ويمكن تعيينهم انكشارية بدلا من أولاد العرب • كما عبر على بك عن رغبته أن يصلح على نفقته الخاصة ، الحجرات المخربة فى الأحياء السكنية فى قلعة القاهرة ، ويسكن هؤلاء الانكشارية الجدد هناك بهدف سرى هو الاستيلاء على القلعة • فى هذه الحالة بالذات ، توحد الجيش ضد على بك ، وأجبروه على العودة الى منصبه فى جرجا •

وبعد ذلك بثلاث سنوات ظهر محمد بك ، وهو حاكم طموح آخر لجرجا ، صعد نجمه فى أثناء التمرد ضد باشا مصر ، فقد عين أيضا فى جيشه الخاص جنودا (روم أوغلانى) من الأناضول •

كان حكام جرجا من المماليك ، غير أنهم كانوا يجندون (سيكبانى) أتراكا ، وهم (أى السيكبانى) لم يكونوا من المماليك ، للخدمة فى جيوشهم الخاصة • وكان محمد بك يخطط للقيام بعملية تطهير للكتائب من معارضيه وأعد قوائم بالأشخاص الذين ينبغى القضاء عليهم • ووزع المال وبطاقات العام لرشوة المناصرين المحتملين (١٠٤) •

فى ١٠٥٦ هـ / ١٦٤٦ - ١٦٤٧ م ، زادت الحركة المناوئة للعرب فى الكتيبة • بقيادة (زوربا) المسمى بىرم - الذى ربما كان تركيا - والذى

(*) لم يكن مسموحا - كما هو معروف - للفلاحين أن يستقروا فى القاهرة الا اذا اثبت أحدهم أنه يدرس بالأزهر •

طالب بطرد أولاد العرب من الكتيبة ونال ما طلب ، وطلب أن يحل محلهم رجال أشداء • ويكتب المؤرخ الحولى : أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً، أصبح الانكشارية صعباً قيادهم • وفى اليوم نفسه ، شكت كتيبة الجاويشية أيضاً مطالبة بطرد أولاد العرب والقبط والدمشقيين وأبناء حلب من بينهم • وباركت السلطات هذه الاجراءات المضادة للعرب • فأصدر مصطفى باشا الحاكم مرسوماً ينص على ألا يخدم أى من أولاد العرب فى الجيش ، وبعد ذلك بخمس سنوات، فى ١٠٧١هـ، صدر فرمان عثمانى من اسطنبول يأمر ألا تدفع رواتبهم (١٠٥) •

وفى ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م ، قيل ان بدو الهوارة رفضوا أن يدفعوا ضرائبهم نقداً ، أو عينا ، مدعين أنهم انكشارية وعزاب (عزب) • ومع أن ضباط الكتائب أنكروا هذا الادعاء فيما تلا ذلك من تحقيق ، الا أن شبه الرجل من الصعيد استطاعوا أن يزعموا هذا الزعم ، فهذا يوحى بالمدى الذى تهاوت اليه الحواجز الى حد دخول الرعية فى الجيش (١٠٦) •

وفى نهاية القرن السابع عشر ، ظهر اصطلاح (غريب يجيت) Yigit ، وهو يعنى « شباب من الريف » فى المصادر التاريخية • وفى ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٢ - ١٦٨٣ م : تم ارسال ٢٠٠٠ غريب يجيت فى احدى الحملات ، ملحقين بكتائب الانكشارية والعزاب • ومرة أخرى ، عام ١١١١ هـ / ١٦٩٩ - ١٧٠٠ م تم ارسال ٥٠٠ من المتطوعين serdengecti فى حملة مع ٢٠٠٠ من الجنود النظاميين (قولار) (١٠٧) ولم يكن استيعاب عناصر متنوعة غير نظامية فى الجيش العثمانى شيئاً تنفرد به مصر • ومع أن هذه الظاهرة كانت لها أسبابها الاقتصادية والاجتماعية والتنظيمية والتكنولوجية التى تشترك فيها مصر مع غيرها من المقاطعات الأخرى ، بما فى ذلك الأجزاء التركية من الامبراطورية ، الا أنها أى الظاهرة ، كانت لها أسبابها المحلية أيضاً • ذلك أن تكرار الأوامر السلطانية التى تطلب كتائب مصرية كان أكثر فى القرن السابع عشر منه فى القرن السادس عشر • وبالإضافة الى ذلك ، فان أعداد الجنود

المطلوبة فى كل مرة ، كانت كبيرة فما طلبه الباب العالى من باشا مصر كان ٣٠٠٠ فى القرنين السابع والثامن عشر . وللوفاء بهذه الطلبات ، تم تجنيد الكثير من الجنود غير النظاميين ، كغريب يجبت أو متطوعين الذى دخلوا الجيش مع مرور الوقت ، مع أنه كان من صالح العسكرية وفقا للعقيدة الراسخة عند الباب العالى أن يفضل الأتراك والشراكسة أيا كان أصلهم والاقليم الذى جاءوا منه على الجنود المتكلمين باللغة العربية (١٠٨) .

ومع انزواء القرن السابع عشر ، زادت سلطات الأوجاقات ، وهم أساسا الانكشارية ، (أو كتائب المستحفظان) لبضعة عقود قليلة قبل سيطرة البكلكية . فكانت قوة الانكشارية سياسية واقتصادية . كما ازدهرت كتائب المستحفظان والعزاب الكبيرة ، بالنسبة لغيرها من الأوجاقات . وهنا ، يقدم افيليا ، مرة أخرى ، ملحوظة ثاقبة ، حين قال انه من المفيد للمرء أن يكون فى أحد هذين الأوجاقين ، وان جنودا من المتفرقة والجاويشية الفرسان ، (الذين كان راتبهم الاسمى أعلى بكثير) كانوا ينضمون الى الانكشارية والعزاب (١٠٩) . وفى القرن السابع عشر ، بدأ جنود الكتائب فى شراء القرى وأصبحوا ملتزمين ، أى جامعى ضرائب العزب ، مثل البكوات . وثمة مؤشر آخر على نفوذهم المتزايد هو أن الوصاية على مؤسسات الوقف التى كانت قد أعطيت فى السابق الى الأغوات السود (الخصيان) ، كانت تنتقل الى قواد الكتائب . (وسوف تنتقل فى القرن الثامن عشر بالكامل تقريبا الى البكوات) (١١٠) .

وكما ذكرنا فى الفصل السابق ، فمحور السياسة المصرية ومحركوها الرئيسيون لم يكونوا لفترة هم البكوات ، وانما صغار الضباط فى أوجاق الانكشارية ، مثل كوك محمد أو افرانج أحمد .

ويقدم دى مايبى ، De Maillet الفنصل الفرنسى فى القاهرة ، تاخيضا معاصرا مفيدا لموقف مصر فى نهاية القرن الثامن عشر . ففى

تقرير مؤرخ فى صيف عام ١٦٩٢م ، ملحق به مراسلات تمتد عبر عقد من الزمان ، يقدم دى مايى صورة واضحة معها تقييمات هامة كتبها مراقب عليهم وذكى . اذ يعترف القنصل بضعف الباشوات ، ومع ذلك فهو يعتقد أنه من الخير التفاوض معهم من التفاوض مع غيرهم من الشخصيات الرفيعة ؛ لأنه - عادة ما يمكن الاعتماد عليهم أكثر من ضباط الجيش (المماليك) . فمع أن الباشا لم يكن يبقى فى منصبه أكثر من ثلاث سنوات تقريبا ، الا أن قادة الكتائب كانوا يتغيرون طوال الوقت . وقدر دى مايى أن عدد الجنود الذين يتقاضون مرتبات فى مصر هو ١٢٠٠٠ ويؤكد تقريره ما جاء فى المصادر العربية والتركية القائلة بأن كتيبة الانكشارية ، وهى أكبر الكتائب ، الى حد بعيد ، هى أقوى وأغنى وأكبر الوحدات العسكرية فى مصر . وكان اغا الانكشارية ، الذى كان أيضا رئيس الشرطة ، شخصا مهابا ذا نفوذ فى القاهرة ، بحيث كان القناصل غالبا ما يشتكون من وسائله الظالمة التعسفية . ومع ذلك ، فان الحاكم الفعلى للكتيبة كان هو مندوب الأغا ، وهو كتحدا أو (كاهيا) . ولم يكن أحد يستطيع ، حتى ولو كان الباشا ، الأمر باعدام أحد الانكشارية ، دون موافقة الكتحدا . ويلاحظ دى مايى اتجاهها أصبح أكثر تسيدا فى القرن الثامن عشر : وهو انضمام الكثير من أولاد العرب الى كتيبة المستحفظان والعزاب مع أنهم ليسوا جنودا حقيقيين ، اذ اكتسبوا تعييناتهم العسكرية من أجل الحماية واستطاعوا دفع ثمنها . وفى تقرير آخر ، يقول دى مايى ، ان غالبية التجار المصريين الأثرياء كانوا ، اما انكشارية أو عربا أو تحت حمايتيهما (١١١) . وكان مثل هؤلاء الأعضاء من الكتيبة يميزون اصطلاحا عن أولاد العرب الذين انضموا الى الجيش باعتبارهم جنودا حقيقيين ، اذ كانوا يسمون يولداز Yoldas أو « رفيق » ، ولم يحضر الرفاق أية معارك (١١٢) .

ويستمر القنصل ليلقى نظرة شاملة على الوحدات الأخرى مثل كتائب العزاب والسيباهى . ويكاد يكون اضمجلال البكلكية فى هذه الفترة واضحا . ففى تقرير القنصل ، لا يظهر البكوات الا كجباة ضرائب من الفلاحين العرب مسئولين عن الريف ، ولا يبدو أنهم يؤثرون عليهم باعتبارهم ذوى نفوذ خاص . بل انه ، على العكس يقول : « لو أن أحد البكوات

كان يخشى على حياته فهو يسعى الى حماية الانكشارية ، ويقول دى مايبى ان تقسيم أهالى مصر - وعلى الأخص الطبقة الحاكمة - الى فريقين ، (سماهما دى مايبى سعد وحرام وليس قاسمية وفقارية ، رغم أنه كان يعرف اللفظين الأخيرين) وكان هذا يمكن الباشا من حكم البلاد ؛ وذلك بالناورة والايقاع بينهما . ولم يكن من الممكن سوى بهذه الطريقة منع قيام تمرد ضد السلطان ، بما أن مصر كانت بلدا مليئا بالسكان وأن أهلها كانوا من المحتمل أن يثوروا ضد حاكميهم .

وطبقا لما ذكره مايبى ، كان الجيش المصرى أصغر الحاميات العثمانية ، بالنسبة لحجم البلاد . اذ كان من اليسير جدا الدفاع عن البلاد ضد الهجوم الخارجى ، مادامت محاطة بالصحراء والماء (١١٣) .

نحو صعود نجم البكوات المهاليك فى القرن الثامن عشر

بالنسبة للقرن الثامن عشر ، فان لدينا ثراء نسبيا فى المصادر مما يعيننا على فهم المجتمع المصرى ، وعلى الأخص الطبقة الحاكمة . مما جعل القرن الثامن عشر مجالا لدراسة على نحو أفضل مما عليه الحال بالنسبة للقرنين السابقين عليه . فبالإضافة للوثائق الرسمية ، هناك حكايات الرحالة ، وبعضها يتمتع بجودة أعلى من ذى قبل ، وكذلك هناك التقارير الفئصلية . غير أن منجم المعلومات عن تاريخ مصر من ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ - ١٦٨٩ م حتى حكم محمد على هو عمل عبد الرحمن الجبرتى ، المسمى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) الا أن حكم محمد على خارج مجال دراستنا (١١٤) . ويثبت هذا العمل العظيم من جديد ، أنه فى التاريخ الاجتماعى لا يوجد بديل لوجود مؤرخ محلى يكون مخبرا عادلا ومعبرا بصدق كامل عن مجتمعه .

لقد كتب الجبرتى ، الذى ولد عام ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م ، كتابا مليئا بالمعلومات بصفة خاصة عن السنوات التى شهدها . ذلك أن تغطيته للفترة المبكرة أو السابقة عليه تعد مبتورة ومفصلة فى الوقت نفسه ؛ لأنه كان عليه أن يعتمد جزئيا على معلومات متناثرة على درجة أقل من التوثيق .

ومع أن المؤرخين الحوليين العرب ، فى مرحلة سابقة ، ونخص منهم كتاب أحمد شلبى « أوضح الاشارات » الذى يقدم مسحا للأحداث التى وقعت فى مصر الى ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م ، يضيفون الكثير لفهمنا لمصر فى القرن الثامن عشر ، الا أن هذه الكتب لا ترقى الى تاريخ الجبرتى . ولكى نلخص العلاقة بين اسطنبول ومصر فى القرن الثامن عشر نقول : لقد كانت الأهداف الثلاثة للباب العالى فى مصر (كما ذكرنا فى الفصل الأول) وهى الاعتراف بالسلطان ، ودفع مبلغ الخزينة ، وارسال كتائب مصرية للاشتراك فى الحروب العثمانية - متحققة بالفعل . غير أن تحقيقها كان قد تعرض لقدر كبير من التآكل . ففى بداية القرن الثامن عشر كانت الأوجاقات هى أقوى الأجهزة داخل الطبقة الحاكمة المصرية . واستخدم الانكشارية والعزاب ووظائفهم كشرطة وأوصياء على العاصمة لاستغلال أكثر مصادر الدخل ربعا . وبالمثل ، قام السيباهيون بظلم الريف . والأكثر من ذلك ، وجود وفره من الأدلة على أن ضباط الانكشارية والعرب كانوا يمدون نشاطهم الاقتصادى الى القرى أيضا . فكان التحكم فى كتيبة الانكشارية هو مفتاح السلطة السياسية ، وكان على الطموحين من البكوات أن يضموا الأوجاقات الى جانبهم كى يصلوا الى السيادة . لقد كانت الصراعات فى مصر العثمانية هى فى العادة بين الأوجاقات وفى معظمها بين الانكشارية والكتائب الست الأخرى التى تحسدهم على ثرائهم وسلطتهم ، أو بين عصابات البكوات . وتغلغلت الانقسامات بين الجماعات المتحاربة بين الأوجاقات والبكوات ، (مؤسسة البكوات المماليك) اذ كان هناك ضباط وجنود من الأوجاقات والبكوات فى الجانبين .

تدهور وضع الوالى العثمانى

ان انهيار السلطة العثمانية فى مصر فى القرن الثامن عشر يصبح واضحا من خلال مراقبة المرء اضمحلال نفوذ الباشا داخل الجهاز السياسى . ففى أثناء العقود الثلاثة الأولى من القرن ، كان الباشوات لايزالون هم الشخصيات المركزية التى تدور حولها الأحداث الكبيرة فى القاهرة . فكانوا يناحزون فى الصراعات بين عصابات البكوات المماليك ، بما فى ذلك الحرب الأهلية التى وقعت عام ١٧١١ م ، محاولين تحريك

القوى المختلفة لفائدتهم السياسية والمالية . فكان الباشا يستفيد استفادة ضخمة من أعمال التطهير الغالبة فى صفوف كبار العسكريين المتحاربين ، وذلك لأن جميع أصحاب المناصب الجدد والكشاف والمتلمزمين وما شاكلهم ، كان عليهم أن يدفعوا له جعلا من المال (حلوان) (١١٥) . ويظهر هذا بوضوح فى كلمات بكير باشا (١٧٢٨ - ١٧٢٩) ، فيما يتعلق بحسابات محمد باشا، سلفه . اذ ادعى الأخير أن ميزانيته كانت مجرد ٢٧٥ كيسا ، غير أن بكير رفض اعطائه وصلا بالكامل قائلا : لقد كان هذا الرجل حاكما على مصر لمدة سبعة أعوام ، وقتل ١٨٤٠ من السناجق ، و ١٢ كتخدا وأغا ، وغيرهم من الضباط (يعنى أن هؤلاء الرجال قتلوا أثناء فترة حكمه ، وليس بمعنى أن الباشا مسئول شخصيا عن موتهم) والآن كان اسماعيل باشا واليا على مصر لمدة عامين فقط (١٦٩٥ - ١٦٩٦) بما فى ذلك نصف سنة كان قد أوقف أثناءه . كما أنه عقد وليمة كبيرة تكلفت ٩٠٠ كيس ، وبعد هذا كله مازال لديه ٢٠٠٠ كيس (١١٦) . كان معنى كلام بكير باشا الضمنى أنه من غير المحتمل أن يكون محمد باشا لم يكسب سوى هذا القدر القليل جدا من الأملاك التى تمت مصادرتها ومن الحلوان التى كان يحصل عليها من المعينين الجدد . وحاول محمد باشا رشوة الجيش بمبلغ ٦٠٠ كيس لاغرائه على تمكينه من الفرار الى جدة أو عزل بكير باشا .

وأثناء الاضطرابات التى أعدم فيها الكثير من الأمراء أو اغتيلوا أو فروا من البلاد ، كانت اسطنبول شديدة الحرص على الاستيلاء على أملاكهم . فتم ارسال العديد من الفرمانات ، محذرة من اهمال هذا الأمر ، كما أرسل الباب العالى وكلاء خاصين من الخزانة المركزية للتأكد من أن اسطنبول قد نالت نصيبها (١١٧) . ورغم هذه التحذيرات ، حرمت الخزانة المصرية من مبالغ الحلوان ، كما لم يتناق السلطان المبالغ السنوية أو المعروفة باسم الجزية السنوية بانتظام ، خاصة أثناء النصف الثانى من هذا القرن . فكانت حالات القصور هذه سببا رئيسيا لحملة حسن باشا فى ١٧٨٦ - ١٧٨٧ م لاعادة فتح الولاية (يقصد مصر) . وكان أمراء المماليك حذرين من تحدى السلطان وممثليه تحديا سافرا ، حتى تمرد على بك الكبير . ومع ذلك ، فان تكرار المرات التى رفض فيها

الجيش الباشوات ، ومنهم من تولى مناصبهم - الأمر الذى سبقت الإشارة إليه فيما يتعلق بالقرن السابق - تزايدت تزايدا كبيرا . وفى حالات قليلة جدا ، هدد الباشوات ، كما هوجمت مقار سكنهم أو خدمهم .

وفى يوليو ، عام ١٧٢٤ م ، وتحت ضغط محمد شركس ، اضطر الباشا الى الاستقالة ، وأن يخلي القلعة . وضحي بسبعة من الأغنام شكرا لله على نجاحه فى الابتعاد دون أن يمسه ضرر . ذلك أن شكوى حررت ضده ووقعها مندوبون عن جميع الكتائب بالاضافة الى كبار العلماء والصوفية . كما شكوا الجيش الى الباب العالى من أن دسائس الباشا تسببت فى نشوب معارك بين الناس وأنه متهم بالفساد وسوء الحكم .

وكان الرأى العام يعتبر الباشوات مسئولين عن المصاعب الاقتصادية ، وبصفة رئيسية ، انخفاض العملة ، رغم أن قدرتهم على تحسين الأحوال كانت تتقلص على الدوام .

وفى احدى المرات ، بينما كان أحد الباشوات يقادر سكنه فى القلعة بعد أن عزله الجيش ، تبعته الدهماء ، وهم يغنون : « باشا ، باشا ، يا وجه القملة ، من قلة عقلك يا باشا ، تعمل دى العملة » (١١٨) .
ومن المفهوم أن ايجاد منصب شيخ البلد ، فى أوائل القرن الثامن عشر ، الذى كان يتولاه أقوى أمراء القاهرة قد أغضب الباب العالى ، الذى لم يعجز عن رؤية هذا الفعل كتعد على سلطته . عموما ، تحمل العثمانيون ، بمرور الوقت ، هذا الاستعراض المصرى لشبه الاستقلال ، لما عهد عن العثمانيين من مرونة . الا أن العثمانيين أخيرا قرروا وضع حد لهذا فصدر فرمان بتاريخ ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠ - ١٧٣١م يتوعد بالموت أى شخص يستخدم هذا اللقب ، غير أن مرسوما آخر صدر بعد ذلك بخمس عشرة سنة ينادى بعثمان بك، وهو أمير سابق للحج، شيخا للبلد (١١٩) .
ذلك أن الباب العالى كان على وعى تام بحدود سلطته فى مصر . وينعكس تألفه مع هذا الواقع فى الكيفية التى توجه بها الفرمانات الامبراطورية

لكبار الشخصيات المصرية • فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، لم تكن الأوامر الشريفة توجه الا لبكلاربكات مصر ، ولا يذكر أحد مرؤوسى الباشا ، مثل الدفتردار أو القاضى الا اذا كان يراد له أن يأخذ علما بالموضوع أو يتصرف اذاءه ، فى هذه الحالة فحسب يذكر اسمه فى رأس الوثيقة بعد الباشا • وكانت الصيغة الشائعة لمخاطبة الباشا ، الوزير (فلان) باشا الذى يحرس مصر (ميسير مهافازاس اندا أولان Misr Muhafazas inda olan) • أما فى القرن الثامن عشر ، فكانت الفرمانات والمراسيم توجه بشكل روتينى لوالى مصر ، وكبير القضاة ، والأمراء أى البكوات والضباط والاختيارية (قدامى الضباط أو الشيوخ فى الكتيبة) وأحيانا تضاف مخاطبات أخرى : شيوخ المذاهب الأربعة وغيرهم من العلماء • واذ أجرى العثمانيون هذه التغييرات ، فانهم كانوا يسلمون بأن على واليهم أن يتقاسم سلطته مع عدة قوى محلية (١٢٠) • كما كان الباشوات أنفسهم على وعى بهذا الموقف • فحين جاء محمد نسنجى باشا الى مصر عام ١٧٢١ كى يبدأ فترة حكمه المكونة من خمس سنوات ، قدم الخلع المعتادة الأربع الى البكوات وقال : أنا ضيفكم ، وأنتم أمناء السلطان المخولون (١٢١) •

تدهور الأوجاقات

لقد سبق أن ذكرنا أنه كانت توجد شبكة من الحماية جيدة الثبات وان لم تكن قانونية ، (يمكن تسميتها بترتيبات للحماية) حتى ان الأوجاقات انتشرت مهيمنة على أنشطة التجار والحرفيين • وفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م ، اجتمعت الكتائب (الأوجاقات) الست ضد الانكشارية فى محاولة لوضع حد لامتيازاتهم • فقدمت الكتائب الست شكوى للباشا تعدد مطالبها • وتكشف هذه الوثيقة عن المدى الذى بلغته الانكشارية فى التحكم فى الاقتصاد • وكانت النقاط الأساسية فى هذه الشكوى هى :
 ألا يكون موظفو دار السك والمذبح والجمرك من الطبقة العسكرية ،
 وألا يكونوا من المندمجين بالأوجاقات ، ولا يجب على التجار أن يسعوا الى حماية الأوجاقات ، ولا يقرر الموازين والمكاييل سوى المحتسب والقاضى ، (المحتسب هو مفتش السوق) ، كما لا ينبغي أن تكون القوارب

التي تحمل الحبوب من الصعيد الى القاهرة تابعة للأوجاقات ، ولا يجب التعرض لها ، ويجب أن تخزن جميع الحبوب فى مخازن الغلال الخاصة بالدولة كما لا ينبغي أن تباع حبوب البن للتجار الأوربيين . وآخر مادة ذكرت لها أهمية خاصة ، لأن الانكشارية كانوا يتاجرون مع الأوربيين انتهاكا لحظر واضح من الباب العالى ، مما يرفع أسعار التجزئة للسلع فى الأسواق المصرية ويخلق ندرة فى اسطنبول . وقام الانكشارية من جانبهم بوضع قائمة من الشكاوى يتهمون فيها الأوجاقات القديمة بمخالفات متنوعة (١٢٢) . أما الحكومة العثمانية ، فأخذت جانب الأوجاقات الستة . فأمرت بالغاء جميع الحماية ، والضرائب غير القانونية والمكوس (رسوم العبور) وأن تزال دار السك ومخزن البارود من مقر الانكشارية الى الديوان . كما أخبر القاضى الحرفيين بأنهم باعتبارهم مدنيين ، لا يجب أن يرتبطوا associate with بالأوجاقات . فالح الحرفيون ، عموما ، ذاكرين أنهم عسكر أولاد عسكر بل وهددوا القاضى . فلم تنجح جهود الباب العالى الرامية الى فصل الجيش عن المدنيين (*) (١٢٣) .

وحاولت الحكومة العثمانية أن تبعد الجيش (القطاع العسكرى) عن النشاط الاقتصادى ولم يكن ذلك لأسباب تخص الانضباط العسكرى فحسب ، وانما لأسباب اقتصادية أيضا . فقد حمى التجار والحرفيون أرباحهم من الضرائب أثناء حياتهم وممتلكاتهم العقارية بعد موتهم ، وذلك يربط أنفسهم بالأوجاقات . (المقصود تهريبهم من الضرائب) .

ولقد أثر هذا الاضمحلال فى الانضباط العسكرى حتما فى أداء الوحدات المصرية التى أرسلت لتدعيم الجيش العثمانى على جبهات مختلفة . وكان المصريون ، فى وقت من الأوقات ، يعرف عنهم أنهم مقاتلون بأسلون بل فى بعض الحالات ، أفضل من الجنود الذين يأتون من الولايات العثمانية القديمة (١٢٤) ، غير أنه فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الثامن عشر ، وجهت الى الباشوات المصريين العديدين من

(*) المقصود الفصل الإيجابى ، بمعنى أن يكون للقطاع العسكرى مهامه ، وللآخرين مهامهم ، ومفهوم القطاع العسكرى يعنى هنا - كما هو واضح - قطاع الأمن الداخلى أيضا - (المراجع) .

المراسيم السلطانية تشكو من الانحطاط في مستويات الفرق المصرية . وتبين هذه المراسيم أن الإداء المصري كان مخجلاً بصيغة خاصة ، أثناء عمليات شنت على الجبهة الفارسية ١١١٤ هـ / ١٧٣١ م ، و ١١١٩ هـ / ١٧٣٦ - ١٧٣٧ . ولقد طلب الباب العالي ٣٠٠٠ رجل وهو العدد المعتاد في ذلك الوقت ، غير أن ما يقل عن ١٠٠٠ قدموا أنفسهم . وفي الطريق إلى المناطق الكردية شمال العراق اليوم ، أساء المصريون معاملة السكان المسلمين وتلكأوا خلف الجسم الرئيسي للجيش وهرب جنود كثيرون واختفوا . وتم القبض على عدد من الضباط في كركوك بسبب جنهم وعدم طاعتهم (١٢٥) وتم اعدام ضابط من الانكشارية .

كان المطلوب أن يكون الجنود المرسلون من مصر حسنى التعليم ومدربين حسب المستويات المصرية الرفيعة (ميسر تيرييزى) Misir teriyesi . ولا يكونوا من المدربين الذين دربهم البكوات تدريباً خاصاً (تشيراق) Chiraq ، كما يجب أن يأتوا من الغربية والمنصورة والبحيرة والشرقية بدلا من أن يحضروا من بلاد فقيرة ، مثل القليوبية ، والجيزة والمنيا ومنفلوط والفيوم حتى لا يعانون ماديا ، وأن يتلقوا رواتب مرتفعة (أغير Aghir علوفيين) ولكن يجب أن يتسموا بحسن السلوك والتسدين (١٢٦) .

وإذا حكمنا من اللغة التي كتبت بها المراسيم ، فإن المتاعب كانت متأصلة وسببها احلال المصريين الحقيقيين Sahih Misirli محل جماعة من الأكراد - لا يعرف اسمها أو أصولها - والفلاحين والأتراك . ويوصفون بأنهم مجندون جدد ، لم تظهر أسماءهم في قوائم المرتبات الرسمية ، وبدلا من المخضرمين الذين كان من حقهم تقاضى مرتبات مرتفعة بسبب خبرتهم في القتال ، كان المصريون يرسلون بجنود يتقاضون رواتب منخفضة ، من الذين كانت رواتبهم تصل إلى مجرد اثنين من الأقساط وهو مبلغ دون المكافأة على القيام بحملة . وكانت الطريقة المفضلة التي كان يستخدمها الجنود الأكثر ثراء لتجنب واجب القتال هي ارسال بديل (بدل) وكانت المراسيم تعلن مرة تلو الأخرى أن أولئك الذين استدعوا

وفى بداية القرن الثامن عشر ، حاول كبار البكوات أمثال اسماعيل ابن ايواظ ومحمد شركس و « ذو الفقار » ، الفوز بالسيادة عن طريق الحصول على تأييد ضباط الأوجاقات ورجالهم . فصار من المعتاد أن يضع أمراء المماليك مماليكهم فى مواقع النفوذ داخل الأوجاقات . وكان أعضاء الكتائب السبع ما يزالون يسرون بمشية عسكرية تحت إريأتهم فى الحملات الحربية ، وهكذا كانوا يتميزون عن جيوش البكوات الخاصة (١٣٠) ، غير أن التميز اختفى فى وقت لاحق من القرن . فصارت الكتيبة عاجزة ، ولم تعد سوى بيوت المماليك هى التى لها أهمية سياسية وعسكرية . وبعد أن فقدت الكتائب المتدهورة قدراتها العسكرية وطموحاتها العسكرية ، لم تعد ندا للمماليك الذين أحسن تنظيمهم بالإضافة إلى ثقافتهم السياسية ذات الطابع العسكرى (١٣١) (*) . ومن العسير على المرء أن يحدد على وجه الدقة ، متى تطور هذا الاتجاه ، غير أنه من الواضح أن تدهور الأوجاقات كان قد اكتمل تقريبا ، بعد حكم إبراهيم كتحدا ورضوان كتحدا (١٧٤٣ - ١٧٥٤) . لقد كان حكم على بك بمثابة الضربة القاضية للأوجاق . فثمة وثيقة بتاريخ ١٠ شعبان ١١٧٢ هـ / ٨ أبريل ١٧٥٩ م ، تشير إلى أن المماليك ربما قد سيطروا بالفعل على جميع قيادات الكتائب الرفيعة (١٣٢) . وتشتمل الوثيقة على محضر اجتماع لديوان مصر مع مبعوث الباشا والسلطان ، وهذا الاجتماع كان مقصورا على القراءة الصارمة لفرمان عثمانى يذكر الأمراء وقادة الجيش بواجباتهم . ويبدو أن الاجتماع كان على أقصى درجة من الأهمية بحيث حضرته القيادة العليا بأكملها ، وقد ذكرت الوثيقة أسماء جميع الذين حضروا . ومن الأمور التى لها مغزى ، أن جميع الأسماء كانت (عبد الله) أى أنهم رجال لا يعرف أبائهم . وبما أن معتنق الاسلام الجديد كان يسمى ابن عبد الله ، فمن المحتمل أن معظم هؤلاء الرجال كانوا من المماليك . فمن بين الأربعة عشر بك الذين كانوا حاضرين ، كان ثمانية يحملون اسم ابن عبد الله . بل إن نسبة قادة الكتائب الذين كانت

(*) المقصود ثقافتهم فن الصراع . النص : Their militant political Culture

- (المراجع) -

أسماء آبائهم عبد الله أكبر ، اذ من بين ٨٦ ضابطا كان هناك ٤٣ ابن عبد الله . ولا يوجد تفسير واحد على انهيار الكنائس وعلو شأن المماليك . اذ لاحظ ريتشارد بوكوك ، وهو رجل انجليزى زار القاهرة فى ١٧٣٧ م وكتب وصفا تفصيليا حساسا (واعيا) لهذه البلاد ، يبين انتقال السلطة من الكيانات العسكرية (الرسمية) الى (الأوجاقات) الى المماليك . وفى هذا التاريخ المبكر ، قال ان الحكومة حقا مملوكية قلبا وقالبا . وحين كان بوكوك يشرح انتقال السلطة من الأوجاقات الى البكوات ، قال : « ان رجال الأوجاقات كانوا يشترون الأراضى ؛ مما أجبرهم على الخضوع للبكوات (أن يكونوا تابعين لهم) حتى لا يدمروا قراهم ، حيث كانت الأجهزة العسكرية ثرية ، ولها خزانة واقطاعية ، تقريبا فى القاهرة . وبينما كان ضباط الانكشارية والعزب أغنياء ، كان الجنود الأفراد فقراء حتى انهم لم يملكوا شراء قري » . فلم يكن الجنود ، اذن ، خاضعين للبكوات ، ولم يكونوا مجبرين على الذهاب الى منازلهم (١٣٣) .

ان شرح بوكوك يتضمن أنه بمجرد أن بدأت الكنائس المتمركزة فى القاهرة فى شراء أراض من البكوات الذين كانوا يتحكمون فى الريف ، حتى أصبحت هذه الكنائس عرضة لابتزاز البكوات .

. ولا شك فى أن الرحالة الانجليزى قد وضع اصبعه على سبب اقتصادى مهم ، ولكن هناك أسبابا أخرى . ولقد شجع ضعف السلطة العثمانية هذا انتشار المماليك على حساب الأوجاقات . وكان النظام السياسى المصرى آخذا فى اللامركزية ، وكان على أى فرد أو جماعة ترغب أن تسود أن تعنى بمصالحها الخاصة وتبنى قوتها . وكان من الممكن عمل ذلك بانشاء جيوش خاصة من المماليك وغيرهم من الأتباع . وتعد حياة ابراهيم كنتخدا العملية (١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ م) ، مثلا على ذلك . فبالرغم من أنه كان قائد احدى الكنائس ولم يكن من البكوات ، الا أنه حشد قوة مستقلة تتكون من حوالى ٢٠٠٠ من المماليك ليكتسب الرئاسة ، كما أنشأ بيتا مملوكيا قويا سيطر على الحياة السياسية المصرية حتى سقوط المماليك بعد غزو بونابارت ومذبحة محمد على (١٣٤) .

المجتمع المملوكى فى القرن الثامن عشر ، الولاءات والعصبات

فى بدايات القرن ، أحيانا ما كان المؤرخ الحولى أحمد شلبى يميز بين البكوات من المماليك وغير المماليك تمييزا واضحا (١٣٥) ولم يذكر الجبرتى مثل هذا فى النصف الثانى من ذلك القرن . اذ انه ، فى ذلك الوقت ، لم تتكون الطبقة الحاكمة الا من المماليك وحدهم . ولقد وصف أيلون المجتمع العسكرى المملوكى تحت الحكم العثمانى وقام بتحليله ، مقارنا اياه بمماليك السلطنة . فمع أن الفوارق بين الاثنين كبيرة ، الا أن الكثير ظل على حاله دون تغيير (١٣٦) . فالمماليك ، شأنهم شأن سابقهم ، فى أواخر العصور الوسطى كانوا يستوردون الى مصر فى الثانية عشرة من العمر أو الرابعة عشرة ، وعن طريق تجار الرقيق يباعون الى كبار العسكرين . وكانت البلدان الأصلية التى أتوا منها هى البلدان نفسها - بصفة رئيسية القوقاز وعبر القوقاز - وكان تعليمهم العسكرى يجعل منهم فرسانا من أرقى طراز . ان المثال الأساسى لعبودية المملوك - أى ولاء المملوك التام لسيده الذى دربه ورباه وحرره - كان هو عماد مجتمع المماليك فى مصر العثمانية ، كما كان الحال فى السلطنة المملوكية . فحين كان السيد يقرر أن مملوكه قد بلغ سن النضج ، وأنه مستعد لتولى أحد المناصب ، كان يعتقد ، ويسمح له بأن يطلق لحيته . فهو الآن رجل حر ، لم يعد يعتمد على أحد . وغالبا ما كان السيد يعين هؤلاء العميد السابقين فى مناصب فى الجيش ، أو فى البكلية أو فى قيادة الكتائب . وفى الكثير جدا من الأوقات كان السيد يقرر من يتزوجها عبيده السابقون ، وهو قرار كان يدفع بالمملوك الى الأمام اجتماعيا وماليا .

وثمة فقرة فى تاريخ الجبرتى تعطينا فكرة عن الانضباط بين المماليك وانهييار ذلك الانضباط . ففي السادس من ذى القعدة ١٢٠١ هـ / ٢٠ أغسطس ١٧٨٦م ، أعلن أنه لا يجب أن يركب المماليك الركائب وحدهم فى شوارع المدينة . وفى الماضى ، لم يكن المماليك يخرجون دون أسيادهم ، غير أن هذه القاعدة قد أهملت . أما الآن ، فقد تزوج المماليك وامتلكوا المنازل ، والخدم وأخذوا يخرجون بحرية ويدخنون علنا ، حتى قبل أن يعتقوا (١٣٧) . وثمة نوع آخر من الولاء كان يتوقعه الناس من

المملوك ذلك هو التضامن مع الآخرين من عبيد سيده ، الذين كانوا يسمون كوشداشين Kushdashin (*) أو اخوة ، (كوشداهش Kushdash كلمة فارسية فى صيغة المفرد وهو لفظ مملوكى يرجع الى عهد السلطنة) وكان هؤلاء الاخوة يتحدون الأعداء الخارجيين وكانوا يشكلون عصابة المماليك ، أو البيت ، الذى كان يضم السيد ورفاقه وحلفاءه . وبينما كان من الممكن لولاء كهذا أن يكون قويا ، الا أنه كان أكثر هشاشة من القيد الذى يربط العبد بسيده . وحين كانت احدى العصابات المملوكية تهزم منافسيها ، كثيرا ما كان الكوشداشين ينقلبون ضد بعضهم البعض فى صراعهم من أجل السلطة والثروة . فكانت عصابات المماليك من فقارية وقاسمية وجولفية ، وقزدوغلية وغيرهم يعملون بتنظيم قائم على الرعاية التى يقدمها الأثوياء ، والمخدومون والولاة والتحكم فى المصالح الاجتماعية والاقتصادية .

ومع ذلك ، فنحو نهاية القرن الثامن عشر ، أى ابتداء من حكم على بك فصاعدا ، صارت الصراعات بين الأشخاص أكثر منها بين العصابات . وكانت الرابطة بين السيد والمملوك أقوى فى المجتمع العسكرى ، غير أنه كانت هناك أشكال أخرى من الخدمات . فنحن نسمع الكثير عن السراجين التسابعين للأمراء والذين كانوا يعملون كحرس راكبين وكثيرا ما كانوا يفتالون أعداء سيدهم . فلقد كانوا مجرمين يرهبسون المدنيين وذلك بمهاجمتهم وسرقتهم ، بالإضافة الى التحرش بالنساء والصبية . فمثلا ، كان لمحمد شركس العديد من السراجين الذين أطلق يدهم فى أعمال الظفیان وارتكاب الأخطاء الكبرى فى حق القاهريين . وحسب ما يروى المؤرخون الحوليون ، فان السيفى السراجى كان أسوأ مخلوقات الله (١٢٨) .

وقيل ان السراجين (***) كانوا مسيحيين غير مختننين يتنكرون

(*) أو الخوشداشية - (المراجع)

(**) السراج خادم غير مملوك أى ولد حرا ، والحرفى هذه الفترة أقل قيمة ومركزا اجتماعيا من المملوك وجمع سراج هو سراجين ، والكلمة من أصل فارسى ومعناها التابع أو المولى أو الخادم . انظر ، أحمد السعيد سليمان : تاصيل ما ورد فى تاريخ الجبرثى من تخيل - مادة سراج - (المراجع) .

كمسلمين ، لأنه حسب ما قيل ، لا يمكن للمسلم الحق أن يكون شديد القسوة على أبناء دينه .

وبلغ حكم السراجين الارهابى نهايته مع سقوط محمد شركس ، مؤقتا على الأقل . اذ صدرت الاوامر بالألا يملك البك سوى اثنين من السراجين ، ولم يعط للضباط الصغار فى الشوارع سوى سراج واحد . كذلك أخرج الكثيرون من سراجى الأمراء والأجانب الذين كانوا فى خدمتهم خارج مصر (١١٣٨ هـ / ١٧٢٦ م) (١٣٩) .

وثمة نوع آخر من العلاقة هو بين السيد وشراقه (فى المصادر العربية ، تهجى هذه الكلمة التركية اشراق (*)) وهو نوع من التدريب كان أيضا مفضلا ومحميا) . وكان هذا رباطا أضعف ، غير أنه رباط مهم فى المجتمع المصرى وكذلك فى السياسة . وهنا علاقة أخرى هى علاقة السيد والتابع ، وهذا تعبير أكثر عمومية ، ويمكن أن يكون مرادفا للفظ مملوك ، شيراق ، ولكنه قد يشير ببساطة الى رجل فى خدمة أحد كبار الشخصيات ، أو أحد مؤيديه (١٤٠) . ويلاحظ أيلون أن الصراعات بين العصابات كانت قصيرة فى أيام السلطنة ، ولم تستغرق أكثر من جيل واحد ، ولكن البيوت المملوكية فى مصر العثمانية كانت تستمر فى أعمالها الثأرية الاجرامية لفترات أطول ، بل أحيانا تستمر على مدى أجيال . والسبب الرئيسى الذى أدى الى هذه الفروق هو أنه فى السلطنة كان أولاد المماليك (أولاد الناس) مستبعدين عن النخبة العسكرية ، مما أدى بالضرورة الى اختصار فترة التطاحن . أما فى مصر العثمانية ، حين اندمجت العائلة البيولوجية (يقصد العائلة الممتدة) (**) من العشائر المملوكية ، استمرت أعمال الثأر لفترات طويلة .

فى بعض الأحيان ، كانت تنشأ المنافسات بين أبناء أحد الأمراء ومماليكه ، كما كان الحال مع محمد بك ، أحد أبناء ابراهيم بك أبى شنب ، ومحمد شركس مملوكه .

(*) الاشراقى أى التابع . وفلان من اشراقى يعنى من صبيانى وهى من التركية جرانج أو جمان بمعنى الصبى يسلم للمعلم لياخذ عنه الصنعة . عن احمد السعيد سليمان ، نفسه ، ص ١٦ .

(**) النص : biological family - (المراجع) .

كما ان ارتباط المجتمع العسكري المملوكى مع قبائل العرب البدو ، التى كانت دائما تمارس الانتقام الدموى ، ربما يكون له تأثيره فى هذا الاتجاه . ومن الأسباب المهمة التى أدت الى سقوط السلطنة المملوكية هو رفض الجيش المملوكى أن يستخدم البنادق ؛ مما كان من شأنه أن يجبر الخيالة على أن يصبحوا جنودا راجلة (مشاة) (١٤١) . لم يكن التغيير الحادث فى مصر العثمانية ممثلا فى ازدياد المماليك للقتال كمشاة ، وانما تكنولوجيا الأسلحة النارية : اذ كان من الممكن استخدام المسدس والخنز القصيرة على صهوة جواد ، وهو ما فعله المماليك بفاعلية . وكانت النتيجة ، كما يشير أيلون ، هى العدد الكبير جدا من الخسائر فى الأرواح فى المعارك والمناوشات بين فرق المماليك فى العهد العثمانى والتى كانت أعلى بكثير من الخسائر بين مماليك السلطنة (١٤٢) .

وكانت الصراعات داخل مجتمع المماليك فى زمن العثمانيين تهدف بلا كلل الى القضاء على المنافسين . وأحيانا كان الجنود أو الأمراء المنهزمون يتم نفيهم الى الشام ، والحجاز واسطنبول وقبرص أو الى الاسكندرية أو مراكز متطرفة كالصعيد والبحر الأحمر وشواطئ البحر المتوسط (١٤٣) . وأحيانا كان الأمير ينفى الى قرية أو اقليم ثم يصبح ملتزما لهذه المنطقة التى نفى اليها .

وكانت القاهرة مركزا لجميع الأنشطة الا أن كونهن يمدن عن العاصمة ، قد قلل من أهميتها من الناحية السياسية . وتزخر كتب الحوليات والسير بأسماء الأمراء الذين أعدموا ، عادة بقطع الرأس ، من جانب أعدائهم أو قتلوا فى المعركة . وكانت مشاعر الكراهية والشك عميقة جدا ، حتى ان أحدا لم يكن ينتظر العفو والصلح . وكان عدد الأفراد الذين قتلوا بطرق عنيفة فى ازدياد ، حتى ان الجبرتى لاحظ عند تأبين من ماتوا موتا طبيعيا أنهم كانوا يقولون عنهم لقد ماتوا فى فراشهم (١٤٤) . ولم يكن من المعتاد مراعاة الكرم نحو المعارضين . فحين انتصرت جماعة اسماعيل بن ايواظ على محمد شركس ، هرب الأخير وقبض عليه العرب البدو الذين أطلقوا سراحه على أن يتوجه الى قبرص . وعاش اسماعيل كى

يندم على هذا الفعل الكريم . اذ عاد محمد شركس سرا الى القاهرة ، وأمر
بقتل اسماعيل ودمر عصبته تدميرا تاما (١٤٥) .

وعند الكلام عن الصراعات بين عصابات المماليك ، فان مقر قائد
احدى عشائر أو جماعات المماليك يستوجب منا الانتباه . فلقد كانت
العصبة تستعد للمعركة بتخطيط الاستراتيجيات وتوزيع الأسلحة والمال
على الانصار فى سكن البك (المسمى باللغة التركية ، qonaq قناق
وبيت ببساطة باللغة العربية) ويكتب الجبرتي مرارا عن أهمية البيت
المفتوح (بيت مفتوح) بالنسبة لتنظيم العصبة وفتح الأعمال العدائية
ضد أعدائه . فبعد وفاة أحد الزعماء ، كان يتوقع من كبير مماليكه أو من
أحد الأمراء البارزين أن يفتح بيت سيده . وكان ذلك يتطلب الكثير من
المال ، حتى ان أعضاء العصبة الآخرين كانوا يقدمون مساعدات مالية للأمير
كى تمكنه من أن يقوم بذلك .

المماليك الذين يملكهم المدنيون

يشير أيلون الى فرق رئيسى آخر بين نظام المماليك الكلاسيكى ومصر
العثمانية (ونظام المماليك فى مصر العثمانية) . فبينما كان من الأمور
التي يستحيل التفكير فيها فى السلطنة المملوكية أن يتمكن شخص مدنى
من امتلاك المماليك ، كان هذا يحدث فى مصر العثمانية . اذ انه ، فى
القرن السادس عشر كان الجيش ساخطا على أولاد العرب الذين يملكون
المماليك . الا أن الأوامر المتكررة التي تمنع المدنيين من أن يحتفظوا بعبيد
من البيض (مماليك) لم تكن تلقى الطاعة . ففي وقت متأخر يصل بنا
الى عام ١٧٣٦م ، أعلن فى القاهرة ، أن المدنيين والمغاربة والبيروقراطيين
والتجار لا ينبغي أن يمتلكوا مماليك بيضا ، وجوارى (١٤٦) . ومهما
يكن من أمر ، فان المدنيين استمروا فى شراء المماليك . وعلى سبيل
المثال ، كان أبو الجبرتي رجلا ثريا لديه الكثير من المماليك . وثمة مثال
شهير آخر يتعلق بعصبة مملوكية تسمى جماعة الفلاح ، وكان مؤسسها
فلاح بسيط هو الحاج صالح (توفى حوالى ١٧٥٥ م) . لقد بدأ حياته
كشخص يتيم فى إحدى القرى فى مديرية المنوفية . ورهنه سيده لقاء

دين كان يدين به للملتزم وهو ضابط في احدى الأوجاقات . فلما سدد السيد دينه ، رفض الفتى العودة الى القرية ، وظل في بيت الأمير . ومع مرور الوقت ، ازدهرت حياته فاشترى ممالك ، وعبيدا شبابا من الجنسين . ورتب زيجات بينهم ، واشترى لهم دورا ، كما زودهم بمصادر للدخل . وكذلك قام برشوة ذوى النفوذ والتحاييل عليهم كى يلحق ممالكه فى الأوجاقات حيث ترقوا ، واكتسبوا بيوتا ، وأتباعا وممالك خاصين بهم ، وبذلك شكلوا فصيلا شديدا القوة .

وكان الحاج صالح يقرض النقود لابراهيم كتحدا ولأمرائه القردوغلية .

وكان صالح المسن ، حتى فى ذروة سلطته ، يركب حمارا ولا يتبعه سوى خادم واحد .

وفى النهاية ، حاق الفقر بجماعة الفلاح ، بسبب هذه القروض التى لم تكن ترد على ما ييلو (١٤٧) .

وهناك مثال آخر على انشاء عصابة مملوكية على يد شخص من أصل متواضع غير عسكري ونعنى بها بيت الجولقية أو عصابة الجلفية ، وهى عصابة شهيرة ترجع لسلالة مملوك كان يمتلكه تاجر من قرية جلف Julf . وورد فى المصادر أيضا ذكر لمالك امتلكهم حداد (١٤٨) .

وحتى العلماء كان فى استطاعتهم امتلاك الممالك ، رغم أن هذا كان نادر الحدوث . فالشيخ محمد شنن ، شيخ الأزهر ، أى أكبر علماء الدين بالأزهر ، الذى هو جامع وجامعة ، كان رجلا ثريا لديه ممالك ، قد وصل أحدهم الى رتبة البكوية (١٤٩) .

ولم يكن رؤساء القبائل العربية ، عادة يمتلكون الممالك ، رغم أن بعضهم كانت له الثروة والسلطة لفعل ذلك . وكان همام ، وهو شيخ الهوارة فى الصعيد ، هو حالة خاصة ، لأن رؤساء الهوارة كان ينظر اليهم على أنهم حكام أقاليم أكثر من كونهم « شيوخ بنو » . كذلك

كانت أراضى الهوارة ملجأ للمماليك الذين فروا من المذابح وأعمال التطهير فى العاصمة . واستقروا فى الاقليم ، واندمجوا بمرور الزمن ، مع السكان المحليين وفقدوا تميزهم الاجتماعى باعتبارهم مماليك (١٥٠) .

البيوتات والأسر المملوكية

كان أمراء المماليك من بين أكثر أهالى مصر ثروة ، اذ كانوا يملكون منازل رائعة فى أجمل وأعلى أجزاء القاهرة ، مثل تلك التى تقع على شواطئ البحيرات كبركة الرطاني وبركة الفيل ، وبركة الأزبكية . وكانوا يبحرون فى البحيرات ، استجلابا للبهجة ، ويسيرون على طرق المتنزهات القريبة . كذلك كان الكشاف الذين كانوا يظنون فى مديرياتهم معظم العام يعيشون فى القصور .

وكان الكثير من الأمراء يحرصون على البناء فبنوا مباني للعلماء ، والصوفية ومدارس لتحفيظ القرآن الكريم ، (الكتاتيب) كما كانوا يرعون الأشغال العامة ، فى المحل الأول ، وكانوا يبنون مساكنهم وقصورهم حيث كانوا يحتفظون فيها بحريمهم وعبيدهم وخزائنهم ويقال ان شخصا يسمى على بك ، (تم اعدامه عام ١٢٧٧ م) ، كان لديه ٤٨ مملوكا ، وسبعة من الخصيان ، و ٤٨ سراجا . وكان لدى حريمه ستون ، من الجوارى البيض والسود والحبشيات .

وكان زعماء المماليك يملكون عددا أكبر من المماليك ، فابراهيم كتحدا امتلك ٢٠٠٠ مملوك ، وابراهيم بك ٦٠٠ ، ومراد بك ٤٠٠ .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كان البكوات الأقل أهمية يملك كل منهم ما بين ٥٠ و ٢٠٠ مملوك (١٥١) . واذا ما أخذنا فى الاعتبار المنافسات والتقلبات التى تملأ القاهرة ، فاننا ندرك أن مسكن الأمير كان معرضا للهجمات من جانب أعدائه . اذ غالبا ما كان يتم اجتياح سكن الأمير ويدمر ، وتؤخذ جميع ممتلكاته بمن فى ذلك زوجاته ومحظياته وجواريه بالكامل . وحين فر عثمان بك ، الذى ذكرناه سابقا من مصر ، دخل الجيش ونهب منزله . ويقول الجبرتي ، انه كان يحتوى على كنوز بلغت من القيمة ما جعل الكثير من الذين قاموا بعملية النهب

تجارا وأشخاصا بارزين • إذ انه حتى الرخام والخشب اقتلع من أماكنه قبل إضرام النار في المنزل • كما أن بيت مجيد شركس بك الطاغية قد محى تماما بعد هزيمته • لقد بنى شركس المنزل بالسخرة ، لذا فإن العمال الذين استؤجروا لهمه استعذبوا هذا الانتقام ، حتى أنهم قالوا : « لقد بنينا دون ثمن ، والآن ، حمدا لله ، أننا نهدمه بشمته » (١٥٢) •

وكان الأمراء وغيرهم من الأثرياء أحيانا ما يخفون ممتلكاتهم القيمة في مكان آخر : إذ كان يتم بناء مكان ثان للأشياء القيمة بجوار الجامع الأزهر والمقام الحسيني ، لأن هذه المناطق تعد واقعة تحت الحماية باعتبارها أماكن مقدسة ؛ وبالتالي كانت آمنة نسبيا في الأوقات التي تقح فيها المتاعب •

لقد كان الزواج في المجتمع المملوكي ، في مصر العثمانية وسيلة شائعة لاكتساب الثروة أو المكانة • فكما سبق أن ذكرنا ، كان السادة أحيانا ما يقومون بترتيب زيجات مماليتهم • فيكتب الجبرتي أنه لدى وفاة شخص مرموق ، كان المملوك يهرع الى بيت سيده الأمير ، ويقبل يده ويطلب السماح له بأن يقترن من أرملة المتوفى • وبعد الحصول على الاذن ، اعتاد المملوك أن يذهب مباشرة الى منزل الرجل المتوفى ، وأحيانا كان ذلك يتم قبل أن يغادر موكب الجنازة المكان ، ويستولى على الممتلكات والزوجة • وغالبا ما كان هذا يسر الأرملة ، كما يكتب الجبرتي ، طالما أن المملوك شهاب حسن المنظر ، ويختلف عن زوجها الراحل • فكانت تعطيه كل ما يملك زوجها ، بما في ذلك ما تم اخفاؤه من أشياء • وهكذا يقطع المملوك أقصر الطرق كي يصير أميرا (١٥٣) • وكان المماليت كثيرا ما يتزوجون من جوار من أعراق مماثلة لأعراقهم ، أي شركسيات أو جورجيات أو تركيات • كذلك تزوج بعض المماليت بنات تجار أغنياء ، أو من بنات العلماء أو كبار الصوفية • وكما رأينا سابقا ، فلم يكن من المعتاد أن يتزوج المماليت أرامل ساداتهم أو أرامل أى أمير ذى سلطة • وكانت النساء في المجتمع المملوكي كثيرا ما يتزوجن العديد من المرات ؛ وذلك بسبب حدوث الموت السابق لأوانه والذي كان كثير الحدوث بين المماليت • وتعد حالة ابنة إيواظ بك ، القائد القاسمي الذي قتل في

الحرب الأهلية التي وقعت عام ١٧١١ م حالة متطرفة ؛ غير أنها لا تعد حالة وحيدة ، إذ أنها فقدت أربعة أخوة ، كانوا جميعا من الأمراء ، كما فقدت زوجين عن طريق الاغتتيال ، ولقد توفيت بعد زواجها الثالث بوقت قصير وكان زوجها الثالث هذا أيضا واحدا من بكوات الماليك ، وكان أحد اخواتها هو اسماعيل بك ابن ايواظ ، وقد تأمرت ضد محمد بك شركس انتقاما لمقتل أخيها وذلك بتقديم مبالغ ضخمة من المال - ٥٠٠ كيس لعصبة اسماعيل و ٣٠٠ الى الباب العالي - لكن دون طائل (١٥٤) .

وتبين حالات مثل هذه ، أنه رغم أن للنساء كان ينظر اليهن باعتبارهن متاعا يمكن وهبه ونقله كما يشاء المرء ، لكن هذا لا يعنى بالضرورة أن المرأة المملوكية سلبية دائما . ذلك أن الحوليات التاريخية تصف بشكل مؤثر وفاء الزوجات ، والأخوات والأمهات ، اللاتي أخفين رجالهن وساندنهم حين كان يتم التفتيش عنهن ، أو كن يتوسلن ، دائما - بلا جدوى - لانقاذ حياتهم حين كانوا يقعون في أيدي أعدائهم . وبعد أن كان يحكم بالموت على أحد أمراء الماليك ، كانت قريباته من النساء يحاولن عادة تسلم جثته لدفنه بكل احترام (١٥٥) .

أمراء الماليك كحكام

رغم أن حكم الماليك في مصر كان عموما ، دكتاتورية عسكرية ظالمة مستغللة ، إلا أن المؤرخين كانوا على تمام الوعي بالفروق بين الأمراء كأفراد ، ولقد قدم الكثير منهم بشكل يبرز مزاياهم كحكام وكذلك كأفراد . فحين ارتفع نجم اسماعيل بك ابن ايواظ بين أمراء القاهرة ، لم يكن عمره يزيد عن ست عشرة سنة ، وكانت لحيته بالكاد تظهر . وكانت النساء يسمينه قشظة بك ، على سبيل التحجب . وبالرغم من حداثة سنه ، إلا أنه كان حاكما حاذقا وعادلا ذا طبيعة كريمة سمحاء . وكثيرا ما غادر القاهرة عدة مرات بما فى ذلك ست مرات كأمر للحج . وكانت قلة من البكوات تجرؤ على هذا الفعل خوفا من وقوع انقلاب ضدهم أثناء غيابهم (١٥٦) .

وكان هناك حاكم قدير وخير ، هو عثمان بك ذو الفقار الذى كان الجبرتى يعرفه معرفة شخصية ، بما أنه كان صديقا حميما لآبيه .

موقفاً حقيقياً وجواً عاماً • وحسب قوله فإن الأمراء لم يكونوا يتصرفون ببدافع الاحسان فحسب ، عن طريق تقديم الصدقات والهدايا الى المحتاجين الذين يستظلون بحمايتهم وإنما كانوا يفعلون ذلك بعرض زيادة عملاتهم ومكافأة مناصريهم (١٦٠) •

المماليك ، سماتهم ووعيمهم

كان المماليك يرتدون سراويل مميزة حمراء عريضة تسمى شالفار Shalvar ومع مطلع القرن السابع عشر ، صار الشالفار جزءاً من زي السيباهية ، الذين كانوا - فى مصر - مطابقين للمماليك ، الى حد كبير • وتظهر هذه الحقيقة أثناء الصراع بين الحاكم ابراهيم باشا (١٦٠٤ م) والسيباهية الذين أعدم الكثيرين منهم • ولقد شنق أحد الفلاحين وألبست جثته بالشالفار اظهاراً لبغض الباشا للجند ، أى السيباهية والمماليك ، وعلق ابريق فى جثة الرجل المحكوم عليه ، ربما فى تلميح قاس لطبقة الفلاحين • وفيما بعد ، قتل الباشا المتمردين من السيباهية (١٦١) •

وفى وقت لاحق فى القرن السابع عشر ، يؤكد افيليا جلى (شلمى) على أن السراويل المصرية الحمراء التى تسمى الشالفار كان يرتديها جنود الوحدات الراكبة ولكن الانكشارية لم يرتدوها (١٦٢) • وفى أوائل القرن الثامن عشر يكتب بوكوك : « ان لباس المماليك هو الثوب القصير الذى يوضع فى سراويلهم الواسعة التى تربط فى الساق حول كلا المفصلين السفليين وتترك القدم عارية ، ويرتدون نوعاً من الأحذية الذى يستخدمه العرب حين يركبون الدواب • وفيما سوى ذلك ، فهم يرتدون مثل الأتراك » (١٦٣) •

ولكى ننهى هذا المسح لنخبة المماليك ، من الضرورى مناقشة توجههم اللغوى والثقافى ، وتركيبهم العنصرى والعرقى ، ووعيمهم ونظرتهم الدينية وأخلاقهم • ومن سوء الحظ ، فان مصادر المعلومات أقل عن اللغة المكتوبة ولغة التخاطب عند المماليك مما يتمنى المرء • فنحن نعلم أنهم كانوا يتحدثون بالتركية • فيقول الجبرتى ، بصفة خاصة ، ان الاسم العربى عواد كان ينطق أواط ، ملحوناً باللغة التركية (١٦٤) •

وكانت الثنائية اللغوية التركية والعربية سائدة بين المماليك . إذ توجد اشارات الى أمراء ممن كانوا يتحدثون ويكتبون ويقرأون العربية بالإضافة للتركية . ويقال ، بشكل عابر ، عن محمد بك شركس انه يستخدم صيغة التأنيث للحدث عن الذكور ، وعلى كل ، فان هذا يعتبر طريقة أو لازمة فردية فهذه الرواية تثبت أنه كان يتكلم العربية (١٦٥) . هذا ويقال عن بك آخر انه كان يكتب ويتكلم العربية والتركية بطريقة حسنة (١٦٦) . وحتى خاير بك ، في بداية الفترة العثمانية كان يتكلم اللغة العربية بطلاقة (١٦٧) . وهذا الازدواج اللغوي لا يجب أن يدهشنا اذا ما تذكرنا أن المجتمع المملوكي احتوى على رجال ولدوا في مصر ، لم يكن لهم أن يكونوا غرباء عن اللغة العربية مثل مجتمع المماليك ابان السلطنة . إن فقرة افيليا جليبي (شلبي) ، التي أشرنا اليها سابقا ، حين تحدثنا عن لغة المماليك ، تقوى أيضا من هذا الانطباع (١٦٨) . وفوق ذلك كله ، فان المماليك كانوا متعلمين تعليما جيدا نسبيا . إذ يكتب بوكوك : « إن خير تعليم ، هو الذي يتلقاه المماليك فهم يفهمون العربية والتركية . وغالبا ما يكتبون باللغتين » (١٦٩) .

وخير مثال على هذا هو نعي ابراهيم كتحدا البركاوى (الذي توفي عام ١٧٣٨ أو ١٧٤٨ م) ، وهو ابراهيم كتحدا الشهر . فلقد اشترى مماليك ودرهم على القراءة والكتابة والخط . وكان المتعلمون والخطاطون يختلفون الى منزله . وكان ، شأنه شأن بعض الأمراء الآخرين ، شغوفاً بالكتب ، فاشترى كتباً في الكثير من الفنون والعلوم ، ووجد بعض من أندر الكتب في مكتبته (١٧٠) .

وأخيرا ، لابد أن الصلة بين المماليك والعلماء والصوفية كانت قد حسنت من لفهم العربية على نحو هائل . وتصيدنا هذه النقطة الأخيرة الى مسألة تدين المماليك ، التي سبقت الإشارة اليها . لقد كان الاسلام هو قناة التطبيع الثقافي للمماليك في مصر . إذ لم يكن من الممكن اعتبارهم أرسنقراطية ، ونخبة دونما التزام بقيم المجتمع المصري ، التي كان الاسلام أبرزها . فهناك العديد من السير التي كتبت عن المماليك والاشارات التي أعطيت عنهم كجماعة تصورههم كمسلمين ورعين . فثقواهم الشخصية ، والاحترام الذي يبدونه لرجال الدين ، وانشاؤهم ومساندتهم

للمدارس الدينية ، ومحاولة بعضهم اجتثاث المشروبات الكحولية والبغاء -
كلها شواهد على تدين لا جدال فيه .

لقد سجل الكثير من الأمثلة عن أمراء يوقرون المساجد والأضرحة
الدينية ، ويعد توقيهم للمقدسات المصرية ، على وجه التحديد ، أمرا له
أهمية خاصة . ويعتبر احترامهم لضريح الامام الشافعى ، مؤسس أكثر
المذاهب شيوعا ونفوذاً فى مصر والمؤسس الوحيد لأحد المذاهب المدفون
فى البلاد ، وكذلك ضريح سيدى أحمد البدوى ، أحب الأولياء وأكثرهم
شعبية فى مصر ، خير مثالين على ما سبق ذكره (١٧١) . ولم يخفى
قوانين الاسلام وروحها سوى عدد صغير من الأمراء ؛ غير أن هذا مما يؤكد
القاعدة العامة .

من بين هؤلاء الأمراء خليل بك قطامش ، أمير الحج الذى وضع
مماليكه بين الممرات الضيقة بالقرب من العقبة كشحاذين لمضايقة الحجاج
وسلبهم . واشتكى سلطان المغرب فتلقى تأكيدا بأن الآثم قد
أعدم (١٧٤٧ م) (١٧٢) .

وثمة حالة أخرى أكثر إثارة للاهتمام : هى حالة يوسف بك الكبير .
وهو أحد مماليك محمد بك أبى الذهب ، الذى يصفه الجبرتى بأنه مندفع
ومتقلب المزاج . ويذكر الجبرتى بصفة خاصة : « انه كان يكره الفقهاء
والعلماء (المغممين) فلقد عزل الشيخ حسن الكفراوى عن الافتاء
والتدريس ، لأنه اعتبر أن الشيخ مؤمن بالخرافات . وفى حقيقة الأمر ،
كان الكفراوى يحتفظ فى منزله بأحجية للجاذبية الجنسية كان يعطيها
للجوارى تساعدهن على جذب انتباه سادتهن . فأمر يوسف بك باغراق
هذا الشيخ ثم عرض الأحجية هذه على غيره من الأمراء وأخذوا يضحكون
معا من الشيوخ .

وفى حادثة ثالثة ، أنحى باللائمة على أحد العلماء على قرار معين
اتخذه بانهاء احدى الزيجات . فوضع الأمير الشيخ فى الزنزانة فى سجن
للفلاحين الذين لم يتمكنوا من سداد ما عليهم من ديون . ولم يطلق البك
سراح الشيخ ، الا حين تدخل على الصعيدى ، وهو شيخ ذو نفوذ ،

بالصراخ فيه وسبه (١٧٣) . لقد كان تدين المماليك أكثر تجلجا إذا ما قورن بالعساكر العثمانيين ، الذين كانوا سيئى السمعة بسبب تراخيمهم فى أمور الدين . وكذلك التزم المماليك بصيغة فى الاسلام كان ينادى بها ويرفع لواءها العلماء المصريون ، كما برز الدليل على ذلك فى حادثة وقعت عام ١٧١١ م ، حين ظهر واعظ تركى فى مسجد السلطان المؤيد فى القاهرة ، وهاجم بشراسة ايمان المصريين بالأولياء - فبينما أيد الخطيب الجنود الأتراك بالكتائب السبع فى الحماية العثمانية، وقف أمراء المماليك الى جانب العلماء المصريين ، وأخيرا أرسلوا بالواعظ الى المنفى (١٧٤) .

الى أى حد كان العنصر والوعى العنصرى (الجنسية) شيئا هاما فى مجتمع المماليك ؟

وفقا لما لدينا من معلومات ، لا يمكن سوى وضع تقييم عام جدا للتركيب العنصرى للمجتمع المملوكى . ذلك أن المصادر لا تذكر سوى عنصر أو أصل الأمير . ومعظم المماليك كانوا من الشركس والجورجيين والأكراد والبوسنيين والألبان ، بل لقد ورد ذكر عدد من الأناضوليين (الروم) والأرمن ، بل واثنين من اليهود تحولوا للإسلام (١٧٥) . وفى القرن الثامن عشر ، صار من الأمور الأكثر عسرا تحديد المماليك على أسس عنصرية أو عرقية . ومع ذلك ، فقد كان من المتوقع أن يكونوا من أجناس معينة دون غيرها ، كما يبين حديث الجبرتى الذى يفيد أنه : حين غزا حسن باشا مصر لاعادة تثبيت السلطة العثمانية فى ١٧٨٦ لم ينجح فى السيطرة على الصعيد ، حيث كان ابراهيم ومراد يقاومانه . وبعد رحيل حسن المفاجئ ، أجبر حليفه ، اسماعيل بك على أن يحث تجار الرقيق على توريد المماليك . ولأن الوقت لم يكن كافيا ، لم يقدم لهؤلاء المماليك سوى التدريب العسكرى مهملا تعليةهم الاسلامى . وينتقد الجبرتى على ذلك ، ويضيف أنهم كانوا مماليك سيئى السلوك من أجناس غير معتادة . من جبال الرومىلى (*) والباينا (١٧٦) .

ان معنى التضامن العنصرى يظهر فى كتاب الجبرتى ، وانما نادرا ما يكون النظر الى العلاقة داخل مجتمع المماليك فى حد ذاته . اذ كانت

الصراعات بين الممالك دائما صراعات تعتمد على العصبية من حيث طبيعتها . وأحيانا كان الممالك يجذبون أناسا من جوار عنصرى معين . وهكذا ، ففي معركة خطيرة نشبت في الأزهر في أبريل ، عام ١٧٩٩ بين الطلبة السوريين والطلبة الأتراك والعلماء ، ساند الأمراء الأتراك بسبب الجنسية . وتقدم نفس هذه العاطفة العنصرية كسبب لشرح الاحترام الذى يبديه الممالك نحو خطيب بوسنى (١٧٧) . أما أقوى عامل جعل الممالك متماسكين معا في ترابط فهو المصلحة الذاتية . ومع ذلك ، يمكن تمييز خلق واضح في اتجاهاتهم وأفعالهم الجماعية . وأول هذا النسق الخلقى وأهمه هو اعتزازهم كنخبة محاربة ، وولاؤهم لبيت الممالك . وثانى هذه الأهور ارتباط الممالك بمصر ، الذى كان قويا ، كما كان هو الدافع وراء الكثير من أعمالهم .

وعلى عكس الفرق العثمانية ، لم تكن للممالك جذور خارج مصر ، التى كانت وطنهم الوحيد . فكان الأمراء دائما يفضلون الإقامة في مصر فمن أن يقبلوا ترقية في أى مكان آخر ، لأن مغادرة مصر كانت تعتبر بمثابة الذهاب الى المنفى . حتى فى اسطنبول ، كان يشعر البك المملوكى أنه مقتلع من جذوره ووحيد (١٧٨) .

ثالثا كان هناك ، فى الوعي الجمعى لدى الممالك كراهية كامنة نحو العثمانيين ، نادرا ما طفت على السطح . ولم تظهر بوضوح الا بسبب على بك الكبير ، الذى كان يطمح الى استرداد السلطنة المملوكية . غير أن الكراهية المتبادلة وانعدام الثقة من نواح عدة كانت واضحة من خلال عدة أحداث وإشارات (١٧٩) . وكان وعى الممالك العرقى (العنصرى) غير واضح ، وقد ضعفت الشخصية الشركسية الى حد كبير فى القرن الثامن عشر لكى تحل محلها شخصية مملوكية أكثر عمومية . غير أن الفجوة الاجتماعية بين الممالك (من جميع الأصول) والأتراك العثمانيين تعمقت . ولا يوجد من يصف هذه الفجوة أفضل من الجبرتى . اذ تبين الفقرة التالية من كتابه بوضوح كيف كان الممالك جذابين للنساء المصريات . (دائما ما يكون اتجاه النساء مؤشرا مفيدا) . من الواضح أن المصريين لم يعتبروهم مستغلين أجنبى كما يظن بعض الدارسين المحدثين ، وانما

كارستقراطية مصرية محترمة خالصة ، تقريباً كجزء لا يتجزأ من اولاد العرب ، على العكس من الأتراك .

ويكتب الجبرتي في وصفه لمذبحة المماليك على يد عسكر محمد علي عام ١٨١١ حيث تعدت كل الحدود في قتل المصريين « أى أمراء المماليك » . وكيف أنهم مزقوا ملابسهم ، دون أن تأخذهم الشفقة بأى انسان ، وبذلك يكشفون عن ضغينتهم الخفية ، واختلط المماليك مع العسكر الترك . فهم يسكنون في تجاوز معا في جميع الأحياء والمناطق . . . وكان يجاورهم الكثيرون من قادة العسكر في كل الأحياء ويتبعونهم ويعرفون جميع أفعالهم وأماكن تواجدهم . واندمجوا هم واختلطوا بالمماليك بل كانوا صحبتهم في الليل مظهرين لهم الصداقة والحب ، بينما كانت قلوبهم مليئة بالحقد والضغينة لهم أى للمماليك كلا بل لكل العرب . ولا يمكن التعبير عن هذا الوضع بشكل أكثر جلاء ، فحسب ما يقوله الجبرتي : كان المماليك تقريباً مطابقين لأولاد العرب ، على النقيض التام مع العسكر الأتراك (١٨٠) . ويستمر : وحين وقعت المذبحة أسرع الأتراك في تحقيق أملهم وملأ السروز قلوبهم . وعلى وجه الخصوص ، انتقموا في أمور تتعلق بالنساء : لأنهم كانوا يرون الرجل البارز منهم اذا حاول الاقتران بأبسط امرأة فانها كانت تأبى بازدراء ، ولو أنه مارس ضغطا عليها لسعت الى اللجوء عند رجل يمكنه حمايتها ضده . أو لربما استطاعت الهرب من منزلها . واختفت لبضعة أشهر . وكل هذا على العكس من حالة كان يمكن أن يطلب فيها مملوك من أحط الأصول يدها للزواج . عندها كانت ستقبل مباشرة .

لقد حدث حين عقد محمد علي باشا سلاما مع ممالك الألفية (عصبة) وبحثوا عن منازلهم (أسراتهم) فان كثيرا من النساء اللاتي كن يختفين تجمعن ورحن يتنافسن للزوج منهم وأعددن لهم الملابس وقبلن الهدايا منهم . . . وكل هذا حدث على مرأى من الأتراك الذين كبتوا ذلك بكل غل في صدورهم (١٨١) .

ولننهي مسألة المصطلحات المستخدمة في هذا الموضوع نذكر أنه في بداية الحكم العثماني في مصر كان العرب يطلقون على المماليك اسم

الترك ، وكان المؤرخون الأتراك يطلقون عليهم اسم الشركس • وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر لا تتفق المصادر العربية على المسمى الذي تطلقه عليهم ، لكنها لا تسميهم ممالك أبدا ، غير أن مصطلح (جنود) أو (أجناد) Jundis يرد في المصادر التركية ليعنى الممالك دائما • وفي بعض الأحيان ، يبدو أن (طائفة الشركسية) أو الشركس كانت تعنى ممالك ، الا أن هذا لم يكن مؤكدا ولا واضحا ، والجبرتي يشير لهم بجنس الممالك ويسميهم « المصرية » أو « الجبرلية » •

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

الفصل الثالث

العلاقة بين الدولة والعرب البدو

تقديم

لقد استخدم العديد من المؤرخين المحدثين مصادر عربية وأوربية لتقديم صورة مترابطة عن الأحداث السياسية الرئيسية المتعلقة بالحكم العثماني في مصر حتى عام ١٥٢٥ .

وعلى كل ، فان هذه الروايات تحذف عنصرا لعب دورا مركزيا في الفعرة العاصفة التي تلت الفتح ، حذفها تماما تقريبا ، وهذا العنصر هو البدو ، أو حسب استعمال المصادر المعاصرة (العربان) .

ان هذه المفجوة التي يحاول هذا الفصل سبدها نجحت أساسا عن افعال الباحثين للمصادر التركية ، التي اشتملت على معلومات كثيرة عن العرب (البدو) . واذا ما أردنا أن نعد دراسة عن الفترات الأولى ، فمن المهم أن نلحق هذه الروايات بكتاب الحوليات التركي ، (ذكر الخلفاء والملوك المصرية) . وهذا الكتاب رغم شهرته لم تتم دراسته دراسة كافية . مؤلف هذا الكتاب هو عبد الصمد الدياربكري ، وهو أحد القضاة الذين أتوا مع السلطان سليم الأول، وظل فيها كقاض ومستشار . وتمتع الدياربكري بميزة القرب الوثيق من مركز السلطة العثمانية في مصر ، وهو شيء كان يكرهه ابن اياس كراهية تامة ، حيث انه كان متعاطفا مع المماليك الآفان . ويخبرنا الدياربكري عن حالة الأحكام العثمانية وأخبار الحكام بالتفصيل . ويتركز اسهامه الرئيسي في أنه

استمر من حيث انقطع كتاب ابن اياس ، ويصل ما يكتبه الى ٩٤٧ هـ / ١٥٤١ م ، رغم أن روايته التفصيلية لم تتعد ٩٣١ هـ / ١٥٢٥ م . ويتبين من رواية الدياربكرى أن الدور الذى لعبه البدو فى تلك السنوات المضطربة كان أكبر بكثير مما كان يدرك الكثيرون . أما الفجوة المتمثلة فى المدة فى الحوليات التفصيلية التى تلت الدياربكرى ، فقد ملاحا جزئيا كتاب عرب غير مصريين من شوام ومن أهل الجزيرة العربية ، وكذلك عن طريق مواد الأرشيف والمحفوظات العثمانية وبخاصة مجموعة فرمانات - Muhimme Defteri وهى محفوظة بترتيب زمنى فى اسطنبول ، وتبدأ من قرب نهاية حكم السلطان سليمان القانونى ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م (١) ويمكن لهذه فرمانات أن تخبرنا بالكثير عن مشايخ العرب ، وبصفة رئيسية عن قواعدهم الادارية والمالية وكذلك معاملاتهم مع الدولة .

ان العدد الكبير من المراسيم الذى أرسل الى القاهرة وما تحتوية يظهر أن المشايخ العرب ، فى القرن السادس عشر ، كانوا مشكلة أرقت السلطتين المحلية والمركزية أكثر من أية قضية أخرى .

وسنورد بضع ملحوظات أولية عن العرب البدو . ان لفظ عرب فى المصادر المكتوبة باللغة العربية فى أواخر العصور الوسطى وفى الفترة العثمانية ، لا يستخدم تقريبا الا للإشارة الى البدو . غير أنه يجب التزام الحذر فى تطبيق لفظ البدو على القبائل العربية بالبلاد حتى لو كانوا بدوا فى تنظيمهم القبلى وتقاليدهم وعقليتهم . وهذا يرجع الى ظروف مصر الجغرافية والبيئية . ذلك أن العرب لم يكونوا بدوا رحلا بالمعنى الخالص للكلمة ، فالكثيرون منهم كانوا يتقنون الزراعة .

وكان مجتمع العرب البدو فى مصر العثمانية يتكون من تنويعا كبيرة من القبائل والعشائر . ولم يكن ثمة شىء كثير تشترك فيه سوى التنظيم القبلى وادعاء الأصل العربى . لذا ، فإن التعميم فيما يتعلق بالعرب من السهل أن يوقعنا فى الخطأ . وعلى سبيل المثال ، بينما كانت بعض القبائل أو العشائر تشتهر بأنها من قطاع الطرق ، والمتمردين ، فإن آخرين كانوا معروفين بالطاعة والخضوع ، ويقدمون خدمات حيوية للحكومة .

بل ان القبيلة الواحدة كان يمكن أن تضم كلا من المشايخ المواليين والتمرديين . والأكثر من ذلك ، كما سيتضح لاحقاً ، فإن نفس القبيلة أو الزعيم يمكن أن يؤيد بالتبادل الحكومة أو بعض الأمراء أو العصبات ويعارضها وفقاً للظروف . وتشرح هذه البراجماتية (النفعية) التناقض الظاهر في اتجاهات البدو وسياستهم . فبالرغم من العداوة بينهم وبين المماليك ، التي ترجع جذورها الى استيلاء المماليك على مصر وحكمها في منتصف القرن الثالث عشر ، الا أنه توجد حالات من التعاون الوثيق بين هذين المجتمعين المياليين للحرب أثناء مصر العثمانية . وبالمثل ، فإن سلوك العرب نحو العثمانيين لم يكن متسقاً . ومع هذا ، فإن هناك قاعدة بديهية للغاية ، تنطبق على مصر كما تنطبق على غيرها من البلاد ، وهي أن قوة البدو تعد مؤشراً على قوة الدولة ، اذ كلما كانت الحكومة قوية ، كانت القبائل العربية ضعيفة ، والعكس بالعكس .

دور العرب في أحداث مصر السياسية ، ١٥١٦ - ١٥٢٤

حين كان السلطان المملوكي قنصوه الغوري ، يقوم بمحاولته اليائسة للاستعداد للمعركة الوشيكة مع سليم الأول ، حاول أن يدعم قواته وذلك بالحاق الفرسان العرب ، من جميع أنحاء مصر ، فجمع كشاف الاقاليم ومشايخ العرب وأمرهم بتجنيد ٢٠.٠٠٠ من رجال القبائل العرب . وفشلت هذه الجهود ، عموماً ، ولم يستفد منها سوى الكشاف والمشايخ ، (صفر ٢٩٢ هـ / مارس ١٥١٦ م) وفقاً لما أورده ابن اياس .

وبعد هزيمة المماليك في موقعة مرج دابق ، احتل العثمانيون الشام بأسره وتحركوا عبر صحراء سيناء ، حيث واجهوا بعض المناوشة من جانب البدو . واستمر البدو في سرقة وقتل الجنود الذين أسروهم بعد معركة الريدانية ، خارج القاهرة (في ٢٣ يناير ١٥١٧) . ويكتب ابن اياس ، الذي كان يبغض البدو بغضاً شديداً ، أنهم كان في امكانهم تخريب البلاد بأكملها لولا أن تداركتها رحمة الله (٢) .

وفي صفر ٩٢٣ هـ / مارس ١٥١٧ م ، جاءت أعمال التمرد من مديرية الشرقية . وذكرت الأخبار أن البدو لا يهاجمون الجنود العثمانيين

فحسب ، وإنما ينتهزون الموقف غير المستقر للاغارة على القرى والمدن ونهبها وحرقها ، ومن بين هذه المدن ، قليوب وقلقشندة ، وشبرا المنية (ربما شبرا الخيمة) على بعد بضعة أميال من القاهرة . فاضطر سليم الى ارسال قوة مكونة من ١٥٠٠ رجل لصددهم (٣) .

وقام طومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، بتنظيم المقاومة ، ببسالة رغم أن القسم الرئيسى من جيشه قد تحطم فى مرج دابق والريدانية . وأخبر سليم أنه لا يزال هناك تحت امرته الكثير من البدو والمماليك المقاتلين بالفعل . وبعد آخر معركة شنها طومان باى ، وخسرها فى الجيزة (معركة المتوات) استعرض العثمانيون ٣٠٠ من رؤوس المماليك والبدو المذبوحين فى القاهرة (٤) . ففر طومان باى الى طروجة ، التى تقع فى أحد أقاليم البدو فى مديرية البحيرة ، مرتديا ملابس قبيلة هواة القاطنة فى الصعيد . وهناك وجد ملجأ عند حسن بن مرعى شيخ العرب فى المديرية ، وأخيه شكر . إذ كان الشيخ مدينا للسلطان بأفضال أسداها طومان باى حين كان يعمل داودار للسلطان الغورى (مساعده) . ومع ذلك ، فقد خان بحسن مرعى طومان وسلمه لستليم ، الذى أمر بأن يشنق على باب زوينة فى القاهرة (٥) . ولم يكن من شأن هذا الخفدر إلا أن يزيد من الكراهية المتبادلة واتصدمت الثقة بين العرب والمماليك .

يروى الديار بكرى أن حسن بن مرعى كان يتفاخر بأن العثمانيين مدينون له بملك مصر . إذ أنه ما لم يقم بتسليم طومان لسليم ، لتمكن السلطان المملوكى من طرد العثمانيين خارج مصر . غير أن شخصا ما قد استمع الى مرعى ، فحين أتى الى القلعة فى شهر رجب ٩٢٣ هـ / أغسطس ١٥١٧ م ، تم القبض عليه مع شيخين آخرين بأمر من سليم بالرغم من وعد بحسن المعاملة قطع له .

ويلاحظ ابن اياس أن الناس قد فرحوا بما حاق بحسن بن مرعى من سوء الطالع ، لأن طومان باى كان حاكما عادلا متواضعا وشجاعا (٦) .

وكانوا يضايقون بدو عزالة Azzala الذين كانوا يعيشون هناك (٩) .

ان ما قصر خاير فى الإبلاغ عنه هو أن الحملة واجهت مصاعب بسبب الشجار المستمر بين الجنود المماليك والجنود العثمانيين ، مما أدى الى أن هدد الجنود العثمانيون بأن يقتلوا قائدهم المملوكى ، فاقترح الشيخ حماد رئيس العزالة فى الجيزة ، على خاير بك بأن يسترجع جيشه ، لأنه كان يشك فى قدرة جيش الحكومة المفكك على هزيمة ٢٠.٠٠٠ من البدو (١٠) .

ومع ذلك ، ففى التاسع من ذى الحجة ٩٢٣ / الثالث والعشرين من ديسمبر ، ١٥١٧ ، هاجم الجيش العثمانى البدو فى مديرية البحيرة ، ودفعوا بهم نحو الغرب . وحاول حسن بن مرعى اقناع الباشا بأنه لم يخطط للتمرد وأن دافعه هو ثأره مع اسماعيل ابن أخى الجوالى ، وهو شيخ عربى منافس له . كما أرسل حسن أخاه (شكر) برسالة شخصرة الى خاير بك . فقبض قايت (*) باى وهو أحد أمراء المماليك على شكر ، فورا حين اشتبه فى أنها حيلة من تلك التى عرفت عن البدو . غير أن حسن ابن مرعى ظل مطلق السراح . وأخيرا ، وافق خاير بك على منح الشيخ العربى الأمان (١١) ، وهى حركة بارعة من جانب الحاكم ، مادام الشرقى قد وقعت مرة أخرى فى الاضطرابات . ذلك أن عبد الدايم بن بقر استأنف أعماله الخبيثة مرة أخرى ، وذلك بقطع كل اتصال بين القرى والاغارة عليها . فراجع قايت باى فرقه الشركسية ؛ حيث انه قد أمر بقيادة قوة ضد عبد الدايم ، فلما وجد أن هذه القوة تفتقر الى السلاح والخيل ألغى الهجوم . وعلى أية حال ، فإن استعراض القوة فى حد ذاته ، ردع البدو . وحاول بيبرس بن بقر ، بمساعدة أحد مشايخ الصوفية ، أبو الحسن بن أبى العباس الغمرى ، أن يخرج بحل توفيقى بين أخيه عبد الدايم وأبيه أحمد . ويبدو أن ظهور قبيلة بدوية أخرى على مسرح الأحداث ، شجع عرب الشرقى على انهاء حربهم الثائرة (١٢) . وكان القادمون الجدد هم عرب السوالم ، القادمون من الشمال ، وعلى الفور

(*) تكتب أحيانا قايد ، والصيغتان تترددان فى الكتب العربية .

قام بنو بقر بمطاردتهم • وكان عرب السوالم أيضا يصحبهم عرب من جبل نابلس في فلسطين ، فروا من الحكم الجائر الذي كان يحكم به جانبردى الغزالي الشام • وحين وصل السوالم الى بركة الحج والمطرية ، بجوار القاهرة ، قام قايت باى بصددهم (١٣) •

ومرة أخرى ، دعى عبد الدايم للحضور الى خاير بك ففعل ذلك وهو يرتدى منديل الأمان • وما از علم أحمد بذلك حتى هرع الى القلعة ، والقى خطبة طويلة أمام الحاكم ، استنكر فيها أفعال ابنه الشريرة ، وقال انه أفضل من يعرفه • كما حذر خاير بك أن عبد الدايم ، اذا تم اطلاق سراحه ، فان خاير بك سيتحمل المسؤولية الأخلاقية • كما أفتح قائد القلعة وأمراء آخرون خاير بك بسجن عبد الدايم وأربعين من رفاقه ، وذلك بأن استخدموا حججا مشابهة لتلك التي استخدمها أحمد • وكذلك تمت مصادرة أموال عبد الدايم ، بما فيها سواقيه وثروته الحيوانية • وفى الأسابيع التالية ، قتل الكثير من أتباع الشيخ شنقا ، أو بالخازوق والشق الى شطرين ، وبعد ذلك تم عرض أجسادهم فى أجزاء مختلفة من القاهرة (١٤) • وفى العشرين من ربيع أول ، عام ٩٢٥ / الثانى والعشرين من مارس عام ١٥١٩ ، قتل اينال السيفى طراباى كاشف الغربية حسن ابن مرعى وأخاه شكر ، وبذلك انتقم لخياتهما لطومان باى • اذ دعا الكاشف الشيخين لحضور حفل ، ولما سكرا ، هوى عليهما عدد من المماليك الشراكسة وقتلوهما • ويقال ان أحد القنلة ، وصل به الأمر الى حد شرب دم الشيخ ، كما مثلوا بجنتيهما • وقيل أيضا ان رأسيهما علقا على نفس الحصان الذى أخذ على ظهره طومان باى الى القاهرة ، بعد الغدر به • وفى العاصمة ، عرض رأسا الشيخين عند باب النصر • وكذلك قتل أخ ثالث لهما كان يسكن فى القاهرة • ومن المفهوم ، أن الشركس ، وعائلة طومان باى ، استعذبوا طعم الانتقام (١٥) •

وبعد ذلك بوقت قصير ، قتل كاشف قلوب على الأسمر بن أبى الشوارب بنفس الحيلة بالضبط • فعند اجتماع المشايخ العرب ، صاح حسام الدين بن بغداد بغضب متهما المماليك بأنهم يقتلون البدو لولاثهم للعثمانيين • فقرر المشايخ أنه اذا ما استمر الكشاف فى اضطهادهم ،

فلسوف يحجمون عن التعاون مع الكشاف . فامر خاير بك الكشاف بان يدعوا العرب لشأنهم ، أملا منه فى تهدئتهم . وحين اتهمت عائلة الشيخ المقتول الكاشف بقتله بلا ذنب ، دافع الكاشف عن براءته وشنق أحد مماليكه ، زاعما أنه ارتكب الجريمة . ويشك الدياربرى فى أن هذا المملوك قد أخذ ككبش فداء عن سيده (١٦) .

وفى بداية صفر عام ٩٢٦ هـ / يناير ١٥٢٠ ، تصرفت الحكومة بقسوة مع السوالم ، الذى كانوا يحدثون فوضى فى الشرقية .

ويكتب الدياربرى ، وهو من حاشية خاير بك ، أن الحاكم تجول فى المديرية ، متظاهرا بالصيد ، ولكن من الناحية الفعلية كى يشرف على العمليات التى كانت تجرى ضد السوالم . فتم ترتيب يجعل الكشاف فى منطقة بلبيس ، يدعون رؤساء السوالم الى وليمة ، وعندها يقتلهم الجنود . فقتل الكاشف بهذه الطريقة ١٢ من مشايخ السوالم . ويقول الدياربرى ، ان وجود خاير بك فى المديرية تسبب فى بؤس عظيم للقرويين : اذ أعطاه المشايخ العرب أموالا ، و ٢٠٠٠ رأس من الغنم والخيول التى أخذوها من الفلاحين (١٧) .

وأثناء هاجم العرب من منطقة بلبيس ، رجال القبائل من السوالم وحملوا معهم الكثير من الغنائم والكثير من النساء والأطفال وكان ممن خططوا لهذه العملية ، الزينى بركات بن موسى وهو موظف كبير ، كان محتسبا تحت حكم سلاطين المماليك وكذلك العثمانيين . وعيز فى عام ١٩٢٤ هـ / ١٥١٨ - ١٥١٩ م ، أمير قافلة الحج المصرى كما أسندت اليه مهام حساسة ذات علاقة بشئون البدو ، قام بها فتسبب عن نتائج وخيمة (١٨) اذ اغار ابن موسى على مضارب السوالم ، فهدم مساكنهم ، وأخذ نساءهم وأطفالهم بعيدا ، بمن فى ذلك أبرز ٦٠ شخصا فى القبيلة . وفى العاشر من صفر ٩٢٦ هـ / انحادى والثلاثين من يناير ١٥٢٠ م . دخل ابن موسى القاهرة مرتديا ملابس بدو الهوارة . وحملت رؤوس مشايخ السوالم على رماح أمام حصانه . وكانت خلفه على ظهر حصان ست حث مسلوخة لمشايخ السوالم مثبتة بالقش وعليها ملابس بدوية (١٩) .

وبعد عودة خاير بك مباشرة الى القنعة ، عرف أن السوالم الغاضبين قد خربوا مدينة الصالحية وبضع قرى مجاورة ، وذلك باضرام النيران فيها ، كما أحاطوا بقوات اياس ، الكاشف المسئول عن سياسة القبضة الحديدية . فأنحى خاير باللائمة على اياس ، قائلا انه لم يكن يريد شيئا سوى طرد السوالم من البلاد . والآن ، بعد هذه المعاملة القاسية ، فلسوف يقاتلون بغضب . ويضيف الدياربكرى أن القبيلة البدوية التي يكون مشايخها فى الأسر ستكون هادئة ، ولكن حين يقتلون ، وتسبى نساؤهم فمن المؤكد أن البدو سوف يقاتلون (٢٠) . كذلك كان من المطلوب تهدئة الشرقية بسبب خشية خاير بك من أن ينتشر ترمد جانبردى الغزالي حاكم الشام فيصل الى مصر . فأرسلت قوة ، بقيادة كاشف البحيرة ، وهو رجل حساس متواضع ، لوقف تعديت البدو . وبعد أن أخبر السوالم أن مقاومة الدولة شئ ميؤوس منه ، وعد بأنهم اذا ما تعاونوا مع الحكومة ، فان واحدا منهم سيتولى منصبا حكوميا ولسوف يستمتع الجميع بالأمن . ثم سمى خاير بك عدة رؤساء من السوالم بمشايخ العرب محل رفاقهم المذبوحين وأطلق سراح نجم شيخ عرب العايد الذى سجن لتحالفه مع السوالم . بل أكثر من ذلك ، فقد أمر خاير بك المشايخ العرب أن يستعدوا لغزو محتمل قد يقوم به جانبردى الغزالي ، وأخبرهم بأن يهاجموا قواته فى نقاط استراتيجية (٢١) . وعلى أية حال ، لم يعد الهدوء الى الشرقية . اذ نهب البدو قاطية Qatya فى سيناء ، والخطارة على الحدود الشرقية من الاقليم (الولاية) ، وكانوا يتحركون نحو الصالحية . فلما أحس الشيخ أحمد بن بقار بالخطر ، أرسل بنسائه الى القاهرة وأخفى أمواله وأقمشته وحيواناته وطيوره . ومرة أخرى ، يلاحظ الدياربكرى أن القوات التى أرسلت لصد البدو تسببت فى قدر أكبر من الضرر مما فعله البدو وذلك بأخذ ممتلكات الفلاحين ونسائهم وأطفالهم (٢٢) . وكان هذا كله يقع فى خضم أنباء بوقوع غزو وشيك يقوم به جانبردى الغزالي . وعلى ما يبدو ، لم يكن فى خطة المتمرد الشامى أن يقود هجوما على مصر ، غير أنه أرسل بدو وأكراد كقوة استطلاع . وقاىل الغزاة البدو المؤيدون للغزالي العرب المحليين فى حدود مصر الشرقية . فشن العرب هجوما ليليا على بدو

اقليم نابلس بقيادة طراباي بن كراجا ، واستولوا على جمالهم وخيولهم كفتائم (٢٣) .

ولم يرتكب سوى شيخ عربى واحد الخطأ القاتل بمساندة الغزالي . اذ اتصل أحمد بن قاسم أبو الشوارب من قبيلة بنى بقار بالتمرد ، على أمل أن يكون رئيسا للبدو فى اقليمه . وحين سحق العثمانيون تمرد الغزالي فى فبراير عام ١٥٢١ ، ندم الشيخ على لعنته وعفا خير بك عنه . ومع ذلك ، فقد كان الحاكم متحفظا لأول زلة يقع فيها الشيخ ، وحين حدثت هذه الزلة ، أمر الحاكم كاشف الشرقية باعدامه (٢٤) .

وكالمعتاد ، كان اضطراب البدو مؤشرا صحيحا على عدم الاستقرار السياسى وكان البدو ، فى ذلك الوقت ، فى حالة من الاثارة الدائمة . فهرب بييرس بن بقار الى سيناء لأنه خشى من أن يوجه اليه اللوم على حدوث الاضطرابات . وصار أحمد بن بقار هو المتحدث باسم عرب الشرقية . فقاد ابن موسى ، مرة أخرى ، قوة الى الاقليم (انولاية) لقمع البدو لكى يحاول أن يضع حدا للقتال الدائر بين القبائل نفسها .

وفى الغرب ، غزا عرب من الجبل الأخضر ، اقليم (ولاية) البحيرة ونهبوا أهل البلاد (٢٥) .

وسوف نتذكر أنه بعد وفاة خير بك ثار جانم السيفى واينال ، وهما اثنان من أمراء الاماليك ، وانضم اليهما الكثير من الشركس والعرب . ووصل متمردو البدو الى بركة الحبش ، على بعد حوالى خمسة أميال جنوب القاهرة ، وكان بعضهم قد عسكر بالفعل فى الجيزة . فهرب الكثيرون من الفلاحين الى المدينة حيث اشتد الذعر بالأهالى ، الذين بدأوا فى اخفاء ممتلكاتهم ، واغلاق محالهم حتى هددهم الباشا بالشنق ما لم يتوقفوا عن ذلك (٢٦) .

وأعطى بركات بن موسى لقب سنجق بك Sanjaq beyi وهو لقب عسكري ؛ لكى يقوى وضع الحكومة . فذهب الى الشرقية حيث عبأ عرب بنى حرام وقبائل بنى وائل الذين أحضرهم الى أطراف المدينة . فلم يؤد

هذا الا لزيادة خوف الناس (٢٧) . ويسجل الديار بكرى دهشة القاهريين من منظر جيش من البدو . فكان الناس يعلقون ساخرين : « كنا نظن أن العثمانيين أعقل من أن يشكلوا جيشا من البدو » . اذ لا يقاتل العرب قتالا جيدا الا من أجل معاشهم وشرف أسرهم . والا فانهم يقفون ويتفرجون حتى يروا من هو الفائز ، ثم ينهبون ممتلكات الخاسر (٢٨) .

وكان قائد فرق الموالين هو جانم الحمزاوى ، وهو أحد وجوه تلك الفترة نفوذا وتنوعا . ورغم أنه ينحدر عن أصل مملوكى ، الا أنه امتزج كلية فى المجتمع والثقافة العثمانيين ، غير أن الديار بكرى يشير اليه باعتباره مندوب الباشا (كتحدا) . كما قام بالكثير من الرحلات الى اسطنبول . وكذلك عمل كأمير للحج ، وكان يعد خبيرا فى شئون البدو . فكان مشايخ البدو يتجهون اليه مرارا ليعرضوا عليه مشكلاتهم (٢٩) .

وحين أدرك جانم مدى عدم استعداد فرقه للمعركة ، توقف عن القتال .

أما ابن موسى فكان فى حالة أكثر سوءا بكثير . اذ اتفق مع العرب أن يعطيهم أربعة رؤوس من الغنم يوميا ، و ٢٠٠٠٠ رغيف من الخبز ، وعلفا لخيولهم . غير أن مؤنه نفدت بعد بضعة أيام ، وظل محافظا على وعده فقط مع الشخصيات البارزة من البدو . وبناء على ذلك ، هدد الآخرون بقتله (٣٠) .

وكان اينال ، الذى كان يؤيده العديد من البدو ، متجها فى طريقه لمساعدة جانم . وفى الجيزة ، سرق حماد شيخ عرب عزالة متعلقاته . وذهب جميع مشايخ العرب البارزين : أحمد بن بقار وعشرة من أبنائه ، وحسام الدين بن بغداد من المنوفية ، واسماعيل بن الجوائلى - كلهم ذهبوا الى الحاكم للتعبير عن ولائهم له . ومنحوا جميعا الخلع . وقد لوحظ غياب على بن عمر ، رئيس الهوارة ، وحاكم الصعيد (٣١) . وحاول ابن موسى أن يتفاوض مع المتمردين ، بل ألمح أنه يتفاوض سرا مع

المماليك • ومع ذلك تم قتله ، بأمر من جانم السيفى • وكان هناك اعتقاد بأن أحمد بن بقار يحمل ضغينة نحوه ، وحرص على قتله فى ٢٧ رجب ، ٩٢٩ هـ / ١٥ يونيو ١٥٢٣ (٣٢) •

ولم تعد هناك امكانية لتأخير الهجوم على المتمردين • فكما جرت العادة فى مصر العثمانية ، حسمت المدافع نتيجة المعركة ، لأن البدو اختفوا بمجرد اطلاق المدافع ، وهو ما كانوا يخافون منه ، تاركين المؤيدين من المماليك المتمردين وحدهم فى الميدان •

وبعد أن سحق التمرد ، أسرع البدو فى مطاردة المماليك الفارين وقطعوا رأس ٥٠٠ منهم وسلموها للعثمانيين • فقام العثمانيون بعرضها على أبواب القاهرة (٣٣) •

وفى الخامس عشر من شعبان ٩٢٩ هـ / التاسع والعشرين من يونيو ١٥٢٣ ، وصل موظف رفيع الرتبة من اسطنبول بفرمانات بتنصيب أحمد بن بقار وعلى بن عمر • ومن الواضح أن السلطان لم يكن قد علم بعد عن ميول الأخير التمردية •

توقف المسئول الكبير عند منية الغمر ، حيث استضافه أحمد بن بقار وأكرمه ببذخ • وبعد ذلك بوقت قصير ، أحضر الشيخ ضرائب الشرقية بالكامل للباشا • ويقول الديار بكرى انه رغم أن الشيخ تسبب فى الكثير من المتاعب كما كان مسئولاً عن موت ابن موسى ، لم يكن الباشا ليستطيع أن يتسبب له فى أى أذى بسبب الفرمانات والتكريم الذى قد تلقاه •
توا (٣٤) • واستمرت اضطرابات البدو فى مديرتى الشرقية والغربية •
ومرة أخرى طُلب شيخ عرب البحيرة العون لمواجهة الغزاة من الغرب • وفى الشرقية ، تلقى البدو صفعاً عنيفة على يد الكاشف اذ هاجمهم بالمدافع وقتل ما يزيد على ٤٠٠ منهم • وكان بدو عزالة يتحركون بعيداً عن جوار العاصمة نحو الصعيد ، تتبعهم قوة تتألف من ٦٠٠ من الرجال ، كان يرشدهم شيخ العرب اسماعيل ابن أخى الجويلى (٣٢) •

لقد دأب المؤرخون غالباً على غض النظر تماماً عن الدور المهم الذى لعبه البدو فى تمرد أحمد باشا « الخائن » ، فمنذ البداية ، تعاون أحمد

وعدد من مشايخ العرب ، وعلى الأخص على بن عمر ، معا ، اذ كان على البدو أن يبينوا ما اذا كانوا قد أخذوا جانب أحمد باشا ذى اليد العليا أم لا . فذهب على بن عمر الى العاصمة ليعلن عن تأييده لأحمد باشا ، وبلا شك ، لمناقشة حركتهم التالية معه . وكذلك فعل نجم شيخ عايض ، لأنه كان قد فقد حظوة النظام السابق . فأطلق أحمد باشا عبد الدايم ابن بقر من السجن ، وأعاد تعيينه فى مديرية الشرقية ، ووعده بالمزيد من الترقى . كما عين أحمد بن بقر شيخ عرب (٣٦) . ومن ناحية أخرى ، فر ابن أخى الجويلي مع عائلته نحو الغرب (٣٧) . وكان هذا الرجل شيخ البحيرة ويظهر ولاءه للعثمانيين . ولما غضب أحمد باشا لفراره ، ألقى باللوم على مستشاريه لسئون البدو . لقد كانت واحدة من أولى خطوات أحمد باشا هى أن يحاول التخلص من الانكشارية . وقبل أن يعلن عصيانه ، أرسل بسبعين منهم الى اسطنبول . وحين وصل الانكشارية الى الميناء البحرى ، ميناء رشيد علموا بأمر التمرد ، وقرروا العودة لمساندة رفاقهم فى القلعة ، التى كانت محاصرة . وحاول الانكشارية أن يعودوا دون ان يلحظهم أحد ، ولكن عندما مروا بقلوب ، رآهم ابن أبى الشوارب ، شيخ عرب القليوبية ونصب لهم كميناً وسلمهم الى أحمد باشا . فأمر بقطع رؤوسهم (٣٨) .

بعد الانقلاب المضاد الذى قامت به جماعة من الأمراء المواليين بقيادة جانم الحمزاوى ، ومحمد بك ، هرب أحمد باشا الى الشرقية ، وهناك أكرم أحمد بن بقر وفادته ووعده بمساندته . وحين اتصل محمد بك بالشيخ البدوى وحذره من أن يأوى متمرداً ، أجاب ابن بقر اجابة دبلوماسية بأن كرم الضيافة البدوية لا يسمح له بأن يقتل ضيفه أو يقوم بتسليمه الى ملاحقيه . فاذا أراد محمد بك أن يأسر محمد باشا ، فعليه أن يأتى له ، كما قال . وهكذا أمن ابن بقر نفسه ضد جميع الأحداث المحتملة ، على الأقل فى الوقت الحاضر (٣٩) . فأرسل محمد بك جانم الحمزاوى على رأس قوة ، غير أن جانم تردد ، بسبب التوترات بين العثمانيين والمماليك ومؤيدى أحمد باشا الكثيرين . فعين محمد بك قاضياً ليحل محله فى القلعة وقاد الجيش بنفسه . ومرة أخرى ، تلاشى البدو حين انطلقت المدافع . فتم أسر أحمد باشا ، وقطع رأسه فى السادس من

مارس عام ١٥٢٤ ، بعد الاقامة بين العرب فى الشرقية لمدة ثلاثة عشر يوما (٤٠) .

لقد تم تجاهل استمرار القبائل العربية فى تحدى الدولة العثمانية بعد تمرد أحمد باشا تجاهلا تاما . ومن الناحية السياسية ، لم تبد تهديداتهم بنفس خطورة أفعال أحمد باشا ، أما من الناحية العسكرية ، فان البدو تقريبا أنهكوا القوات العثمانية فى مصر (٤١) .

ويصف الديار بكرى البدو بأنهم كانوا فى حالة من النشوة المفرطة . اذ تجمع عرب الفيوم والصعيد وأقسموا على أن يظلوا متحدين حتى يستولوا على القاهرة أولا ثم بقية البلاد ، ذلك أنهم اعتقدوا أنه من اليسير هزيمة الفرق العثمانية القليلة التى مازالت فى القاهرة . وحين وصلت الطليعة البدوية الى الجيزة سار جانم الحمزاوى الذى لا يكل ، لملاقاتهم . ومرة أخرى ، لم ينسق الشيخ حماد ، شيخ عزالة الحاذق ، وراء المتحمسين . فاتصل بكاشف الجيزة ، ووعده بأن يحل الائتلاف البدوى دون اراقة دماء (٤٢) .

وأثناء ذلك طلبت الوحدات التى أرسلت الى الصعيد تدعيما . فألحق قاسم باشا بالجيش جنودا من طراز أدنى - كأبناء المماليك ، والأتراك أو الأناضوليين Ervam . لقد فعل ذلك حين وجد نفسه فى مسيس الحاجة الى جنود . فأرسل الباشا قوارب فى أعلى النيل تحمل البنادق والمدافع ، للتخفيف عن الوحدات المحاصرة .

وفى مكان آخر كان البدو يقطعون الاتصالات فى سيناء . وفى رجب من عام ٩٣٠ هـ / يونيو ١٥٢٤ م ، تم ارسال قوات حكومية الى ستة مواقع مختلفة للتعامل مع الانقلاب البدوى . اذ ان القوات العثمانية نشرت نفسها على شكل فرق صغيرة (٤٣) . ذلك أنه ما دامت غالبية الجنود كانوا يقاتلون البدو فى المديرىات ، فلقد تبقى عدد غير كاف ليقوم بعمل الشرطة فى العاصمة حيث نشط اللصوص وقطاع الطرق (٤٤) .

ويشعر الديار بكرى بالاحتقار نحو أحد السناجق البكوات كان تد ارساله الى الشرقية . ذلك أنه بعد أن فقد الكثير من رجاله ، طلب

المساعدة ، مدعيا أنه لم يكن ، يعرف كيف يقاتل البدو . وعاد أخيرا ، مهبط الجناح الى القاهرة (٤٥) ، حيث كان الناس يقولون ان العثمانية تنقصهم قوة بشرية كافية تمكنهم من التمسك بمصر وأنهم على شك التخلى عن الولاية . فقام قاسم باشا باستعراض قوة جبارة فى شوارع العاصمة كى يبدد هذه الشائعة . وفى شعبان ٩٣٠ هـ / يوليو ١٥٢٤ م ، أتت تقارير بأن الجيش يصد العرب (البدو) فى الصعيد (٤٧) . وفى ذى القعدة ٩٣٠ هـ / سبتمبر ١٥٢٤ م ، وصل عدد من الانكشارية وحراس الحصون (هيسار ارليرى) hesar erleri من اسطنبول ، كما وصل ثلاثة سناجق بكوات مع فرقهم من الأناضول . وتقرر أن يحل محل الكشاف فى المديرية سناجق بكوات عثمانيون ؛ كى يكبحوا البدو بمزيد من الفعالية (٤٩) . وصار واضحا أن تطلعات العرب (البدو) للسيطرة على البلاد وطرد العثمانيين خارجها ما هى الا أضغاث أحلام . فبالرغم من تفوق البدو العددي على العثمانيين ، الا أنهم لم تكن أمامهم أية فرصة فى مواجهة الأسلحة الأكثر تطورا والانضباط الأفضل ، وموارد الدولة الكبيرة . ولم يقد أحد بتقييم هذا الموقف أفضل مما فعل مصطفى على ، المؤرخ والشاعر والكاتب العثمانى ، الذى ترك لنا وصفا حيا للقاهرة غير أن كلماته التى كتبت عام ١٥٩٩ م ، تنطبق على الأحرار السائدة فى عام ١٥٢٤ م (*) : بالنظر الى قوات سلطان الروم (السلطان العثمانى) الجبارة ووجود عدة آلاف من البدو غير المواليين فى القاهرة وحدها ، فمن أغرب الأشياء أن يحدث عدد ضئيل من الجنود العثمانيين أثرا كبيرا عظيما حقا . ذلك أن مجموع الجنود العثمانيين الذين يتلقون رواتب فى مصر لم يزد على عشرة آلاف جندي، ومع أن العرب البدو البغضاء حول البلاد أكثر من عدة آلاف الا أن الله العلى قد أحال وحدتهم الى تفكك فقمعهم العثمانيون . فصارت القبائل المختلفة أعداء لبعضها بعضا ، بل وأتت بعض القبائل لتعلن خضوعها لحاكم مصر ، وبهذا التراجع يهزءون أعداءهم ويقتلون الكثيرين منهم . وما لم يكن الحال هكذا ولولا أن تحول اتحادهم الى فرقة ، وانفصم اتفاقهم ، لم يكن من الممكن حكم البر المصرى بأقل من مائة ألف جندي . وهذا فضل آخر لله القدير على السلطان العثمانى (٥٠) .

(*) أى أن النص التالى فى فترة زمنية لاحقة .

وفى ذى الحجة ٩٣٧ هـ / سبتمبر ١٥٢٤ ، كان التقييم فى اسطنبول ان الموقف فى مصر أصبح تحت السيطرة بصفة عامة . فتم استدعاء الانكشارية والسناجق البكوات من المديرىات ، وأمروا بالعودة الى المقاطعات التركية من الدولة العثمانية . الصعيد فقط لم يكن قد ساد الهدوء بالكامل (٥١) . وفى التاسع من جمادى الآخرة ٩٣١ هـ / الثانى من أبريل ، ١٥٢٥م ، وصل الى مصر ابراهيم باشا الصدر الأعظم واستعاد السلطة والمكانة العثمانية بالكامل . وكذلك حضر كبار البدو الى القاهرة ليقسموا يمين الولاء والطاعة له . فقبض ابراهيم مباشرة على ثلاثة من أبرز مشايخ العرب : على بن عمر شيخ الصعيد ، وأحمد بن بقار شيخ الشرقية ، وحسام الدين بن بغداد شيخ اقليم (ولاية) (*) المنوفية .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، شنق على بن عمر عند باب زويلة لاشتراكه مع أحمد باشا . كما كان على بن عمر يحمل بين جنبيه طموح أن يصبح حاكما مستقلا . ولقى أحمد بن بقار نفس المصير . مع أنه كما ذكرنا من قبل ، كان بصفة عامة مواليا للعثمانيين ، الا أنه اقترف الخطأ القاتل بايوائه للمتمرد ، وان كان ذلك على استحياء . أما ابن بغداد ، فقد أطلق سراحه ؛ لأن ابراهيم باشا كان مقتنعا بأنه لم يكن يتورط فى القيام بأية أنشطة معادية للعثمانيين (٥٢) .

ويكرس « قانونى نامه مصر » الذى وضعه ابراهيم باشا عدة فقرات للمشايخ العرب . فكانت السياسة العثمانية نحوهم مطابقة لسياستهم نحو المماليك . وبالرغم من تمرد العرب ، الا أن العثمانيين يفهمون أنهم لا غنى عنهم لحكم الريف ، فادمجوهم فى البناء الادارى طبقا للمبادئ التى كانت سارية تحت حكم قايد باى السلطان المملوكى العظيم . فيعطى شيخ العرب نفس الوظائف والسلطة التى كانت للكاشف ، فالتانون ينص على أن هؤلاء المشايخ مثل الكشاف (الحكام الاقليميين) (٥٣) . لقد ذكرت الوثيقة عدة مشايخ عرب مشهورين لا يعزلون حتى بأمر بكوات مصر . واذا حدث أن فعلوا فعلا خاطئا ، فيجب رفع الأمر الى اسطنبول . ويسمح للباشا بأن يزيح أو يؤدب غيرهم من المشايخ العرب ، غير أنه يحظر عليه أن يتصرف بناء على الهوى أو الدوافع غير المبررة (٥٤) .

(*) استخدام عثمانى لاقليم مصر - (المرجع) .

كما يمنح قانونى نامه مصر بصفة خاصة ، البدو من أن يحتفظوا
او يؤووا عبدا عسكريين (أى جنودا عثمانيين او ماليك) (٥٥) .

وجهة النظر الرسمية عن مشايخ العربان فى النصف الثانى من القرن السادس عشر

المصادر الرئيسية عن مشايخ العربان فى القرن السادس عشر
توجد فى الفرمانات الامبراطورية المحفوظة فى مجموعة دفاتر الامور
المهمة « مهمى دفترى muhimme Defteri » فى محفوظات مكتب رئيس
الوزراء ، (الصدر الأعظم) فى اسطنبول . وتضيف المصادر العربية
والتركية بعض التفاصيل .

ومن المفهوم أن المحفوظات تقدم عن المشايخ العرب ، الذين شغلوا
مناصب ادارية مهمة ، أكثر بكثير مما تقدم عن القبائل العربية .

ومع ذلك ، يجب أن نتذكر أن المشايخ كانوا يدينون بمناصبهم
كسادة للكثير من ريف مصر - لأسلحة رجال قبائلهم .

وتشير الوثائق الى العرب اى البدو ، بعبارات عامة ، وهم يذكرون
دائما تقريبا كمثيرى شغب ، ومتمردين ، وباعتبارهم مصدرا دائما
للأزعاج بالنسبة للقرويين والدولة . ومن حين لآخر ، يتجاسرون على
الأحياء التى توجد فى تخوم المدينة مثل القاهرة القديمة وبولاق (٥٦) .
كما أنهم أحيانا ما يتسببون فى خسائر حقيقية فى الزراعة . فمثلا ، فى
السابع والعشرين من رمضان عام ٩٢٨هـ / العشرين من أغسطس ١٥٢٢م ،
هدم العرب جسرا ؛ مما أدى الى هبوط منسوب مياه النيل الى
ما يقرب من عشرين سنتيمترا تحت منسوبه المعتاد فى هذا الوقت من
السنة ، ونتيجة لذلك ارتفعت فورا أسعار الحبوب (٥٧) . فكان البدو
يعتبرون أخطر تهديد لأمن مصر الداخلى . وكان ضباط الجيش يكافأون
بالترقية أو بالانتقال حالا ؛ للقتال ضد البدو وقطع رؤوس أكبر عدد
ممكن منهم . غير أن القبائل كان فى امكانها أيضا أن توجه قواها
العسكرية ضد القبائل المعادية والمناوئة للحكومة ، كما بينا سابقا .

ولعب شيوخ البدو ورجال قبائلهم دورا شديدا الأهمية فى قمع تمرد السيباهية الذى وقع عام ١٦٠٩ م بقيادة محمد باشا . غير أنه حتى فى هذه الحالة ، كانت هناك رغبة شديدة للتمييز بين العرب والقوات العثمانية النظامية (٥٨) . ويجب التأكيد على حقيقة أن الكثير من العرب ، أو ربما معظمهم ، لم يكونوا من البدو الرحل ، وإنما بالأحرى أنصاف رحل ، أو فلاحون موسميون . فعلى سبيل المثال ، جاء الكثيرون من عرب الجبل الأخضر الى إقليم البحيرة سنويا لزراعة الأرض هناك : وكان عليهم أن يدفعوا ضرائب منتظمة (خراج) مقابل قطعانهم (٥٩) .

وظائف مشايخ العرب

كانت مناصب مشايخ العرب تعنى حرفيا أو بشكل أدق رئيس العرب . وكان هذا ارثا من أيام سلطنة المماليك . ثم صار حيويا للادارة المالية لمصر العثمانية . وبالرغم من انتفاضة العرب وما سببوه من فوضى ، إلا أن « قانونى نامه مصر » الذى وضعه ابراهيم باشا أعاد التأكيد على دور المشايخ فى ادارة الريف (٦٠) . أولا وقبل كل شئ ، كان شيخ العرب ملتزما بجمع الضرائب نقدا ، (وأيضا على هيئة حبوب فى الصعيد) من الاقليم (الولاية) الواقع تحت سيطرته (٦١) . كما كان مسئولا عن الأمن العام والزراعة والأشغال العامة ، وعلى الأخص ، نظام الرى المهم والحساس ، إذ كان عليه أن يحرص على أن تكون القنوات والسدود فى حالة جيدة (٦٢) .

فى الصعيد ، كان المشايخ يشرفون على اقراض التقاوى من مخازن الغلال الحكومية للفلاحين (٦٣) . وكانوا يبلغون عن التغيرات المناخية غير المعتادة ، مثل العواصف الباردة وأثرها على المحصول (٦٤) . وكان يساعد المشايخ فى ادارة أقاليمهم كتبة ومحاسبون وجباة ضرائب بعضهم من الذميين أى أهل الكتاب ؛ ولعلمهم كانوا من الأقباط ، فكان المشايخ مسئولين عن حفظ الدفاتر التى تخضع للتفتيش من جانب السلطات العثمانية المحلية والمركزية . وفى الأمور المتعلقة بامتلاك الأراضى أو المنازعات حولها ، كان على الشيخ أن يطيع قرارات الطبراق قاديس *toprq qadisi* وهو قاضى متخصص فى شئون الأرض (٦٥) .

وتشير الفرمانات السلطانية الى مشايخ العرب كحكام أقاليم ولم تشر اليهم أبدا كزعماء لقبائلهم . بل ان احدى الوثائق تستخدم اصطلاح (أقاليم مشايهي) أى مشايخ الأقاليم ، وهو ما يعبر بدقة أكثر عن وظيفة المشايخ كما تراها الحكومات (٦٦) .

وفى حالة غير معتادة ، الى حد ما ، أسند منصب شيخ اقليم البحيرة لضابط عثمانى من كتيبة المتفرقة . ولقد دفع هذا الضابط مبلغ ١٠٠٠٠٠ التونات (عملة ذهبية) ثمنا لهذا المنصب (٦٧) .

ان المصادر العربية التى تحدثت عن هذه الفترة أكثر علما عن مجتمع البدو كما تعطى أسماء القبائل العربية (٦٨) . وعلى أية حال ، فمن الواضح ، أن الساطات فى اسطنبول ليست على دراية أو ألفة بالقبائل العربية فى مصر ، كما يحتمل أنها لم تكن مهتمة بأسمائها أو أصولها . ذلك أن الأقاليم (الولايات) الوحيدة التى تذكر الفرمانات مشايخها هى الصعيد والمنوفية والبحيرة والجيزة وتذكر الأخيرة (الجيزة) مرات أقل من غيرها . أما المناصب الباقية (المخصصة للبدو) فتحوزها العشائر الكبيرة : كبنى بغداد فى المنوفية ، وبنى خبير فى الجيزة ، وعائلة عيسى بن عمر فى البحيرة . ولقد ظل الصعيد تحت سيطرة بنى عمر لوقت طويل جدا ، حتى انه أصبح مرتبطا به حتى فى الاستخدام الرسمى . ذلك أن أحد المراسيم يسمى الصعيد عمر أغاو ولايتى ، أى اقليم (ولاية) بنى عمر (٦٩) .

كما رأينا ، سابقا ، لقد كانت قبيلة (بنو بقار) زعيمة عائلات الشرقية فكان منصب مشايخ العرب قصرا عليهم . غير أنه لم يرد ذكر لبنى بقار أو أى مشايخ عرب آخرين فى الشرقية فى (المهمى دفترى) ، وهى وثائق ترجع الى النصف الثانى من القرن السادس عشر . ولا يعنى صمت هذا المصدر (الوثائق أنفة الذكر) عدم وجود مشايخ عرب قد أوفوا بوظائفهم المالية فى الشرقية (قاموا بهام وظائفهم خير قيام) ، بما أن المراسيم الموجودة فى (المهمى) (دفاتر الأمور المهمة) هى مجرد ردود فعل لا تتسم بالاستمرار تعبر عنها الحكومة المركزية بخصوص شئون الولاية . ومن الممكن أيضا أن اقليم (ولاية) الشرقية

كانت تعد مستعصية على الحكم بدرجة أكثر مما ينبغي ، كما أنها كانت مشرذمة بحيث لا يمكن ائتمان مشايخ العرب عليها كملتزمين . وثمة سبب آخر يشرح غياب الاشارات الى بنى بقار وغيرهم من المشايخ العرب فى الشرقية هو أن داود باشا (من ١٥٢٨ الى ١٥٤٩ م) قام بقمع البدو ، بقتل ما يقرب من ٦٠٠٠ منهم وطرد بنى البقار وبنى حرام وبنى قرتباى Qartbay خارج الشرقية (٧٠) .

مشايخ العرب والكشاف فى فرمانات العثمانية

ان مناصب مشايخ العرب والكشاف مترادفة نسبيا ، حيث تنطبق الاوامر والأحكام نفسها على كليهما . كما أن منصب الكاشف موروث منذ أيام سلطنة المماليك ، ولم يوجد فى النظام العثمانى سوى فى مصر .

وكان على الكشافة ، شأنهم شأن مشايخ العرب ، أن يقوهوا بالاشراف على الزراعة ، والأشغال العامة ، والأمن العام ، وكان كلاهما يلعب دورا فى تحصيل الضرائب . والشئ الذى كان يميزهما عن بعضهما هو أن الكشافة كانوا ضباطا بالجيش ، أى أمراء ، بينما لم يكن المشايخ أعضاء فى الطبقة العسكرية (عسكر) (٧١) .

وخير مثال على التطابق بين المنصبين ، أن أحد المراسيم يحظر على أى شخص يعمل باسم أرفع المسئولين فى مصر ، بمن فى ذلك الباشا نفسه ، من أخذ الأموال بالقوة (همايات) himayat من الفلاحين مقابل حمايتهم من رجال الكشافة ومشايخ العرب ، ويشكو المرسوم من أن هذا التصرف يشجع القرويين على عدم دفع ضرائبهم للكشافة ومشايخ العرب (٧٢) .

ومما قوى من الانطباع بأن المنصبين متطابقان فى الكثير من النواحي تلك الحقيقة الملتغية ، وهى أنه لا يذكر أى كاشف فى الأقاليم (الولايات) الواقعة تحت سيطرة مشايخ العرب ، والعكس بالعكس الا حين توجد سجلات عن وقوع تصادمات بين أحد مشايخ العرب وأحد الكشافة داخل نفسى الاقليم (الولاية) .

ان المراسيم التالية توضح هذه النقطة : لقد ادعى سليمان شيخ عرب اقليم المنوفية أن خمسين قرية من الغربية قد تم ضمها الى ملتزمة المنوفية . وقال ان هذه القرى تقع تحت سيطرته غير أن كاشف الغربية رفض الاعتراف بهذا الادعاء . وحتى يقوى الكاشف معارضته لعملية الضم ، أرسل هو وكبار المسئولين بمن فيهم الباشا ، ٦٠ أو ٧٠ من الفرسان للاغارة على القرى موضع النزاع . وبعد أن أعلن المغيرون أن لهم حقوقا في هذه القرى ، حملوا معهم طعام الفلاحين وحيواناتهم (٧٣) . واتهم شيخ العرب هو نفسه الكاشف بارغام الفلاحين على دفع المال ، معلنا أنه بينما كان الكشافة في السابق يستخدمون ثيران الفلاحين في أداء الأشغال العامة - لحفر القنوات - فهم الآن يأخذون منهم النقود للعرض نفسه . وتسبب هذا الغبن في أن يرحل الفلاحون عن قراهم ، مما أدى الى انخفاض كبير في العوائد الريفية حسب ما قال الشيخ (٧٤) . لم تجادل السلطات في اسطنبول في حق شيخ العرب في أن يوجه اتهامها ضد الكاشف ، وتعاملوا مع الشكوى باعتبارها صراعا بين حكام من نفس الرتبة في مناطق متجاورة .

بالاضافة الى ذلك ، كان الاسم الصحيح الرسمي للشيخ هو منصب (شيخول أرابلك) Shyhül Arablik كما استخدمت الفرمانات ألفاظ الملتزم وحاكم وأمير ، وبك ، بل وكاشف . ولقد أسبغت على بعض مشايخ العرب ألقابا عسكرية شرفية ورتبا ، وهي حقيقة منعكسة في الوثائق ، حيث يكرمون بصيغ التبريك لأجل الرجال ذوى المكانة الخاصة ، مثل ، (زيد قدره) أو (دام مجده) (٧٥) .

مساواة مشايخ العرب بغيرهم من أصحاب المناصب

كان شيخ العرب يتسلم قرارا عثمانيا (بيراتى همايون berat-i-Hümayon) ولباس الشرف (خلعة) hil-et وعادة ما يتلقى هذا التعيين من الباشا بعد أن يكون السلطان قد أقره . وعلى أية حال ، كان المشايخ يذهبون مباشرة الى قصور السلاطين في اسطنبول ، ويحصلون على براءاتهم (قرارات التعيين ولباس الشرف) . وفي ربيع الآخر

٩٨١ هـ / أغسطس ١٥٧٥ م على سبيل المثال ، ذهب سليمان من اقليم (ولاية) المنوفية وعمران من الصعيد الى اسطنبول وأقنعا مستشارى السلطان بأن يعزلوا شيخى هذين الاقليمين وأن يسبغوا المنصبين عليهما .
وتقول الفرمانات الامبراطورية ان سليمان اخبر السلطان أن منصور وعلم حاكمان ظالمان فاسدان . وأنها ضاعفا من الضرائب ولكن بدلا من تحويل المال الى الخزنة ، اختلسا هما والكتبة مبلغ خمسين كيسا (والكيس يعادل ٢٥٠٠٠٠ بارة أو ٥٠٠٠٠٠٠ أقشا Uqches فى ذلك الوقت) .
ووعد سليمان بأنه اذا ما تم تعيينه شيخا للعرب ، فسوف يسترد هذه الأكياس الخمسين ، ولكنه اذا ما أخفق ، فسوف يدفع المال هو نفسه .
كما زعم أنه مادام أجداده كانوا مشايخ عرب الاقليم ، فان لديه الحق الأقوى فى المطالبة بالمنصب . فقبل السلطان عرض سليمان (٧٦) .

ومع البراءات السلطانية كان مشايخ العرب الذين يعينون حديثا يحصلون على فرمانات بتدبير أمور ادارية متنوعة فى مناطقهم ، على ما يبدو من خلف ظهر الباشوات اذ كانوا يخطرون بهذه التعيينات ، والترتيبات عن طريق فرمانات سلطانية (٧٧) .

وليس مما يثير الدهشة أن السلطان ومستشاريه لم تكن لهم دراية بالحدود الدقيقة للمناطق التى كانوا يسندونها الى مشايخ العرب . فنتج عن هذا صراعات ومعارك دموية بين المشايخ المتناحرين . اذ أحضر حلس (*) محمد شيخ اقليم البحيرة ، اتهاما رسميا ضد شيخ آخر يدعى حماد ابن خير ، الذى أصبح ملتزما على منطقة الجبل الأخضر (فى برقة خارج مصر) وأرض عربان شعبة وهو اسم يشير الى أن البدو كانوا يسكنونها . واشتملت براءة حماد على مادة بعدم تعدى مصالح أى شخص آخر على هذه الأرض . وعرف فيما بعد أن بدو الجبل الأخضر كانوا يحضرون سنويا الى البحيرة كى يحرقوا الأرض ، هناك ، ويدفعوا ضرائب ثمنا لهذا الامتياز . وبالمثل كانت تنتمى منطقة عربان شعبة للتمزية البحرية . لقد نتج عن هذا الوضع الملتبس نزاع مسلح قتل فيه أكثر من ٢٠٠ شخص . وهناك تلميح بأن حمادا هو الذى أثار هذا الصدام (الذى نقل بعد ذلك الى منطقة الجيزة) ويخلص الفرمان بأن تعيين حماد باطل ولاغ بما

(*) حلس ، بفتح الحاء واللام اسم متداول حتى الان فى مصر لكنه نادر / بفتح

الحاء واللام - (المراجع) .

أنه يشمل شرط أن تكون براءته صالحة فقط اذا كانت الأقاليم ليست جزءا من التزام قائم (موجود) (٧٨) .

وفي بعض الحالات ، كانت اسطنبول تدع تعيين مشايخ العرب خصيصا للباشا ، الذي كان من سلطته أن يرشح واحدا أو اثنين أو أكثر من المرشحين للمنصب (٧٩) . وكان السلطان يتبع نصائح ممثليه في جميع القرارات غير المهمة المتعلقة بإدارات مقاطعة قسمة مثل مصر . وانتهز الباشوات فرصة هذا الوضع ، وكانوا يعينون من يشاءون . فذكرهم فرمان حاد اللهجة في عام ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م بأنهم يجب أن يحصلوا على موافقة السلطان على كل تعيين (٨٠) .

مشايخ العرب كقادة للجيش

من أبرز ملامح التاريخ الاجتماعي لمصر العثمانية ، صعود العناصر المحلية وضيق الفجوة التي تفصل بين الحكام والمحكومين التي وجدت في زمان المماليك . وربما كان العرب هم خير مثال على هذا الاتجاه (٨١) . ففي مصر العثمانية ، كان مشايخ العرب يعينون قادة ومشرفين على الأمراء العثمانيين والمماليك . ومع أن هذا لم يكن كثير الحدوث ، إلا أن مجرد حدوثه ، يشهد على حيوية البدو كما يشهد على القدر الأكبر من المرونة لدى المؤسسة العسكرية (أو كما قد يفضل البعض أن يعتبروه ضعفا في الانضباط) ، وثمة بضعة أمثلة توضح هذه النقطة - إذ أعطى حماد بن خبير الذي سبق ذكره رتبة سنجق بك - واسمه مذكور بجانب الأمراء العثمانيين - وهو يقاتل المتمردين في اليمن (٨٢) . كما أشار عمران ، أحد مشايخ العرب في الصعيد ، إلى السلطات في اسطنبول بأن من سبقوه لديهم من ٥٠ إلى ٦٠ من الانكشارية من القاهرة تحت أمرتهم لمساعدة الحاكم العربي في الصعيد على جمع الضرائب . ولديهم أربعة مدافع من نوع الزربزين zarbzen ، غير أن الباشا الذي مر بالصعيد في طريقه لتولى الحكم على الحبش (*) أخذ الانكشارية والمدافع . وطلب عمران إلى السلطان بأن يضع مشايخ محلهم ، ولبي الطلب من حيث المبدأ (٨٣) .

(*) إيالة الحبش ، تكاد تكون ارتريا الحالية وليس المقصود اثيوبيا - (المراجع) .

لقد كان أعلى منصب وصل اليه العرب البدو فى القرن السادس عشر هو منصب حكام اقليم البحيرة . وعلى الأقل ، نصب ما لا يقل عن شيخين كأمرء للحج ، وهو أحد أكبر المناصب امتيازا وأكثرها ربحا فى مصر (٨٤) . أما أثناء السلطنة المملوكية ، فلم يكن يطمح لهذا المنصب سوى أعلى الأمراء رتبة (أمير مائة ، مقدم ألف) ومن المؤكد أنه لم يكن من الممكن لأى من مشايخ عرب أن يصلوا الى هذا المنصب .

لقد كان عيسى بن اسماعيل ابن أمير شيخ عرب العونة فى البحيرة ، أميرا للحج فى ٩٦٣ هـ / ١٥٥٥ م ، ومن ٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ - ٦٣ م الى ٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ - ٦٥ م . وكان ابنه عمر ، الذى خلفه أميرا للحج فى عام ٩٩٩ هـ و ١٠٠٠ هـ / ١٥٩١ - ٩٢ م ومرة أخرى فى ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ - ١٥٩٤ م و ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ - ١٥٩٥ م ، (٨٥) . وفى ٩٣٣ هـ / ١٥٨٥ م ، نصب عمر بن عيسى قائدا للكتيبة المصرية فى الجيش العثمانى المقاتل فى فارس . ومن الأمور التى لها مغزى أن الفرمانات تشير اليه كحاكم للبحيرة ، وليس كشيخ عرب الاقليم (الولاية) . ان الفرمانات ذات العلاقة بتلك الحملة تحرص على النص على أنه سيقود رجال القبائل العرب (البدو) ممن هم تحت حكمه ، مشايخ البدو ، وكشفة وبكوات شركس وجنود ممن يتقاضون رواتب فى مصر ، ومع ذلك فان لغة الفرمانات كانت تعطى الانطباع أن التركيز كان فقط على تجنيد قوات عربية (من البدو) ومملوكية ، وليس على تجنيد كتائب عثمانية نظامية (٨٦) .

تمويل مشايخ العرب :

هناك قدر قليل من الشك فى أن مشايخ العرب كانوا من بين أثرياء الناس فى مصر . ذلك أن براءة الملتزمة كانت تتطلب مقدما قدره عدة مئات من الأكياس . وتبين المعلومات المتناثرة فى الوثائق أن بعض المشايخ كانت لهم ممتلكات تساوى ما بين ٥٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠٠ من القطع الذهبية (التونات) (٨٧) . وكان هناك مشايخ يملكون قرى (ملك : أى أرض يملكها بصفة خاصة) ، من مزارع ومعدات زراعية ، وثروة حيوانية وعبيد . وصار بعض المشايخ أثرياء ، عن طريق ادارة أقاليمهم

بتدبر (٨٨) ومنح أحد مشايخ الصعيد احتكار مناجم الزمرد كملتزم في مقابل ١٥ كيسا سنويا (٨٩) .

ومع ذلك ، كان المشايخ دائما مدينين للخزانة ، مما يجبرهم على اقتراض النقود ، بصفة رئيسية من أثرياء التجار في القاهرة . وكانت ديون مشايخ العرب ثقيلة بصفة خاصة ، أحيانا تصل الى ١٥٠٠٠٠ راتون ومئات الآلاف من أرادب الحبوب (٩٠) .

وتبين الوثائق الرسمية بوضوح كيف أن المشايخ لم يستطيعوا أو يشاءوا أن يوفوا بالتزاماتهم كملتزمين . فهرب بعضهم ، وتم القبض على آخرين ، وأودعوا السجون الى أن دفعوا الديون المستحقة عليهم للحكومة . وكثيرا ما كان ينفى المشايخ الى رودس ، حيث يحتفظ بهم في القلعة . وأعدم الباشوات عددا قليلا من المشايخ . وكان السبب الرسمي هو التمرد أو الفتنة غير أن المؤرخين الحوليين أحيانا ما كانوا يشتبهون في أن الباشوات كانوا يطمعون في ثروات المشايخ (٩١) . ولما كانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون جمع المال بيسر من مشايخ العرب الذين يستطيعون اخفاء ممتلكاتهم ، فان الحكومة أسست وحدة مسلحة خاصة تسمى هافالي ، havale أو التكليف ، من ساطتها الاستيلاء على ممتلكات أى شيخ (٩٢) .

ان الفرمانات التي تم تلخيصها فيما بعد تعطي أمثلة على هذه المواجهات ذات العلاقة بالضرائب بين المشايخ والسلطات وهي توضح الطبيعة المعقدة وغير المرضية بين مشايخ العرب والدولة . فقد سجن يونس ، شيخ عرب الصعيد بسبب عدم تسديد الديون للخزانة . وبعد أن أطلق سراحه ، وعودته الى منصبه استدان نقودا من تجار القاهرة كي يشتري ملابس وأسلحة ومعدات لنفسه ولحاشيته قبل أن يرحل الى جرجا . وفى الطريق ، أعيد القبض عليه ، وتمت مصادرة جميع نقوده وممتلكاته لتغطية ديونه القديمة . فشكا لعلماء الدين ، غير أن تفاصيل شكواه غير معروفة ، ومن المحتمل أنه أودع السجن مرة أخرى (٩٣) .

وبينما كان حماد يتفقد منطقة خليج الاسكندرية ، باعتباره مفتشنا ماليا ، ليشرف على جباية الضرائب ، استدعى منصور بن بغداد شيخ عرب اقليم المنوفية ، الذى كان مدينا للخزانة بما يزيد على ٢٧٥ كيسا . فتعلل منصور بكثره نفقاته ، غير أن المرسوم أكد على أنه أساء ادارة الانتاج الزراعى فى اقليمه ، وانهارت الحواجز وانسدود نتيجة لاهماله ، وتركت الأرض القابلة للزراعة دون أن تبذر فيها البذور أثناء الموسم . والأسوأ من ذلك ، أنه جمع حوله الخارجين على القانون والهاربين من حروب اليمن ، ورفض تسليمهم للسلطات . ولكى يزيد الطين بلة ، لم يطع أوامر القضاة بالاعتراف بجرائمه . فعزل أخيرا ، وحل محله علام ، غير أن علام ، أيضا ، سرعان ما أصبح مدينا ، فأرسلت وحدة هافالى لمصادرة ممتلكاته . وينتهى المرسوم بلهجة مرة حيث يقول انه من الصعب جعل مشايخ العرب يسددون ديونهم ، وانه ربما يفضل الاعتماد على الكشفة . وادعى المرسوم أن الملتزمين كانوا يثرون ، ويشيدون لأنفسهم منازل كبيرة على حساب الجمهور . فيجب سجن المدينين للخزانة وألا تترك لهم اقشة *aqche* واحدة أو حبة حنطة وهذه صيغة متكررة فى المراسيم (٩٤) .

ربما نتذكر أن سليمان من عشيرة بنى بغداد ذهب مباشرة الى قصر السلطان فى اسطنبول حيث أسند اليه منصب شيخ عرب المنوفية ، محل منصور الذى ذكر منذ قليل ، وعلام . ويكشف فرمان حرر بعد ذلك بعامين عن أن سليمان وفى بمطالب الخزانة عن عام ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ - ١٥٧٤م غير أنه لم يدفع كل المستحق عن السنة التالية . وفى احدى الليالى ، اختفى وصودرت ممتلكاته التى تساوى (١٩٠٨٤ ألتون) ، وعين علام مرة أخرى شيخا للعرب ، ويبدو أن سليمان كان ينوى أن يمارس مهارته فى الاقناع ، مرة أخرى ، لأن الفرمان يقول انه من المحتمل أن يكون متجها الى اسطنبول . فيؤكد السلطان ليكوات مصر ، الذين يوجه لهم الفرمان ، أنه لدى وصول سليمان الى اسطنبول ، فلسوف يعاد الى القاهرة مقيدا فى الأغلال . (٩٥) . وكذلك المالك كانوا يتنافسون فيما بينهم عن طريق الدس بل والصراع المسلح من أجل السلطة ومن أجل الدخل العائد (الملتزمية) . ولم يكن من غير المعتاد قط أن يسجن شيخ لعدم سداد

الديون أو حتى بتهمة الاختلاس ، ثم يطلق سراحه ويعاد تعيينه ، ونجد مثلا يوضح هذا الوضع ، اذا ما تدبرنا حالة منصور بن بغداد من مديرية (اقليم) المنوفية ، والذي سبق ذكره . اذ كان منصور باشا طائشا ، أساء ادارة الاقليم ، واعتمد على أصدقائه ذوى النفوذ فى اسطنبول . ومع ذلك فقد عزله سنان باشا ، حاكم مصر ، فى الرابع عشر من ذى القعدة ، عام ٩٧٩ هـ / التاسع والعشرين من مارس ، عام ١٥٧٢ م ، وحل علام محله . وظل منصور فى السجن لمدة عامين حتى أطلق حسين باشا سراحه ، وأعاد تعيينه ، ولكن بعد ذلك بثمانى سنوات عزله أوقيز İveys باشا ، مرة أخرى (٩٦) .

مشايخ العرب كحكام ظلمة

هناك الكثير من الأدلة على أن مشايخ العرب كانوا ظلمة ومستغلين ، شأنهم فى ذلك شأن الكشافة . فهناك الكثير من الأمثلة على الضرائب الثقيلة واختلاس المال العام ، ومعاملة القرويين معاملة فظة . ويعد هذا فرمان التالى الصادر للمبكات ودفتر دار مصر مثالا لهذه التصرفات :

أقد ذهب اثنان من سكان قريتين من اقليم المنوفية الى قصر السلطان فى اسطنبول وقدموا شكوى ضد منصور وعلام ، شيخى عرب الاقليم . اتهم الشاكيان الشيوخين بقتل الرجال ، واختطاف النساء ، والصبية ومهاجمة منازل القرويين وحقولهم مسببين الضرر للمحاصيل ، وكذلك سرقة الجمال . فحولت هذه الأعمال القرى خرابا ، فهرب سكانها . وطالب الشاكيان بأن تحقق محكمة دينية (*) فى ظروف القتل . وذهب القرويان الى أبعد من ذلك باتهام شيخى العرب ، اللذين كانا ملتزمين بأنهما لم يكتفيا بأجرهما السنوى الذى كان يتراوح بين ٣ - ٤ أكياس ، بل كانا يأخذان بالقوة كيسين اضافيين ، ولم يكونا يسلمانهما للخزانة . واقترح الشاكيان بأن يقوما هما أنفسهما مباشرة بدفع ضرائبهما للقريه (**)

(*) كذا بالنص ، والمقصود محكمة تنظر فى الأمر من وجهة نظر المذاهب الاسلامية الاربعة ، لا مجرد تطبيق النسق العثمانى ، وهى صياغة لا تعنى وجود محاكم غير دينية وانما تفيد تمسحهم بالدين - (المراجع) .

(**) إشارة الى شيخ القرية الذى يقوم بدوره بالتوريد للقاهرة - (المراجع) .

كما فعلا فى احدى المرات . كما عرضا أن يدفعا كىسا اضافيا اما مقدما ، أو على أقساط ، وأن يقدموا رهائن ضمانا لقيامهما بالدفء . واطافا أنهما قادران على ادارة قريتهما بأنفسهما وطلبنا الحماية خوفا من المشايخ (٩٧) . وبكل أسف ، لا نعرف قرار الحكومة بخصوص هذا الأمر . وبعض المشايخ كانوا يزعمون الأرض التى يملكها غيرهم ويأخذون المحصول لأنفسهم .

وثمة تصرف آخر غير قانونى سبقت الاشارة اليه ، وهو أن عبد اللطيم بن بقار كان يختلس أموال الأوقاف الموقوفة على أهالى مكة والمدينة ، ولم يردعه أن الأغا شكوا الى الباب العالى (القصر السلطانى) ؛ متهما أحد مشايخ البدو بالتزوير بازالة اسم قرية دشته *Dashta* من قائمة القرى الموقوفة عواندها على البدو البعيدين عن مكة والمدينة ، فأصدر الباب العالى فرمانا لعلاج هذا الموقف ، الا أن عبد اللطيم بن بقار لم يضع هذه السابقة فى اعتباره وكرر الجرم (٩٨) .

احلال الأمراء محل مشايخ العرب

يبين الفرمان الذى يعهد مساوىء منصور بن بغداد ، أن الحكومة بحثت امكانية الاستعاضة عن مشايخ العرب بالكشفة .

وبعد ذلك ، أثناء ولاية مسيح باشا الطويلة نسيبا (٩٨٢ - ٩٨٨ هـ / ١٥٧٥ - ١٥٨٠ م) ، بذلت محاولة جادة لتخليص الدولة من خدمات المشايخ . ويبدو أن الأمر الذى حرك السلطات لاتخاذ اجراء ما هو الأداء المخيب للأمال الذى أداه الحكام العرب فى الصعيد . وهذا الاقليم ، بسبب بعده وأهميته الاقتصادية كمصدر مصر الرئيسى للحبوب ، كانت له أهمية خاصة ، غير أنه كان خاضعا لحكم سييء . وفى بداية المحرم ٩٨٢ هـ / أبريل ١٥٧٤ ، وضع عمران الذى كان قد عين حديثا كشيخ عرب الصعيد ، فى السجن ، بسبب سوء ادارته للعوائد ، كما تم وضع ممتلكات أحمد ، وهو شيخ عرب سابق ، (وصف فى وثيقة سابقة باعتباره أكثر أمانة) تحت طائلة وحدة (*) هافالى *Havale* كى تجمع ما عليه من متأخرات .

(*) أى اصبح من حق وحدة الهافالى هذه مصادرة جزء من ممتلكاته بما يفى

بما عليه من متأخرات لم يدفعها .

ويشكو الباشا فى رسالة موجهة الى رؤسائه فى اسطنبول من أن بعد الصعيد عن القاهرة ، يمكن مشايخ العرب من تجاهل ضباط الهافالى ، أى التكليف والمراسيل (الشافوشية) المبعوثين من العاصمة ، فكان المشايخ يدفعون ديونهم للمرابين الخاصين بدلا من أن يدفعوا ما عليهم للخزانة . واستنتج السلطان فى أحد فرمانات ، أنه منذ الفتح العثمانى لمصر ، لم يخضع مشايخ البدو قط لشروط التزامهم (عملهم كملتزمين) وكثيرا ما اختلسوا المال العام ، وآووا قطاع الطرق ، والبدو المتمردين ، بدلا من قمعهم (٩٩) . ويبين هذا فرمان السلطانى أن الباشا قد طلب من السلطان أن يوافق على عزل مشايخ العرب وينصب أمراء سناجق بكوات محلهم ، تدفع الخزانة المصرية رواتبهم السنوية ، ويقوم وكلاء الرواتب (فورميننا) بجمع الضرائب ، ويعطى الأمراء سلطات لحفظ القانون والنظام ، بما فى ذلك صلاحية فرض أحكام بالاعدام (وهى صلاحية لم تكن لدى مشايخ العرب) فأمر الباشا بأن يحدد عدد البكوات السناجق المطلوبين لاختصاص الصعيد ، من الضباط القادرين فقط ، على أن يكونوا جميعا من المسلمين الورعين ، وعلى دراية بأحوال الاقليم ، ويجب أن يكون عدد الجنود الذين يخضعون لهم كافيا . لكى يضعوا حدا لتصرفات البدو . وأكد فرمان آخر بالتاريخ نفسه على عسف المشايخ الذى أدى بالفلاحين أن يهجروا قراهم . فصدر فرمان بأن جميع الأقاليم المصرية - وليس الصعيد فحسب - توضع تحت امرة بكوات سناجق كما أمر الباشا باعداد قائمة بمن يرشحهم (١٠٠) . وكان الاستثناء من الترتيب الجديد هو اقليم البحيرة ، التى كان يحكمها هيلاس (جلس) محمد . اذ كان لمشايخ العرب ، فى هذه الولاية (الاقليم) ، كما بينا مكانة خاصة ، كأمرء حج وسردارات . ان ولاء هيلاس (جلس) محمد ، أو الطبيعية المعضلة لاقليم الحدود الحساسة التى لم يكن فى امكان أى غريب تناولها ، قد يشرح المعاملة الخاصة التى كانت توليها الحكومة للبحيرة : وقد يكون أحد الأسباب فى اتخاذ القرار فى الاستمرار فى اجراء الاصلاح السياسى والادارى هو عدم وجود مرشح لتولى منصب الحاكم العربى للصعيد فى المحرم سنة ٩٨٣ هـ / أبريل ١٥٧٥ . فلقد هرب الشيخ أحمد وتسبب ترشيح عمران فى نشوب خلاف . فبينما كان يؤيد الأخير

بعض أعضاء ديوان القاهرة ، أيد الآخرون يونس ، وهو شيخ آخر من عشيرة بنى عمر . وكان هذا الشيخ فى السجن بسبب الدين . وبعد التفكير فى ابراهيم بك ، ورفضه ، وسنجد بك من ضباط ابراهيم فى أقصى الجنوب ، وقع الاختيار أخيرا على سليمان بك ، وهو ضابط قد سبق له الخدمة فى القدس . وطبقا للفرمان ، فان جمع الضرائب الزراعية فى الصعيد أسند لموظفين من الخزانة (أمناء) أو (أومينا) والى المتلمذين الذين أمروا بأن يسلموا الضرائب مباشرة الى القاهرة . وكان سليمان منوطا به مسئولية حفظ الأمن العام ، وكانت هناك فرق كافية مكلفة لمساعدته . وهذا الفرمان ، يعكس أيضا ، تردد اسطنبول بخصوص أفضل سبيل يمكن اتباعها وهى بوضوح تترك للباشا القرار الأخير . فنصب الباشا سليمان حاكما على جرجا فى ذى الحجة ٩٨٣ هـ / مارس ١٥٧٦ م ، ومسئولا عن جمع عوائد الأقاليم كملتزم كما جعله مسئوليا عن النظام العام (١٠١) . وفى البداية ، بدت السياسة الجديدة غاية فى النجاح . فعلى النمائس والعشرين من رجب عام ٩٨٤ هـ / الثامن والعشرين من أكتوبر ، ١٥٧٦ م ، هنا السلطان الباشا بعد أن تلقى تقريره ، الذى وصف مصر بالهدوء والازدهار . وكرس قسم خاص من التقرير للتحدث عن الطريقة الممتازة التى كان يدير بها سليمان بك الصعيد الذى لم يستمتع بمثل هذه الدرجة من الأمن منذ الفتح العثمانى لمصر (١٠٢) . وخصص مرسوم آخر لطلب سليمان بك لخمسة عشر ألف التون لبناء حصن فى جرجا . وكانت حجة المرسوم هى أنه اذا ما عسكر الجنود هناك فان هذا سيقوى أمن المديرية ، الى حد كبير ، ولسوف يستطيع التجار أن يتنقلوا بأمان أكثر ، ويستحسن ابقاء العرب مكبوحين ، بما أن الحصن يمكن استخدامه لسجن الرهائن من القبائل التى ترفض دفع الضرائب . وفى مناسبة أخرى ، طلب البك عسكرية قوة متحركة قوامها ألف جندى فى جرجا تحت قيادته . وتمت تلبية هذه المطالب (١٠٣) . وفى نهاية ٩٨٤ هـ / مارس ١٥٧٧ م ، رقى سليمان الى رتبة باشا ، كما عين حاكما على الحبش (*) (١٠٤) . وعلى أية حال ، فلقد صدر فرمان ، بعد ذلك بعدة

(*) ايلة الحبش .

أشهر ينص على أنه لا يستطيع الذهاب الى هناك بسبب نقص الأموال وأن أخاه قد تم ارساله بدلا عنه . ولما كانت الخدمة في الحبش شيئا غير محبب تماما وغالبا ما كانت تعتبر شكلا من أشكال النفي ، فمن الممكن أن مصاعب سليمان المالية لم تكن سوى ذريعة للتوصل من المهمة . وبعد ذلك بشهرين ، في ربيع الأول عام ٩٨٥ هـ / مايو ١٥٧٧ م ، أعيد تنصيب سليمان سنجق بك على جرجا براتب سنوي ٥٠٠٠٠٠٠ آقشا (وهو ما يساوي ٢٥٠٠٠٠٠ بارة في ذلك الوقت) (١٠٥) ، وقد يبدو ، عموما ، أن القيادة العليا في اسطنبول قد أصرت على ارسال سليمان الى الحبش رغم الحاجة اليه في مصر لقمع تمرد بدوى . فسليمان ، يطلق عليه الفرمان لقب باشا قمع التمرد ، لقتله ما يزيد على ١٥٠ من البدو . وبعد أن حدث انهيار حاد في دخول الصعيد بسبب تمرد البدو ، كانت هناك حاجة الى ١٥٠ قاربا لارسال ما يزيد على ١٠٠٠٠٠٠ أردب من الحبوب للقاهرة . ويكشف الفرمان ، عموما ، أن الحكومة المركزية كانت تشك في أن سليمان يحجب هذا الجزء من الحبوب . فأجبر على ارساله لمخازن الغلال السلطانية (١٠٦) . وتأكد الشك بعد وقت قصير . ذلك أن الفرمانات التي صدرت في ٩٨٧ هـ / ١٥٧٩ م و ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م موجهة الى البكلكية ودفتردار مصر وسليمان باشا ، تأمره بأن يسدد النقود التي ما يزال يدين بها للخزانة المصرية . وتاما كما فعل المشايخ العرب من قبل ، أنجى سليمان باشا باللائمة على الشراقي التي تسببت في عدم دفع ما عليه ، أى الأرض غير المروية التي لا يصلها فيضان النيل . فأمر حاكم مصر بالألا يدع سليمان ، فى النهاية ، يغادر الى الحبش (*) (١٠٧) ، وأعدت السلطات فى القاهرة واسطنبول الليرة من جديد ، أى الى حيث كانت منذ خمس أو ست سنوات : فعادوا الى الحكم الأصليين للصعيد - مشايخ العرب من عشيرة بنى عمر . وأعطيت بكلكية مصر حق الاختيار بين عمران وعلى وكان كلاهما منفيين فى رودس حين صدرت الفرمانات عام ٩٨٧ هـ / ١٥٧٩ م (١٠٨) . واستمر بنو عمر فى حكم الصعيد حتى عام ١٦١٠ م ، حين نصب أمير عثمانى بدلا منهم .

(*) أى احتجازه وعدم السماح له بمغادرة مصر .

ومن الواضح أن الحكومات كانت قد قررت أنها ليست قادرة على الاستغناء عن خدمات مشايخ العرب ، رغم البداية المبشرة فى فترة حكم سليمان بك . وليس من المعروف ما اذا كان القرار بالاستغناء عن مشايخ العرب واحلال الكشافة بدلا منهم قد تم تنفيذه فى الأقاليم الأخرى كما كان مخططا . غير أن لغة الفرمانات ومحتواها توضح أن السلطات كانت تعتبر تنصيب سليمان بك فى الصعيد بمثابة الخطوة الأولى نحو سياسة ريفية جديدة ، تلك السياسة التى باءت بالفشل كما ظهر (١٠٩) .

القرن السابع عشر

لقد رأينا كيف أن العرب البدو فى القرن السابع عشر كمحتسين وحكام كانوا مهمين ، رغم كونهم كانوا مصدرا للمشاكل ، كأدوات للإدارة العثمانية لمصر فى القرن السادس عشر . ومع ذلك ، حاول العثمانيون ، نحو نهاية القرن ، احلال أمراء من الجيش النظامى محلهم . فحكم البكوات السناجق الصعيد من ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ حتى حوالى ١٦٦٠ م ، حين انتهت سيطرة البكوات . وتصادف انهيار البكوات مع النشاط المتجدد الذى طرأ على القبائل العربية فى الصعيد وفى غيره من الأماكن (١١٠) . ولم يشهد القرن السابع عشر إعادة ظهور البكلية وحسب ، وانما شهد أيضا التعاون الوثيق بين عصابة مماليك الفقارية مع جماعات بدو الصعيد ضد تحالف القاسمية وقبيلة بنى حرام . كما أن الاعتماد المتبادل بين جماعات المماليك وقبائل البدو قد تطور ، فالاضطرابات التى يثيرها البدو كان يمكن قمعها لكن نفوذ زعماء البدو وسلطانهم فى القرى التى يستمد منها البكوات المماليك قوتهم الاقتصادية ، كان أمرا لا يمكن تجاهله ، فقد كان شيوخ العرب يقدمون دعما اقتصاديا وعشائريا ، فشيوخ عرب الصعيد على نحو خاص كانوا يرسلون سفنا محملة بالحبوب وغيرها من المنتجات الزراعية الى أصدقائهم وحلفائهم فى القاهرة ، وكان المدد العسكرى لكثائب الحكومة مهما تماما كما كان مهما لفرق factions المماليك ، فالفرسان العرب ساعدوا محمد باشا فى قمع تمرد السباهيين فى سنة ١٦٩٠م (١١١) كما كانوا شركاء فى انتصار الزعيمين الفقارين على أمراء القاسمية سنة ١٦٤٧ م (١١٢) ، وفى هزيمة محمد بك حاكم جرجا المتمرد على يد قوات

الحكومة سنة ١٦٥٩ م (١١٣) . وفى هذه المواجهات وغيرها عاون الهوارة وغيرهم من قبائل الصعيد مثل مقاتلى قبيلة بنى خبير حكام الجيزة الذين يتردد ذكرهم فى مصادر القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فابن خبير (أو خبير أوغلو Habiroghlu كما تذكره المصادر التركية) كان قد أنعم عليه برتبة سنجق بك فى القرن السادس عشر ، وأدى خدمات عسكرية فى اليمن (١١٤) .

وقد شجع ضعف الباشوات فى القرن السابع على هجرة البدو بكثرة الى مصر قادمين من الشمال الأفريقي ، فأبو سالم العياشى الرحالة المغربى المشهور الذى زار مصر فى منتصف القرن السابع عشر يصف انهيار البدو من طرابلس وبرقة تخلصا من الحكم القاسى هناك أو لمواقع اقتصادية . فاستقرت قبائل من الشمال الأفريقي فى البحيرة ، وأهم هذه القبائل : الهنادى وبهجة وأفراد afrad ، ويذكر العياشى أن حكام القاهرة كانوا بمثابة قبيلة واحدة فى مواجهة القبائل الأخرى (١١٥) . وكانت أكثر القبائل البدوية شغبا هم بنو وافى الذين أحدثوا دمارا خاصة فى البحيرة والبهنسا ، فى أواخر القرن ، وقد تم ارسال عدة تجريدات عسكرية ضدهم ، وفى سنة ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م ، ورد أمر سلطانى بارسال قوة من ألف كتيبة بقيادة القائد الشهير ايواظ بك الفقارى ، لمواجهة عبد الله بن وافى البدوى المغربى الخارج على القانون وطرده هو وقبيلته خارج مصر . حقيقة لقد تم قتل ابن وافى ، وكذلك تم رد قبيلته التى كانت تشكل تهديدا للقاهرة نفسها (١١٦) .

وبشكل عام ، فقد قامت القبائل العربية بعدة مهام حيوية ، حيث كانت مسئولة عن أمن مواطنيها تقابل ما تدفعه لها الحكومة من اعانة مالية . فقد كانت القبائل العربية تقوم بواجب الدرك darak وهو واجب ضرورى على طول طرق الحج التى كانت تحت اشرافهم ، من حيث توفير المياه وغير ذلك والحماية من اللصوص (١١٧) .

كما كانوا أيضا يقدمون وسائل النقل لقوافل الحج وحمل الامداد السنوى من الحبوب الى مكة والمدينة (١١٨) ويكتب الجزيرى ، الذى

عمل أميننا لسر أمير الحج لسنوات كثيرة ، فى القرن السادس عشر ، أن العرب الذين يكونون مسئولين عن درك ، كانوا يسرقون من الحجاج فى أرض درك شيخ آخر . وكانت منطقة العقبة خطرة بصفة خاصة ، منذ هاجم العرب الحجاج هناك ، أثناء عودتهم من مكة (١١٩) . وكان العرب البدو كثيرا ما يهاجمون القوافل بسبب شعور - سواء آكان مبررا أم لا - بأن الدعم المالى الذى يتلقونه غير كاف . فكانوا مرارا قساة نحو القرويين والمسافرين (١٢٠) .

القرن الثامن عشر ، ذروة قوة القبائل العربية

الاضمحلال المستمر فى سلطة الدولة وازدياد حدة المنافسات العرقية فى القاهرة ، كلها قدمت فرصا جديدة لمشايخ العرب . وثمة عشيرتان ، بالتحديد ، الحبابية فى وسط الصعيد ، والهوار فى الصعيد ، حصلوا على حكم ذاتى نسبى و ثراء مهول وسلطة ، ذلك أن المشايخ استغلوا المعارك داخل المجتمع العسكرى لفائدتهم محققين نفوذا مع أمراء المماليك ، بل ومع الكتائب العثمانية . فلم يرفض بعض عرب الهوار أن يدفعوا ما عليهم من ضرائب على أساس أنهم انكشارية ، وعزاب فحسب (١٢١) وانما اتخذ الهوار جانب الفقارية والانكشارية فى الصراع المسلح الذى وقع عام ١٧١١ م ، بينما أيد منافسهم - الأمير البدوى على اخميم - العاسمية ، وكتيبة العزاب (١٢٢) .

وكان البك المملوكى على جرجا ، وهى المركز الادارى للصعيد هو الحاكم الاسمى على الجنوب ، غير أن السلطة الحقيقية كانت فى يد مشايخ العرب ، الذين تدخلوا حتى فى ترشيح بك جرجا . لقد كتب بوكوك فى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر : « كانت هناك أربع وعشرون منطقة فى الصعيد ، غير أن الكثير منها ابتلعها مشايخ العرب الآن . . . ويملك هؤلاء المشايخ الكبار غالبا أترাকা (يقصد مماليك) فى خدمتهم ، الذين اضطروا أن يفروا من القاهرة فى أزمة الاضطرابات العامة ، حيث كانوا فى الجانب الضعيف (١٢٣) . وكانت هذه الاضطرابات كثيرة الوقوع . كان مقر زعماء الهوار ، هو فرشوط ، فى اقليم قنا ، ومن هناك كانوا يتحكمون فى الغرب ، West ونصدمت مصالحهم مع مصالح عرب الجنوب .

بصفة رئيسية فى مديرية اخميم البدوية ، وكذلك مع شيخ بدوى آخر فى برديس ، الذى استولى على كامل الضفة الشرقية امام النيل بين قنا واسنا .

وحوالى ١٨٤٠ م ، هزم الهوارة تحت قيادة الشيخ همام الأمير البرديسى هزيمة حاسمة وفى منتصف القرن كانت الأسرة الحاكمة العربية فى أخميم قد أبيت . وعرقل اعتلاء الشيخ همام السلطة حكم ابراهيم كنتخدا القوى ، ولكن بعد وفاة ابراهيم كنتخدا فى عام ١٧٥٤ م ، حكم همام الصعيد دون ازعاج (١٢٤) .

ان السيرة المحملة بالثناء التى كتبها الجبرتى عن الشيخ همام تستحق التناول . فرأى الجبرتى عن هذا الشيخ يلقى الكثير من الضوء ، وبما أن المؤرخ كان مشبعا بقيم مجتمعه لذا فان تقييمه يعكس مكانة همام الكبيرة (١٢٥) . يقول الجبرتى ما معناه :

ان شيخ العرب ، الأمير العظيم همام بن يوسف بن أحمد الهوارى كان يرعى الأغنياء والفقراء على السواء ، ولم يكن هناك ما يعادل ثروته وكرمه وحسن ضيافته . كان لديه ما يزيد على ٣٠٠ جارية ، وعبيد سود ، ومماليك . وكانت حقوله يحرقها ١٢٠٠٠ ثور وكان لديه الكثير من الطواحين والسواقي والجاموس والقطعان . وكانت محاصيله تشمل قصب السكر . كما كانت مخازن غلاله دائما ممتلئة . وتزواج لاجئو المماليك القاسمية الذى كان يؤويهم مع أهله ، وتعلموا التحدث باللغة العربية . ولقد عين الكثير من الكتبة كى يديروا اقطاعيته .

كان همام رجلا عميق الندين . فمد كرم ضيافته الى الكثيرين من العلماء المهمين . كما أعان علماء فى القاهرة . فكان سقوط همام والهوارة نتيجة السياسات الطاغية التى كان يتبعها على بك ، الذى ربما ، لم يستطع تحمل وجود حاكم فى شهرة واستقلال همام . ومما عجل بنهاية الشيخ المعركة بين على بك وصالح بك ، صديق همام وحليفه . وهو ما أدى به الى اللجوء اليه فى فرشوط . لقد خان همام ابن عمه . فغادر هذا الشخص الى اسنا حيث مات فى السابع من ديسمبر ١٧٦٩ م .

أما كبار الهوارة عندئذ ، فاما سلموا لمحمد بك أبى الذهب أو ذهبوا للمنفى .

لقد خلف ابن همام ، درويش أباه فى فرشوط ، غير أنه كان حاكما ضعيفا . فلم يمتد وقت طويل قبل أن يستولى أقوياء القاهرة على جميع ثروته ، تاركينه يموت مفلسا .

لقد كان اسماعيل أبو على شيخا هواليا آخر . وقام بحكم اقليمى قوص وقنا . وقتله مراد بك عام ١٧٧٩ م وقسمت أراضيه بين الكشافة . وبمرور الوقت ، فقد الهوارة قوتهم العسكرية وصاروا فلاحين .

وعلى النقيض من الهوارة ، الذين كانوا اتحادا بدويا مستقرا قديما ، حيث قدموا من تونس الى مصر ، فى القرن السادس عشر ، فان الحبايية فى وسط الصعيد ناشئون جدد من أنواع مختلفة ، دون أصل لامع . وتدين نهضتهم الخاطفة فى أوائل القرن الثامن عشر بالكثير لجسارتهم وامتيازهم كفرسان .

لقد قدموا من شتب وهى قرية صغيرة بالقرب من أسيوط فى الجنوب ، واستقروا فى اقليم القليوبية ، تماما شمال القاهرة . وكانت دجوة هى مركزهم ، وهى قرية ذات موقع لا يستهان به على ضفة النيل . واتخذ الحبايية اسمهم من حبيب بن أحمد ، أول مشايخهم البارزين . وصارت العشيرة المتزعة بين عرب الدلتا . ومن الناحية السياسية ، كانوا فى منافسة مع بدو جماعة بنى حرام ، الذين كانوا يعيشون أقرب الى الاسكندرية . وشأن الحبايية شأن الكثير من القبائل العربية الأخرى ، لم يكونوا من البدو الرحل ، أو شبه رحل ، وانما كانوا عربا مستقرين يكسبون قوتهم من الزراعة ، أو استغلال الفلاحين (١٢٦) . لقد دخل حبيب وابناه سالم وسويلم (١٢٧) فى ثأر سافر ضد اسماعيل بن ايواط ، أقوى أمراء القاهرة ، بعد نصر القاسمية فى عام ١٧٨١ م . وبناء على تحريض من قايتاس ، البك الفقارى الذى أراد أن يحسم النزاع مع القاسمية ، قام سالم بالهجوم على خيل اسماعيل

بينما كانت ترعى ، وبذلك بدأ حربا طويلة بين مساعد اسماعيل والعرب . وانطلقت المدافع فى هذه الحرب ، وقتل خلق كثير . اذ دمر اسماعيل دجوة ، وأعلن فى كل البلاد ألا يجرؤ أحد على تقديم الماوى لحييب وابنيه . كما هدد بهدم أى قرية تعصى هذا الأمر . ويستفيض أحمد شلبى كثيرا فى وصف المعارك بين اسماعيل وسالم بن حبيب ، اذ أظهر الاخير قدرا كبيرا من الجسارة ، مفاجئا البك تحت قصره ، ومهاجما قراه ، وحاملا معه حيواناته ، وكذلك حظر حركة المرور فى النهر والبر (١٢٨) . وأخيرا أجبر الحبايبه على أن يتراجعوا الى غزة فى فلسطين ، حيث قضى حبيب نجه .

وعاد سالم ، بعد فترة ، الى قليوب واتصل بابراهيم بك أبى شنب ، زعيم القاسمية الشيخ الوقور . وساعد ابراهيم سالم وقبيلته وذلك بالتوسط نيابة عنهم مع بنى وافى الذين كانوا تحت حمايته . فسمحوا للحبايبه بأن يضربوا الخيام على أرضهم الى الغرب منهم . كذلك قدم ابراهيم الطعام وغير ذلك من المؤن الى الحبايبه من القرى الخاصة به ، غير أنه بعد موت ابراهيم ، واجه الحبايبه الفاقة .

ولما كان سالم فى حالة يأس ، فقد مثل سالم أمام اسماعيل بن ايواظ وطلب منه الرحمة ، بما أنه كان قد تعب من التنقل من مكان لآخر مثل البدو الرحل ، كل يوم فى واد . فسامحه اسماعيل وسمح له ولأهله بالعودة الى مكانهم السابق فى اقليم القليوبية .

وهناك أعاد سالم مركزه القديم واستأنف المهمة بالغة الأهمية وهى حراسة ضفتى النيل بين بولاق الميناء النهري بالقاهرة ورشيد ، ودمياط .

وتمكن سالم من أن يعيد نفسه كشيخ قوى وثرى يملك الكثير من المزارع الكبرى ، وحدائق يزرعها بستانيون ، من دمشق ورشيد وكان له جوار بيض وعبيد سود (ولكن ليسوا مماليك) . كما لعب سالم دورا نشطا فى المعارك ضد محمد بك شركس .

وتوفى سالم في السادس من أغسطس ١٧٣٦م، وخلفه أصغر اخوته سويلم الذي كان أيضا حاكما كفتا . فتحكم في حركة المرور النهري تماما . اذ كان المجرمون من خدمه يبحرون في قوارب ويوقفون السفن في النيل ، ويطلبون نقودا غير قانونية .

لقد امتدت شبكة رعاية سويلم على غالبية قرى اقليمى القليوبية والشرقية ، اذ كان كل الملتزمين والضباط والرؤساء في القرى يطيعونه . غير أن صلات سويلم مع بكوات الممالك في القاهرة اقلت به في صراعات السلطة هناك . في البداية ، هاجم عثمان بك الفقاري دجوة ثم هاجمها ابراهيم كتنخدا ، غير أنه في كلتا الحالتين فان العرب ، بعد أن حذروا ، رحلوا مع نسايمهم وممتلكاتهم .

اخيرا توصل سويلم الى اتفاق مع ابراهيم مؤداه أن يتخلى الاول عن الاتاوة التي كان يأخذها عنوة من القرى ومن القوارب المبحرة على فرعى دلتا النيل .

وانتهى حكم سويلم حينما هاجمته قوات على بك . هرب سويلم الى بدو الهنادى في البحيرة حيث أسر وقطع رأسه . وكذلك تم تحطيم الهنادى . وعفا على بك عن بقية أعضاء الحياوية . غير أنه شتتهم ، بعد ذلك ، وسمح لهم مراد بك بالعودة الى قراهم . وكان الشيخ التالي هو أحمد بن علي بن سويلم . ولكن حكمه كان مجرد ظل لحكم جده (١٢٩) . وحتى بعد أن تحطم الاتحاد البدوي الكبير ، أثناء حكم على بك ، لم يوقف البدو أنشطتهم الحربية .

وكانوا في بعض الأحيان فريسة سهلة بالنسبة للأمرأ الذين لا مبدأ لهم ، وعلى الأخص مراد و ابراهيم . غير أنهم كانوا قادرين على ازعاج النظام العام . وفي عام ١٧٨٥ م ، طلب بدو البحيرة من الحاكمين المساعدة ضد غيرهم من البدو ، المجاورين لهم . فذهب مراد بك الى البحيرة ، لمساعدتهم ، من الناحية المظهرية ، ولكن بما أن الجماعة الأخرى قد رشته ، فقد قاد أولئك الذين وعدهم بالحماية الى كمين مميت ، وعاد

بالغنيمة الى القاهرة (١٣٠) . وفى حالة أخرى ، أثناء حملة حسن باشا على مصر ، خطط العرب هجوما ليليا على بيوت المماليك ، غير أن المماليك الذين تطايرت اليهم أخبار الخطة ، أقاموا كمائن للمهاجمين (١٣١) . وفى حادثة أخرى ، عام ١٧٨٧ م ، نجد أن اسماعيل بك ، شيخ البلد فى عهد حسن باشا ، كان متسامحا بشكل غريب نحو بدو عايش الذين كانوا قد هاجموا قافلة تجارية فى الطريق من السويس الى القاهرة . فخرىوا كميات كبيرة من التوابل ، والبن والقماش ، واختطفوا زوجات التجار ، بهدف الاحتفاظ بهن كغدية . ونظرا للحاجة الى خدمات العرب لم يتعاطف اسماعيل مع التجار (١٣٢) . وتشير هذه الحوادث ومثيلاتها الى انهيار الأمن العام والحكومة الرسمية نحو نهاية القرن الثامن عشر . ان سياسة القبضة الحديدية الطائشة التى اتبعتها البكوات الذين خلفوا على بك ، ومحمد أبو الذهب والحملة الفرنسية وحقبة محمد على باشا - أضعفت البدو العرب اضعافا شديدا . ولم يتمكنوا قط من استرداد حكمهم الذاتى . واستقلالهم فى المجتمع المصرى بعد ذلك .

الفصل الرابع علماء الدين

بين الحاكم والمحكوم

لقد تمتع علماء الدين المصريون بمكانة اجتماعية واقتصادية ودينية ووظيفية بين الحكام والمحكومين في ظل حكم المماليك . وكما أشار سابقا الكتاب المعاصرون لتلك الفترة ، خاصة ابن اياس ، فقد حرم الحكم العثماني العلماء من الكثير من امتيازاتهم ، بمن فيهم الشعرائي . وكان لهذا الرأي ما يبرره في بداية الاحتلال ، ولكن مع الوقت ، استرد العلماء نفوذهم بل زادوه مع نهاية الحقبة العثمانية . اذ انه باستثناء المناصب القضائية العليا التي كان العلماء الأتراك يحرمون منها العلماء المصريين على مدى القرون الثلاثة التالية ، استمر المصريون في عملهم دون ازعاج تقريبا من جانب الحكومة العثمانية التي كانت تحترم مكانة العلم الديني عند المصريين (١) فقام العلماء بوظائفهم في مجتمع اسلامي : فهم سدنة المعايير والقيم الدينية ، والتقاليد ، كما أنهم المحافظون على الاستقرار الاجتماعي والوحدة ، اذ يعبرون فوق الكثير من الفجوات والخلافات ، التي كان من شأنها أن تقطع أواصر المجتمع ، كما أنهم كانوا يقدمون نخبة متعلمة قامت بدور المتحدث نيابة عن الناس ، وكذلك عملوا كوسطاء بينهم وبين من يحكمونهم .

ولم يكن في هذا أى جديد ، اذ كان العلماء يقومون بهذه الأدوار في الأوقات الأخرى ، والأماكن الأخرى غير أنه في خضم أحوال مصر العثمانية الصعبة ، بل والفوضوية أحيانا ، كانت هناك حاجة خاصة الى

الدور الذى كان يضطلع به العلماء ، رغم أن معظمهم كانوا شديدي التحفظ مع قلة كان لها مهابة كانت تميز الكثير من الصوفية .

ففى ظل الدكتاتورية العسكرية المستغلة القاسية التى سادت مصر العثمانية ، كان العلماء ، فى الغالب ، هم الملجأ الأخير للرعية المقهورة ، وبالمثل ، فقد كانوا يشكلون حلقة وصل بين الطبقة الحاكمة وعامة الناس . اذ استطاع العلماء أن يسبقوا رداء من الشرعية على حكم الأمراء ، وكان أمرا حسيغا من جانب من هم فى السلطة ألا يستفزوا العلماء وألا يدفعوا بهم الى معارضة نشطة سافرة للنظام . ذلك أن الحكام كانوا ينظرون اليهم بريية ، الا أن العلماء كانوا أداة مفيدة (٢) .

وبعد تراث طويل من النظرية السياسية والممارسة ، صار العلماء يعارضون أعمال التمرد ضد الحكام ، حتى الظالمين منهم ، وأخذوا يعظون بمبدأ الطاعة ، بما أن يوما واحدا من الفتنة أسوأ من أربعين سنة من الطغيان كما ذكر قول قديم شائع . كان الحكام ، سواء منهم من كانوا ولاية عثمانيين أو بكوات ماليك يظهرون احترامهم للعلماء ويؤيدونهم بطرق متنوعة . كما عرف عن الكثير من الباشوات والأمراء توقير العلماء والأخذ بمشورتهم .

يمكن اعتبار فترة حكم محمد بك أبى الذهب ١٧٧٣ - ١٧٧٥ م ، ذروة نفوذ العلماء على حاكم مصرى . اذ كان أبو الذهب يحترمهم ، ويساندهم ماديا ، ويستمتع بصحبتهم ، ويقبل وساطاتهم (٣) .

ومن ناحية أخرى ، كان الأمير يوسف بك فى القرن الثامن عشر مثلا غير معتاد لأمير يكره العلماء ودخل معهم فى الكثير من الصدامات (٤) . غير أنه كقاعدة عامة ، كان أهل السلطة يحثون العلماء على إصدار فتاوى حين يجرى الاعلان عن تمرد أحد الأمراء ، أو فيما يشسبه ذلك من أزمات سياسية . ونادرا ما كان العلماء يتخذون موقفا فى هذه المنازعات ، فلم يكن من الصعب على أحد جانبي الصراع الحصول على فتوى ، تبرر موقفه وتندد بمنافسه (٥) وبالمثل ، كانت توقيعات كبار العلماء مطلوبة على شكاوى الأمراء الموجهة الى الحكومة المركزية فى اسطنبول (٦) حين كان هؤلاء

الحكام يدركون أن اجراء اقتصاديا جائرا بدرجة تدفع بالعلماء الاليفين الى معارضته علنا ، فانهم - اى الحكام - كانوا غالبا مستعدين للتفاوض على حل توفيقى (٧) .

كان العلماء يتمتعون بحصانة من المعاملة القظة التى كان يلقاها غيرهم ، ومن المؤكد ، أن هذه الحصانة لم تكن مطلقة بأية حال من الأحوال ، كما كانت درجتها تختلف اختلافا كبيرا حسب شخصية الباشا أو البك الذى يكون فى السلطه .

وعادة ، كان الأمراء يحترمون العلماء ولا نقرأ عن عالم تعرض لاضطهاد ، ونادرا ما نقرأ أن أحدهم قد أسئثت معاملته اساءة حقيقية .

اذ تعد الحالات القليلة التى حدث فيها عقاب استثناء . وفى احدى المرات ، نفيت مجموعة من العلماء من القاهرة ، الى قراهم فى أعقاب القتال الذى وقع فى عام ١٧١١ م والذى اضطروا فيه الى الانحياز الى أحد الطرفين (٨) .

اذ وجد عالم صغير المقام شاهدا (شاهدا محترفا) (*) مذنبا بتزيف وثيقة قانونية . فحلقت لحيته وحمل بطريقة مخجلة على ظهر أحد الجمال خلال شوارع القاهرة ثم نفى الى تينه Tina (٩) . وفى حالة أخرى ، قتل خطيب احدى القرى بالخوزقة لما يفترض بأنه خصص مأوى لزعيم البدو سالم بن حبيب ، الذى كانت الحكومة قد أدانته واعتبرته خارجا على القانون (١٠) . على أية حال ، فمن الواضح أن القرية كانت مغمورة لذا ، لم يتمتع الخطيب بالحصانة التى يتمتع بها عالم من الأزهر . ولقد ضرب أحد الأمراء الجزيرى ، المؤرخ المعروف للحج والذى كان قاضيا (١١) وأهانته غير أن هذه الحالة ، أيضا لا تعد نموذجا . وفوق ذلك ، كان الجزيرى موظفا بالخزانة وبالرغم من أنه كان عالما ، الا أنه فى هذه الحالة عومل كموظف .

ولم يكن العلماء يتدخلون عادة فى السياسة ، ولا يكادون يهتمون بما اذا كان هذا الأمير أو ذاك الباشا سيكون حاكمهم . غير أنهم كانوا ، من حين لآخر ، يرفعون أصواتهم تحييدا لحركة سياسية بعينها ، مثل تنصيب أحد الأمراء ، أو المصالحة بين البكوات ، من أجل تجنب الصراع

(*) المقصود شاهد زور .

الذى يمكن أن يكون مدمرا بالنسبة للناس (١٢) . كان العلماء ممزقين ، بين مصالحهم الشخصية ، التى كانت عادة ما يتم اشباعها ، بشكل معقول، حتى من الحاكم الجائر، وبين مسئوليتهم الأخلاقية كناطقين، بالنيابة عن المجتمع المسلم بصفة عامة . اذ كان ديدنهم هو مبدأ الطاعة للسلطة السياسية ، مما استبعده أى فعل متطرف أو عنيف . وأيا كان الأمر ، فان الكثير كان يتوقف على شخصية العالم كفرد .

العلماء كقضاة

كما سبق ذكره ، لقد تأثر العلماء المصريون بشكل غير طيب بالاحتلال العثماني ، بصفة رئيسية ، فى مجال ادارة العدالة . اذ يشكو ابن اياس مرارا مر الشكوى من بدع العثمانيين ، أو نواياهم التى يفترضها : مثل تعيين قضاة أتراك كان أهل القاهرة يعتبرونهم جهلة ، وعزل القضاة المحليين ، والخوف من أن يحل القانون العثماني (اليسق) Yasaq محل الشريعة ، واليسق هو قانون ادارى علمانى ، والخوف من فرض ضرائب غير شرعية على عقود الزواج ، وظهور اشاعات بالفناء مذاهب الفقه الاسلامى باستثناء المذهب الحنفى (١٣) .

ان الصورة التى تظهر مما أخبرنا به ابن اياس وغيره من المصادر خيما يتعلق بادارة العثمانيين للعدالة فى مصر ليست واضحة كل الوضوح . وتبين تذبذبات فى السياسات . اذ بدا أن خطوات السلطان سليم الأولى تبرر أسوأ شكوك المصريين . ذلك أنه قام بتعيين شخص فى منصب قاضى العرب - أى القاضى المسئول عن الشئون العربية (المصرية) - يصفه ابن اياس بأنه « أجهل من حمار » (١٤) . وبعد ذلك ، فى رجب ٩٢٨ هـ / مايو ١٥٢٢ م ، قام بتعيين أحد كبار القضاة الأتراك ليكون فى منصب قاضى عسكر .

لقد أحدث القضاة الأتراك انطبعا شديداً السوء فى نفوس نظرائهم المصريين .

لقد كان من الواضح أن النظام الجديد لم يكن يريد أن يخضع نظام القضاء المصرى ، للقضاة العثمانيين فحسب ، وإنما أراد أيضا أن يبسط

وثمة قاضي عسكري آخر كان قد أعلن بعجرفة لدى وصوله في عام ١١٣٣ هـ/ ١٧٢٠ م أنه سوف يصلح ديانة المصريين . و جلب له قوله . هذا السخرية من الشعب على تدخله لأنه لم ينجز أى شيء ، وتورط في الدسائس السياسية بلا داع (٢٥) . ويجب الإشارة ، أخيرا ، الى أن النظام القضائي قد مر بعملية تمصير بطيئة . إذ ان لغة سجلات القسمة (الميراث) صارت باللغة العربية بدلا من اللغة التركية ، غير أن الأمر الأكثر دلالة ، هو تناقص عدد القضاة الأتراك ، ففي ١٧٩٨م لم يكن هناك سوى ستة قضاة من الأتراك العثمانيين ، وكان الباقيون من العرب (٢٦) .

المذاهب

درس علماء المسلمين المذاهب الاسلامية وطبقوها . وكان لكل مذهب تراثه الشرعي والعلمي وكتبه الدراسية . كما كانت المذاهب وحدات اجتماعية ، وكان من الشائع نشوء توتر بين الطلبة والعلماء المنتمين للمذاهب المختلفة (٢٧) . وكان التوزيع الجغرافي للمذاهب في مصر شديد البساطة . فالقاهرة كان يسيطر عليها المذهب الشافعي ، رغم وجود مجتمع كبير من الحنفية والمالكية بها ، حيث استمد المنصب الحنفي الكثير من قوته من الحكومة العثمانية ، إذ كان المذهب الحنفي هو مذهبها الرسمي ، وساعدت الجالية التركية على انتشاره .

وكان المذهب الحنفي دائما هو مدرسة الفقه والتشريع لمعظم الأتراك والمماليك قبل الفتح العثماني وبعده ، الا أن المماليك لم يجعلوا مذهبهم الحنفي هو السائد من الناحية التشريعية والفقهية في السلطنة .

وكان المذهب المالكي في مصر امتدادا لنفس المذهب في شمسال أفريقية ، حيث كان سائدا . وتعكس خريطة المالكية في مصر الهجرات المتجهة نحو الشرق التي قامت بها قبائل من شمال أفريقية الى مصر في العصور الوسطى والعصور الوسطى المتأخرة . وبالمثل كان اقليم الصعيد ، في غالبه من المالكيين ، ربما نتيجة لهجرة القبائل العربية من أصول تنتمي الى شمال أفريقية ، من الدلتا نحو الجنوب . لذا كان المذهب

المالكي في مصر ، مرتبطا الى حد كبير بالسكان الذين كانوا اما من الاجانب
 « مغاربة) ، أو السكان الذين يعيشون في أماكن قضية (كالصعيد) حيث
 أهلهم الذين يسهل التعرف عليهم بسبب لهجتهم ومظهرهم وطبعهم .
 أما المذهب الحنبلي الذي لم يكن له أتباع كثيرون في مصر المملوكية ،
 فلم يلبث أن اختفى في مصر العثمانية .

كتب الشعراي في القرن السادس عشر سير بضعة علماء حنابلة
 كان يعرفهم . ولكن لا توجد سير للحنابلة المصريين في كتاب الجبرتي .
 ومع قدوم القرن السابع عشر ، كانت المصادر تتحدث عن مذاهب ثلاثة
 وليس أربعة (٣١) . بينما اختفت مناصب قضاة المذاهب الأربعة من
 الوجود مع نهاية الدولة المملوكية ، كانت مناصب كبار المفتين للمذاهب
 الثلاثة مهمة في مصر العثمانية ، وكان المفتون ، على الدوام ، من بين
 العلماء المصريين .

التكوين العلمي للعلماء

كما سبق أن ذكرنا ، لم تكن الحقبة العثمانية في مصر ، فترة
 مبدعة أو خلاقة ، ولم يغفل المراقبون المعاصرون عن الجو الفكري المجدب
 الذي ساد الأزهر ، اذ يفهم من كتابات حسن الحجازي ، وهو شاعر وهجاء
 القرن الثامن عشر - كثيرا ما يذكر الجبرتي نظمه عن الأزهر - أن علماء
 الأزهر كثيرا ما يجعلون عباءاتهم أكبر حجما وأكمامهم أكثر عرضا كي
 يكونوا سادة على الأهالي (٣٢) ومع ذلك ، فلقد كان الكثير من العلماء
 دارسين مخلصين للعلم على مدى حياتهم ، يسعون الى تلقي العلم من
 معلمين مختلفين ، وقاموا بتأليف كثير من الكتب لكن اطلاعهم كان
 مقصورا على الموضوعات التقليدية الدينية ، الا أنهم حتى في هذه
 المجالات المحدودة لم يظهروا سوى قدر قليل من الأصالة . والجبرتي
 يذكر ، رغم هذا ، بضعة علماء ، ممن كانوا يهتمون بالجبر والحساب
 والجغرافية والفلك والمنطق وغير ذلك (٣٣) .

وثمة لقاء في شوال عام ٦٠١ هـ / أكتوبر عام ١٧٤٧ م بين أحمد
 باشا ، أحد الوزراء العثمانيين ، وكبار علماء القاهرة بزعامه شيخ الأزهر

الشبراوى ، تقدم لنا تفهما نادرا للعالم الفكرى للعلماء وادراكهم الذاتى .
 اذ خاب أمل الوزير لدى علمه أن كبار علماء مصر غير قادرين على مناقشة
 العلوم الرياضية معه . فقال الشبراوى شارحا : نحن لسنا بأعظم العلماء
 (فى مصر) وانما نحن الذين أخذوا على عاتقهم خدمة العلماء وتمثيل
 حاجاتهم أمام رجال الحكم والحكام ، فمعظم أهل الأزهر لا يشغلون أنفسهم
 بالعلوم الرياضية ، باستثناء الحساب والمقاييس اللازمة لتوزيع الموارث .
 وأضاف الشيخ أن دراسة العلوم الدقيقة تتطلب آلات ومهارات فنية ،
 غير أن معظم الأزهريين من الفقراء ، وهم مجموعة من بسطاء الناس ، من
 القرى والبنادر ، تندر بينهم القدرة على شئ كهذا . وحين استسلم
 الوزير تقريبا الى أن المصريين جهولون بالعلم ، اتجه الى والد الجبرتى ،
 الذى تفوق فى هذا المجال فأحدث فى نفس الوزير انطبعا عظيما (٣٤) .
 وتكشف هذه الحادثة العارضة القصيرة المنعزلة المؤسفة ، عن الكثير من
 الحقيقة . ذلك أن معلومات العلماء العامة محدودة ، باستثناء الدراسات
 الدينية ، كما ذكر الشبراوى . كما أن اشارته الى الخلفية الاجتماعية
 للعلماء ليست أقل أهمية سواء فى الأزهر أو غيره . وتبين التآيينات التى
 كتبها الجبرتى بجلاء أن غالبية العلماء ، كانوا ، فى حقيقة الأمر ، من
 أصل قروى وجاءوا الى القاهرة للدراسة وهم شباب مدقع الفقر . ومن
 الأمور التى لها دلالتها أنه لم يوجد واحد فقط من مشايخ الأزهر فى القرن
 الثامن عشر (والقرن التاسع عشر أيضا) من مواليد القاهرة ، بل كانوا
 جميعا قرويين (٣٥) ، كما يبين هجاء الشربينى فى القرن السابع عشر .
 فبعض العلماء كانوا يخجلون من أصولهم الريفية ويحاولون اخفاءها (٣٦)
 ومن ناحية أخرى ، حافظ الآخرون على صلات لمدى الحياة مع أهل قراهم
 (البلديات) حتى بعد أن تكون أسماؤهم قد لمعت فى العاصمة .

وكانوا يسافرون الى بلادهم مرة أو مرتين فى العام ، ويصدرون
 الفتاوى للقرويين ، ويسوون المنازعات ، ويبرمون عقود الزواج ، وغير ذلك
 باعتبارهم كسلطات دينية فى قراهم (٣٧) .

ويمكن شرح جاذبية الأزهر وغيره من المدارس الدينية لشباب
 القرويين ، حين نعرف أنه قبل القرن التاسع عشر كان القرويون ممنوعين

من الاستقرار فى القاهرة ، وكانت الطريقة الوحيدة لفعل ذلك بشكل قانونى هو الالتحاق بالأزهر وبذلك تتوافر للشخص فرصة للحراك الاجتماعى من خلال طلب العلم ، فى القاهرة .

أحوال العلماء الاقتصادية

يجب أن نؤكد على أن العلماء لم يكونوا طبقة اقتصادية اجتماعية متجانسة ، فالقليل منهم ، كانوا على قدر كبير من الثراء ، غير أن الغالبية كانت من الفقراء . كانت الحكومة وكذلك المتبرعون من الأفراد ينفقون عليهم . فكان هؤلاء العلماء الفقراء مطمئنين الى حد أدنى من العون على الأقل . وكان هذا العون أكبر بكثير مما يمكن أن يأمل فيه بقية الأهالى (٣٨) وكان قليل من العلماء المحظوظين يتلقون دخولا مرتفعة ومنتظمة باعتبارهم مدراء للوقف .

وبنى مشايخ الأزهر منازل واسعة فى المناطق الراقية الغالية على ضفة النيل ، مثل بولاق أو على بركة الأزبكية . وكان لدى شيخ الأزهر شنن الكثير من العبيد والجوارى ، بل ومماليك ، الأمر الذى لم يكن معتادا مطلقا بالنسبة لأحد الأهالى (٣٩) ، أما الغالبية الكبرى ، عموما ، فكانت تكسب قوتها عن طريق التدريس . إذ كان فى إمكان العالم أن يزيد من دخله عن طريق إصدار الفتاوى ، ونسخ المخطوطات وما الى ذلك من أعمال .

وتظهر الكثير من الأدلة أن التنافس على المناصب التعليمية كانت منافسة شرسة . فلقد حدث كثيرا أن قطع العلماء المصرىون كل الطريق الى اسطنبول لاقتناع ذوى النفوذ هناك كى يقوموا بتعيينهم فى مناصب تعليمية أو غير ذلك من المناصب فى مصر ، وكان هذا يتطلب عزل من يقوم على المنصب ، وقد يكون هذا المعزول أكثر كفاءة (٤٠) .

وكان بعض العلماء يشغلون أنفسهم بالتجارة ، على الأقل لبعض الوقت حتى ان أحد الباشوات حين أنقص من معاشات العلماء ، ادعى أنهم تجار حقا (٤١) .

ويوضح أحد الفرمانات بتاريخ أغسطس ١٧٣٤م، أن العلماء من أصحاب المشروعات، أو الذين يعملون كملتزمين entrepreneurs كانت السلطات تحاييهم وتعاملهم معاملة خاصة ليست كمعاملة غيرهم، إذ حصل أحد مشايخ الأزهر على قرار سلطاني خاص باعفائه من الضرائب وغيرها من المصروفات (٤٢) . وكان هذا الشيخ قد بنى لفائدته الشخصية، قاربا لحمل المسافرين المولد البدوي في طنطا . وكان مصدر الدخل الدائم لأحد العلماء هو الجوالي، أو الجزية التي كانت مفروضة على المسيحيين المحليين واليهود، مع أن هذه المبالغ لم تكن سوى جزء صغير من النقود التي كانت تدفع للعلماء والمؤسسات الدينية (٤٣) . إذ كان معظم دخل العلماء يجيء من مؤسسات الوقف التي كانت عوائدها هي أساس رواتبهم، ومنها كان يصرف على صيانة المؤسسات الدينية وقد تكون ممتلكات الوقف قرى ومباني مدنية، وغير ذلك من المشروعات التي تدر عائدا . وكانت القرى الخاصة بالوقف مغطاة من الضرائب الأخرى المنتظمة وغير ذلك من المصروفات . كما يتضح من الفرمانات العثمانية، أنه لم تكن هناك مراعاة لهذا المبدأ أحيانا (٤٤)، فكثيرا ما كان أحد الأثرياء - ربما من الطبقة الحاكمة - يوقف ويرشح عالما كوصى على هذا الوقف، وفي الكثير من الحالات، كان أوصياء الوقف، هم من الطبقة الحاكمة - مثل الأمراء وضباط الجيش أو من بين موظفي الحكومة . فعلى سبيل المثال، كان القائم على أوقاف الأزهر أميرا وليس عالما (٤٥) . وكانت إدارة الأوقاف عملا عسكريا متشعبا، وكثيرا ما شكوا العلماء من أن الملتزمين لم يقوموا بتسليم المنوط بهم تسليمه . وكانت الحكومة المركزية في اسطنبول تحاول أن تحل مشكلة إدارة الوقف عن طريق تحويلها إلى إدارة مركزية، وذلك بتعيين مفتش أعلى، في العادة، أحد الأغوات، أي خصيان الحریم السلطانية . وفي القرن الثامن عشر، كان العلماء أنفسهم يدخلون طبقة الملتزمين (٤٦)، وكانت المعاشات تدفع لأولاد العلماء وعائلاتهم . ومن حين لآخر، كانت الحكومة تلغى هذه العطاءات ففي ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤م - ١٧٣٥م، وقعت مواجهة بين قاضي عسكر ومتحدث بلسان العلماء بخصوص معاشات الأولاد والعائلات، إذ وصل أمر من اسطنبول معلنا قطع هذه الحصص . وجادل كبير القضاة قائلا بما أن هذا هو أمر السلطان، فتلزم

طاعته ، غير أن الشيخ المنصوري، متحدثاً عن العلماء قال، ان هذه المعاشات والعطاءات قد أقرها حكام سابقون . وادعى أن حقوق المعاشات لم تعد قابلة للتفاوض وانها تمول انشاء المساجد والأسبلة العمومية وغير ذلك من المؤسسات الدينية . واذا كان للمعاشات أن تقطع ، فسيكون في ذلك ضرر على الدين . وعليه ، قال ، في الختام ، ان أمر الحاكم يتعارض مع الشريعة ولا تجب طاعته (٤٧) .

الانقسامات العرقية

من الناحية العرقية : كانت طبقة العلماء في مصر متجانسة تمام التجانس . فالغالبية العظمى كانت من المصريين المتحدثين باللغة العربية ، غير أنه كان هناك تسرب مستمر من العلماء الذين حضروا الى مصر بغرض الدراسة ، أو أولئك الذين توقفوا فيها وهم في طريقهم الى بلادهم وهم قادمون من الحج ، فأثروا حياة مصر الفكرية والدينية .

وكان المغاربة هم أكبر جماعة من العلماء الأجانب ، الذين تم استيعابهم وتمثلهم بدرجات مختلفة داخل المجتمع . وهناك معلومات موثقة بشكل جيد عن جالية مغربية كبيرة في مصر في ذلك الوقت . اذ يروى الجبرتي عن حالة العديد من العلماء المغاربة ، الذين اندمجوا في حياة الأزهر الدراسية والاجتماعية ، فكان بعضهم يحتلون مناصب في رواق المغاربة القوي في الأزهر (٤٨) . بينما كان المصريون (من علماء وغيرهم) يترددون في السفر للخارج ، بصفة عامة ، وكانت القاهرة ترحب بالعديد من العلماء من الشام والجزيرة العربية ، بحيث ان بعضهم تمكنوا من أن يعيشوا حياة عملية لامعة في الأزهر (٤٩) .

وثمة مسألة هامة تتعلق بوجود العلماء الأتراك وأنشطتهم في مصر . اذ كان الأتراك هم أكبر جالية أجنبية في القاهرة . وكان في الأزهر رواق تركي ، وكما تبين واقعة عام ١٧١١ م ، تلك الواقعة الخاصة بالخطيب التركي ، فانه كان هناك طلاب أتراك آخرون في مساجد أخرى غير الأزهر .

كثيرا ما يلاحظ افليا Evliya ، الذى يبدو أنه يفضل الأتراك على العرب ، كما قال مرارا ، وجود مساجد يقتصر مصلوها على الأتراك ، كما فى مسجد مردن Mardan أو التى بارمك افندى Altı Barmak وكثيرا ما يلاحظ أن أسلوب العمارة فى الكثير من المساجد كان تركيا ، كما يتكلم عن الكتاتيب المخصصة للأطفال الأتراك (٥٠) ، غير أنه حتى افليا ، الذى أعار كبير أهمية للوجود التركى فى مصر ، لا يأتى على ذكر علماء من الأتراك ، باستثناء بضعة قضاة ، بينما يتكلم بالفعل عن علماء مصريين . وهذا يكمل الصورة التى تظهر فى مصادر أخرى ، وبصفة رئيسية عند الجبرتى ، وهى أن الجالية التركية الكبيرة فى مصر لم تخرج علماء لهم أية أهمية ، وحتى إذا كان ذلك قد حدث ، فإن هؤلاء العلماء لم يبقوا فى مصر أو لم يكن لهم أى أثر على حياتها الدينية أو العلمية . ومن غير المحتمل تماما أن الجبرتى لم يذكر سير العلماء الأتراك فى كتابه لافتقاره الى المعلومات الخاصة بهم ، ذلك لأنه كتب عن الأجانب بمن فيهم بعض الأتراك ، إذا كانوا بارزين اجتماعيا ، على نحو من الأنحاء (٥١) .

نمو الأزهر أثناء الحقبة العثمانية

من بين أوضح التطورات فى التاريخ الثقافى لمصر العثمانية ذلك التطور الكبير الذى حدث للأزهر ، أكبر مسجد جامعى College-mosque . إذ أنه مع قدوم الاحتلال العثمانى ، كان الأزهر مؤسسة دينية مستقرة عريقة خاصة بالتعليم الدينى . ومنذ انشائه عام ٩٧٠ هـ ، بواسطة الفاطميين كمركز تعليمى اسماعيلى يقوم بالدعاية لهذا المذهب ، حوله الأيوبيون الى جامعة سننية ، فاكتسب شهرة فريدة ، ومكانة خاصة . غير أن الأزهر لم يكتسب موقعا خاصا ، سوى أثناء الحقبة العثمانية ، بحيث طفى بظله على جميع المدارس المصرية فجعلها عديمة الأهمية نسبيا . ويجب النظر الى نمو الأزهر ومركزيته تحت الحكم العثمانى على أنه تعبير اضافى آخر عن التأكيد على الاسلام المصرى (يقصد طريقة المصريين فى فهم الاسلام وممارسته : المترجم) أثناء تلك الحقبة .

فى بداية الحكم العثمانى ، كان الأزهر غير مهم نسبيا . فمثلا ، لا يؤكد ابن اياس على أن الأزهر كان محورا للعملية التعليمية الدينية ،

بل انه يسمى المدرسة الصالحية ، وليس الأزهر « قلعة العلماء » ، غير أنه يجب ملاحظة أن الأزهر هو الذى احتج على ضريبة الزواج التى فرضها العثمانيون ، اذ يروى ابن اياس أن حوالى ١٠٠ من الأزهريين ظهروا أمام خاير بك للتعبير عن معارضتهم (٥٢) . وطبقا لابن اياس ، فإن العثمانيين أذعروا بالكثير من المؤسسات الاسلامية فى القاهرة ، غير أنه لم يأت ذكر للأزهر مطلقا كواحد من هذه التى أضيرت ، وبعد ذلك بعقود عدة ، يظهر الأزهر ، فى كتابات الشعرائى ، باعتباره المؤسسة المركزية التى تبرع لها بعض الباشوات الذين حكموا مصر ، وفى تلك المؤسسة أطلقوا مبادرات لأعمال الخير التى تقيّد طلاب الأزهر (٥٣) . وكتب رحالة مسلمون ، أثناء الحقبة العثمانية ، من أمثال افليا جلى (شلمى) Evliya Celebi والعجاج المغاربة ، عن الأزهر بأعجاب شديد ، معترفين بأنه لا يوجد ما يذانيه فى العالم كمركز عظيم ثرى ومحترم يختص بالتعليم الدينى ، اذ كان يعج ليل نهار بالدرس ، والصلاة والذكر .

أصبح الأزهر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر مؤسسة علمية حقا ، وملاذا للعلماء (٥٤) . حقيقة لقد كانت هناك مدارس أخرى فى القاهرة ، غير أنها كانت عديمة الأهمية ، بالمقارنة بالأزهر ، بل ان الكثير من المناصب التعليمية فى المؤسسات الأخرى كان يقوم عليها مشايخ أزهريون (٥٥) .

بنية الأزهر

كان عدد طلاب الأزهر يتراوح ما بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ كان يقوم بتعليمهم ٧٠ من الأساتذة بالاضافة الى المساعدين والمعلمين ، ويتحدث فرمان عثمانى بتاريخ ١١٤١ هـ / ١٧٢٩ م عن حوالى ٤٠ من العلماء والمفتين الذين جاءوا الى الديوان ليشكوا من مخصصاتهم ، بينما اجتمع حوالى ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ من الطلبة فى الجامع نفسه ، للتظاهر بسبب تأخر إعطياتهم .

وكان الطلاب ينتظمون فى أروقة أو دور ضيافة حيث كانوا يسكنون ويدرسون ويتسلمون جراياتهم (٥٦) ، وكانت الأروقة تنقسم على أسس عرقية واقليمية . وهكذا ، كانت هناك أروقة للاتراك (الأروام) والشوام ،

والمغاربة ، وأهل الصعيد وأهالى مديرية الشرقية ، وما الى ذلك • وبعض الأروقة مثل المغربى والصعيدى ورواق الطلبة الصبيان ، كانت مضطربة بشكل شنيع ، اذ كانت التوترات والصدامات بين الجماعات العرقية داخل الأزهر كثيرة الحدوث كما سنرى فيما بعد (٥٧) •

كانت الدراسة فى الأزهر تسير على نسق ما كان يحدث فى العصور الوسطى • اذ كانت غير رسمية ، حيث كان كل شىء متروكا تقريبا لاجتهاد الطالب واختياره ، بل ان المؤسسة نفسها لم تكن لها متطلبات للالتحاق ، أو مقررات محددة للدراسة أو امتحانات ، وما أشبه ذلك ، قبل نهاية القرن التاسع عشر • وكان الطالب هو الذى يحدد الدرس الذى يحضره (٥٨) •

كان الطلبة يحصلون على الاجازة ، وهى شهادة أو رخصة بتدريس مادة معينة درسوها على شيخهم • وكانوا يحصلون على هذه الاجازة منه هو وليس من الأزهر ، كمؤسسة • كان التعليم فى الأزهر ينحو أكثر نحو الفردية بمعنى عدم خضوعه لنسق معين ، على النقيض من نظام المدارس (التعليم) العثمانية الذى كان منتظما أكثر من ذلك بكثير ويعتمد على التدرج الهرمى • فالشيخ يصل الى درجة الأستاذية باجماع زملائه ، رغم ضرورة وجود تأكيد رسمى على ذلك من السلطات المصرية (٥٩) •

منصب شيخ الأزهر

كانت نشأة منصب شيخ الأزهر نحو نهاية القرن السابع عشر مؤشرا على نهضة الأزهر • ولقد تأكد هذا المنصب ، الخاص بالشيخ ، فى القرن الثامن عشر ، حين ضعف الحكم العثمانى ، شأنه شأن تحول منصب كبير الأشراف (نقباء الأشراف) الى العائلات المصرية فأكد الاسلام المصرى بذلك نفسه (*) •

ومع ندرة المعلومات المتعلقة بالتركيبة الداخلية للأزهر ، قبل القرن الثامن عشر ، الا أنه يبدو أن عالما كان يعرف بأنه أعلى من الآخرين • اذ يذكر الشعرانى ، بالفعل ، رأس المدرسين فى الأزهر ، رغم عدم وضوح

(*) المقصود كما ذكر المترجم طريقة المصريين فى فهم الاسلام وممارسته •

وظائفه (٦٠) . وثمة مصطلحات أخرى تشير الى الرفعة مثل شيخ مشايخ الأزهر تظهر أحيانا فى المصادر (٦١) . غير أن أيا من هذه الألقاب لم يكن له وزن شيخ الأزهر وسلطته ، وهو منصب كان يخص لرئيس العلماء الأزهريين منذ القرن الثامن عشر ، وكثيرا ما ترجم بـ «عميد الأزهر» (فى النسلسل الهرمى فى الكنيسة الكاثوليكية يستخدم لفظ عميد للإشارة الى رئيس كنيسة كبيرة : المترجم) فمنذ نشأة هذا المنصب وهو على درجة قصوى من الأهمية ، غير أنه لم توضع اجراءات واضحة لاختيار من يتولاه . لذا ، فلا عجب فى أن صار المنصب شيئا تتكالب عليه الفرق والمذاهب وكان تعيين شيخ جديد للأزهر أحيانا ما يصحبه قدر من العنف . وتكشف الصراعات التى تحيط بهذا المنصب قدرا كبيرا من التوترات داخل جهاز العلماء ومجتمع الأزهر بصفة عامة .

من بين أول ستة مشايخ للأزهر ، كان هناك خمسة من المالكية (٦٢) . ولم يكتسب الشافعية احتكارهم للمنصب الا ابتداء من الشيخ السادس فصاعدا . وأول شيخ للأزهر ، كان محمد بن عبد الله الخراشي ، الذى توفى عام ١١٠١ هـ / ١٦٩٠ م وخلفه محمد النشرتى (٦٣) . وبعد وفاة النشرتى عام ١١٢٠ هـ / ١٧٠٩ م ، نشب صراع عنيف أدى الى قتل عدد من الناس . وكان هذا الصراع بين أتباع شيخين هما : النفاوى والقلينى ، على المنصب الذى أضيفت اليه مهام تعليمية (تدريسية) فى المدرسة العقباوية أو الأباغماوية Aqbughawiyya . وبعد أن وبخ نقيب الاشراف الشيخين فى الديوان على سلوك أتباعهم ، تم أخيرا تعيين القلينى (٦٤) وكان شيخ الأزهر التالى ، محمد شنين ، (١١٣٣ هـ / ١٧٢١ م) الذى كان واسع الثراء ومن كبار ملاك الأراضى وباعتباره من رجال الاعمال ، استطاع أن يقنع الباب العالى بأن يتبرع بخمسين كيسا ، لاجراء اصلاحات فى الأزهر ، ثم ساهم ، اسماعيل بك ، الرجل القوى فى مصر ، فى ذلك الوقت ، بثلاثة عشر كيسا أخرى .

وعلى النقيض من ذلك ، كان شيخ الأزهر التالى ، ابراهيم موسى الفيومى ، (١١٣٧ هـ / ١٧٢٤ م) رجلا دنيا فاهملا ادارة هذه المؤسسة (٦٥) .

وكان الشيخ عبد الله الشبراوى ، الذى كانت له علاقات جيدة جدا مع الأمراء ، هو أول شيخ شافعى يتولى منصب شيخ الأزهر . وكان دارسا مهما ، وشاعرا جمع لعلى باشا بن الحكيم تاريخا لمصر ، ضم فصلا عن الحكام حتى زمانه . وتحت زعامة الشبراوى ، شعر العلماء بالكرامة والوقار (٦٦) . ومات الشبراوى فى ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م ليخلفه الشيخ محمد بن سالم الحفنى ، أو الحفناوى ، (١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م) ، الذى عرف بصفة خاصة باعتباره « صوفى خلوتى » (٦٧) وتبعه عبد الرؤوف السجيني (ت ١١٨٢ هـ / ١٧٦٩ م) .

وكان شيخ الأزهر التالى ، أحمد بن عبد المنعم الدمهورى ، نسيج وحده ، بما أنه لم يكن معروفا بأى مذهب بعينه ، وإنما حصل على اجازات من علماء من جميع المذاهب الفقهية . كما كان يقدم الفتاوى حسب تعاليم جميع المذاهب ، ولهذا السبب كنى بالمذهبي ، أى رجل جميع المذاهب . لقد كان مثالا آخر ليتيم معدم وصل الى الأزهر ، وارتقى الى مراتب الشهرة والثراء والنفوذ . فكان الأمراء يعطونه الهبات ، ولكنهم أيضا كانوا يحترمونه لتعبيره عن رأيه بقوة (٦٨) .

وتبع وفاة الدمهورى فى العاشر من رجب ١١٩٢ هـ / الرابع من أغسطس ١٧٧٨ م ، صراع طويل على المنصب . وتطور ذلك الصراع الى مواجهة بين الشافعية والحنفية مع ما فى ذلك من ظلال وطنية مصرية . كان الطامح الى المنصب هو الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشى وهو رجل طموح غير عادى . وبدت فرصته ضئيلة ، لأن علماء القاهرة اعتبروه غريبا خارجا ، وافدا ، لكونه حنفيا ومن أبناء العريش ، وهى مدينة صغيرة فى شمال سيناء . غير أنه كان أيضا صوفيا خلوتيا . وكان ذلك فى تلك الفترة ، من المتطلبات الضرورية للقبول الاجتماعى بين كبار العلماء .

وقد أخبر العريشى ابراهيم بك ، شيخ البلد ، ان الدمهورى حين كان فى فراش مرضه رشحه نائبا له . ونال العريشى تأييد الأمراء ، والشيخ السادات ، من زعماء الصوفية ، فعينه الأمراء شيخا للأزهر .

فاغضب تعيين العريشى مؤسسة الأزهر التى يسيطر عليها الشافعية ، الذين اعتبروه مغامرا غريبا يحمل خرجا • (تعبير أمريكي يصف الجنوبيين الذين ذهبوا الى الشمال للتكسب) وقال العلماء ان المنصب من حق الشافعية ، وليس من حق حنفى أن يطالب به ، وعلى الأخص شخص من مكان قصى • فأرسل الشافعية ، بزعامة محمد بن الجوهري ، وهو شيخ وقور مستقل ، شكوى لابراهيم ومراد اللذين كانا يحكمان مصر ، مطالبين بتعيين الشيخ أحمد العروسى ، وهو شافعى ، بدلا من العريشى • الا أن البكوات الذين كانوا فى المعتاد ، يترددون فى أن يساقوا الى مشاجرات العلماء ، اعتبروا الشكوى تحديا لسلطتهم • فقال ابراهيم بك : « من المستحيل أن يغير الصغار ما فعله الكبار » واعتبر أن الاعتراض على تعيين حنفى شيخا للأزهر شىء غير منصف وغير اسلامى وقال : « أليس الحنفية مسلمين ، وأليس هذا هو أقدم مذهب ؟ والأمراء والقاضى والباشا • أليسوا بحنفيين ، وأليس السلطان نفسه ينتمى الى هذا المذهب ؟ » وبدت حجة ابراهيم بك معقولة ، ومنصفة ، كما أننا ، ينبغى ، أن نكرر أن الطبقة الحاكمة سواء من العثمانيين أو الماليك لم تفرض أبدا مرشحا من مذهبها على الأزهر •

ذهب العلماء الى ضريح الامام الشافعى ، ليلة الجمعة ، وقضوا الليلة هناك • ان مثل هذه الزيارة المنظمة الى ضريح الولى وصلت الى حد المظاهرة بين علماء الشافعية ومؤيديهم من غير العلماء ضد تدخل الأمراء فى شئونهم الداخلية • وكان المتحدث عن العلماء هو محمد بن الجوهري الذى سبق ذكره ، والذي كان يحظى باحترام الأمراء لأنه على النقيض من غيره من العلماء ، لم يسع الى صحبتهم ولم يطمع فى هباتهم • أخبر ابن الجوهري مراد بك « باسم الامام الشافعى سيد البلاد » بأنه أى مراد ، عليه أن يخلع رداء الشرف على العروسى باعتباره رأس الشافعية ، تماما كما كان الشيخ الدردير رأس المالكية • وبالفعل نصب العروسى ، وصار مرموقا بعد ذلك ، كما يقول الجبرتى •

على ما يبدو حل العروسى محل العريشى كشيخ للأزهر ، رغم ان الجبرتى لا يقول ذلك بالتحديد • واستمرت المنافسة بين الزعيمين

الدينيين لمدة سبعة أشهر . اذ كان الحنفية يساندون العريشى . كما كان يؤيده الشيخ السادات والمغاربة حسب اتجاه شيخهم أبى الحسن القلعي وكذلك الأمراء . ومن الواضح أن جميع القوى غير الشافعية تجمعت خلف العريشى ضد احتكار الشافعية للمنصب . وجاء سقوط عبد الرحمن العريشى على حين غرة . لقد بدأت شرارته بنزاع عنيف بين رواقين حنفيين فى الأزهر ، وهما التركى والشامى ، قتل فيه أحد الأتراك وجرح آخر . فشكا الأتراك لبكوات الماليك . فتعاطفوا معهم من قبيل القرب العنصرى (الجنسية) كما يقول الجبرتى . وأمر العريشى بإجراء تحقيق فى الأمر باعتباره مسئولاً عن الشوام ، غير أنه بدلا من تقديم قائمة بمشبرى الشغب ، كما أمر ، فقد سلم قائمة بأسماء وهمية بينما فر مرتكبوا الحادث من الشوام . فخلع ، عندئذ ، من منصب كبير مفتى الحنفية ، وتوفى بعد ذلك بوقت قصير فى بيته ، رجلا مهيب الجناح ، وتولى شخص آخر الرواق الشامى . ولم يسمح لأبناء المجدل وطبرية بالعودة الى الرواق ، وكان على الشوام أن يقدموا ١٠٠ رغيف من الخبز يوميا كدية (بدل دم) (٦٩) . وهكذا صار أحمد العروسى شبيخ الأزهر بلا منازع واحتفظ الشافعية باحتكارهم للمنصب .

ورغم أن الشيخ أحمد العروسى دارس وعالم وصوفى خلوتى وصديق حميم للشيخ الصوفى الشهير المبجل أحمد العريان ، مع هذا كله ، لم يكن لأحمد العروسى أن يستمتع بمنصبه ، على أية حال ، لأن مدته كانت فى زمن سيادة عدم الاستقرار السياسى والمصاعب الاقتصادية الخطرة . وكثيرا ما وقع تحت ضغط جماعات خارج الأزهر كى يتدخل نيابة عنهم لدى الأمراء . كذلك فإن المغاربة والشوام الذين كانوا معادين له ، ويتميزون بالعدوانية ، قاموا بتمرد مطالبين بمخصصاتهم (٧٠) . وبعد وفاة العروسى عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٤ م قام ، مرة أخرى ، الشيخ محمد ابن الجوهرى باختيار خليفة العروسى . وكان آخر مشايخ الأزهر فى الحقبة العثمانية هو عبد الله الشرقاوى . وكان أيضا صوفيا خلوتيا ممارسا لهذه الطريقة . وكانت صوفيته جلية فى أعماله ، وحاول أن يجرب نفسه أيضا فى كتابة التاريخ . وقام الفرنسيون بتعيينه رئيسا

لديوانهم • وجمع ثروة ، أثناء الحكم الفرنسي بالاستيلاء على ممتلكات الناس الذين غادروا مصر بسبب الاحتلال • فلم يكن رأى الجبرتي فى الشرقاوى رأيا طيبا ، غير أنه لم تكن تعوزه الشجاعة وفى إحدى الحالات الشهيرة ، التى سنأتى على ذكرها ، دافع عن حقوق الفلاحين ضد غبن الأمراء • ومات الشرقاوى فى أول شوال ١٢٢٧ هـ ، التاسع من أكتوبر عام ١٨١٢ م • وبعد صراع على المنصب رشح محمد الشنوانى خلفا له (٧١) •

الأزهر فى الحياة العامة

لم يكن الأزهر أكبر المساجد وأكثر المؤسسات توقيرا على مستوى العالم من حيث العلم الدينى الإسلامى فحسب، بل كان يمثل المركز العصبى للرأى العام فى القاهرة • فكان الأزهر غالبا بؤرة لاضطرابات الأهالى ، إذ كان الطلاب يبدأون التظاهرات ، غير أن عناصر خارجية أحيانا ما كانت تقوم بها • فهناك عناصر كانت تريد أن تعبر عن حنقها من خلال هذه المؤسسة • ذلك أن القيام بتظاهرة ضد القلعة ، مركز الحكومة ، كان لابد أن تنتهى نهاية مفاجئة بالنسبة للمشاركين فيها ، إذ كان الجنود سيقطعون دابرههم بلا رحمة ، كما حدث ، بالفعل ، عدة مرات • فكان من التعلل القيام بالضغط على السلطات من خلال الأزهر ، الذى كان يتمتع بحصانة من نوع ما •

كانت الاضطرابات التى يبدؤها الطلاب والمعلمون من الأزهر عادة ما يكون سببها هو الضيق الاقتصادى حين تنقص المعطيات والجرايات نقصا كبيرا أو تتأخر • وكان فى استطاعة الأزهريين أن يقصروا رد فعلهم على رفع شكوى ، غير أنه فى الحالات الأكثر جدية ، اعتاد الطلبة المقيمون أن يغلقوا بوابات الأزهر ويشوشوا على الدروس والصلوات هناك وكذلك فى المساجد المجاورة ، مثل مقام الحسين ومدرسة محمد بك (٧٢) • وثمة اجراءات أكثر تطرفا كانت تشمل صعود الطلبة فوق المآذن ، حيث يصيحون ويلعنون الأمراء •

فى مثل هذه الحالات ، تغلق الحوانيت الموجودة فى المناطق المجاورة اما تضامنا مع الأزهرين ، أو كاحتياط لتحاى ما يمكن أن يقع من صدامات مع السلطات .

لقد حدثت حادثة معبرة تمام التعبير عن هذا النوع فى جمادى الأولى عام ٩١١ هـ / يونيو ١٧٧٢ م ، حين كانت القضية أملاك وقف يطالب بها المغاربة . فنشب نزاع بينهم وبين يوسف بك . ويوسف بك هذا هو الأمير الذى سبق ذكره باعتباره معاديا للعلماء . ووقف الشيخ الدردير ، الزعيم المالكي الشهير بتصليب الرأى ، الى جانب المغاربة ضد يوسف بك .

وحدث اضراب فى الأزهر والأسواق ، وتبع ذلك قيام مظاهرات ، فنشبت صدامات عنيفة بين المغاربة ورجال البك قتل فيها بعض المغاربة وجرح آخرون . فتدخل اسماعيل بك ، أقوى أمراء مصر ، الى جانب العلماء وتم الوصول الى حل توفيقى (٧٣) .

وفى احدى المظاهرات التى نجمت عن أزمة اقتصادية فى الأزهر والقاهرة بصفة عامة ، خرج طلبة الأزهر ، وخاصة العميان ، يصحبهم الفقراء من الأحياء المجاورة واختطفوا الطعام من الحوانيت . فحصل الأزهريون على وعد بأن مشكلتهم سوف تحصل (٧٤) . وكان من الممكن ممارسة الضغط على شيخ الأزهر نفسه . ففى ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م ، قام الشوام وبعض المغاربة فى وجه الشيخ أحمد العروسى مطالبين بمخصصاتهم ، فأغلقوا بوابات المسجد ، ومنعوا الشيخ من المغادرة ، لبعض الوقت . ولم يدخل العروسى الأزهر لبعض الوقت ، وكان لا يلقى دروسه الا فى المدرسة الصالحية . وذهب الى اسماعيل بك كى يرفع حالة الطلاب ، غير أن البك اتهمه بتحريضهم . وأخيرا رتب على بك ، الدفتردار ، ناظر الأزهر ، نظاما يمكن الطلبة من الحصول على جراياتهم من الخبز (٧٥) .

كانت الاضطرابات تنشب أيضا حين يتعدى مسئولو الأمن أو الجيش على سلام الأزهر نفسه وخصوصيته أو أحياء المدينة المجاورة . ففى عام

١١٤٣ هـ / ١٧٣٠-١٧٣١ م ، ضايق آغا الانكشارية سكان الأحياء المجاورة للأزهر ، مرات كثيرة ، وذلك فى مطاردته ثلاثة من الهاربين لأسباب سياسية • فشكا الأهالى للعلماء ، فأغلقت أبواب الأزهر احتجاجا • فخشيت الحكومة من أن تنتج عن ذلك انتفاضة من الأهالى فمنع الأغا من الاقتراب مما جاور الأزهر (٧٦) • وفى حالة مماثلة عام ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م ، ضايق كبير شرطة القاهرة (الوالى) أهل حى الحسينية ، فأغلقوا الحوانيت ، وجاءوا الى الأزهر يحملون الطبول للتظاهر ، مما أجبر العلماء على الغاء دروسهم • وبعد مفاوضات مع الأمراء ، تم عزله الوالى ، وحاول من أتى بعده قصارى جهده أن يسترضى المشايخ (٧٧) •

كما سبق أن أشرنا ، كان العلماء يعدون ملاذا للجماعات التى ليست ليا أية صلة بالأزهر والذين يشعرون بأن جورا ما قد حاق بهم • ذلك أن العلماء كانوا هم المتحدثين الوحيديين باسم الأهالى فهم - أى العلماء - موضع احترام للحكام • وأحيانا ، كان العلماء على وعى يرد فعل الحكام ولذا ، كانوا غير راغبين فى مواجهة الأمراء فى مسائل لا تخصهم بالتحديد والقطع • ولم يكن هناك سوى القليل من العلماء ممن لديهم شجاعة تجعلهم يتصرفون باعتبارهم محاكم شعبية • فعلى سبيل المثال ، قاد الشيخ الدردير مظاهرة ضد الأمراء ، وأعلن عن استعداده لتحقيق العدل أو أن يموت شهيدا • كما وقف الشرقاوى دفاعا عن حقوق مستأجريه ضد أحد الأمراء ، كما سنصف فيما بعد (٧٨) • وكذلك حدث أن أصبح العلماء هم أنفسهم عرضة لغضب الأهالى •

وفى احدى المرات ، فى زمان مجاعة ، دخل المتظاهرون الأزهر ، وأوقفوا الدروس ، وضربوا العلماء ، (١١٣٧ هـ / ١٧٢٤ م) (٧٩) • ولم تنقص الشجاعة شيخ الأزهر أحمد العروسى وكذلك الزعامة ، غير أنه كان فى مأزق بين الحكام وجماعات المحتجين ، بعد أن فرض اسماعيل بك ضرائب فادحة وقروضا على تجار معينين ، وأصحاب الأعمال ، فشق بعضهم طريقه الى داخل الأزهر ، وأجبروا العروسى أن يغلاق بوابات المسجد • وتعامل مع الرجال بفظاظة شديدة ، حتى ان الطلبة اضطروا

لحمايته • وتحت الضغط ، صادق العروسي على شكايه المهاجرين الموجهة الى اسماعيل بك الذى اتهمهم فيما بعد بالتحريض (٨٠) •

وأثناء الحرب الأهلية بين اسماعيل ومنافسيه – أى البكوات الذين تراجعوا الى الصعيد وحاربوه من هناك – عانت القاهرة من الصراع الذى دام وقتا طويلا • ذلك أن المتاريس والتحصينات التى أقيمت للدفاع عن المدينة جعلت الحياة العادية أمرا مستحيلا ، اذ لم يتمكن الناس من الوصول الى النيل بحرية وارتفع سعر مياه الشرب بشكل موجه • فركب العروسي ومعه العديد من مشايخ الأزهر الى الديوان ، حيث طالبوا ، بشجاعة ، بل بعدوانية ، بوضع حد لمعاناة الأهالى • وحين قرئ الفرمان العثماني أمام العروسي قاطع قائلا : « ادخل فى صلب الموضوع • فنحن لا نفهم اللغة التركية » وعبر عن غليان الأهالى بسبب الحرب المطولة : « ان الأمراء المصريين لا يقتتلون أبدا بهذه الطريقة • فهم يصطدمون فى معركة واحدة وهى التى تحدد الفائز ، والخاسر • أى دون التسبب فى متاعب تزيد عن الحد للسكان المدنيين » (٨١) •

وأثناء فترة ولاية الشيخ الشرقاوى مشيخة الأزهر ، دافع هو والعلماء عن حقوق الناس مرة أخرى • ذلك أن الفلاحين الذين كانوا مستأجرين فى احدى القرى التى كان الشرقاوى ملتزما عليها ، شكوا هؤلاء الفلاحون من الأمير المعروف محمد بك الألفى • فحاول الشرقاوى أن يحل المشكلة بالتفاوض مع مراد بك وابراهيم بك ، غير أنه باء بالفشل ، نظرا لتعمق النظام الاستغلالى للأمراء • فقاد الشرقاوى والمشايخ مظهرة ضخمة ، انضم اليها أهالى بعض أحياء مختلفة من المدينة • فلما رأى الأمراء آفاق حركة الاحتجاج هذه ، وجدوا أنه من الحكمة التفاوض على تسوية • فوضع كبير القضاة وثيقة تنفى الضرائب الجائرة الظالمة ، وأصدر الباشا أمرا بنفس المعنى ، ووقع عليها الحاكم مراد وابراهيم •

ظن العامة ، بسذاجة ، أن علماءهم نجحوا فى إبعاد الظلم فى مصر ، غير أن الجبرتي الذى يروى الواقعة ، لم يداخله أى وهم • اذ لم يكده يمشى شهر واحد بعد ذلك ، حتى عاد الموقف الى ما كان عليه ، ان لم يكن

أسوأ • فعلى سبيل المثال نزل مراد بك على دمياط ، وفرض ضرائب مرتفعة بصفة خاصة على سكانها (٨٢) •

الخاتمة

كثيرا ما يتهم الجبرتي غالبية العلماء بمداهنة الحكام للحصول على تعيينات ، وهبات و ثروة وتكريم • غير أنه سيكون من الخطأ وصم جميع العلماء بالخضوع للحكام • فكما يبين الجبرتي نفسه ، خرج من بين العلماء رجال ذوو شخصية كانوا يتحدون الأمراء اذا ما هدد أحد امتيازاتهم أو استقلالهم ، أو اذا باغت معاناة العوام حدودا لا تطاق • وكان هؤلاء العلماء من ذوى العزم ، الذين كانوا يستنكفون من صحة الحكام ويرفضون ما يمنحونهم من فوائد ، فكانوا موضع احترام الأمراء ، بل وكان هؤلاء الأمراء يخشونهم أحيانا •

كان العلماء حلقة وصل شديدة الأهمية بين الحكام والرعية : فلم تستطع الطبقة الحاكمة سواء كانت من المماليك أو العثمانيين أن تتجاهل ممثلي دينهم ، الذين حملوا قيمه وتراثه •

ورغم أنه ربما كان من الممكن شراء معظم العلماء ، الا أن الأمراء الباشوات لم يقللوا من شأن الزعامة الدينية التى يحتمل أن تسبب لهم المتاعب •

وحتى الأمثلة القليلة التى ذكرناها فى هذا الفصل توضح أن الأمراء كانوا فى المعتاد يفضلون أن يستخدموا العلماء من أجل التفاوض والوصول الى حلول توفيقية مع الأهالى ، بدلا من الاحتكاك بهم •

وفى الختام نقول : ان العلماء لم يكن متوقعا منهم أن يجعلوا هذا الحكم العسكرى الجائر فى مصر العثمانية معتدلا ، غير أنهم كانوا مقياسا لحالة الأهالى المزاجية كما كانوا أحيانا قادرين على ردع أسوأ أنواع سوء

الحكم . فاذا ما أخذنا فى الاعتبار ظروف العلماء والقيود التى كانت تحدهم ، لاتضح أنهم وحدهم الذين استطاعوا أن يكونوا بمثابة زعماء يتحدثون باسم الناس . وبالرغم من موقعهم المميز ، الا أنهم كانوا ، فى نهاية الأمر ، أقرب الى الرعية منهم الى الطبقة الحاكمة .

الفصل الخامس

التصوف والمتصوفة

كان المجتمع المصرى ، تحت الحكم العثمانى ، كما كان دائما عميق التدين • كما كانت الصوفية ، جزءا لا يتجزأ من هذا التدين ، اذ لا يمكن فهم حياة الشعب المصرى الدينية والثقافية والاجتماعية بدونها • ولم تكن الصوفية طائفة منفصلة ، وانما هى حركة شعبية بلغت كل ركن من أركان المجتمع •

ومع بداية القرن السادس عشر ، فقدت الدراسات الدينية الاسلامية الكثير مما تمتعت به من أصالة وجدة فى السابق ، بالرغم من كثرة الكتابات وبالرغم من النشاط الواسع فى مجال التعليم • ذلك أن سمة القراءة المجذبة التى انشغل بها العلماء ، تلك التى ركزت على المسائل الشرعية الفنية ، النظرية ، لم تكن قادرة على أن تقدم للمجتمع المسلم ، وبخاصة عامة الناس ، ما للدين من تجربة دافئة حميمة عاطفية ، أى ذلك الشعور بالاتصال بالله اتصالا مباشرا والتفاعل مع تعاليم النبى (ﷺ) وهو ما قدمه الصوفية •

لقد أدى هذا الخلل الى زيادة النشاط الدينى والثقافى للصوفية فى مصر وفى أصقاع الاسلام الأخرى فى أواخر حقبة العصور الوسطى •

وعلى الصعيد الاجتماعى ، تعد العلاقة بين الاسلام السننى المعيارى من ناحية ، والصوفية من ناحية أخرى ، أكثر تعقيدا الى حد بعيد • ولقد حاول أبو حامد الغزالى (ت ١١١١ هـ) ، الذى يمكن اعتباره أهم علماء

التوحيد فى كل العصور، حاول فى كتاباته المهمة أن يصل الى حد توفيقى يلتزم به الصوفية بأحكام الشريعة وأن يقبل الفقهاء الصوفية باعتبارها جزءاً مشروعاً من الاسلام لا يتجزأ عنه . إذ أصر الغزالي على الالتزام بطاعة الشريعة ، غير أنه كان يعتقد أن الصوفية قد منحت الاسلام عمقا ومعنى يتعدى التفاصيل الشرعية العقيمة والتحاييل على قوانين الأخلاق . غير أن المواجهة بين العلماء والصوفية لم تكن مواجهة فكرية فحسب ، وانما كانت أيضاً تنطوى على مصالح ، وطموحات ، وحسد .

ومن الصعوبة بمكان أن تصدر أحكاماً عامة عن الصلات بين السنة والصوفية ، بسبب ما لهذه الوشائج من تعقيد ودقة وبسبب الطبيعة المختلفة لهذين الجانبين من جوانب الاسلام . فبينما السنة متسقة ذات شكل موحد ، كانت الصوفية بلا شكل محدد كما كانت متعددة الوجوه ، ذلك أن تعليم العلماء واتجاهاتهم كانت متشابهة فى كل مكان عبر العالم الاسلامى (السنى) بأكمله ، رغم الخلافات المذهبية والمحلية ، بينما كشفت الحركات الصوفية ، على النقيض من ذلك ، عن تنوع يبعث على البلبلة غالباً ما تكون ظاهرة داخل الطريقة الصوفية الواحدة ، كما سيوضح فيما بعد .

ومن أقدم الأزمنة ، كانت السنة والصوفية فى حالة منافسة . فالتوترات بين المتصوفة ، من ناحية ، وعلماء التوحيد ، والفقهاء ومعلمى المدارس ، من ناحية أخرى ، شكلت علامات على وجود ديانة حية كما أسهمت بالكثير فى الثقافة الاسلامية .

ويحاول هذا الفصل أن يصف الصوفية المصرية ومكانها فى الاسلام ابان الحقبة العثمانية .

أثر الفتح العثمانى على الصوفية المصرية

لم يتم الفتح العثمانى بتحويل كبير فى مؤسسات مصر الدينية . فالصوفية سبق أن كانت نشطة وناضجة تحت حكم المماليك ، ذلك أن

الطرق الصوفية والزوايا والتكايا (جمع تكية) ومآدب الصوفية واحتفالاتهم كانت أمورا مالوفة . وعلى أية حال ، فقد أعطى نظام الحكم العثماني دافعا قويا للصوفية ، فإثناء القرون الثلاثة للحكم العثماني حققت الصوفية تقدما عظيما في المجتمع المصرى . فلو قارن المرء الوضع فى نهاية الحقبة الملوكية (١) مع ما حدث من تطورات فى القرن السادس عشر (كما رآها عبد الوهاب الشعراني وغيره) (٢) مع القرن السابع عشر (الأوصاف التفصيلية التى كتبها افليا شلبى (جلبى)) ، وكذلك مع التقديم الشامل البانورامى للمجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر (كما كتبه عبد الرحمن الجبرتى) اذا قمنا بكل هذه المقارنات ، فلسوف يدرك المرء أن نفوذ المتصوفة قد تزايد . فتعددت الطرق الصوفية، واشتدت أنشطتها : اذ تم الاحتفال بالمزيد من الموالد ، كما تم بناء المؤسسات الصوفية كالزوايا والتكايا وارتبط الكثير من العلماء بالصوفية .

ومع وضوح حقائق التزايد فى نفوذ الصوفية المصرية ونشاطها ، الا أنه من الصعب تحديد الأسباب الكامنة وراء هذه التطورات . غير أنه من المؤكد أن مزاج الحكام العثمانيين المواتى كان له الأثر الكبير فى تقوية وضع المتصوفة ومكانتهم . فلم يعتنق الأتراك الاسلام عن طريق علماء توحيد من السنة ، وانما عن طريق الدراويش . ومن ثم ازدهرت جميع أشكال الصوفية فى الأقاليم التركية - ابتداء من التوحيدية (الكلية) المعقدة التى نادى بها ابن عربى (توفى ١٢٤٠ هـ) ، ومن خلال الأشعار الصوفية لجلال الدين الرومى ، الصوفى المتوفى (١٢٧٣ هـ) ، الى الممارسات الدينية الخشنة للدد dedes (مشايخ أتراك متصوفة) .

وبصفة عامة ، فان الأتراك والفرس كان لديهم ميل صوفى أقوى بكثير مما كان لدى العرب ، ومع ذلك لم ينعدم التأيد للمتصوفة بين أمراء المماليك .

ومع أن رعاية العثمانيين للمتصوفة موثقة توثيقا جيدا ، الا أن مساندة المماليك لهم كانت أيضا أمرا قائما . ومع أنه تحت حكم المماليك

كان هناك غالبا توتر خطير بين العلماء والمتصوفة ، وأن العلماء هم الذين علموا الماليك تعاليم الاسلام ، الا أن أمراء الماليك وجنودهم وقروا الأولياء (٣) . وثمة تفسير آخر يمكن أن يشرح تقدم الصوفية الى شغل دور مركزى فى المجتمع المصرى قد سبقت الاشارة اليه الا وهو تدهور حال العلماء . فبالرغم من أنهم لم يكونوا بارزين بسبب أفكارهم الأصيلة أو قدرتهم الابداعية ، الا أنهم كانوا حراس تراث طويل لم ينقطع من العلم ، والأهم من ذلك ، أنهم قد لعبوا دورا لا غنى عنه فى الحكم . فقطع الاحتلال العثمانى التطور المطرد للطابع المصرى للاسلام . ونحن لا ننسى كيف نعى ابن اياس تدهور المؤسسات الاسلامية أثناء السنوات الأولى من الحكم العثمانى . فبعد عام ١٥١٧ ، لم يتم تعيين العلماء المتكلمين باللغة العربية من أبناء البلاد فى مناصب القضاء ، وهى المناصب الأكثر نفوذا وربحا وأكثرت هذه المناصب الآن دائمسا لأغراب يتكلمون التركية . وبالرغم من ضعف الخلافة العباسية السياسى قبل أن يقوم العثمانيون بالغائها ، الا أن هذا المنصب كان محل تبجيل ورمزا تقليديا على عظمة مصر (٤) . وعلى الصعيد الفكرى ، حدث انقطاع تام مفاجئ بعد الفتح العثمانى مباشرة فى حركة التاريخ المصرى الثرية ، فمن الأمور التى لها مغزى كبير أن أبرز كاتب مصرى فى القرن السادس عشر كان الشعرانى ، وهو متصوف . وكانت جميع هذه التطورات نتيجة تحول مصر من سلطنة الى مجرد ولاية ، وربما نشأ عن هذا ضيق واسع النطاق ، وكان هذا الوضع مواتيا للصوفية . فازدياد نفوذ الصوفية يصلح مقياسا للتدهور الفكرى والثقافى للشعب المصرى أثناء الحقبة العثمانية . ولقد ملأت الصوفية ، الى حد ما ، الفراغ الذى أوجده الفتح العثمانى . فبينما كان العلماء منشغلين بأعمال الحكم الادارية والقانونية (الشرعية) ، قامت الصوفية بتغذية الحياة الداخلية ، بتوجهات غير سياسية بل وديوية . فقدمت العزاء للمظلومين ، كما أمدتهم أيضا بالطعام الذى كان يتم توزيعه على الفقراء أثناء الاحتفالات بالموالد ، وكذلك من خلال مؤسسات خيرية مختلفة ذات صلة بالصوفية .

الطرق الصوفية

بالرغم من أنه في مصر وغيرها كان هناك مشايخ أفراد منعزلون ،
إلا أن النشاط الصوفي الرئيسي كان يجرى داخل اطار الطرق •

ان الجدل بعيداً عن الحقائق دليل تاريخي ضعيف غير أن ندوة
المعلومات المتعلقة بطرق صوفية معينة في حقبة الممالك الشربة
توحى أن الطرق لم تكن كثيرة (٥) ومن الواضح ، عموماً ، أن عددها نما مع
الوقت • ولقد قدم أفليا جلبي (شلبي) أسماء العديد من الطرق في
النصف الثاني من القرن السابع عشر وكذلك الجبرتي وغيره من مصادر
القرن الثامن عشر (٦) • ويقرر المليجي ، كاتب سيرة الشعرائي ، والذي
كتب كتابه بعد وفاة الشعرائي بمائة وستة وثلاثين عاماً ، (٩٧٣ هـ /
١٥٦٥ م) ، أن الشعرائي انضم الى ٢٦ طريقة (٧) وترجع صهوبة
التأكد من عدد الطرق الصوفية الى عالم الصوفية غير المنظم أو غير المتبلور
في مصر العثمانية •

وفي عام ١٨١٢ ، أعطى محمد علي باشا لرأس الأسرة البكرية
(آل البكري) سلطة رسمية على كافة الطرق والمؤسسات المرتبطة بها ،
وهكذا خلق تنظيمًا مركزيًا وقناة تستطيع الحكومة من خلالها أن تراقب
الجمعيات الصوفية • وقبل ذلك ، كانت الطرق تفتقر الى أى رئيس أعلى
أو أى جهاز ، رغم تمتع الأسرتين البكرية والوفائية بالمكانة المميزة ، من
الثروة والمكانة الاجتماعية مما أعطاهم الزعامة ، غير أنها لم تكن رسمية
ولم تكن سلطة متكاملة (مترابطة) (٨) •

وطبقاً لما كتبه المليجي ، فلقد قال الشعرائي ان (الاقطاب)
الرئيسيين في المجتمع الصوفي أيامه كانوا السادات الوفاية والبيت
أو الطريقة الصوفية الخاصة بمحمد شمس الدين الحنفي ، (٨٤٧ هـ /
١٤٤٣ م) وسيدى مدين الأشمونى ، (شيخ صوفى آخر من القرن
الخامس عشر) وبيت سيدى « أبو العباس الخمرى » المتوفى سنة ٩٠٥ هـ /
١٤٩٩ - ١٥٠٠ م (٩) •

وحتى اذا كانت هذه القائمة دقيقة، فهى لا تعطينا ضوءاً عن الطرق التى كانت موجودة فى القرن السادس عشر ، ذلك لأن اختيارات الشعرائى ذاتية ، تستبعد أى طريقة غير سننية ، فالشعرائى كان مرتبطاً ، بطريقة أو أخرى ، بهؤلاء « الأقطاب » الأربعة . وحتى اذا ما توافرت قائمة كاملة للطرق الصوفية ، فهى لن تكشف عن الصورة بكاملها ، بما أن بعض الطرق كانت رئيسية ، وأخرى متفرعة عنها ، أو طرقاً فرعية . فالطرق الصوفية كانت تميل الى الانقسام : فطرق جديدة تظهر وتنشق ، ثم تنشق مرة أخرى .

وتميز كتابات الدارسين بين الطرق الصوفية التى تلتزم بالشريعة، وتلك الطرق الخارجة على التعاليم التى تغض النظر عن الشريعة مركزية على الجانب الايمانى وحده . فمثلاً من بين الطرق الممثلة فى مصر ، كانت القادرية والشاذلية تعد طرقاً سننية ملتزمة ، والرفاعية ، والأحمدية والأزدية ، وغيرها كانت تعد طرقاً غير ملتزمة بالشريعة . وعلى كل . فان الخط الفاصل بين الصوفية الملتزمة وغير الملتزمة غير واضح دائماً . فعلى النقيض من الرهبان المسيحيين ، لم تكن الطرق الصوفية دائماً نظماً محكمة تعترف بسلطة مركزية وترتبط بمذهب واحد ، وانما كانت غالباً روابط غير محكمة تعمل على أصعدة اجتماعية مختلفة ، ولديها ايمان وممارسة يختلفان اختلافات كبيرة .

كذلك كانت مسألة تحديد الطابع الدقيق لطريقة ما مسألة معقدة ، لأن الكثير من المتصوفة السننية لم يكونوا راغبين فى أن يؤكدوا أو حتى يصرحوا ببعثيتهم فى احدى الطرق ، على الأقل ، فى أوائل الحقبة العثمانية . وبدلاً من ذلك ، كانوا يعلنون أحياناً ، بشكل اعتذارى ، عن ولائهم للمجتمع المسلم بعمامة ، وللشريعة والصوفية بصفة عامة (الطريق القويم) (*) ، وهكذا يتكتمون على أية صلة بأية طريقة . فالمتصوف السننى كان ولاؤه لشيخه وليس لأى تنظيم .

(*) فى النص طريق القوم ، وهو خطأ مطبعى غالباً .

ان هذا النوع من العلاقة يبرز بوضوح فى أعمال الشعرائى عن حياة المتصوفة (طبقات المتصوفة) ، حيث يصور وسطه الخاص المكون تقريبا من مشايخ صوفية سنيين • ففى قاعة الصور (يقصد طبقات الشعرائى) هذه التى تمثل رجال الدين ، نادرا ما يذكر انتماء أى شخص باحدى الطرق ، ذلك أن التركيز دائما ما يكون على علاقته بمعلميه ، اخوته على الطريق ، وتلاميذه (١٠) • ففى العديد من كتابات الشعرائى الكثير من الاشارات لذاته ، فلقد كتب سيرة ذاتية مطولة بعنوان لطائف المنن - ولم يذكر قط عضويته فى أى من الطرق • فأخطأ بعض الدارسين المحدثين ووصفوه بأنه شاذلى ، غير أن القراءة المدققة فى أعماله تبين أنه بينما كان يحمل تقديرا عظيما لهذه الطريقة ، الا أنه لم ينتم اليها • اذ يمكن وضع الشعرائى ضمن التراث الشاذلى ، ولكن ليس فى الوسط الاجتماعى للطريقة • ذلك أن الطريقة الشاذلية كانت صيغة صوفية مدنية مثقفة أرستقراطية ، بينما كان الشعرائى فتى قرويا له أذواق بسيطة ومتواضعة •

كان الشعرائى وزملاؤه من المشايخ مرتبطين بفرقة سيدى أحمد البدوى المتوفى فى سنة ١٢٧٦ ، وهو أكثر أولياء المتصوفة شعبية فى مصر ، وكانوا يعتبرون من الأحمدية ، على الأقل من وجهة نظر الأجيال اللاحقة • ومع ذلك ، فانهم انتقدوا الأحمدية أو (البدوية) طريقة أحمد البدوى انتقادا شديدا ، لأنهم كانوا من الدراويش غير المنضبطة ، التى انتهكت أحكام الشريعة وكانوا متهمين بسوء التصرف الدينى والأخلاقي • فكيف يمكن تفسير هذا التناقض الظاهرى ؟

ان العنصر المشترك بين المشايخ الصوفية السنة الملتزمين والدراويش الأحمدية هو تبجيلهم لسيدى أحمد البدوى • ولقد كافح المتصوفة السنة ضد نفوذ الدراويش عن طريق محاولة نشر الاسلام الحقيقى بين عامة الناس ، الذين كانوا واقعين تحت تأثير الدراويش •

وشنت المعركة من أجل الاسلام الصافي النقي باسم الولي ، مستخدمه حججا مثل : « ان ما تفعلونه أو ما يعلمه الدراويش لكم » ضد رغبة أحمد البدوي . فلو كانت هذه الأفعال مقبولة لديه لفعلناها نحن أنفسنا ولكنها ليست كذلك (١١) . من الواضح اذن ، أنه كانت هناك أكثر من طريقة واحدة للانتماء لاحدى الطرق أو الارتباط بفرقة أحد الأولياء .

وعلى العكس من زمن الشعراني ، فاننا نجد فى جميع السير التى كتبها الجبرتي عن العلماء والمتصوفة سجلا منتظما لانتماءاتهم لطرقهم تقريبا كجزء من أسمائهم ، مثل مسقط رؤوسهم ومدارسهم الفقهية (١٢) ، وقد يشير هذا التغيير بشكل جيد الى أنه مع مقدم القرن الثامن عشر كانت الطرق الصوفية قد تبلورت وصارت أكثر وضوحا من الناحية التنظيمية .

الطرق الصوفية الرئيسية

فى أوائل الحقبة العثمانية ، كانت الشاذلية هى أقدم الطرق الصوفية من الناحية الفكرية كما كانت أكثر هذه الطرق أرسنقراطية فى مصر . كان أبوها الروحى هو أبو مدين شعيب المتوفى سنة ٩٧١ ، غير أن المؤسس الفعلى لهذه الطريقة التى تحمل اسمه هو أبو الحسن الشاذلى (المتوفى فى سنة ١٢٥٨) ، وكان كلاهما متصوفة من شمال أفريقية . فغادر الشاذلى شمال أفريقية الى الاسكندرية ، التى صارت مركزا صوفيا مهما . واذ تغلبت الطريقة على معارضة العلماء ، صارت طريقة شعبية ، فأفرزت الكثير من الشعراء الموهوبين ، والكتاب الذين كانت تنتشر رسائلهم فى الكثير من دوائر المتصوفة الذين يجيدون القراءة ، وكانت القصائد والأوراد ترتل فى الاحتفالات الدينية (١٣) . ذلك أن الطريقة كانت تهدف الى تهذيب الحياة الداخلية ، فلم تفرض ملبسا معيناً وكانت عادة لا تنشئ صفة (*) ، (أى مكانا لاعتزال المتصوفة) (١٤) كما أنها لم تشجع الالتصاق بولى أو ضريح .

(*) صفة بضم الصاد وتشديد الفاء وفتحها .

الأحمدية باعتبارهم فاسدين ومنحلين بشكل ميؤوس منه • ويأبى بعض المشايخ المتصوفة قبول من يتقدمون اليهم ممن كانوا واقعين تحت تأثير الأحمدية • ولقد اعتبر كل من الشعرائى والجبرتى الأحمدية واحدة من الطرق المرذولة ، التى استنكر العلماء والمتصوفة السنة ما تذهب اليه من تطرف وتعد وافراط (١٧) • ولم يكن المنتمون للطريقة الأحمدية من بين النخبة ، غير أنها لم تكن خارجة على التعاليم الدينية الصحيحة خروجاً تاماً • وتاماً كما استطاع المتصوفة السنة فى القرن السادس عشر أن يرتبطوا بالأحمدية كذلك فإن الطرق ، فى الأزمنة اللاحقة كانت لها تعبيرات وتشعبات مختلفة •

وحين كان الجبرتى يصف موالدهم العنيفة ، استنكر الطرُق الشيطانية التى تطابق نفسها (عن زيف) مع الأولياء المدفونين فى الأضرحة الشهيرة ، مثل الأحمدية والقادرية والبرهانية وغيرها (١٨) • والجبرتى مثل الشعرائى الذى سبقه بثلاثة قرون ، لا يوجه هجوماً ضد الأحمدية (والطرق الأخرى) بما فى الهجوم من معنى ، وإنما يهاجم أكثر تعبيراتهم السوقية • ومما يؤيد رأينا دمغه للطريقة القادرية بأنها شيطانية ، وهى المعروفة لدى الجميع بأنها سنية • والأكثر من ذلك ، فإن الجبرتى كتب بنفسه ، سيرا المشايخ الأحمدية ، الذين كان ينظر اليهم نظرة استحسان : وفى تأيينه للشيوخ ربيع الشيال (المتوفى ١١٢١ هـ / ١٧١٠ م) ، يصف الشيخ بأنه رجل مبارك ، وواحد من المتصوفة الفضلاء الأحمدية فى دمياط • إذ كان زاهداً شديداً الورع حريصاً على أداء الصلوات ، ويراعى الأحكام الدينية ، والذكر • وكان يتكسب قوته ببساطة عن طريق العمل كحمال (١٩) •

ويبدو أنه من المؤكد أن الطريقة الأحمدية كان لها عدد أكبر من الأتباع والمراكز والأفرع من غيرها من الطرق • فبينما كانت الأحمدية أقل شأنًا من الناحية الثقافية ، من الشاذلية ، إلا أنها كانت أكثر شيوعاً بكثير ، وأكثر نفوذاً من الناحية الاجتماعية ، بما أن الارتباط الروحى بسيدهى أحمد البدوى كان بمثابة الصرعة (المودة) بين الطبقة الحاكمة فى السلطنة المملوكية • وحين خرج السلطان قنصوه الغورى للحرب فى

الشام ضد العثمانيين ، جنبا الى جنب مع الخليفة العباسى ، أخذ معه زعماء الأحمديّة والرفاعيّة كى يعطى حملته شرعية دينية (٢٠) . ولم يقل نفوذ الأحمديّة بعد الفتح العثمانى ، اذ لا تدع أوصاف افليا جلبى أى مجال للشك فى أن الأحمديّة فى القرن السابع عشر كان لهم أكبر عدد من الأتباع (٢١) . ويقول لين ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، عن الأحمديّة : « انها طريقة كبيرة العدد وشديدة الاحترام » (٢٢) . اذ ربما كانت الطريقة الأحمديّة أفضل تنظيما من معظم الطرق الأخرى . اذ كان بها شيخ مشايخ الأحمديّة رئيسا على سائر المشايخ .

وفى تابين الجبرتيّ للشيخ على بن محمد الشناوى ، المكنى بندق (المتوفى فى سنة ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م) ، يصف الشيخ بأنه « رئيس مشايخ الأحمديّة فى زمانه » (٢٣) . وكان ينحدر نسبه مباشرة من محمد الشناوى ، الذى سبق ذكره ، كأحد مشايخ الشعرائى ، والذى كان يعيش فى محلة روح ، شمال طنطا (٢٤) . ان هذه المعلومات تؤكد على ارتباط المتصوفة السنّة بالطريقة الأحمديّة كما أنه من الواضح أن هذه الصلات ظلت لقرون . اذ يكتب على مبارك أن الأحمديّة لها ١٦ فرعا وهو أكثر مما لدى أية طريقة أخرى .

وفى وقت متأخر ، يصل الى أوائل القرن العشرين ، كان لرئيس الأحمديّة سيطرة على جميع مشايخ الطرق الفرعية (٢٥) .

وثمة نوع آخر من الصوفية « غير المنتظمة » يعرف باسم المطوعة قد يكون طريقة فرعية للأحمديّة . ومن الواضح أنهم كانوا يعتبرون خارجين جدا عن السنّة ، ومتهمين بالجهل التام بالاسلام ، ومبغضين لصلحاء الشرع (الذين كان فى امكانهم أن يرشدوهم الى الطريق القويم) وكذلك باثارة الفتن والزنى . وهذا يتضح من اشارات الشعرائى العديدة لدرأويش المطوعة وكذلك من فتوى أصدرها الشيخ أبو الحسن العدوى الصعيديّ (المتوفى فى ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م) ضدّهم . ويبدو من المؤكّد ان المطوعة كانوا ، بصفة رئيسية ، فى مديرية الشرقية أو فيها فقط وكذلك فى الصعيد ، حيث كان الاسلام بشكله النقى فى أضعف حالاته هناك (٢٦) .

وكانت البرهامية (أو البرهانية) شأنها شأن الأحمدية ، طريقة
مصرية خالصة ، اذ نشأت فى مصر وكان مركزها فيها ، ولم يكن لها أتباع
كثيرون فى أى مكان آخر . وكانت البرهامية التى اشتقت اسمها من اسم
ابراهيم .الدسوقى (المتوفى سنة ١٢٨٨) مرتبطة بالفعل بالأحمدية التى
تتقدمها بقليل والأكثر شعبية . فدسوق ، مسقط رأس مؤسس الطريقة ،
تقع فى جوار طنطا ، وقد تكون البرهامية قد نشأت نتيجة المنافسة بين
البلدتين . وكان اللون الأخضر هو لون البرهامية ، وكان مولد الدسوقى
يعقد بعد مولد أحمد البدوى بأسبوع واحد (٢٧) .

وتعد الطريقة الرفاعية واحدة من أقدم الطرق فى الاسلام . وأخذت
اسمها من أحمد الرفاعى (المتوفى ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ أو ١١٧٧ م) ،
وكانت سافرة فى عدم اتباع التعاليم الاسلامية المعروفة ، وتعرف
بالتعذيب الذى يتعرض له أنصارها ، اذ اعتادوا على طعن وحرق أنفسهم
دون أن يتسببوا فى جرح أجسادهم ، كما كان يشتهر عنهم قدرتهم على
التعامل مع الثعابين ، وكان للرفاعية وجود جيد فى مصر .

وصارت السعدية وهى فرع من الرفاعية ، أسسها الشيخ الشامى
سعد الدين الجيباوى (المتوفى ١٣٣٥ م) ، صارت وثيقة الصلة بعادة
غريبة وهى عادة (الدوسة) باللهجة العامية الدوسى « أى الدهس »
وطبقا لهذه العادة كان الشيخ يمتطى صهوة جواده ويسير فوق دراويشه
المنبطحين أرضا فى وضع سجود أو خضوع دون أن يسبب لهم أى ضرر
حسب ما يزعمون . لقد صدر حظر رسمى لهذه العادة فى القرن التاسع
عشر ، غير أنها على ما يبدو ، بقيت حتى الأربعينيات من القرن
العشرين (٢٨) .

وتعد القادرية هى أول طريقة فى الاسلام وكانت تقليديا تعتبر
طريقة سنية . ولقد أنشأها عبد القادر الجيلانى وهو أحد الخطباء وعلماء
التوحيد الحنابلة (توفى ٥٦١ هـ / ١١٦٦ أو ١١٦٧ م) ، فى بغداد .

كتب لين Lane قائلا : « ان راياتهم وعباءاتهم بيضاء . ومعظم
القادرية فى مصر من صائدى الأسماك » ويحمل هؤلاء شبكا فوق أعمدة

خشبية فى المواكب المينية وهذه الشباك ذات ألوان مختلفة (كالأخضر والأصفر والأبيض والأحمر الى آخر ذلك.) (٢٩) • ويكتب الجبرتى أن شيخ الطريقة يتخذ تقليديا منصب الأمين فى مكتب. نقيب الأشراف (٣٠) •

والبكتاشية (تكتب أيضا البقشاشية) والمولوية وهما الطريقتان اللتان كانتا ذوى أهمية بارزة فى المقاطعات التركية فى الامبراطورية العثمانية - لم يكن لهما سوى عدد محدود من الأتباع فى مصر وظلت أنشطتهما مقصورة على السكان الأتراك ، اذ لم تكن لهما مراكز خارج القاهرة ، فالنكية البكتاشية (البقشاشية) الرئيسية كانت تكية قصر العينى بالقرب من النيل •

وكما هو الحال فى إسطنبول ، كان فرع الطريقة فى القاهرة مرتبطا بالانكشارية (٣١) •

وكانت المولوية هى طريقة « الدراويش الراقصون » كما عرفت فى أوروبا بسبب عاداتهم فى الدوران على القدم اليمنى أثناء أدائهم لدعائهم • ولقد كتب أفليا جلى (شلى) ، الذى زار الصفة (بضم الصاد وتشديد مع فتح الفاء) الماوية فى القاهرة ، أن هذا المكان كانت به قاعة خاصة بالموسيقا (سمع حانة أو ربما حانة) لأن المولوية كانوا مشهورين بتربيتهم الموسيقية وقاعة أخرى ، على ما يبدو لدراسة المثنوى ، وهى قصيدة صوفية ألفها بالفارسية جلال الدين الرومى ، مؤسس الطريقة (٣٢) •

وتعد البيومية ، وهى فرع آخر من الأحمدية ، مثالا طبق الأصل لطرق العامة من الناس • ولقد أنشأها على بن حجازى البيومى ، الذى صار مجذوبا • وجاء معظم من اعتقدوا به وهم كثيرون من الحسينية • أحد أحياء القاهرة المختنقة الفقيرة التى صارت حصن الطريقة • وكان يرتدى ، على مدار العام ، رداء أبيض وطاقيه بيضاء تعلموها عباءة حمراء ، باعتبار أن اللون الأحمر هو لون الأحمدية ، طريقته الأصلية • وكان يقيم حلقات الذكر المنتظمة فى مسجد الظاهر خارج الحسينية وكان يركب

بغلته ، كل ثلاثاء ، محاطا بأتباعه لأداء الذكر فى المسجد الحسينى ، وهو أحد أكثر أضرحة القاهرة توقيرا واحتراما .

ولقد اعترض العلماء على وجود جمهور من الحفاة القدرين فى المسجد ، ونجحوا تقريبا فى اقناع أحد الأمراء بمنع على البيومى وأتباعه من الدخول . غير أن الشيخ عبد الله الشبراوى ، الذى كان شيخ الأزهر ، آنذاك ، والذى كان يميل الى المجاذيب (المكشوف عنهم الغيب) تدخل لدى الباشا ، والأمراء نيابة عن البيومى قائلا انه عالم كبير ولا يجب التحرش به . ولكى يبرهن الشبراوى على ما يقول ، رتب فصلا للبيومى فى الأزهر ، حيث تآثر به العلماء شديد التأثر حتى انهم تركوه وشأنه .

كان على البيومى شيخا ذا مهابة ، بل انه جعل مجرمين يتوبون وصاروا مريديه . فاعتاد أن يقيدهم فى أعمدة جامع الظاهر ويقودهم فى الشوارع وحول رقابهم ياقات ، ويجعلهم يسرون بطريقة عسكرية حوله بينما يركب ركوبته خلال الشوارع ، بطريقة تتسم بالمظمة والأبهة ، ويحملون الأسلحة والعصى لحمايته . وكان مصطفى باشا ، حاكم مصر ، من بين المعجبين بالبيومى . وحين تحققت نبوءة الشيخ بأن الباشا سيصبح صدرا أعظم ، شيد مسجدا للشيخ فى الحسينية به مجمع من المرافق الدينية : كالسبيل ، وكتاب وقبة دفن فيها البيومى بعد وفاته فى عام ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م (٣٣) ، وثمة دليل على أن شيخ الطريقة البيومية أصبح شخصية ذات نفوذ فى حى الحسينية . فقد كتب الجبرتى أنه فى أوائل ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م ، دخل أحد الأمراء الظلمة المختصين ومساعدوه الحى وسرقوا منزل أحمد سالم الجزار ، الذى كان رئيس دراويش البيومية . ونتيجة لهذا الظلم ، أثار أهالى الحسينية الشغب ، مغلقين المسجد الأزهر والحوانيت المجاورة (٣٤) .

ان قائمة الطرق الخارجة عن الأصول الدينية الأكثر شيوعا فيما ذكر الجبرتى وغيره من المصادر تشمل السماوية والعفيفية والعيوسوية والعربية . وبالطبع ، تعد هذه القائمة بعيدة عن الكمال .

وقد تفيد التقلبات التي تعرضت لها الطريقة الخلوتية في مصر العثمانية كتحذير يواجه الطريقة المنهجية لدراسة الصوفية . فحين ظهرت الخلوتية لأول مرة في مصر قرب نهاية حكم المماليك ، كانت صوفية تركية غير سنية . وفي القرن الثامن عشر ، أصبحت نصيرا للسنة ، تتمتع بمكانة رفيعة لا تضارع بين علماء الأزهري (٣٥) . فمنذ نشأتها في مصر ، طورت الخلوتية منهجا وطريقا تطلبا تعليما صارما على يد معلم . وكان تقدم السالك على الدرب الصوفى يتطلب تعلم « الأسماء الحسنى » ، بطريقة تدريجية ، حيث كل اسم نال يرمز الى مرحلة روحية أرفع . وكان نظام المتحمس أو الناذر نفسه للطريقة يشمل الاعتزال في خلوة ومن هنا جاء اسم الطريقة . وكانت الكلاسيكيات الصوفية التي كتبها الكاتب المتصوف العظيم محيي الدين بن عربي في القرن الثالث عشر والشاعر عمر بن الفارض ، جزءا من الأدب السرى الذى تقتصر دراسته على أعضاء الطريقة . ولقد جاء أبرز الخلوتين في مصر في أواخر الحقبة الملوكية وأوائل الحقبة العثمانية من وسط يتحدث باللغة التركية وكانوا من مريدى عمر روشينى من تبريز (المتوفى ١٤٨٧) .

ومن بين أبرز الخلوتية ابراهيم جولشيني (المتوفى ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م) ، الذى هرب من تبريز بعد انتصار الصفويين . وكانت له شعبية جارفة بين الفرق العثمانية في مصر ، حتى انهم كانوا يتشاجرون معا على الماء الذى كان يغسل به يده . فاستدعى الى اسطنبول ، حيث كانت الدولة على وعى بشعبيته في القاهرة ، وعند عودته كان عليه أن يلزم العزلة التسامة .

وثمة اثنان من متصوفة الخلوتية ، أيضا من مريدى روشينى ، هما : محمد دمرداش المحمدي (المتوفى ٩٢٩ هـ / ١٥٢٢ أو ١٥٢٣ م) ، وشاهين الجركسى ، ضابط سابق فى جيش السلطان قايت باى ، وصار ناسكا وعاش عدة عقود على جبل المقطم شرق القاهرة (٣٦) .

واشتهر عن الخلوتية أنهم كانوا يمارسون السيمياء ، وغير ذلك من العلوم الروحية (كما كان يفعل أعضاء الطرق الأخرى) بل كانوا يشبهه

فى أنهم يزيفون العملات • وثمة خبر يقول بأنه حين توفى الدمرداش ، أشيع أن هناك كنزا فى تكيته • فحين ذهب القاضى للتحقق ، اكتشف معدات لمارسة الكيمياء • وبذلك يكون الخلوتية قد أساءوا استخدام مبدأ الاعتزال فى خلواتهم من أجل الصلاة ، والصوم والتأمل لغرض ممارسة الكيمياء (*) بل وتزييف النقود (٣٧) ، وصار هناك ارتباط بين الخلوتية والعادات التركية والفارسية • فمثلا ، أعد ابراهيم جولشيني قبرا بالقرب من خلوته - جريا على عادة المشايخ الفرس - لكل واحد من متصوفيه (٣٨) •

لقد كان عبد الوهاب الشعرانى ممثلا حقيقيا للصوفية المعتدلة السنية المصرية • اذ كان أكثر وداعة من أن يتشاجر علنا مع الخلوتية الذين اعتبر أنه ينقصهم الايمان الاسلامى الصحيح وممارسته ، فتجنب المواجهة الصريحة معهم ، غير أنه مع ذلك ، استنكر أساليب (اهل الخلوة) ، ولم يكن يقصد بذلك سوى الخلوتية ، لتراخيهم فى الوفاء بأحكام الدين وأعمالهم « للأسماء الحسنى » من أجل أغراض عملية • ذلك أنه كان يدرك الخطر النفسى الكامن فى الزام الصوفى بخلوة لفترات ممتدة من الوقت ، أحيانا تصل الى ٤٠ يوما ، وأثناء الاعتزال لمدة أربعين يوما « الأربعينية » (٣٩) لن يكون من المدهش ، أنه كانت تنمو نزاعات دينية حادة ومنافسات شخصية بين الصوفية الأكثر سنية والأكثر اعتدالا من ناحية والطريقة الصوفية التى تتسم بالنشوة حتى غياب الوعي عند الخلوتية مثل كريم الدين محمد بن أحمد الخلوتى • (المتوفى ٩٨٥ هـ / ١٥٧٨) ، وكان كريم الدين صاحب حانوت قبل أن يقدموه الى الشيخ دمرداش الذى درس معه المرید الثساب الروحانيات وشعر الصوفية وآدابهم • ورغم أنه أصبح مرید الدمرداش المفضل ، الا أن الشيخ لم يذكر كريم الدين كخليفة له (كرئيس للطريقة) • فحين أذل الشيخ الجديد كريم الدين ، ترك المركز الصوفى ، وبمرور الوقت وطف نفسه

(*) المقصود السيمياء بمفهومها القديم الذى يمتزج فيه العلم بالخرافة ، وليس الكيمياء المعروفة الآن كعلم من العلوم الحديثة •

رئيسا للخلوتية فى القاهرة • وحين بلغت الشعرانى أخبار شعبية كريم الدين ، ذهب ليرى كريم الدين فاذا به يكتشف أن الخلوتى جاهل بممارسات أولية مثل كيفية الوضوء وحين عرض الشعرانى أن يعلمه سخر الخلوتى منه : « يريد أن يجعل منى فقيها بينما أنا متصوف » • ومنذ ذلك الوقت فصاعدا تجنبه الشعرانى •

يقول عبد الرؤوف المناوى (المتوفى ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م) ، تابع الشعرانى وخليفته - كمؤرخ للصوفية المصرية - عن حياة كريم الدين العملية : « كانت العلاقات بينه وبين الشعرانى علاقات متنافسين متكافئين » وبعد وفاة الشعرانى عام (٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م) ، صار كريم الدين زعيم الصوفية فى القاهرة بلا منازع (٤٠) •

وثمة ملحوظة تعزى الى محمد التركى أحد مريدى كريم الدين ، تبصرنا باتجاه الخلوتية ازاء الشاذلية • فحين كان يشكو من أن متصوفة أيامه جهلاء وأن صوفيتهم تتكون من الزيف والخيالات ، لخص الاضمحلال كما رآه : « لقد أصبح سبيل الخلوتية هو سبيل الشاذلية » (٤١) •

وظلت الصوفية التركية تؤثر فى المجتمع المصرى بعد الفتح العثمانى ، كما يمكن أن نرى من سير المشايخ الأتراك فى مؤلفات المناوى (٤٢) • ومع أن المعلومات الخاصة بالخلوتية فى القرن السابع عشر - صحيحة ، فإن الطريقة استمرت فى نشاطها على الأسس التى أرسيت فى القرن السابق : إذ يكتب افليا جابى (شلبى) عن عدة تكايا خلوتية ، ويشير الى متصوفة الخلوتية وهم يسرون فى موكب احتفالى ، طقوسى ، تلاوهم علامات الشرف على النقيض من دراويش الطرق الأخرى غير المنضبطين (٤٣) • وبقيت الزاوية التى أنشأها الدمرداش بلا انقطاع - على الأقل - حتى القرن الثامن عشر تحت توجيه أسره المؤسس (٤٤) •

وثمة صفة (خانقاه أو زاوية) أخرى للمتصوفة الأتراك من الطريقة الخلوتية تم بناؤها عام (١١١٢ هـ / ١٧٠١ م) ، فى ميدان قرا ميدان •

وقد قام بنائها محمد باشا حاكم مصر (٤٥) * وحتى القرن الثامن عشر ، كانت الخلوتية مقصورة على الجالية التركية فى مصر ، غير أن هذا تغير نتيجة للنشاط الذى قام به أحد المشايخ المتصوفة الشوام ويسمى مصطفى بن كمال البكرى (١٠٩٩ هـ / ١٦٨٨ م - ١١٦٢ هـ / ١٧٤٩ م) (٤٦) وهو من دمشق ، كان كثير الأسفار ، وكانت زيارته الأولى لمصر عام ١١٣٣ هـ / ١٧٢٠ - ١٧٢١ م ، ولقد نشر الخلوتية طريقتهم على منهاج شيخ تركى يدعى على أفندى قرباش ، وكان منهاجه يسمى القربشلية * وألف مصطفى البكرى ما يقرب من ٢٠٠ رسالة وأكثر من ٦٠ حزبا ووردا (٤٧) * وكان خليفة مصطفى البكرى فى مصر هو محمد بن سالم الحفنى (أو الحفناوى) ، من علماء المذهب الشافعى البارزين ، الذى قدر له أن يرتفع شأنه حتى يصبح شيخا للأزهر من ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م الى ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م (٤٨) *

لقد بدأ الحفنى حياته اللامعة كصبي فقير من قرية صغيرة بمديرية الشرقية * وفى الرابعة عشرة من عمره ، حضر للدراسة فى القاهرة ، حيث قام بنسخ المخطوطات كى يكسب قوته * ثم أعطاه أحد الناس مبلغا كبيرا من المال وبعد أن أتته هذه الثروة ، أصبح شديد الثراء ، بحيث كان يطعم من ٤٠ الى ٥٠ شخصا يوميا على مائدته ، ويمد أتباعه بالعون * وكان أول مرشد متصوف للحفنى شيخ مغربى ، هو أحمد الشاذلى المغربى ، غير أن حياته الصوفية الحقيقية بدأت حين ارتبط بالبكرى ، اذ بلغ من شدة ارتباطه بالبكرى أنه ذهب الى القدس كى يزوره هناك ، وهذه مهمة غير عادية بالنسبة لطالب علم مصرى ، لأن المصريين كانوا يترددون فى السفر ، وعادة ما كانوا لا يفادرون بلادهم الا أثناء الحج * ولم يقبل الحفنى الصارم الراغبين للانضمام الى الطريقة بسهولة الا بعد تفحص ما بنفوسهم * غير أن البكرى طلب منه أن يقبل الجميع ، بفض النظر عما اذا كان ذلك المتقدم رجلا ، أو امرأة أو حتى مسيحيا * وفى حقيقة الأمر ، يقال ان الكثيرين من المسيحيين اعتنقوا الاسلام من خلال جهوده فى الهداية * وحسب ما قال الجبرتى ، نشر الحفنى الخلوتية بنجاح عظيم ، وكان له أتباع فى الكثير من القرى * وكان الحفنى على علاقات ممتازة مع

الحكام ، وكان راغب باشا يجعله اجلالا خاصا . ويعتقد الجبرتي أن نفوذ الحفنى على الأمراء كان من القوة والنفع ، حتى انه استطاع أن يمنع وقوع الصراع الاهلى عن طريق توبيخهم وارشادهم الى جادة الصواب . وبعد وفاته فى ٢٧ ربيع الأول عام ١١٨١ هـ / ١٧ من أغسطس ١٧٦٧م ، « انهار النظام القديم » حسب ما قال ثم استطرده : « وجاء على بك الى الساطة » (٤٩) .

وأهم خلفاء الحفنى هو أحمد بن محمد العدوى ، وهو مالكى من الصعيد ، يشتهر باسم الدردين . (توفى ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م) وكان الدردير تلميذا للحفنى فى الأزهر يتلقى علوم الحديث بالاضافة الى أنه كان مريده فى الصوفية . كذلك تولى سلسلة من المناصب الادارية والقضائية فى الأزهر (٥٠) .

ومن بين مريدى الحفنى الآخرين الشيخ محمود الكردى (المتوفى سنة ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م) . وتبين سيرته التفصيلية التى كتبها الجبرتي ، مريده المباشر ، دور الاحلام المركزى فى حياة المتصوف . ذلك أن المتصوفة كانوا يعتقدون أن احلامهم مرشد خاصة فى حالات الشك . ورغم أن الكردى صار تابع الحفنى ، الا أنه أبى أن يتخلى عن أوراد القشيري مرشده الصوفى السابق . ولم يستمر الحفنى فى اصراره ، فحين التقى الكردى بمصطفى البكرى ، جعله الأخير يختار ما بين أوراد القشيري والخلوتية . فرأى الكردى فيما يرى النائم النبى ﷺ ، والقشيري ومصطفى البكرى مع جده ، الخليفة أبى بكر . وأخبر الكردى فى حلمه أن يتبع البكرى وأن يرتل أوراده ، وأشهرها ورد السحر (بتشديد السين مع فتحها وفتح الحاء) ، الذى كان الخلوتية يرددونه قبل بزوغ الشمس (٥١) . وكان الكردى زاهدا كرس حياته للصوفية ، ولم يخطط حياته ليكون واحدا من علماء الشريعة . وعموما ، فان خليفته ، الشيخ عبد الله الشرقاوى ، كان شيخا للأزهر من ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م الى ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م (٥٢) . وكان أول تذوق له للصوفية تحت ارشاد الحفنى ، بمثابة الكارثة : اذ حين علمه الحفنى أسرار سر أول الأسماء الحسنى ، فقد الشرقاوى توازنه العقلى

(بشكل مؤقت) (*) ولمضطر للعلاج فى المصححة لآيام قلائل . وبعد خروجه من المصححة ، جدد فوراً دراسته للمصوفية ، تحت ارشاد محمود الكردى . وصار ناجحاً تمام النجاح ، حتى ان الأخير خلع عليه تاجاً ، وهى طاقة يعلوها تاج رفيع ترمز الى أنه نائب القطب الخلوٲى .

وكان الشرقاوى ، فى شبابه - شأنه شأن الحفنى - شديد الفقر ، الى أن منحه بعض التجار الشوام ، هبات جعلته رجلاً غنياً .

وكان للخلوتية نظام تفصيلى للتصوف ، يتطلب مستوى فكرياً ودينياً من أتباعه . فاصبحت الطريقة هى السائدة بين كبار العلماء . وصار التدريب الخلوٲى جزءاً لا يتجزأ من التكوين الروحى لدى نخبة الأزهريين .

ومن الأمور التى لها مغزاها أن الكثير من الشباب الذى أتوا لتلقى العلم فى القاهرة كانوا بالفعل قد دخلوا احدى الطرق الصوفية فى بلادهم ، ولكنهم صاروا خلوتية فى العاصمة . وفى الكثير من الحالات ، كان السماح للشخص بالانضمام للخلوتية وسيلة لدمج القادم الجديد فى مجتمع الأزهريين .

ولاحاجة بنا الى القول ، انه كى تتأهل الخلوتية بحيث تكون أبرز الطرق بالنسبة لعلماء الدين (على الأقل المنهاج الذى أنشأه مصطفى البكرى) ، كان عليها أن تتمتع بسمعة لا يرقى اليها أى شك من حيث اتباعها للسنة . وخير دليل ، فى الواقع ، فعلة الخلوتية لاكتساب هذه المكانة هو المدح الذى كاله لهم الجبرتى الذى اتخذ هو نفسه طريق الخلوتية . فالمؤرخ ، المتمسك بالسنة بصرامة ، والذى يزدري الأشكال الموجة السوقية للصوفية بما لا يدع مجالاً للشك ، يصور المتصوفة الخلوتية خير تصوير . كما أنه يشنى على الطريقة ثناء واضحاً ، فهو يقول : (الخلوتية) « طريقة تقوم على دعائم الشريعة الشريفة والدين الحنيف . فهى لا تفرض (على أتباعها) أى شىء لا يمكن احتماله . انها خير الطرق

(*) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

بما أن الذكر الخاص بها هو (لا اله الا الله) ، وهذا حسب الحديث الشريف خير ما يستطيع أن ينطق به انسان (٥٣) .

الشيخ البكرى

كانت البكرية عائلة صوفية مصرية عريقة من الأشراف ، تدعى نسبها الى « أبى بكر الصديق » ، أول الخلفاء الراشدين ، واتخذت موقعا رئيسا فى الصوفية فى مصر العثمانية (٥٤) . وطبقا لتراث العائلة ، فان البكرية يرجعون بتاريخهم فى مصر الى الفتح العربى فى القرن السابع للميلاد ، وأصبحوا ذوى مكانة فى القرن الخامس عشر ، حين حضر محمد جلال الدين البكرى من ديروط ، وهى قرية فى الصعيد (٥٥) ، حيث كانت العائلة تسكن لعدة أجيال ، واستقر فى القاهرة فى (٨٤٩ هـ / ١٤٣٧ - ١٤٣٨ م) كقاض وهفت كان يعرف ، أساسا كفقيه وليس كمتصوف .

وكان أول اتصال معروف للعائلة بالصوفية هو ارتباطها بالشيخ الشهير عبد القادر الدشتوتى (تكتب أيضا الدشطوطى) (المتوفى سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٧ م) ، والذي نصب محمد جلال الدين وصيا على وقفه . ويعتقد أن ثروة العائلة ومكانتها جاءت ببركة الدشتوتى ، وظل هذا المنصب فى بيت البكرية حتى القرن التاسع عشر ، كذلك فان الوصايات على أوقاف اضافية أسبغت ثروة ضخمة على البكرية (٥٦) .

وأثناء القرن السادس عشر ، وطد البكرية أنفسهم كطريقة صوفية تحت زعامة محمد شمس الدين أبيض الوجه (المتوفى ٩٩٤ هـ / ١٥٦٨ م) . لقد ألف أبيض الوجه وردا متميزا يسمى حزب الفتح أو حزب البكرى ، كما كان معروفا باعتباراه أحد الشافعية ومتصوفا شاذليا كبيرا .

ولقد اعتبر الشعراى الخجول البسيط نفسه أدنى اجتماعيا بكثير من محمد أبيض الوجه البكرى وعائلته (٥٧) ، كما أخرجت هذه العائلة واحدا من مؤرخى مصر العثمانية وهو محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، الذى تعد حولياته مصدرا لاغنى عنه لتاريخ النصف الأول

للقرون السابع عشر (٥٨) . فمع نهاية القرن السادس عشر ، حين أصبح من الممكن للأغنياء من العلماء والمتصوفة وغيرهم من المدنيين أن يحولوا ثرواتهم الى التزامات ، كان تاج العارفين البكرى ، (المتوفى ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤) ، عم المؤرخ ، يملك التزاما على ٥٠ قرية ، كانت تعطى حصادا سنويا مقداره ١٠٠٠٠ قنطار من السكر وكميات مشابهة من الارز ، وبذر السمسم ، والقمح (٥٩) .

وكان البكرية يملكون قصرا كبيرا فخما فى حى بركة الأزبكية الراقى فى القاهرة ، والذي صار ملتقى النخبة الاجتماعية والسياسية . كما كانت لديهم مكتبة كبيرة وصالون أدبى . وكذلك كان لديهم ممالك ، الأمر الذى كان غير عادى تماما بالنسبة للمدنيين (٦٠) .

كان رأس عائلة البكرى يحمل لقب شيخ سجادات البكرية (السجادة للصلاة وشيخ السجادة تشير الى رئيس احدى الطرق) (٦١) ولم تكن للشيخ البكرى أى سلطة رسمية على الطرق الصوفية ، ولكنه باعتباره مسئولاً عن الاحتفالات بمولد النبى ، وهى أكبر حدث صوفى فى القاهرة ، أصبح له بذلك وضع فريد . وليس من الواضح متى أعطى البكرية هذا المنصب المتميز ، ولكن ، فى نهاية القرن السابع عشر ، يصف افليا جلبي (شلبى) الاحتفالات تحت توجيه البكرية على أنها عادة مستقرة تماما .

كانت جميع الطرق الرئيسية تشارك فى هذا المولد ، الذى لا بد أنه قوى من مكانة البكرية . وكان البكرية يعقدون مولدا خاصا بهم ، طالما أنه قد أصبح للكثيرين منهم شهرة بأنهم أولياء وكانوا يقيمون وليمة بالقرب من ضريح الامام الشافعى حيث توجد مقابر البكرية (٦٢) .

لقد تمتع البكرية بالاعتراف الرسمى بامتيازهم الاجتماعى والدينى على هيئة عطايا من خزانة الدولة . اذ يقول ابن أبى السرور ان والده أبى السرور البكرى (المتوفى ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٨ م) ، كان أول من حصل

على لقب (مفتى السلطنة الشريفة) • وليس من الواضح ما الصلاحيات
أو السلطات التي أسندت إليه (٦٣) •

ومما يشهد على مكانة البكرية الرفيعة ، توجيه الخطاب اليهم بانتظام
في الفرمانات والمراسيم الصادرة باسم السلطان في اسطنبول (٦٤) •
وأخيرا وليس آخرا ، فانه منذ النصف الأخير من القرن الثامن عشر،
كانت العائلة تطالب بمنصب نقيب الأشراف كما سنوضح في مكان آخر
من هذا الكتاب (٦٥) •

ان نجاح عائلة البكرى يبين ارتفاع شأن وجهاء الصوفية المحليين
بحيث انهم وصلوا الى مواقع نفوذ لا سابق لها ، وكذلك الثروة التي
أحرزوها أثناء الحقبة العثمانية • ولقد تنافست البكرية مع جماعة عائلة
الوفائية فى الامور المتعلقة بزعامة نخبة المتصوفة • وهى الجماعة التى
سأتجه لدراستها الآن •

السادات الوفايية

لقد توازى تاريخ العائلة الوفايية فى كثير من النواحي مع تاريخ
البكرية ، ومع انه من المتفق عليه أن البكرية كانت تتمتع بمكانة اجتماعية
أرفع شأنًا (٦٦) ، الا أن نقاط التشابه بين البيتين تبعت على الكثير من
الدهشة : فكلاهما كانت له جذور عميقة فى مصر ، رغم أن البكرية كانوا
أعلى شأنًا من الوفايية لأنه يقال أنهم هاجروا من تونس فى القرن
الرابع عشر •

ويرجع اسم الوفايية الى محمد بن محمد الوفاء (المتوفى ١٣٥٨)
وترجع العائلة أصلها الى على بن أبى طالب ، رابع الخلفاء • وكان
كل منهما أسرة متصوفة سنية كبيرة الأهمية فى التراث الشاذلى وبها سمات
الطريقة ، مثل الموالد والأحزاب ، غير أنهما - البكرية والوفائية - لم
تقبلا المنضمين الجدد ، اذ لم يكن فى مقدور أى من هؤلاء الجدد أن يكون
بكريا أو وفائيا ، الا اذا كان قد ولد وفائيا أو بكريا • كذلك فان الوفايية
اكتسبت ثروتها بنفس طريقة البكرية ، أى بالوصاياات المربحة على

مؤسسات الأوقاف • وباستثمار رأس المال الذى اكتسب بهذه الطريقة للحصول على مناصب الملتزم • وكما أن البكرية كانوا مسئولين عن مولد النبى (ﷺ) ، كان الوفاثية مسئولين عن مولد الحسين • وكان شيخ الوفاثية ناظر المسجد الحسينى • وشأنهم شأن البكرية ، كان للوفاثية موالدهم • وبالمثل ، تمتعوا باعتراف رسمى من اسطنبول ، وكانوا يتلقون منحا ثابتة • وأخيرا ، فانهم تنافسوا مع البكرية على منصب نقابة الاشراف وقد شغل هذا المنصب أحد الوفاثية وهو أول مصرى رشح لهذا المنصب (٦٧) •

وكان للوفاثية احتفال مميز يسمى التكنية ، كان يسبغ فيه شيخ السجادة الوفاثية كنى (جمع كنية) مثل « أبو الأمداد » • أما اللقبان : أبو الاقيال ، وأبو الصفا فكان يهبهما شيخ السجادة الوفاثية لمنح البركة • وكان هذا الاحتفال (التكنية) يتم عادة فى السابع والعشرين من رمضان ، فى ليلة القدر • وكان الشيخ يفوض شخصا آخر لحضور الحفل ، فى الحالات الاستثنائية ، كما حدث فى حالة الشيخ عبد الرحمن العيدروسى ، الذى كان من المقرر أن يسبغ كنى فى اليمن (٦٨) •

ربما كان محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن هو أكثر مشايخ الوفاثية لفتا للانتباه ، ان لم يكن أحبهم • فالجبرتى يخصص له سيرة تفصيلية بشكل غير عادى ، تكشف عن الكثير من جوانب المجتمع الذى كان معاصرا له ، وتلقى الضوء على الكيفية التى استطاع بها رجل طموح حازم أن يستغل وضعه كشيخ متصوف له نفوذه ونقيب للأشراف (٦٩) • ولم تكن مطالبة أبى الأنوار بمنصب شيخ السادات الوفاثية مطالبة قوية ، ذلك أنه كان وفاثيا من ناحية أمه فحسب • فحين انقطع نسل الذكور فى العائلة ، فى ١١٧٦ هـ / ١٧٦٢ - ١٧٦٣ م أسرع بوضع التاج على رأسه ، وتزوج أم الشسيخ المتوفى وانتقل الى منزل قريب من قصر الخليفة الوفاثى • وانتظر ست سنوات أخرى حتى وفاة أحد المنافسين الذى كان قد عين فى المنصب ، ثم ركب فى عام ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ - ١٧٦٩ م مع الشيخ البكرى وغيره من المشايخ المتصوفة الى مركز الخلوتية (رباط فى الخرنفش) وبعد أن قام بأداء المراسم الدينية اللازمة ، خلع عليه ، على بك بولوت كابان Bulut Kapan ، حاكم مصر الفعلى ، رداء الشرف

وصار بذلك هو الخليفة الوفائي يحضون كبار المشايخ . وهكذا ، وضع أبو الأنوار يديه على ثروة العائلة الضخمة . يروي الجبرتي أن مسكنهم كان يشبه قصر أحد الأمراء : فقد كان منيفا ، به الكثير من الحدائق ، والخدم ، وكان من الاتساع بحيث يستوعب عددا كبيرا من الضيوف . ولم يهمل أبو الأنوار دوره باعتباره راعيا للعلوم والثقافة ، فاشترى العديد من الكتب لمكتبته وكان يستضيف العلماء والشعراء . ومدحه الشعراء وضيوفه ، بمن في ذلك العلماء وداهنوه على أمل أن ينالوا عطاياها، وأن يلتقوا بالأمراء وغيرهم من الأعيان الذين كانوا يختلفون الى بيته .

وكان أبو الأنوار يدير شئونه المالية بمهارة فائقة . ففي ١١٩٠ هـ / ١١٧٦ م حين وصل الى مصر حاكم جديد ، ومعه رسول كتاب - وهو أعلى مسئول عثمانى للشئون الخارجية - أقنع أبو الأنوار هاتين الشخصيتين العثمانيين الكبيرتين بأن يمنحوه ٥٠ كيسا ثم ٥٠ كيسا أخرى ، كي يصلح زاوية أجداده . وبفضل جهوده وجهود أحد الصلاء كان قد أرسله الى اسطنبول ليدافع عن قضيته أمام السلطات ، تم اعفاء القرى الواقعة تحت التزامه من الضرائب المعتادة (٧٠) . غير أنه كان أيضا عديم الرحمة ، إذ كان يضرب الكتبة والحاضرين عند الأضرحة الخاضعة لإشرافه ، ويأخذ الأموال عنوة كلما أمكنه ذلك . وفي إحدى المرات ، ضرب أمين سر قبظيا يعمل لدى أمير البلد وحين شكى القبظي لسيده ، أجاب السيد بالقول : « ماذا تريدني أن أفعل مع شيخ عظيم ضرب، مسيحيا ؟ » وكانت معاملة أبي الأنوار لمستأجريه شديدة القسوة ، بل كانت أسوأ من معاملة غيره من الملتزمين . إذ اعتاد أن يزيد من عبء الضرائب الواقع عليهم ، وإذا قصرُوا في الدفع ، كان يأمر بالقبض عليهم لشهور ويجلدهم بالكرباج . بل إن أبا الأنوار قام بعملية غش بحيث خلع الشيخ البكري من الوصاية على الضريح الحسيني . ذلك أن الرجلين كان عليهما أن يتبادلا وصايتي ضريح الحسين والامام الشافعي ، ولكن حسب ما جاء في كتاب الجبرتي، انتهى الأمر باحتفاظ أبي الأنوار بالمنصبين معا . وبالإضافة الى ذلك ، فقد استولى على وصايا تدر ريعا من أضرحة أكرم وأشهر ولين (الحسين والشافعي) .

لقد أمر مسئولى الأمن أن يجعلوا أصحاب الحوانيت يفتحون حوانيتهم ليلا وأن يشعلوا المصابيح أثناء مولد الحسين لمدة ١٥ ليلة ، بدلا من ليلة واحدة ، حسب ما كان متبعاً حتى ذلك الوقت . وكان ذلك بغرض أن يزيد من مكانته ودخله من مولد الحسين . يقول الجبرتي ، ان أبا الأنوار كرس كل حياته لجمع المال وشراء العبيد والجوارى ، والخصيان . وبينما صار أكثر غنى وأعظم سلطة ، لم يعد يتنازل بالاشتراك فى المراسم الدينية فى الأزهر ، أو حتى فى المركز الوفائي ، وانما كان يرتدى ملابس الأمراء ، بدلا من ملابس رجال الدين ، متخليا عن طاقة التاج من أجل ارتداء قاووق . وهو غطاء رأس يشير الى أصله الشريف .

غير أن هذا الشيخ عديم المبادئ ، لم تكن تنقصه الشجاعة . اذ انه أثناء حملة الجزايرلى حسن باشا التاديبية ضد الأميرين المملوكين ، مراد و ابراهيم ، أوصوا أبا الأنوار على زوجاتها وإبنائهما . وحين انتوى الباشا أن يبيعهم فى سوق النخاسة ، قام الشيخ بحمايتهم ، واضطر الباشا للتخلى عن فكرة البيع . وبالمثل ، وبالرغم من تهديدات الباشا ، رفض أبو الأنوار أن يسلم مبلغا من المال استأمنه ابراهيم عليه (من ناحية أخرى ، سلم الشيخ البكرى مبلغا من المال كان مراد قد أعطاه له ، وبعد أن انسحب حسن باشا من مصر ، وعاد الأميران الى القاهرة ، عاقب مراد البكرى وذلك ببيع أراضيه) . وبعد ذلك لم يخش أبو الأنوار من أن يتهم الأميرين باسائة التصرف ، قائلا : ان الفرنسيين فتحوا مصر بسبب تصرفات الممالك الجائرة . أما قصة علاقة أبى الأنوار مع الفرنسيين والصراع ضد عمر مكرم من أجل نقابة الأشراف ، فهما خارج الفترة التى يناقشها هذا الكتاب .

وتوفى فى مارس ١٨١٣ م وهو فى منصب نقيب الأشراف وشيخ السادات الوفائية .

الشيخ المتصوف

كان الشيخ المتصوف يتحكم تحكما تاما فى حياة مريديه . فحسب معتقد المتصوفة ، فان عضو الطريقة الصوفية (الفقير) يجب أن يسلم قياده بالكامل لمشيئة الشيخ ، باعتباره « جنة فى يد مفسل الجثث » .

ولم يكن الشيخ هو المرشد الروحي للسالك فحسب ، بل فى امكانه أن يعدد كل جوانب حياته الشخصية ، بما فى ذلك أكثرها حساسية . فالشيخ هو الحاكم فى طريقته أو صفتة (بضم الصاد وتشديد الفاء وفتحها) . ويصف الشعرانى كيف كان محمد الغرى فى زاويته فى محلة روح . اذ اعتاد الشيخ أن يجمع مرديه مرة أو مرتين فى الأسبوع . ويطلب منهم أن يعرضوا عليه خلافاتهم . وفى الطريقة الاحمدية ، كان الشيخ الذى يقوم بدور الحكم ، يجلس فى الخلف حتى لا يرى أحد وجهه . وفى أثناء ذلك ، كان النقيب يسجل الخصومات ، ثم يعلن الشيخ قراراته ، التى يقبلها كل الفقراء . وكان هذا النوع من القضاء غالبا ما يفضل على اللجوء للمحاكم الرسمية ، التى كان الكثيرون يريدون تجنبها اذ اعتبروها بحق ذراع الحاكم . وكان الشيخ كذلك يقوم بوظيفة قس الاعتراف ، اذ كان السالك يفصح عن جميع أفكاره ، الخير منها والشريير لشيخه .

وفى القرن السادس عشر ، تأسست جمعية صوفية تسمى الخواطرية . أسسها محمد بن عراق ، وهو متصوف من الشام . كان مريدا لعل بن ميمون ، وهو شيخ مغربى ذائع الصيت ، واشتقت اسمها من ممارسة أعضائها ، اذ يفصحون للشيخ عن جميع (خواطرم) .

لقد سبق أن ذكرنا أهمية الأحلام فى الثقافة الصوفية وغالبا ما كان الشيخ يقوم بتفسير أحلام مرديه (٧١) . وكانت غالبية مشايخ الصوفية ترون الى نشر طرقهم وأنه يجمعوا أكبر عدد ممكن من الأتباع . ومن المحتمل ، أن الغيرة والمنافسة كانت تنشب بينهم ، وكان المشايخ يتصرفون بأسلوب شديد القبح من أجل تدعيم شعبيتهم ولكى يمنعوا غيرهم من المشايخ من التعدى على نطاقهم . فمثلا كان الشيوخ المتزعمون ينتهزون وضعهم فى مناطق الالتزام لمنع الطرق المنافسة من الدخول (٧٢) . غير أنه لم يكن جميع المشايخ تواقين الى تكريس كل وقتهم لارشاد السالكين الى الطريق (تسليك المرید) ، ذلك أن البعض اعتبر ذلك تشتيتا لهم عن التركيز فى خبراتهم الدينية .

حين رأى عبد القادر الدشوطى - المتصوف كثير الترحال - على المرصفى أحد مشايخ الشعرائى ، منشغلا بتعليم الذكر ، قال له : « يا على ، تحرر من هذه الأغلال وأخرج وسر فى الأرض ، غير أن عليا أجابه : « ان الصواب بالنسبة لى هو أن أعمل ما أعمله . والصواب لك أن تفعل ما أنت فاعل » (٧٣) . ذلك أن بعض المشايخ المتصوفة كانوا يفضلون حياة السياحة . فيرتحلون لسنوات كثيرة الى أقطار بعيدة ، وفى حالات نادرة جدا كانوا يرتحلون خارج أرض الاسلام (٧٤) . كما أن بعضهم الآخر لم يغادروا القرى التى ولدوا فيها أو بلدتهم ، أو كانوا يعودون اليها بعد الدراسة فى القاهرة . وحتى المشايخ الذين كانوا على استعداد لتعليم السالكين كانت لهم آراء شديدة الاختلاف بخصوص كيفية القيام بهذا العمل . فبعضهم كانوا صارمين بل قساة فى الغالب على المتقدمين الجدد والسالكين ، وكان الآخرون يتسمون باللين ، معتبرين أن انتشار الطريقة وسيلة مثالية لمكافحة الجهل أو نفوذ الدراويش الخارجين على التعاليم ، وعلى الأخص فى الريف . ولا بد أننا نتذكر كيف أن الشيخ الحنفى ، تحت تأثير مصطفى البكرى ، خفف من مطالبه من المتقدمين الجدد ونشر الخنوتية عن طريق قبول جميع من تقدموا (٧٥) . ويقدم الشعرائى العديد من الأمثلة عن المشايخ الآخرين الذين تصرفوا على هذا النحو . وربما يعد محمد الشناوى ، شيخه المباشر ، خير ممثل للصوفية اللينة المتفائلة الشعبية بحق . ذلك أنه نشر الذكر فى مديرية الغربية ولم يتردد فى تفويض النساء بل حتى الأطفال فى ترتيب حلقات الذكر ، على النقيض من المشايخ الآخرين ، الذين كانوا يختبرون أولئك الراغبين فى الانضمام الى الطريقة .

وتمة صفة جوهرية لمشايخ الصوفية هى البركة ، وهو لفظ يصعب ترجمته ، غير أنه يعنى بصفة أساسية الشرف والكرم أو الهيبة . وكان الايمان بقوة البركة شائعا وليس مقصورا على الصوفية . اذ لم تكن البركة مرتبطة بالعلم أو الامتياز الخلقى أو التقوى ، ذلك أنه فى بعض الأحيان كان يعتقد بوجودها فى الجانين (٧٦) .

ويروى الشعرائى قصة شائقة عن مواجهة بين متصوف مصرى يسمى محمد المنير وشامى اسمه محمد بن عراق . اذ وبغ الثانى الأول على

احضار هدايا تبرع بها التجار المصريون والأمراء لساكنى مكة . اذ ادعى ابن عراق أن الهدايا حرام ، بسبب فساد المتبرعين . فقبل المنير التوبيخ ، ظاهريا ، ولكن بعد ذلك بوقت قصير مات الشامى حسب ما قيل ، مصعوقا ببركة المنير . ورغم أن الرجلين شخصيتان تاريخيتان ، إلا أن الأحداث التي رويت ليست كذلك بالقطع ، كما يتبين من تاريخى وفاتهما أن المنير قد توفى قبل ابن عراق بعامين (٧٧) . وتكمن دلالة هذه القصة فى المواجهة بين نوعين مختلفين من المتصوفة ، واحد يتمسك بالمبادئ الأخلاقية ، والآخر قد حلت به البركة . وترتبط هبة البركة الربانية ارتباطا وثيقا بالايان بالكرامات أو المعجزات التي تعزى للأولياء . اذ ساد اعتقاد بأن الظواهر المعجزة ليست ممكنة فحسب ، وانما هى موجودة دائما وأن الأولياء لديهم القوة على أحداثها . فكانت المعجزات أشياء مسلما بها ليس من جانب رجال كالشعرانى ، الذى كان مروجاً للمعجزات يؤمن بالخرافات ، وانما أيضا من جانب الجبرتي ، المؤرخ الأمين رائق الذهن (٧٨) . كذلك كان هناك اعتقاد بأن المتصوفة المشايخ لديهم هبة التنبؤ .

يكتب الجبرتي عن متصوف قد تنبأ بترقية أحد حكام مصر الى منصب الصدر الأعظم وعن شيخ آخر تنبأ بترقية أحد العلماء الى منصب شيخ الأزهر (٧٩) . اذ ان الكثيرين من المتصوفة قد شغلوا أنفسهم بالعرافة وغيرها من الممارسات الروحية (٨٠) . فلقد عزا التصور الشعبى لمشايخ المتصوفة قوى خارقة من كل نوع بما فى ذلك قدرتهم على فرض ارادتهم على البشر والطبيعة .

ولقد اختلف المشايخ المتصوفة من حيث الكيفية التي كانوا يتعيشون منها . اذ عاش معظمهم عن طريق علمهم الدينى كعلمين أو أوصياء على أوقاف أو حراس لأضرحة شريفة ، أو كانوا يتلقون تبرعات من حكام محليين أو أجانب أو من أغنياء القوم أو العمامة الذين كانوا يعتقدون بصلتهم بالله .

وثمة اضافة لأمثلة المتصوفة الأثرياء الذين نموا ثرواتهم عن طريق استثمار رهوس أموالهم رغبة فى أن يكونوا ملتزمين (٨١) كما سبق أن بينا .

وهناك حالة عبد الكريم الزيات (١١١٨ هـ / ١٧٦٨ م) ، وهو متصوف وعالم . وتبين هذه الحالة كيف كان من الممكن لوضع الشيخ أن يجلب له الثروة . لقد أرسل الحفنى ، المعلم الصوفى ، الزيات ، الى الصعيد لأن أحد زعماء قبيلة الهوارة كان يعتقد فى الحفنى فطلب منه أن يرسل أحد مريديه . فقبل الزيات ، بقدر كبير من التكريم ، وخصص له بيتا فسيحا ، وقطعة من الأرض ، وخداما وحاشية . فصار فى غاية الثراء عن طريق تجميع المزيد من الأراضى والعبيد والثروة الحيوانية . وأخذ يعلم ويصدر الفتاوى واكتسب بعض الناس للصوفية ، كما عقد حلقات للذكر الا أنه بسبب تغير الظروف فى الصعيد - ربما لأفول نجم رعاته من الهوارة - فقد ثروته ومكانته ، وعاد الى القاهرة ليفاجأ بأن الحفنى ، معلمه ، قد مات . وبعد ذلك ، عاد الى بهجورة ببلدته فى الصعيد ، غير أنه لم يسترد ثروته الغابرة (٨٢) .

ان هذه السيرة ، تلقى الضوء ، بطريقة تتسم بالحيوية ، على كيفية تداخل العلم الاسلامى بالصوفية . اذ ان الزيات كان قد أرسل الى الصعيد ، أساسا ، كمتصوف ، والجبرتمى واضح فى التحدث عن تركيز الزيات فى نشاطاته على الجانب الصوفى . غير أنه ، كان على ما يبدو ، معلما ومفتيا فى آن واحد . بسبب كونه السلطة الدينية الوحيدة فى ذلك الاقليم القصى الذى يسكنه البدو .

ولم يعتمد جميع المشايخ المتصوفة على علمهم الدينى لكسب قوتهم . ذلك أن الطريقة الشاذلية وغيرها من الطرق ، كانت تطلب أن يشتغل الصوفى بعمل نافع . فكان على الخواص ، مرشد الشعرائى الى الصوفية يصنع أشياء من خوص النخيل ، لذا سُمى بالخواص . وبعض المشايخ عاشوا حياة شديدة التواضع يتكسبون قوتهم من العمل اليدوى المتواضع ، مثل العناية بالزيت والمصابيح أو أحذية المتعبدين فى أحد المساجد . بل عمل أحد المتصوفة حمالا بسيطا . ويصف الكثير من كتاب السير الكثيرين من المتصوفة بأنهم زهاد حقيقيون يقيمون أودهم بأقل القليل ، ويرفضون الهبات (٨٣) .

تنظيم الطريقة

وكان نظام الطريقة يضع خطا حادا يفصل بين المتصوفة المتفرغين عن أولئك الذين كانوا يكسبون عيشهم خارج الطريقة ، مع أنهم قبلوا كأعضاء وكانوا يشاركون في طقوس الطريقة ومراسمها .

يكتب أ . و . لين قائلا : « ان جميع دراويش مصر تقريبا هم من التجار أو الصناع أو من العاملين بالزراعة وكانوا من آن لآخر فقط ، يشاركون في طقوس طرقهم المختلفة ومراسمها : ولكن هناك البعض من الذين لم تكن لديهم أى شواغل أخرى عن أداء الأذكار فى احتفالات الأولياء وفى المحافل الخاصة أو الانشاد فى مواكب الجنازات . وهؤلاء يطلق عليهم فقراء وهى تسمية تطلق على الفقراء بصفة عامة ، ولكنها تطلق بصفة خاصة على الأتباع الفقراء » (٨٤) . وعلى الشخص ، كى يكون سالكا ، أن يقبله أحد المشايخ شخصيا أو خليفته المفوض . وتختلف مراسم الحاق السالك من حيث تفاصيلها من احدى الطرق الى الأخرى غير أن هناك بعض العناصر المشتركة بين كل الطرق تقريبا . ان الخطوة الأولى ، عادة ، هى أخذ عهد الطريقة وهكذا يخضع (بضم الياء) المرء نفسه لقواعد الطريقة الخاصة . وقد تشمل المراسم ، أيضا ، البيعة وهى قسم الولاء للشيخ . وهناك مراسم أخرى ، مثل ارخاء حافة عباءة السالك عن طريق الشيخ وارخاء العذبة والباس السالك لباس الطريقة (الباس الحرقه) ويبدو أن هذه المراسم يحتفظ بها فقط للمتصوفة المحترفين الذين وهبوا أنفسهم لذلك .

وهناك جزء ضرورى للاحاق السالك هو تلقينه الذكر . وعندئذ ، يبدأ السالك رحلته . وتختلف مراحل أخذ الطريق من طريقة الى أخرى ، وأحيانا من شيخ لآخر فى الطريقة نفسها . وغالبا ما يعتمد تقدم السالك على شخصيته واخلاصه .

وتذكر المصادر أشخاصا آخرين ذوى نشاط تحت مرتبة الشيخ فى الطريقة : الخليفة والنقيب . وكان الأول شخصية مركزية فى الحياة الصوفية ، فلم يكن يسمح بعقد حلقات للذكر دون حضوره (٨٥) . وتقول

دراسة أجريت فى بداية القرن العشرين أن الخليفة يحتفظ بمعدات الطريقة ، مثل البيارق والرايات والآلات الموسيقية • ويحصل الخليفة على اجازة مكتوبة من الشيخ لتلقين الذكر للسالكين الجدد •

وكان النقيب هو الوصى على طقوس العبادة كما كان مسئولاً عن اعداد الجوانب الفنية للتجمعات الصوفية (٨٦) • وكان أعضاء الطرق الصوفية يشتركون فى الموالد وحلقات الذكر ، التى كانت تنعقد مرة فى الأسبوع على الأقل •

وكانوا يسرون تحت راياتهم فى مناسبات عامة معينة ، مثل خروج المحمل (أى المؤن التى ترسل الى مكة كل عام مع قافلة الحجاج) ووفاء النيل ، وفى ليلة الرؤية (٨٧) •

وكما هو الحال مع التنظيمات الأخرى فى الشرق الأوسط ، كانت العلاقات داخل الطريقة شخصية وعائلية ، أكثر من كونها رسمية • والكثير من مصطلحات العلاقة كان يستعار من الصلة العائلية • فكان الشيخ يسمى الأب أو الجد ، ورفاق المتصوف – مريدون آخرون لنفس الشيخ – يدعون اخوانه ، وحين كان السالك يكمل مسيرته الروحية فهو « يظم » • وبالمثل ، فان وضع الشيخ كان ينتقل من الأب الى الابن • ذلك أن الكثير من الطرق كونت أسرا من المشايخ ، ظلت تحمل اللقب لقرون • وكان هذا يصدق بصفة خاصة حين تكون الطريقة من النوع الوراثى ، وترتكز على زاوية أو تكية هامة ، أو على ضريح مؤسس الطريقة • وعموما ، فان الحلوتية ، التى لم تنل شعبية كطريقة روحية ، وانما كتنظيم لتعليم المبدأ الصوفى لم تطبق المبدأ الوراثى : فلم يكن خليفة الشيخ هو ابنه ، وانما أبرز مريديه • وأحيانا ما كانت تقع صراعات على خلافة الشيخ بين أبناء الشيخ ومريديه • وفى بعض المناسبات ، كان الشيخ نفسه يعين من يخلفه ، وكان من الممكن للخليفة المتوقع أن يحسن من فرصه وذلك بالاقتران بابنة شيخه (٨٨) •

أخيرا ، مسألة العضوية المتعددة في الطرق

بناء على الأدلة التي توفرها لنا العديد من سير المشايخ المتصوفة ، من الواضح أن المعيار هو الدخول في العديد من الطرق . ولقد سبق أن ذكرنا دخول الشعرائي في ٢٦ طريقة . والمليجي ، كاتب سيرة الشعرائي ، كان يعرف بالوفائي الأحمدي الشناوي الشعرائي (٨٩) .

لقد كتب الجبرتي سيرة أحد العلماء قام بدراسة الصوفية أيضا ، ومنحت له اجازات من عدة طرق صوفية . ومن ناحية أخرى ، كان من حقائق الحياة الصوفية أن العهد الذي يعطيه السالك لشيخه يربطهما معا ويصمد عبر المنافسات بين الطرق . ويكمن الحل لهذا التناقض الظاهر في التمييز بين العضوية الكاملة في احدى الطرق كمنظمة اجتماعية ، تستتبع الطاعة للشيخ ، والاشترار المنتظم في الطقوس والراسم ، وبين تعلم الذكر في حد ذاته أو من أجل الحصول على البركة (٩٠) . ومن الواضح أن الشعرائي لم يشترك بانتظام في طقوس جميع الطرق التي تعلم طريقته في الذكر . وقد يبدو أيضا أن مثل هذا الارتباط السطحي بأكثر من طريقة واحدة كان يسمح به في حالة المتصوفة الأكثر استقلالا وتعلما ونضجا ، ولكنه ليس مسموحا به في حالة العامة من الناس (٩١) .

الجوانب الاجتماعية لهذه الطرق

كان سبب وجود الجمعيات الصوفية دينيا (*) . ولا ينبغي التغاضي عن هذه الحقيقة الأساسية عند النظر في الجوانب الاجتماعية للصوفية .

ولا شك في أن الطرق حققت وظائف اجتماعية حيوية وقامت باشباع احتياجات اجتماعية ونفسية هامة ، رغم أن هذا نادرا ما كان جزءا من المبدأ الصوفي من الناحية الرسمية . بل على النقيض من ذلك ، كما قال

(*) الجانب الديني في الاسلام على الأقل لم يكن في حاجة لذلك ، والاتقرب للصحة انها ظهرت لتلبية حاجات اجتماعية ولتلمس نوع من الحماية في ظل مجتمع يصعب على غير العسكريين (المالك) الحياة فيه - (المراجع) .

الشعرانى ، ان ابا السعود الجارحى أحد زملائه قد قال : « جميع من أتوا الى انما فعلوا ذلك بسبب متاعبهم مع زوجاتهم ، أو جيرانهم أو ساداتهم • ولم يرغب واحد منهم أن يكون أقرب الى الله » • بعبارة أخرى ، فان الناس شعروا أن الصوفية فى امكانها أن تمنحهم السكينة والامل الذى فشل أن يسبغه الاسلام السننى الرسمى ، والذى أصبح دين الفقهاء (*) (٩٢) : وبما أن الصوفية الاسلامية لم تتطلب بل ولم توص بحياة العزوبية ، فان هذا أدى الى تزايد الطرق من حيث الحجم ليس فقط عن طريق انضمام أعضاء جدد ، وانما أيضا من خلال النمو الطبيعى •

وبينما لم يعد المتصوفة حركة للنخبة ، فان الكثير من الناس ولدوا داخل احدى الطرق تماما كما يولدون داخل طبقة اجتماعية ، أو قرية ، أو حرفة •

فى تلك الأوقات ، كان الحراك الاجتماعى فى أدنى الحدود ولم يكن لدى معظم الناس سوى قدر ضئيل من اختيار التنظيم الاجتماعى أو الوسط الذى ينتمون اليه • وكما سبق أن اشرنا ، فان بعض المتصوفة كانوا أثرياء وآخرين فقراء ، وبعضهم جشعين والآخريين زهاداً ، وهناك أمثلة توضح هذا التنوع فى هذا الصدد • ومع ذلك ، كان لمعظم الطرق طابع اجتماعى اقتصادى محدد بوضوح ، وكثيرا ما كان يوجد تعادل وثيق ايجابى بين هذا الطابع والنوعية الدينية لهذه الطريقة •

فالطرق الشعبية أو السوقية ، التى ينتمى أعضاؤها الى الطبقات الدنيا ، اشتهرت أيضا بكونها خارجة على الأحكام الدينية ، ومترامية فى مراعاة أحكام الاسلام ، أما طرق النخبة الاجتماعية فكان يلحظ اتباعها للسنة • فبينما كانت خلوتية مصطفى البكرى طريقة سنية أساسها الأزهر ، كانت الطريقة البيومية ، على سبيل المثال ، وهى الطريقة السائدة فى

(*) كان الاسلام السننى فى عهد الرسول ﷺ والراشدين كالميل لاتباع الحياة الروحية والاجتماعية للمسلمين ، لكنه نتيجة للتراث الملكى غدا شكلا أكثر منه مضمونا ، فالعيب اذن فى التركيبة الملكوية وليس فى الاسلام - (المراجع) •

الحسينية أحد أحياء القاهرة الفقيرة ، ويرأسها جزار ، كانت فاضحة فى خروجها على السنة • وتوجد أيضا فى المصادر الكثير من الاشارات للطابع الخارج على السنة فى الطرق الريفية • فكثيرا ما يشير افليا جلبي (شلبى) بعناية الى الوضع الاجتماعى للمشاركين فى الموالد المختلفة ، أو زوار الأضرحة الشريفة • وهو يقول ، مثلا ، ان من يأتون الى مولد ابراهيم جولشيني هم من الأتراك ، والجنود وأناس مثقفون ومتعلمون مثل الشعراء والكتاب ، أى جمهور نظيف متمدين • ويضيف أن المولد يعد مناسبة لتجمع الخواص ومن الملاحظ ، أن العوام والفلاحين لا يحضرون لسوء الحظ • وعلى النقيض من ذلك ، فان مولد عمر بن الفارض يجتذب جمهورا من الفقراء ومن جميع أنواع الناس المتسمين بغرابة الطباع ، ولا يحضره أناس من مستوى اجتماعى أعلى (٩٣) • ويقدم الجبرتى ، نظرا لما يتحلى به من حدة الملاحظة للحقائق الاجتماعية ، أفضل الأوصاف : ذلك أن لومه على الطرق « غير المنضبطة ، فى سلوكها أثناء موالدها ، يعكس بلا شك ، ازدراء العالم الأزهرى • ذلك أن الطرق التى اشترك أعضاؤها فى مولد غفل غامض الأصل ، هم « أهل البدعة التى استحققت اللوم » • إذ كان الجبرتى مشمئزا من الصباح والمزاح فى المسجد ، ومغازلة الشبان الذين يتسمون بالأناقة ، وقزقة المكسرات وجعل المسجد قذرا بسبب ما يلقونه من قشر • وكانت الطرق المشاركة هى العفيفية والسمانية والعربية ، والعيسوية • فأحدثوا جلبة كبيرة بطبولهم ، وغنائهم المرتفع ورقصهم • ثم ازداد الموقف سوءا بالموالك الصوفية (جماعات الأشاير) من أحياء المدينة الدانية والقاصية ، وهم يحملون الشموع ، والطبول وآلات النفخ الموسيقية ، وينطقون ما يظنون أنه ذكر بلغه شوهاء ، ويتمون أى شخص يستنكر ما يفعلون بالكفر ، والإلحاد • ومعظمهم من الدهماء الذين يعملون فى أحقر المهن ، أناس لا يملكون قوت الغد ، إذ اعتاد بعضهم أن يبيع ما يملك ، ويقترض النقود لشراء الشموع ، وليدفع للطبالين وعازفى آلات النفخ • فهم جميعا من السابلة (٩٤) •

وفى موضع آخر ، يتحدث الجبرتى بطريقة مشابهة ، عن الطرق الشيطانية ، التى تعرف بالأشاير (موالك المتصوفة) ، وهم دهماء وأعضاء

الحرف الحقيرة ، والذين يربطون أنفسهم بالأولياء المشهورين ، مثل الأحمديّة والرفاعيّة والقادرية والبرهانية وغيرها (٩٥) .

وأحيانا كان المشايخ المتصوفة يتحدثون جهرا من أجل المظلومين والفلاحين المستغلين (بفتح الغين) بل ويتصرفون نيابة عنهم ، مدفوعين بالاعتبارات الأخلاقية . إذ لم يخف الشعراى أبدا أصله الريفى وهو المهاجر الى العاصمة من قرية صغيرة ، رغم أنه حمد الله على نقله من القرية ، التى كانت مكانا فظا جاهلا ، الى المدينة ، التى كانت مكانا للتهذيب والرقي والمعرفة (٩٦) . ومع ذلك ، حاول الشعراى وزملاؤه من المتصوفة أن يعلموا الفلاحين الدين الصحيح ويخففوا من حياتهم الصعبة . ويعد هذا الاتجاه متناقضا تناقضا حادا مع الازدراء الذى نظر به الشريينى للفلاحين ، وهو من أصل فلاحى : ذلك أنه سخر منهم بهجاء قاس وقال انهم يستحقون تماما ما يقاسون منه من ظلم وشقاء (٩٧) . وتدخل محمد الشناوى - الذى كان نشطا فى الريف ، كما سبق ذكره - بنجاح فى رفع ظلم قاسى منه الفلاحون على يد ملتزم جائر (٩٨) .

ويروى الجبرتى عن حالة من القلاقل الريفية فى جمادى الآخرة ١٢٢٢ هـ / أغسطس ١٨٠٧ م ، بدأها أتباع شيخ متصوف مجذوب يدعى سليمان من منطقة بنها العسل . لقد كان واحدا من النوع المؤلف من الأولياء ذوى الشعبية : وكان حديثه مقصورا على الذكر والأقوال الغريبة ، التى كان أتباعه يفسرونها على أنها كشوف ربانية .

وكانت الدائرة الخاصة من معجبيه تتألف من ١٦٠ من الشباب غير الملتحين ، معظمهم من بين أبناء مشايخ البلد ، وكانوا يعيشون فى مخيم من الأكواخ والخيام مقامة فى حقل مفتوح حول كوخ الشيخ . وكانوا يرتدون عقودا من اللؤلؤ الملون والأقراط ويحملون سياطا سميكة مصنوعة من ليف النخيل . وبدأت هذه الطريقة النامية بطلب تبرعات من القرى الأخرى ، وصارت أكثر ميلا للعدوانية وأصبحت النواة الصلبة لحركة احتجاج اجتماعية : إذ بدأ أتباع سليمان يحرضون الفلاحين ضد الحكام مستخدمين الشعار القائل : (لا ظلم اليوم ! لا تعطوا الظالمين أيا من

الضرائب الجائرة التي يطلبونها منكم . واقتلوا من يأتي ! » وانجرف الفلاحون . وانتهت الحركة حين ارتكب سليمان الخطأ القاتل بالذهاب الى القاهرة مع أتباعه لتحدى السلطات . لقد أغراه أحد العلماء من القرية نفسها بفعل ذلك ، وكان يحس أن الملتزمين سيثبون اليه ، بالاستيلاء على قطعة من الأرض تخص عائلته . ورفع العالم قضيته أمام كبار العلماء وأمام عمر مكرم ، نقيب الأشراف في العاصمة ، ولكن بلا جدوى . ثم قام هذا العالم باقناع سليمان بالنسير الى القاهرة مع جميع أتباعه ، واعداد اياه بالفوز العظيم . ومما لا يدعو للدهشة ، أن السلطات لم تكن متحمسة لاستقبال الفلاحين مثيري الضجة بسياطهم . وأقام دراويش سليمان حلقة ذكر عند المقام الحسيني ثم زاروا ضريح الشافعي وضريح الليث ابن سعد .

لم يحس عمر مكرم بأن سليمان رجل له كرامة ، أو قداسة ، بل اعتبره مشعوذاً . وتفرق أتباع الشيخ ، حتى لم يتبق معه سوى أربعة من الأوفياء . فوضعو على ظهر قارب في القاهرة ، ثم أغرقوا في النيل (٩٩) .

لقد كان الاضطراب الريفى الذى سببه دراويش سليمان المجدوب شيئا غير عادى فى مصر ، لكنه كان أكثر تكرارا بكثير فى الأناضول ، على سبيل المثال ، حيث كثيرا ما تمرد الفلاحون بزعامة المشايخ المتصوفة ، لأسباب اجتماعية واقتصادية (١٠٠) . ورغم أن هذا التمرد غير معتاد ، إلا أن هذه الواقعة تلقى الضوء على بعد اجتماعى للصوفية المصرية .

وثمة بعد آخر كهذا هو الطبيعة الخيرية الموجودة لدى الكثير من المؤسسات والأنشطة الصوفية المصرية . إذ كان الكثيرون من المتصوفة يطعمون مريدتهم والمتعاطفين معهم وغيرهم من الفقراء . فالشعرانى على سبيل المثال ، كانت له زاوية واسعة ، كان يؤوى فيها ٢٠٠ طالب ، ٢٩ منهم كانوا من العميان . ولم يكن هناك الكثير من الطعام كى يكفى أولئك الذين كانوا يعيشون فى هذه الزاوية ، وإنما كان هناك ما يكفى للاتباع غير المقيمين كى يحملوه الى بيوتهم (١٠١) . وكانت الموالد من المؤسسات

المرتبطة بالصوفية والتي كانت تقوم بدور أماكن فعل الخير ، حيث كان الطعام المجانى كثيرا ما يتم توزيعه على المحتاجين ، وكان هذا ممكنا بفضل الأوقاف الخاصة • وبالمثل ، كانت الكثير من الصفات (أماكن سكنى المتصوفة) بها مطابخ للفقراء أو عابرى السبيل • ويشهد افليا جلبي (شلبى) على هذا ، اذ يلاحظ بعناية تلك الأماكن الصوفية التي كانت بها مرافق وأموال لتقديم الطعام والمرطبات للجمهور ، مع كميات اضافية خاصة فى العطلات (١٠٢) •

وأخيرا ، هناك علاقة الطرق بالحرف التي انتشرت شبكتها فى كل أنحاء المدن وكانت تشمل جميع السكان تقريبا ، مما يستوجب بعض الاهتمام •

يجادل جابريل بير - وهو مؤلف أشمل دراسة عن الحرف فى مصر - بطريقة مقنعة ، بأنه بالرغم من الكثير من أوجه التشابه فى التنظيم والتسمية بين مجموعتي الروابط ، الا أنه لم تكن هناك صلة مباشرة بينهما • ويشير بير عن حق ، أن المثل الذى كثيرا ما يضرب ، والمأخوذ عن لين ، عن صيادى القادرية يؤيد حجته ، بما أنها حالة الاتصال الوحيدة بين احدى الطرق الصوفية واحدى الحرف ، والسبب الذى جعل لين يذكره مرتين - ولكنه لم يسق أى مثال آخر كهذا - قد يشير الى أنها كانت حالة استثنائية ، وليست هى القاعدة • ويستنتج بير : أنه من المحتمل أن معظم أعضاء الطرق كانوا هم أبناء الحرف •

ومهما يكن من أمر ، فما دام قطاع الحرف كان يضم جميع سكان المدن ، (فيما عدا الدرجات البيروقراطية العليا والعلماء) ، مما يجعله يضم أناسا يتفاوتون تفاوتا كبيرا من حيث الثروة والمكانة الاجتماعية ، فليست جميع الحرف وربما ليس جميع أعضاء حرف بعينها كانوا أعضاء فى الطرق • كما يذكرنا بير بأن طبيعة النوعين والغرض منهما كانا مختلفين • فوظائف الحرف كانت ، بصفة رئيسية ، ادارية ومالية واقتصادية ، أما الطرق فقد أنجزت مهمة روحية واجتماعية (١٠٣) • ولا يمكن انكار المنطق الذى تقوم عليه حجة بير ، غير أن هناك حاجة الى

المزيد من البحث فى هذا الموضوع . فمثلا هناك معلومات ذكرت ، بشكل عابر ، فى احدى الحوليات التاريخية . هذه المعلومات تلفت انتباهنا الى أن مشايخ الحرف ومشايخ الطرق الصوفية كان ينظر اليهم على أنهم ينتمون الى نفس الفئة الاجتماعية ، ايا كانت الصلات الدقيقة بين الرابطتين .

تروى لنا كتب التاريخ الحولى أنه فى عام ١١٠٧م/١٦٩٥ - ١٦٩٦م، أقام الباشا وليمة ضخمة بمناسبة ختان ابنه . فعقد سلسلة من حفلات الاستقبال استمرت أربعة عشر يوما ، فى كل يوم كانت تدعى الى القلعة جماعة اجتماعية مختلفة . وكانت هناك مراعاة لمراسم دقيقة جدا وتقسيم طبقي صارم ، بحيث يدعى من هم ذوو مكانة اجتماعية أعلى قبل أصحاب المكانة الاجتماعية الأدنى . وهكذا ، وفى اليوم الأول ، دعى القضاة وعلى رأسهم قاضى العسكر . واحتفظ باليوم الثانى للعلماء والطلاب . واليوم الثالث ، للأشراف وعلى رأسهم نقيب الأشراف . وفى اليوم الرابع ، دعى رؤساء الطرق الصوفية والحرف (أرباب السجاجيد والحرف) معا . وابتداء من اليوم الخامس حتى التاسع حفظت الدعوة للجماعات العسكرية ، ومرة أخرى ، حسب رتب وأهمية الوحدات ، ومن العاشر حتى الثالث عشر ، للجماعات المختلفة من التجار ، أما اليوم الرابع عشر فكان للطلبة العميان بالأزهر والشحاذين (١٠٤) .

الاقسام العرقية فى مجتمع التصوف

لقد انعكس التنوع العرقى لمصر العثمانية فى المجتمع الصوفى . فمع أن الغالبية الساحقة من الأهالى كانت (ومازالت) من أبناء البلاد المتكلمين باللغة العربية ، الا أنه كانت هناك جاليات لا يستهان بها من الأتراك والمغاربة ، وأخرى أصغر بكثير من الهنود واليمنيين ، ومسلمين من وسط آسيا ، وغيرهم (١٠٥) . وفى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، نقرأ عن وجود دراويش فرس وأتراك فى القاهرة (١٠٦) . ولم تكن الطرق الصوفية فى مصر ممتزجة عرقيا ، كقاعدة عامة . اذ تشير الأدلة الى طرق منفصلة من الأتراك والعرب ، ولقد سبقت الاشارة الى الطابع

وكانت هناك جماعات من أمثال البقشاشية والمولوية التي كانت امتدادا للطرق الأم في المقاطعات التركية ، وكذلك طرق لم تكن تركية على وجه التخصيص (١٠٩) .

يقول على مبارك ، وهو يكتب في نهاية القرن التاسع عشر ، ان جميع الصفات (جمع صفة بضم الصاد مع تشديد الفاء وفتحها) أو المراكز الثمانية عشرة الموجودة بالقاهرة ، كانت مأهولة بالدراويش العجم (غير العرب) . كما يتحدث مبارك عن وجود مركزين قادرين في الاسكندرية ، واحد للأتراك ، والآخر للعرب . وان حدث احتكاك بين المتصوفة الأتراك والمتصوفة العرب ، في مصر العثمانية ، فان المصادر لم تذكره (١١٠) . ومن المهم أن معظم الأحداث الجادة بين المسلمين المتحدثين بالتركية وأولئك المتحدثين بالعربية في مصر العثمانية كانت تبدأ كهجوم على الصوفية . لقد بدأت فتنة بخلاف بين الواعظ الرومي ، حسب المصادر العربية ، (والمقصود التركية) وطالب يدرس العلوم الدينية ، كما ورد في الحولية التركية . ولقد أطلق عليها بحق فتنة ما قبل الوهابية باعتبارها كانت تنطوى على هجوم تنقوى وأصولى على الصوفية والمعتقدات الدينية الشعبية (١١١) .

ففي رمضان ١١٢٣هـ / أكتوبر ١٧١١م ، بدأ طالب الدين في الوعظ في مسجد المؤيد ، الذي كان لفترة طويلة مركزا تركيا . وذكر الخطيب قائمة من البدع وحروض المستمعين - وجميعهم من الأتراك - بأن يرفضوها ويزيلوها . كان هذا الخطيب متأثرا بكتابات الكاتب التركي الأصولى بيرجيلي محمد (المتوفى ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م) . وكانت النقاط التي أثارها كما يلي :

- ١ - على النقيض مما يظن الصوفية ، فان معجزات الأولياء تبطل بعد وفاتهم .
- ٢ - ان قول الشعرائي بأن الأولياء يمكنهم أن يروا اللوح المحفوظ قول زائف . إذ ان النبي ﷺ نفسه لم يره ، لذا فمن المستحيل أن يراه الأولياء .

٣ - تمد عادة حرق الشموع وزيت المصابيح عند مقابن الأولياء
وتقبيل الأعتاب علامة من علامات عدم الايمان .

٤ - على المسلمين أن يحطموا القبة المبنية فوق الأضرحة والصفة
كقبتى مركز الجولشيينى ومركز المولوية .

٥ - يجب تحويل مراكز الدراويش ، مثل الجولشيينى والمولوى
والبقشاشى الى مدارس ، ويجب طرد المتصوفة .

٦ - تحظر زيارة ضريح الامام الشافعى وغيره فى ليالى الجمعة لأداء
الذكر أو الصلاة .

٧ - ان العادة التى يتبعها الدراويش من حيث اقامة حلقات الذكر
بالقرب من باب زويلة فى ليالى رمضان ان هى الا اثم يجب ايقافه . (كان
هناك اعتقاد أن باب زويلة هو مقر القطب الخفى سيد الأولياء ، لذلك
فان العامة بصفة خاصة يجولون هذا المكان) (١١٢) .

فلما أثارت خطب الخطيب الجماهير ، قامت بمهاجمة الدراويش
الذين كانوا يؤدون أذكارهم عند باب زويلة بالعصى والسيوف .
فذهب بعض الناس الى زعماء مدارس الشيعة المصرية الثلاثة، وحصلوا على
فتوى تؤكد أن معجزات الأولياء حقيقة ، أثناء حياتهم ، وبعد مماتهم .
وأن أى شخص ينكر هذا يعد من المعتزلة ، (وهذا الوصف يعنى هذا
ملحداً أو عقلايياً) ، كما حذرت الفتوى من انكار أن الرسول أمكنه
أن يرى اللوح المحفوظ يعد كفراً عقوبته الموت .

وأخيراً ، قضت الفتوى بأن تحويل مراكز الصوفية الى مدارس غير
مسموح به ، بما أن هذا معناه تغيير شروط الوقف ، التى لا تتغير شأنها
شأن القوانين الالهية .

وحين عرضت الفتوى على الخطيب ، رفضها ، وطالب باقامة مناظرة
معهم أو ندوة فى حضور قاضى العسكر (وكان بالطبع تركيا) .

ثم قاد الخطيب جمهرة من ألف من « الأتراك الاميين » ، حسب
تعبير الحوليات العربية ، واتجهوا الى بيت القاضى . فلما خشى قاضى
العسكر من رؤية هذه الجمهرة التى تصعب السيطرة عليها ، أخبرهم بما

كانوا يحبون سماعه ، أى أن الفتوى غير صالحة ، ولكنه هرب الى حريمه دون أن يكتب هذا الحكم . فأجبر الجمهور نائبه على أن يقوم بذلك .

وفى اليوم التالى ، لم ير أحد الخطيب ، فشك أتباعه بوجود لعبة قدرة . فأجبروا القاضى على أن يركب الى القلعة ، حيث شرح للباشا محنته .

وظل الأتراك يطالبون بجدال أو مناظرة بين الخطيب والمفتين العرب الثلاثة الأزهريين ، صائحين بالتهديدات ضدهم . وأخيرا أرسل الباشا فى طلب اثنين من أمراء المالك وطلب منهما قمع هذا الشعب .

وأرسل الخطيب التركى للمنفى ، وكذلك تم نفي كثير من معجبيه ، وهم من طلاب الدين ، ثم أبعادهم عن الحجرات الصغيرة فى مسجد المؤيد ، حيث كانوا يسكنون . فصعد الجنود الى الحجرات ، وضرب بعض أتباع الخطيب ، كما تم نفي آخرين .

كان هذا الشعب مواجهة عنيفة بين الحنابلة الجدد ، أو ما قبل الوهابيين ، والتصوفة والمؤمنين بالصوفية . ولكنها كانت أيضا صراعا بين أصول عرقية واضحة التحديد - الأتراك ضد العرب . ذلك أن عدم احترام الخطيب التركى للعلماء « أولاد العرب » وعدم استساغة كتاب الحوليات المعاصرين « للأتراك الجهلاء الأجلاف » أمور تتحدث عن نفسها . ويجب أن نلاحظ أن علماء الأزهر ، وهم أكثر مفسرى الاسلام السننى تمكنا ، وقفوا الى جانب التصوفة ضد الخطيب الأصولى ، اذ وجدوا أنفسهم فى محنة ، بما أنهم ، هم أيضا ، لم يكونوا متحمسين لممارسات المعتقدات الدينية الشعبية وما بها من افراط ، ولو لم يتعرض الخطيب للتطرف والعنف ، مهددا بذلك النظام العام ، كما فعل ، فربما كان استرضاءهم أكثر سهولة . غير أن العلماء لم يكن أمامهم مجال كبير للاختيار حين وقعت مواجهة لا شك فيها بين طلاب الدين الأتراك والجنود من ناحية ، والأهالى من ناحية أخرى .

ومن المفيد أن نعرف كيف رأى حسن الحجازى الشاعر الشهير ،
الحادثة • ففى قصيدة قصيرة ، يعيد رواية أحداث الشغب الرئيسية ،
متهما الخطيب التركى بالجهل ، ومعبرا عن رضاه المطلق عن الطريقة
الحازمة التى قمعت بها السلطات الحركة • اذ يشير فى أحد أبيات
قصيدته : « الى أن الخطيب قد تعدى الحدود السليمة ، وبالغ ، وحرص
الجيش » (١١٣) •

ويجدر بنا أن نذكر جانبا آخر من دعاية الخطيب ضد المتصوفة •
اذ وجه هجماته ، بصفة خاصة ، ضد المؤسسات التركية ، مثل مركزى
الجولشيني والمولوية ، مما يجعل من الواضح تماما ، أن حملته لم تكن
موجهة ضد الصوفية العربية أو المصرية ، فحسب ، وانما ضد الصوفية
والمعتقدات الدينية الشعبية بصفة عامة •

كانت الجالية التركية فى مصر عرضة للتأثر بالصوفية تماما كما
كان الحال بالنسبة للجالية المتكلمة باللغة العربية ان لم يكن أكثر
منها (١١٤) • فكان الخطيب ، يحدد الطرق الصوفية التى يهاجمها ، بالاسم
ويحذر مستمعيه بأن يناوؤا بأنفسهم عن أماكن العبادة الصوفية التى
كانوا يجدونها جذابة •

قصارى القول : ان الخصوصية التركية فى الصوفية المصرية وفى
الحياة الدينية ظلت صامدة طوال الحقبة العثمانية • لقد بدأت قبل
الحقبة العثمانية ، وهناك أدلة على أن بعض المؤسسات التركية أنشئت
بمبادرة من الباشوات أو البكوات • فعلى سبيل المثال ، فى النصف
الثانى من القرن الثامن عشر ، شيد محمد بك أبو الذهب تكية جديدة
ومدرسة فى القاهرة من أجل المتصوفة الأتراك وطلاب الدين (١١٥) •

فلم تكن المراكز التركية نتيجة لسياسة تمييزية أو انعزالية وانما
كانت نتيجة ميل طبيعى لدى المتصوف التركى الى أن يحيا بين من
يشعر بينهم بالراحة من الناحية الاجتماعية واللغوية •

لقد كان الأثر المغربى (الشمال أفريقى) على الصوفية المصرية ، دائما ،
أمرا لا يستهان به : فأكثر أولياء مصر ذيوعا ، سيدى أحمد البدوى جاء
من المغرب ، وبالمثل ، أبو الحسن الشاذلى وأجداد الشعرائى (١١٦) •

وكان طبيعياً أن تكون نسبة مثوية معينة من الحجاج المغاربة قد توقفت في مصر واستقرت بها في طريق عودتها من مكة الى الوطن (١١٧) . وفقدت بعض الطرق والجماعات العائلية ، مثل الشاذليين والوفائيين أو الشعرايين ، تقاليدها المغربية ، وصاروا متمصرين تماما . وعموما ، فان القادمين الجدد ، احتفظوا بزيتهم المغربي ، وبلهجتهم ، وعاداتهم ، ولقد احتفظ بعض المتصوفة المغاربة بصلاتهم مع بلادهم الأصلية (١١٨) . وبينما اشتهر عن المغاربة شكل صارم من الاسلام ، أحيانا ما يكون متعصبا ، اتهم الآخرون بالانحراف الخطير عن السنة . فمثلا ، شغل عدد كبير من المغاربة ، وبخاصة المتصوفة ، أنفسهم بالعلوم الروحانية (١١٩) .

اذ وصف الجبرتي العيسوية ، وهي طريقة مغربية في القاهرة ، بأنها طريقة كانت تؤدي نوعا عنيفا من الذكر ، فيه ينطق الذاكرون بصيحات منتشبة بلهجة مغربية وهم يضربون بأقدامهم في وحدة منتظمة (١٢٠) .

وليس ثمة أدلة على وجود مراكز مغربية صوفية منفصلة ، مع أن افليا جنبي (شلبي) يذكر صفة كانت غالبية المتصوفة فيها من المغاربة (١٢١) . كذلك يقدم افليا جنبي معلومات عن تكية نقشبندية في القاهرة كان أعضاؤها من الهند ووسط آسيا ، من البلوشيين (البلوخيين) وأهل بخارى والأوزبكيين والفرس (١٢٢) . كذلك يشير الى الدراويش اليمانيين . فحين كان يصف أحد المواكب ، فان اليمانيين ، بين جميع الجماعات الصوفية ، كانوا هم الأعنف والأكثر شراسة اذ كانوا يستعرضون سيوفهم بعدوانية أثناء المسير (١٢٣) .

تنويعات عن علاقة المتصوفة - العلماء في مصر العثمانية

كانت العلاقات بين المتصوفة والعلماء وثيقة جدا بحيث كانت متكافئة متداخلة ربما أكثر مما كانت في معظم البلاد الاسلامية . فكثير من المتصوفة قد تدربوا كي يكونوا علماء ، وهناك علماء دخلوا الصوفية بشكل أو آخر . ومع ذلك ، ظل المتصوفة والعلماء جماعتين متميزتين .

وفى معظم الحالات ، فان نظرة خاطفة الى تأبين (*) تواريخ كتاب السير المعاصرين تخدد ما اذا كان الرجل عالما أو متصوفا . فبينما تضيق الفجوة العقائدية بين المتصوفة السنة والعلماء الى حد لا يستهان به أثناء الحقبة الاسلامية ، الا أن الخط الدقيق بين الفقه والتصوف الاسلامى (بالتعبير التقليدى ، العلم الدينى ، والمعرفة) لم يخطف بالرغم من المسالك التى شقتها الصوفية داخل نطاق العلماء (١٢٤) .

وحين كان المشعرانى يكتب فى القرن السادس عشر كشف التوتر الكبير بين المتصوفة والعلماء . وبالرغم من استعداد الشعراى للوصول الى حلول توفيقية ، الا أنه يمكن للمرء تبين الخلافات بين المتصوفة والعلماء (الفقهاء بالذات) من حيث معالجتهم للدين ومن حيث وجهات نظرهم الاجتماعية (١٢٥) . فالصوفية اعتقدوا لأنفسهم بالتفوق الدينى والأخلاقى على رجال الشرع . وقال الشعراى ان العالم بدون معرفة صوفية قد نقصه عنصر مهم من عناصر الدين : والفقهاء بدون صوفية أشبهه بقطعة جافة من الخبز دون اضافة أى شىء يثريها (١٢٦) . ومنذ ظهور الصوفية فى الاسلام ، مقت الكثير من الصوفية عكوف العلماء على تحصيل العلم من الكتب . وثمة قول مفضل فى الدوائر الصوفية عبر عن هذا الاتجاه بجلاء : « انك تتلقى علمك من ميت ، ينقله لآخر ، أما نحن خنتلقى علمنا من الحى الذى لا يموت » (١٢٧) . ومع أن الكثير من المتصوفة كانوا هم أنفسهم غزيرى الكتابة ، الا أن الشك الكامن فى الكتب والتأكيد على الارشاد الشخصى بواسطة أحد المشايخ ، ظلت عناصر دائمة فى الثقافة الصوفية (١٢٨) . فالصوفية كانوا يحتقرون دراسات رجال الشرع ، وكانوا يزدرون حججهم الشرعية صعبة الفهم ازدراء شديدا ، معتقدين أنها لا علاقة لها بالدين الصادق . ورأى الشعراى أن الخلافات القائمة بين مذاهب الشريعة الأربعة مصطنعة ويجب الغاؤها . وعلى طريق دفاع الشعراى عن اصلاح الشريعة الاسلامية من خلال توحيد مدارس الشريعة ، تنبأ بأيدولوجية الاسلام الحديث . بالرغم من أنه بنى اصلاحه على التصوف ، اذ طور المصلحون المحدثون أفكارهم من العقلانية .

(*) أى ذكر مناقبه عند التاريخ لوفاته .

وغنى عن البيان أن الشعراني لم تكن لديه فرصة لتنفيذ الإصلاح الدينى بسبب ما اتسم به زمانه من محافظة ، وكذلك بسبب مصالح العلماء (١٢٩) .

وكثيراً ما اتهم المتصوفة العلماء باضطهادهم ، رغم أنه من الصعب التحقق من هذه الاتهامات فى غالب الأحيان اذ لا يمكن وصف أى عالم واحد بأنه لا يوافق على الصوفية من حيث المبدأ . فقد يتحدث أحد العلماء ضد بعض المتصوفة ، أو الطرق أو الممارسات ولكن ليس ضد الصوفية فى حد ذاتها . وكان الشعراني يقدم نفسه على أنه رجل مضطهد ، يخطئ الناس فى حقه ، غير أنه كان ، فى الواقع ، ناجحاً جداً فى حياته . اذ قال ان له أعداء (لا يسمون) فى الأزهر ، غير أنه ذكر الكثير من كبار علماء الأزهر الذين كانوا يؤيدونه . ولا يوجد أى دليل على أن العداة بين المتصوفة والعلماء كان أسوأ من العداوات التى كانت داخل كل من الجماعتين (١٣٠) .

كانت الصوفية تدرس فى الأزهر وغيره من المدارس رغم أنه فى الدراسة ، بالطبع ، كان التأكيد على الفقه الاسلامى (١٣١) . وكان الكثير من مشايخ الأزهر يحبذون الصوفية ، اذ ان ممارسات المتصوفين تغلغلت داخل الأزهر ، وغيره من المساجد . ومن بين الأمثلة الجيدة على ذلك ، حالة على الشونى ، أحد مشايخ الشعراني ، الذى أدخل المحيى وهى دعوات خاصة تكريماً للنبي فى الأزهر . لقد كانت هذه الدعوات - التى أصبحت شائعة ، بعد صلاة عشاء الجمعة - تستمر خلال الليل (١٣٢) . وبالمثل ، كان كريم الدين الخلوتى يعقد حلقات ذكر منتظمة فى المسجد الحسينى ، بالرغم من أنه من الصحيح أن الكثير من العلماء لم يوافقوا على هذه الممارسات (١٣٣) . ان اعتراض العلماء على البيومى الذى فعل الشئ نفسه فى القرن الثامن عشر ، كان موجهاً ضد مظهر أتباعه الزرى وما يتخذونه من هيئة وليس ضد الصوفية (١٣٤) . كذلك لقى عبد الغنى النابلسى (المتوفى ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م) استقبالا حسناً فى الأزهر ، وهو كاتب متصوف ورحالة ، ومن مؤيدى ابن عربى (١٣٥) .

ونادرا ما كان دخول أحد العلماء فى الصوفية يؤثر فى حياته العميه كدارس ومعلم فى الأزهر أو أى مدرسة أخرى .

على كل ، هناك قلة من الحالات المعروفة التى قطعت فيها الخبرة الصوفية حياة عالم لفترة طالت أم قصرت . ومن بين هذه الحالات ، الشيخ الشرقاوى ، أحد مشايخ الأزهر فى المستقبل ، الذى سبب له لقاءه الأول مع الصوفية انهيارا مؤقتا .

كذلك أخذ الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشى (المتوفى ١١٩٣ هـ / ١٧٧٩ م) ، تربيته الخلوتى مأخذ الجد حتى انه دخل فى حالة جذب (أى صار مجذوبا) وصار متصوفا حقيقيا نظرا وممارسة . ويروى الجبرتى « انه بعد ذلك عاد الى حالته السابقة » وبمرور الوقت ، صار مفتى الحنفية وأثرى نفسه . وأقام حفلات كبيرة للأمرء ، وأخيرا رشح شيخا للأزهر بتأييد الأمرء وبعض المشايخ ، بعد نضال عنيف وقبيح من أجل المنصب (١٣٨) . ومثال الغزالى ، معروف تمام المعرفة ، فهو عالم التوحيد فى العصور الوسطى ، الذى رفض كل شئ كى يصبح متصوفا ، فى ذروة حياته العملية كمعلم فى أكبر المدارس مكانة فى العالم الاسلامى .

وثمة عالم تخلى عن حياته العملية فجأة من أجل الحياة الصوفية ، هو محمد بن أحمد الحنفى الأزهرى ، المعروف بالصائم (المتوفى ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ - ١٧٥٧ م) . ذلك أنه تخلى عن حياة مزدهرة كعالم حنفى ومعلم حين قابل أحمد العريان وكرس نفسه بالكامل للصوفية ، تاركا جميع الأمور الدنيوية مرتديا لباس الفقراء . وباع ممتلكاته ، وغادر مصر وأخذ يسيح حتى استقر فى ينبع وهى ميناء بحرى على ساحل البحر الأحمر الشرقى . فاستقبله الحاكم المحلى بكل لطف ، غير أنه خدع ببساطة مظهر الشيخ اذ اعتقد أنه مجرد درويش بسيط سائح . وأثناء نزاع قانونى يخص ممتلكات أحد شيوخ البدو المتوفين ، نشأت حاجة لوجود شخص يحل المسألة المعقدة . ومما أثار دهشة الجميع ، اختلى المتصوف فى حجرته فى الجامع وكتب فتوى تفصيلية تتسم بالعلم .

فقال الحاكم : « لماذا تخفي نفسك بينما أنت من العظام ؟ » وبعد ذلك بدأ الشيخ يعلم ويزدهر . وأخيرا ، عاد الى القاهرة حيث توفي (١٣٩) . وهذه السيرة توضح أيضا الفرق بين مكانة المتصوف والعالم : فقد يتمتع المتصوف بالمهابة ، وقد يكون قد استفاد من أعمال الخير (فى هذه الحالة احترام الحاكم) .

المتصوفة والحكام

تقول نظرية قديمة عن التقوى الاسلامية ان رجل الدين المثالى هو الذى ينفر من مصاحبة الحكام . بينما يسعى الحاكم المثالى الى صحبة رجال الدين .

فى واقع الأمر ، كانت هناك وشائج بين المتصوفة والعلماء وأعضاء الطبقة الحاكمة ، وسعوا الى حظوتهم وعونهم وكان خير مبرر لدى رجل الدين كى يذهب الى منزل أحد الأمراء هو أن يتشفع نيابة عن أحد الناس قد أسئنت معاملته .

وفى احدى رسائل الشعرائى ، افترض أن الأمير كان مهتما بالفائدة الروحية عندما يكون فى صحبة أحد المتصوفة ، كما يجب على الأمير أن يستسلم لشفاعات الشيخ .

وكان الشعرائى يمثل بحق الاتجاه الخجل غير السياسى للصوفية ، والصوفية المصرية على وجه التخصيص ، نحو الحكام . وكثيرا ما حث زملاءه المتصوفة أن يتجنبوا فعل أى شىء قد يثير عدم رضى الحاكم : وكان على وعى بأن الشعبية المفرطة قد تعرض الشيخ المتصوف للخطر ، وألا يقصد استفزاز السلطات بأى حال (١٤٠) .

أما بالنسبة للحكام ، فإن الكثيرين منهم كانوا منجذبين الى ما للمتصوفة من مهابة وبركة . فيما أن العلماء كانت تعيينهم الدولة مباشرة ، فان تورطهم فى الشؤون القانونية والادارية جعلهم يبدون أقل عزوفا عن الدنيا من المتصوفة الذين عادة ما احتفظوا بواجهة من الاستقلال ، مع أن رجال السلطة كانوا يساندونهم مساندة لا تقل عن مساندتهم للفقهاء .

وكان الحكام يحبون أن يتخذوا وضع رعاة المتصوفة ، فأسهم الكثير من الباشوات والأمراء بمبالغ معتبرة فى إقامة تكايا وزوايا صوفية كما أوقفوا الأوقاف لاعاشتهم • وفى الكثير من الحالات ، كان أحد ضباط الجيش أو أحد الأمراء هو الوصى بحكم المنصب على أوقاف معينة (١٤١) • وعلى مدى الحقبة العثمانية ، أراد الكثيرون من الباشوات والبيكوات فى مصر أن يذكرهم التاريخ باعتبارهم بناءة أو مجددى التكايا ، والزوايا وأضرحة الأولياء (١٤٢) •

وربما يوجد رمز فى أن على بك بولوت كبان ، الذى حاول فصم روابط مصر بالدولة العثمانية ، قد شيد مسجدا كبيرا بالقرب من قبر أحمد البدوى فى طنطا ، ووضع أيضا قبة على ضريحه (١٤٣) • ومن ناحية أخرى ، أنشأ محمد بك أبو الذهب تكية من أجل الفقراء الأتراك (ال دراويش) فهل كانت هذه طريقة لظهار ولائه لاسطنبول ؟ (١٤٤) •

وكان فى امكان الحاكم أن يقبل شفاعة المتصوف أو يرفضها • وبهذه الطريقة ، كان فى استطاعته تقوية مركز الشيخ ضمن مجتمعه ، أو يقلل من شأنه بحيث يصبح عديم الأهمية • ومن ناحية أخرى ، كان فى امكان الشيخ المتصوف الذى يتمتع بشعبية ، أن يحسن الصورة العامة لأحد الأمراء أو يزيل الحدة من النقد العام الذى يوجه اليه •

وفى كثير من الحالات ، كان كل من الأمراء والمتصوفة يحتاج بعضهم لبعض • فرجال الدين يتمتعون بحصانة من نوع ما ، ضد غضب الحكام ، وينطبق هذا على المتصوفة أكثر مما ينطبق على العلماء • ولم تكن حصانة كهذه رسمية أو مطلقة ، غير أنها مع ذلك ، كانت حقيقية • وفى فترة كان فيها أحد الرعية يمكن أن يفقد رأسه بسهولة بإشارة من يد الحاكم ، لم يعد متصوف أبدا • وربما يمكن اعدام الدراويش غير السنية • غير أن هذا يحدث فقط اذا ما تسببوا فى احداث شغب أو اتخذ أحدهم مكانة نبي أو مهدي • فلم يصب أبو الأنوار ، الشيخ الوفايى ، بأى ضرر رغم اجترائه على التحدث بخشونة الى أحد كبار الباشوات العثمانيين ، وكذلك

الى البكوات المماليك • فلهذه فقط وضعه كرئيس عائلة متصوفة موقرة عريقة مما يكفى لحمايته •

كما سبقت الاشارة ، فان جماعات البكرية والوفائية كانت تتمتع بالاعتراف الرسمى وتتلقى منحا منتظمة ، بفضل وضعها كأبرز ممثلى الصوفية المصرية •

وكانت الموالد الكبرى - التى كانت بصفة رئيسية ، وان لم يكن مطابقة - احتفالات صوفية تعد مناسبات للدولة متمتعة بإشراف الحكومة ، والدعم والحماية العسكرية •

ورغم تعاطف الطبقة الحاكمة مع المتصوفة ، فان هذه الطبقة المؤلفة من العسكريين كانت أقل ميلا الى التفكير الخرافى من غيرها من شرائح السكان • ذلك أن نفس الأمراء الذين رعوا الصوفية ، لم يكن لديهم كثير صبر ازاء المظاهر الأكثر سوقية التى توجد فى المعتقدات الدينية الشعبية •

وفى هذه الطرفة الكثير من الضوء على هذه النقطة • اذ يروى الجيرتى بين ما يروى من أحداث عام ١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ - ١٧٦٠ م ، قصة شاذة غريبة تتعلق بمعزة ، كان يعتقد القائمون على ضريح السيدة نفيسة الذين يفكرون بشكل خرافى ، أنها تمكنت (المعزة) بطريقة غامضة من نجدة السجناء المسلمين من أيدي الافرنجة • (لقد عزا هربهم للسيدة نفيسة ، أشهر النساء من الأولياء الذين دفنوا فى القاهرة) • فصارت المعزة موضوعا للتبجيل : فبدأت النساء يطعمنها بالبندق واللوز ، كما أعطيتها ماء بالسكر وماء الأرز كى تشرب ، كما زينت بعقود من الذهب وغير ذلك من ألوان الزينة • فأمر عبد الرحمن كتحدا ، رجل مصر القوى ، فى ذاك الزمان ، الشيخ عبد اللطيف ، رئيس المسئولين عن ضريح السيدة نفيسة، بأن يحضر المعزة الى منزله، حتى يتمكن هو والعاملون لديه من التبرك بها • فحضر الشيخ فى موكب يشبه موكب المتصوفة ، معه بيارق وطبول وآلات نفخ ، (زمامير) • ثم أمر الأمير خدمه بذبح المعزة وتقديمها للشيخ لاطعامه هو وأتباعه • وحين انتهت هذه الوجبة ، كشف عبد الرحمن كتحدا لضيفه ما أكل • وتم توبيخ الشيخ المرتعد وأرسل الى بيته ، وجاد المعزة معلق فى عباته ، مصحوبا بالرايات والآلات الموسيقية •

الفصل السادس

الدين على المستوى الشعبي

ملحوظة منهجية

دراسة المعتقدات الدينية على المستوى الشعبي في مصر العثمانية تعد بلا شك أحد جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية الذي يطرح مشكلة منهجية . فالمصادر المعاصرة - من حوليات وكتابات المتصوفة ، وروايات الرحالة وغير ذلك - تزودنا بمعلومات ثرية وفاتنة . غير أن اكمل معالجة للموضوع وأكثرها منهجية ، متاحة في الأوصاف والدراسات التي صدرت بعد ذلك .

وتعد أفضل الدراسات التي تتناول المعتقدات الدينية والشعبية والثقافية في مصر في القرن التاسع عشر هو كتاب ادوارد لين Lane « سلوك المصريين المحدثين وعاداتهم » وكتاب على باشا مبارك « الخطط التوفيقية الجديدة » المكتوبين في النصف الأول والثاني من القرن التاسع عشر ، على التوالي . ويعد عمل على مبارك ، بخاصة ، أكثر المصادر قيمة . فالمؤلف ، الذي كان مصلحا ، الى جانب كونه اداريا ومن رجالات التعليم ، كان عميق الاهتمام بالمعتقدات الدينية الشعبية ، وكانت نظرتة في هذا الصدد تقليدية تماما .

وهناك أيضا دراسات قيمة لنواح متنوعة من المعتقدات الدينية الشعبية قام بها دارسون غربيون ومصريون . وبينما لا ينبغي أن يعتمد المرء على مصادر متأخرة لدراسة التاريخ السياسي ، فسوف يكون عدم

الاستفادة منها من قبيل الاسراف فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية الشعبية ،
التي لم تتغير كثيرا . ذلك أن بعض التقاليد والعادات التي كانت سائدة
فى الحقبة العثمانية ، وما زالت حية يمكن تقصيصها حتى العصور
الفرعونية .

ان عقد مقارنة بين احتفالات المولد فى القرن التاسع عشر أو العادات
المتعلقة بزيارة المقابر مع مثيلاتها فى القرن السادس عشر ، لتظهر تشابها
واستمرارية قويين . لذا ، فقد استخدمنا مواد من فترة ما بعد العثمانيين
بقدر غاية فى الحذر ، اذا ما لاءمت الصورة التي تنبع من المصادر الأسبق
عليها .

الأولياء والملاماتية

الاسلام المعتاد ، شأنه شأن اليهودية المعتادة - ولكن ليس
كالكاثوليكية المعتادة - لم يعترف قط بوجود الأولياء ، وليس لديه اجراء
لاشهار كونهم أولياء . غير أن الأولياء يملأون عالم الاسلام كما يراه الناس
العاديون بينما حتى الأولياء الذين هم على قيد الحياة - وهو ما لا يوجد
فى المسيحية (*) - يملكون قدرات خارقة وكذلك القدرة على عمل
المعجزات . ويوقر الكثيرون المجانين الذين لا ضرر منهم باعتبارهم « أولياء
طبيعيون » ويسمح لهم بالتسكع فى الشوارع (١) . وكان الملاماتية ،
وهم من نوع شاذ ، يعرفون بسوء السمعة نظرا الى مظهرهم الغريب
وسلوكلهم . والملاماتية مشتقة من الأصل (لام) هم صوفيون ظهروا فى
خراسان فى القرن التاسع ، وخرجوا عن المألوف حتى استأهلوا التعنيف
على عدم اعتبارهم الخارق لمطالبات الشريعة المبجلة لكى يؤكدوا على عدم
مبالاتهم للرأى العام ، وتركيزهم على وجود علاقة مباشرة وصادقة مع
الله .

(*) هذا غير صحيح ، فالكنائس زاخرة بمن يقولون انهم قادرون على الشفاء ،
بل والحمل بالنفحة القدسية ، وربما يقصد المؤلف فئة معينة من المسيحيين المثقفين .
(المترجم)

لقد كانت الملاماتية الخالصة بالطبع ، مثالا لا يحققه سوى القليلين ، غير أن مظاهرها الشائعة كانت معروفة جيدا فى الأزمنة اللاحقة . وفى سير الشعراى على سبيل المثال ، هناك سير أشخاص ملاماتيين كان سلوكهم فاضحا مما جعله يتقزز . وقد ذكرهم فى كتابه جنبا الى جنب مع المتصوفة المتفقهين الأتقياء الملتزمين بالشريعة بسبب الاعتقاد بما فيهم من بركة ، وبسبب وجودهم على حدود المجتمع المتصوف (٢) .

لقد كانت هناك حدود للتسامح الذى كان يعامل به المجانين . فبمجرد أن يبدأ الولى فى جذب الجماهير ، أو يخلق هياجا أو اضطرابا اجتماعيا أو يتحدى مبادئ الاسلام المستقر تحديا جادا ، كانت السلطات تستجيب لايقافه . فكان مدعو النبوة يتم اعدائهم بسرعة . وكانت هذه هى حال أحد الأولياء جاء الى القاهرة عام ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م . فتبعه العوام . وكتب الجبرتى : « اختلط الرجال والنساء ، وظهر الكثير من الفساد بسببه » (٣) .

ويجب أن نلاحظ أن هؤلاء الذين أعدموا كانوا من الغرباء ، وليسوا قاهريين ، وفى احدى المرات ، كان هناك ولى من مديرية الفيوم ، وآخر كان تكروريا أى رجلا من غرب أفريقية (٤) .

وحيث كان رضوان باشا زاده ، وهو مؤرخ تركى ، يكتب فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، أشار الى تفشى المدلسين الذين يتصنعون الطهر كواحد من الملامح القومية عند المصريين . فهم يدعون أنهم أولياء حتى يحصلوا على الطعام ولكى يكون لهم نفوذ على من هم فى السلطة ، انهم جهلاء ، الا أنهم يزعمون العلم بالأسرار الالهية (٥) .

وفى بعض الأحيان يكون الولى سلبيا سلبية تامة ، غير أن الآخرين يستخدمونه مستغلين اعتقاد الناس الخرافى فيه . لقد كانت مثل هذه الحالة هى حالة شخص يدعى على البكرى (لا علاقة له بالبكرية المشهورين) ، وكان هذا الشخص يتسكع فى الشوارع حافى القدمين وعاريا تقريبا ، ويهرف بكلام غير مفهوم . وصارت احدى النساء لصيقة به ومن خلاله اتخذت مكانة احدى الوليات (مؤنث أولياء) ، تلج على

النساء فى طلب الهبات واعتادت أن تنفوه بفاحش الألفاظ باللغة العربية والتركية وترتدى ملابس الرجال . وسرعان ما أصبح للولى والمرأة أتباع كثيرون من الناس الذين كانوا يسرقون البضائع من الحوانيت . فوضع أحد ضباط الجيش نهاية لذلك ، بأن وضع المرأة فى مستشفى للمجانين (أخلى سبيلها ، بعد ذلك وصارت ولية مستقلة) . كما ضرب الضابط المجانين العراة الذين تبعوا الاثنين . ونجح شخص آخر فى تحويل على البكرى الى مصدر للدخل . وهذا الشخص هو أخوه . الذى حبس عليا وأخذ فى جمع التبرعات . ولما كان على يحيى حياة خاملة ولديه وفرة من الطعام ، فانه صار سميئا . وبعد وفاته ، دفن على كشيخ ولى وأصبح قبره محجا ومكانا للعبادة (٦) .

لقد كتب الجبرتمى رواية تفسر الأمر عن واقعة حدثت أثناء الاحتلال الفرنسى وتعلق بالمجانين . اذ سأل قائد الفرنسيين المشايخ : « هل يسمح دينكم أم يمنع سلوك أولئك الأفراد الذين يجولون فى الشوارع كاشفين عوراتهم ، وهم يصيحون ويدعون أنهم أولياء ؟ ويؤمن بهم العوام ، غير أنهم لا يؤدون الصلاة ولا يصومون كما يفعل غيرهم من المسلمين » . وحين أجاب المشايخ بأن هذا مناف للاسلام ، أمر القائد الفرنسى بأن يحتجز المجانين الحقيقيون فى مستشفى المجانين ، وأما الآخرون الذين يدعون الجنون ، فطردهم من المدينة ، الا اذا تصرفوا تصرفا مهذبا (٧) . فلما واجهت المشايخ مسألة محددة واضحة كهذه ، لم يكن لديهم أى اختيار سوى قول : « نعم » أو « لا » .

ولم تكن الاتجاهات نحو الأنواع المختلفة من الأولياء والمجازيب على هذه الدرجة من التحديد ، ولذلك فان كلا من الحكام والعلماء كانوا دائما قاطعين فى حضرة القائد الفرنسى .

زيارة القبور والأضرحة

ان شغف المصريين بزيارة المقابر والأضرحة كعمل من أعمال التقوى أو كنشاط اجتماعى قد لفت انتباه الكثير من المراقبين والرحالين ، اذ

كتب مصطفى على ، وهو مؤرخ تركى وكاتب ، يصف القاهرة فى نهاية القرن السادس عشر : « فى كل يوم جمعة ، ابتداء من صلاة الفجر ، تتخذ جمهرة لا تحصى من الناس طريقها نحو القرافة ، راجلين أو راكبين وهم يظهرون فى طريق المقابر (مقابر القاهرة الشهيرة) وبعد زيارة مقابر الشيخ المبارك الامام الشافعى والامام الليث بن سعد ، يصل الناس الى قبر الست نفيسة . وحين تذهب النساء الى مقابر اقربائهن ، يأخذن عادة بعض النباتات الخضراء والزهور معهن ، فهن يزرن مقابر الموتى بأعشاب عطرية . أما المشايخ ، فهم يذهبون حاملين الرايات ، ويتلون الأوراد . ويوزرون المقابر والأضرحة ، التى تعتبر طريقة لضمان تقبل الدعاء ثم يعود الجمهور » (٨) . وبعد ذلك بثلاثمائة سنة ، يبين وصف لين Lane أنه لم يتغير الشئ الكثير (٩) . فهناك مزيج من التدين، والرغبة فى زيارة الأضرحة من أجل التعبير عن الاحترام للأولياء ومن أجل التشفع بهم لدى الله ، والتمتع بنزهة أو فرصة خروج اجتماعية . كثير من الناس كانوا يقفون فى المقابر طوال النهار ، أو حتى طوال الليل ، لو كان للأسرة منزل هناك . اذ يقول لين : « ويقال ان الدسائس تكون شائعة بين الأسر التى تقضى الليل فى الخيام بين القبور » وهو بذلك يكرر شكوكا كان قد عبر عنها مصطفى على قبل ذلك فى وقت مبكر (١٠) . فكان من المستحيل عدم اتهام النساء بعدم الاحتشام فى سلوكهن ، غير أننا يجب ألا ننسى ، أن زيارة مقابر الأقرباء أو الأولياء كانت هى الفرصة الوحيدة للكثير من النساء كى يخرجن خارج أعتاب بيوتهن .

تبجيل الأضرحة الشريفة والمقامات لم يكن بحال مقصورا على القاهرة ، وانما كان منتشرا فى كل أنحاء البلاد وكان شائعا فى البنادر ، مثل دمياط ، وفى معظم القرى . ولا يمل افليا جلبى (شلبى) (١١) قط من عد المقابر الشريفة ووصفها فى كل حى أو مدينة فى طريقه . اذ من الواضح أنه كان يستمتع برحلاته فى مصر بما فيها من معتقدات دينية شائعة بصفة عامة ، وتبجيل المقابر بصفة عامة (١٢) . وتسمى مقبرة الولي فى اللغة العربية قبرا ، وضريحا ، ومقاما ، ومزارا ، أو مشهدا : وعلى النقيض من الألفاظ الأخرى ، يشير اللفظ الأخير الى مكان مرتبط ، بشكل ما ، بالولي الراحل ، ولكن غالبا لا يشير الى مكان دفنه أو دفنها

بالفعل . فمثلا السيدة نفيسة ، الولية الشهيرة ، المدفونة فى القاهرة ، لها مشهد فى أسوان ، باعتبارها ظهرت فى حلم لأحد الأشخاص ، أشارت فيه الى ضريح لنفسها فى تلك المدينة (١٣) .

لقد شيدت مساجد كبيرة وجميلة فوق قبور أشهر الأولياء ، مثل الإمام الشافعى و ابراهيم جولشيني فى القاهرة ، أو أحمد البدوى فى طنطا . أما فوق قبر الولى الأقل شأنًا ، فكان يشيد بناء صغير مربع ناصع البياض تعلوه قبة . ويمكن أيضا أن يوجد القبر داخل احدى الزوايا ، أو مجموعة مدافن ، أو مدفن قائم بذاته . وغالبا ما يحاط قبر الولى بمقابر أقربائه أو المنتسبين اليه أو مريديه ، أو غيره من الأولياء . ولقد أصبحت بعض أشهر الأضرحة فى قرافة القاهرة ، مراكز تجمع كامل من المباني ، ومسكن للمتصوفة وفقراء الناس والأسبلة ، والمساجد والزوايا والكتاتيب وما الى ذلك (١٤) .

فى العديد من المرات ، كان جلبى (شلبى) يلاحظ وجود شجرة قديمة عادة شجرة سدر (نبق) ، بالقرب من أحد القبور (١٥) . ذلك أن الأشجار المباركة أو الاكام تحتل مكانة خاصة فى المعتقد الدينى المصرى ، وقد يكون الاعتقاد فيما تمثله من بركة من بقايا الأزمنة القديمة (١٦) . ويشيد فوق القبر تركيب من الحجر (تركيبية) أو من الخشب (تابوت) ، وفوق القبر كسوة مزركشه بالمخمل أو الحرير . ويحاط التابوت بنوع من السور مصنوع من الخشب أو النحاس ، ويسمى جزء المسجد الذى يضم الولى الحارس الحامى مقصورة ، وهو لفظ قد يشير الى السور الموجود حول القبر . وتزين مقابر الكثير من الأولياء فى القرى برسوم بدائية على الجدران تمثل أشياء مثل الجمل أو القارب ، وهى رسوم يمكن رؤيتها على منزل الحاج . وفى الصعيد ، توجد غالبا رسوم لشعابين ، يعتقد الباحثون أنها أيضا من بقايا التقاليد المصرية القديمة (١٧) . ان القاهرة مقبرة الأولياء ، التى فاقت جميع المدن فى البلاد ، كان بها نصيب الأسد من المقابر ، وأضرحة أشهر أولياء مصر . فكان بالقرافتين عشرات من أكثر المقابر تبجيلا ، التى كانت دائما

تجذب سكان العاصمة ، وكذلك زوارا مسلمين من اماكن أخرى بأعداد
 غفيرة .

وكما سبق أن ذكرنا ، كان يوجد بالقرافتين منازل خاصة وأخرى
 عامة ومرافق حيث يستطيع المترددون عليهما قضاء بعض الوقت . اذ يروى
 افليا (شلبى) عن العديد من دور الضيافة (التكايا) ، فى تلك المنطقة ،
 التى كانت تقدم ضيافة بالغة الكرم للمسافرين (١٨) .

ويمكن تقسيم الأولياء المدفونين فى قرافات القاهرة الى ثلاث فئات
 رئيسية : آل بيت النبى ، والعلماء ، والمتصوفة .

ومن المتفق عليه ، بصفة عامة ، أن أقدس أضرحة مصر هو القبر
 الذى يدفن فيه رأس الحسين الحفيد الشهيد للنبي محمد ﷺ . بل ان حاجا
 مغربيا معروفا بتمسكه الصارم بالسنة ، يؤكد أن هذا الضريح هو أكثر
 ما فى مصر توقيرا وأول ما يزوره المغاربة فى القاهرة ، وآخر ما يزورونه
 قبل رحيلهم (١٩) . وكما هو الحال دائما ، فان الضريح كان هو النواة
 للعلم الدينى والصوفية وكذلك الصلاة والعبادة . وتوجد بالقاهرة أضرحة
 لنسل طاهر من النساء اللاتى يرجع نسبهن الى النبي ﷺ: مثل السيدات
 نفيسة وسكينة ورقية وزينب وعائشة وغيرهن . وتلعب هذه الأضرحة
 وعلى الأخص ضريح السيدة نفيسة ، حفيدة الحسين ، دورا بالغ
 الأهمية فى المعتقدات الدينية لدى المصريين وذلك باضافة طابع نسائى
 اليها ، وجعلها ذات جاذبية خاصة للنساء (٢٠) . فبسبب دور الرجال
 المسيطر فى الاسلام العادى ، فان النساء ، اللاتى يهتمن اهتماما كبيرا
 بالدين لدى المصريين بصفة عامة ، كان لديهن شغف خاص بالوليات من
 النساء ، ذلك أن معظم من كانوا يزورون قبورهن من النساء . وبما أن
 السنة كثيرا ما شكوا من أن الرجال والنساء يختلطن فى الزحام أثناء مثل
 هذه الزيارات ، فلقد رتبت السلطات مداخل خاصة للنساء فى ضريح
 السيدات : نفيسة وسكينة وعائشة وفاطمة ورقية (٢١) . وتتضح صورة
 السيدة نفيسة باعتبارها الأم المنقذة من حادثة تثير الرهبة رواها ابن اياس
 وقعت عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م . فلقد أغرى جار شاب وعبداه الأسود طفلة

فى السابعة من العمر كانت تسكن مع أسرتها بجوار ضريح السيدة نفيسة بدخوله . وقطع الشاب حنجرة الطفلة وسرق كوفيتها المذهبة والقى بالحنجة فى بئر . وأثناء البحث عن الصبية المفقودة ، قبض على الشاب وهو يحاول بيع الكوفية ، وتحت التعذيب ، أقر وأرشد المحققين الى البئر . فشنق الصبى وشريكه عقابا لجريمتها ، غير أن الصبية وجدت حية ، بعد ذلك ، فالمجرم كان قد قطع حنجرتها ، غير أن الجرح لم يكن عميقا . فاعتبر استرداد الصبية لعافيتها معجزة . وأخبرت أمها أنها بينما كانت ترقد فى البئر وهى تنزف ، ظهرت لها امرأة مجيبة ، وقالت : « لا تبك ، أنا نفيسة . ولسوف أنجيك من هنا » . وهذا ما فعلت (٢٢) .

لقد تأسست معظم أضرحة عائلة النبى ﷺ أثناء القرنين اللذين حكم فيهما الفاطميون مصر (٩٥٦ - ١١٧١ م) ، ذلك أن الأسرة الحاكمة الشيعية بنت مشروعاتها الى حد كبير على أصلها الحقيقى أو المفترض باعتبارها من نسل فاطمة ، ابنة النبى ﷺ وزوجة على . ومع ازاحة صلاح الدين لحكم الفاطميين ، تم محو كل أثر شيعى من مصر ، ولم يؤسس الفاطميون ولو جالية شيعية صغيرة لتبقى بعد سقوطهم . ولكن أضرحة الحسين ونسله من النساء ، بالإضافة الى شخصيات أقل أهمية من بيت على استمرت فى الوجود تحت نظام الحكم الجديد ، ولكن دون التأكيد على شيعيتهم . وكان من السهل عمل ذلك ، لأن الاسلام السنى يحترم عليا وآله ، غير أنه ، على العكس من الشيعة ، لا يؤلههم .

ومن بين الفئة الثانية من الأضرحة الطاهرة - أى أضرحة العلماء المشاهير - تقف فى الصدارة أضرحة الامام محمد بن ادریس الشافعى ، (المتوفى ٨٢٠ م) ، مؤسس المذهب الشافعى وعالم التوحيد الذى عاش فى القرن الثامن ، والليث بن سعد ، الذى يقع قبره بالقرب من ضريح الشافعى .

وكان الشافعى هو المؤسس الوحيد لمذهب فقهى والذى دُفن فى مصر ، وكان مذهبه الى حد بعيد أهم المذاهب الأربعة ، ومن المفهوم ، أن المسجد وبه قبر الشافعى أصبح رمزا للاسلام المتفقه .

ويحاط ضريح الشافعى بمقابر الحكام المتوفين ، وكبار العلماء . واعتاد الحكام الجدد القيام بزيارة المكان لدى وصولهم الى مصر كما أصبح الضريح نقطة تجمع للأمراء المصريين والجنود (٢٣) . أما الغثة الثالثة من قبور الأولياء - أى قبور المشايخ المتصوفة - فهى تتسم بعدم التجانس الشديد . اذ تشمل ، مثلا ، شاعر القرن الثالث عشر عمر ابن الفارض ، ومتصوفة من القرن السادس عشر من أمثال الشعراى وجيله . وكان هناك أضرحة لمشايخ متصوفة من الأتراك والعرب ، مثل البكرية والوفائية وكثير غيرهم ، كل منهم يجتذب اليه زواره من المؤمنين والعابدين .

لقد كانت مقبرة الشيخ المتصوف الراحل مصدرا محتملا للدخل ، حيث أن المؤمنين كانوا يحضرون النذور والتبرعات للحفاظ على المقبرة واعاشة حراسها . وكانت أيضا بؤرة الاحترام والزيارات والطقوس وبهذا المعنى ، كانت مركز الطريق ، وموقع الاحتفال السنوى بمولد الشيخ ، وكذلك تأكيدا على استمرارية الطريقة . فبعد وفاة كريم الدين ، على سبيل المثال ، أراد بعض مريديه دفنه بالقرب من معلمه الدرمداش ، غير أن آخرين قالوا : « كلا ، فان مصالحننا تتطلب أن ندفنه ، فى زاويتنا » . وحين كان داود العزب ، وهو متصوف آخر على فراش الموت أراد أتباعه أن يحملوه الى القاهرة ، غير أنه استشاط غضبا واتهمهم بمحاولة استغلال وفاته من أجل الكسب المالى (٢٤) .

ويقال ان الكثير من الأضرحة تحتوى على رفات أولياء ليسوا معروفين على نطاق كبير يشار اليهم ببساطة بعبارة (رجل صالح) أو الولى وأحيانا ما يعرف الولى باسمه الأول (مثلا الشيخ محمود) ، وهو ما يشير الى كونه غفل الذكر . وهناك أماكن للعبادة أخذت اسمها من (الرجال الأربعين) ، أو الرجال السبعة وهم يمثلون أبطال قصص قد نسيت منذ عهد بعيد ، وأضرحة تعزى الى الصحابة ، الذين اشتركوا فى فتح العرب مصر (٢٥) .

وعلى النقيض من الأولياء المجهولين ، يوجد أولياء تقدم عنهم المصادر تفاصيل كاملة وعن كيفية ايجاد أضرحتهم . فالجبرتى يروى أن الشيخ

مرتضى دفن زوجته بالقرب من ضريح رقية . وبعد ذلك ، شيد مقصورة وبناء فوق مقبرتها . وفرش المكان بالسجاجيد ، وأضاء الشموع واستأجر المقرئين ، واستضافهم فى بيت مجاور . وبالمثل ، فقد بنى الدواخلى ، نقيب الأشراف ، مقاما ومقصورة على قبر ابنه (٢٦) . مثل الأضرحة التى يزورها الجمهور .

وكانت رعاية مقابر المشايخ غير المهمين فى القرى توزع - عادة على الفقراء رجالا ونساء الذين كانوا عادة من العجائز والعميان . ومن ناحية أخرى كان المسئولون عن الأضرحة الكبرى - عادة - من الأثرياء وذوى النفوذ ، فقد كان مقدمو الهبات والندور لضريح أحمد البدوى من الملتزمين وكبار أثرياء طنطا (٢٧) . ويتهم الجبرتى الأسرة المسئولة عن مقام أحمد البدوى بفساد الذمة ، وقد أدى ثراء هذه الأسرة الى خلافات بين أعضائها مما أدى الى انتقال مسئولية رعاية الضريح لأسر أخرى . وكان الحكام الجشعون يصادرون أحيانا جزءا من الندور كما فعل على بك فى سنة ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م ، وفعل الفرنسيون ذلك فى وقت لاحق (٢٨) .

وهناك الكثير من العادات والمعتقدات المتعلقة بالمقابر الطاهرة ، غير أننا سنذكر فقط أكثرها انتشارا .

ان المولد عادة حدث سنوى ، غير أن الكثير من الأولياء كانت لهم حضرة ، وهى تجمع أسبوعى يتم ليلا للدعاء وتلاوة القرآن ، والذكر . وكانت الطقوس التى تؤدى فى المقبرة ثابتة ، وتشمل تلاوة الفاتحة وتحية الولي المدفون والدوران حول المقصورة . وكانت بعض العادات الشعبية تشبه المراسم المفروضة على الحجاج أثناء الحج (٢٩) .

وثمة نوع مختلف من الزيارة الأسبوعية عادة ما ينعقد فى أيام الخميس أو الجمعة ، كان مرتبطا بالاعتقاد أنه فى هذا اليوم تزور روح الولي القبر . وهذه الفكرة لها أصل فى أساطير مصر القديمة ولم يوافق عليها الاسلام السننى (٣٠) . وهناك عادة أخرى ، من الواضح أيضا أنها من بقايا العصور الفرعونية ، هى أن يضع الزائر بعضا من شعره أو أظافره أو أسنانه بالقرب من المقابر . ونشأ هذا الفعل اعتقادا بأن مثل هذه

المسائل

مقدمة

كانت الموالد جزءا مركزيا رئيسيا فى حياة الأهالى الدينية والاجتماعية فى الحقبة العثمانية (٤٠) . ولا يعرف ، على وجه الدقة ، متى ظهرت الموالد فى الاسلام . وربما كان ابن جبير ، رحالة القرن الثانى عشر ، هو أول من ذكر احتفالات المولد وهو يتحدث عنها كعادة مستقرة تماما .

لقد عقد علماء التوحيد مناقشات مطولة بخصوص مشروعية المولد . وحكم جلال الدين السيوطى ، الكاتب والمتصوف وعالم التوحيد والمؤرخ الشهير المتوفى ١٥٠٥ بأن الموالد حقا بدعة ، ولكنها بدعة حسنة . فهو يؤكد أن مادبة مولد النبى ﷺ حسنة ، لأنها تغرى المسلمين على اخراج المال لفعل الخير ، وأن يتلوا القرآن ، ويقوموا الذكر ، ويفرحوا بميلاد النبى . وحين سئل عالم توحيد فى زمن مبكر عما اذا كان يعتبر المولد شيئا جديرا بالثناء أم التوجس أجاب هكذا : « ان الولائم والوجبات دائما شئ يلقى الترحيب ، فما بالك حين تكون مصحوبة بالفرح ببزوغ نور النبوة فى هذا الشهر » .

لقد كان الأصوليون المسلمون ، وعلى رأسهم الحنابلة ، ثم بعد ذلك ، الوهابيون ، معارضين حتى لمولد النبى . لذا لا مجال للدهشة ، أن الموالد اللاحقة الخاصة بالأولياء المحليين ، والتي كانت ، فى معظم الحالات ، بقايا لعادات ترجع الى ما قبل الاسلام كانت تلقى الكثير من النقد (٤١) .

الأولياء واقامة موالدهم

تعد قائمة الأولياء الذين يحتفل بموالدهم قائمة طويلة وتشمل رجالا وقليلًا من النساء من فترات مختلفة ، ابتداء بالنبى ﷺ وانتهاء بأحدث المشايخ المتصوفين .

وكانت الموالد ، ومازالت ، تعقد لأعضاء من آل البيت ، أسرة النبي - الحسين بن علي ونسله من النساء • كما نجد من بين الاولياء علماء ومتصوفة وأشرفا وأمراء والكثير من المشعوذين والمجانين اشتهروا بأنهم أولياء (٤٢) •

لقد اعتبر الكثير من الأولياء بأنهم حماة ورعاة : فواحد كان يدافع عن منطقته ضد التماسيح ، وآخر كان يحمي ضد الثعابين ، وثالث كان يعد صديق الفلاحين • وكانت وظيفة الولي من حيث انه راع لقريته واسعة الانتشار (٤٣) •

وقليل من الموالد لم تكن مرتبطة بشخص مبارك ، وانما بمكان مبارك • فكان هناك مولدان يقامان حين يتم تنظيف المقياس ، (مقياس النيل) وحين كان يتوقع أن تكون المياه مرتفعة • وثمة مولد آخر من نفس النوع هو مولد قدم النبي ، (أظن أنه يقصد أثر النبي ﷺ) : المترجم) وهو مكان بالقرب من القاهرة حيث يعتقد أن محمدا ترك أثرا لقدمه (٤٤) •

وليس من السهل تحديد الوقت الذي أنشئ فيه مولد معين • ومن الواضح أن عملية اقامة الموالد امتدت أحيانا عبر أجيال • فموالد الحسين ونساء بيته أدخلت أثناء الحقبة الفاطمية (٤٥) • وأقيم عدد لا يستهان به من الموالد للمشايخ المتصوفة أثناء القرن السادس عشر ، وهو تطور مرتبط بظروف خلقها الحكم العثماني ، كانت تؤدي الى انتشار الصوفية • ويضرب على مبارك مثلا بتقاليد المتصوفة الخاصة باقامة مولد أحمد البدوي في القرن الثالث عشر (٤٦) • وعموما ، لا يمكن الثقة بها ، بما أنه من الواضح أن الكثير من العادات ترجع الى ما قبل الاسلام ومرتبطة بالنيل والزراعة • ولربما حفزت شعبية مولد البدوي الى انشاء موالد أخرى أصغر وان كانت مشابهة ، وهذه هي الطريقة التي أوجدت الموالد في بلدان دسوق ودمنهور بالإضافة الى مولد الامبابي غرب القاهرة (٤٧) •

من الطبيعى أن معلوماتنا تكون أفضل عادة بالنسبة للموالد الأكثر حداثة . اذ يروى افليا (شلبى) أن مولد الشيخ عقبة الجهينى قد توقف ، لأن الضريح صار حطاما . وفى سنة ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٢ - ١٦٥٣ م ، أعاد أبو النور محمد باشا - وهو حاكم مشهور باهتمامه بالدين - انشاء المسجد وأسس تكية ، وسيلا ومطبخا وغير ذلك من المرافق هناك . كما أحيا المولد ، الذى كان مقدرا أن يموت عن طريق وقف خاص تحت اشراف قائد الانكشارية (٤٨) . وكذلك يروى الجبرتى ظروف ظهور عدة موالد جديدة . اذ مات عبد الوهاب بن عبد السلام المرزوقى ، وهو متصوف متواضع دأب على التردد على المقابر الشريفة ، مات فى ١١٧٢ هـ / ١٧٥٨ م . وبعد أن أصاب أحد الفيضانات مقبرته ، بنى مريدوه وأتباعه مقصورة حول المقبرة ، أى مقاما ، وقبة فصار الضريح مزارا ، وكان الرجال والنساء يختلطون أثناءه . فبنى المتصوفة مقاما آخر هناك دفنوا فيه متصوفة وعلماء آخرين . ثم حددوا تاريخا سنويا للاحتفال ودعوا الزائرين من الصعيد والوجه البحرى . وأنشئت الكثير من الخيام والأعمدة والمطابخ وأماكن عمل اللهوه هناك أثناء المولد . فجذبت المناسبة الفلاحين من القرى المجاورة ، بالاضافة الى المحتالين والمغنين والعاشرات وسحرة الشعابن . وكانت الجماهير تشعل الألعاب النارية ، وتلطن المقابر ، اذ كانوا يتضاجعون ويرقصون لما يزيد عن عشرة أيام . وكانت موسيقا الطبل والناى تعزف ليل نهار . وحتى العلماء كانوا ينصبون خيامهم ، وكذلك كان يفعل أبرز الأمراء ، والتجار . ويلقى الجبرتى باللائمة على العلماء على عدم توبيخهم لسلوك كهذا ، وبذلك جعلوا العوام يعتقدون أن الاشتراك فى هذا المولد عمل من أعمال التقوى (٤٩) .

ويمكن للمرء أن يرى بوضوح كيف أن طريقة مشروعة (من وجهة نظر السنة) لاجياء ذكرى رجل صالح من رجال الدين تتدهور فتصبح حدثا مريعا من أخط الطبقات الاجتماعية ، لم يقدر أو يرغب أهل النخبة فى إيقافه . .

لقد ألغى مولد الحسين بن على وتم احيائه عدة مرات أثناء الحقبة العثمانية . . اذ يبدو أن هذا الضريح الشيعى الرئيسى فى مصر ، جذب

الشيعة وأشباه الشيعة ومتعددي المذاهب وخلق عادات ، أثار شكوك السنة ، والسلطات . وروى افليا (شلبي) ، أن هذا المولد كان قد أُلغى بسبب نقد جائر .

وفي عام ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م ، رفع الأشراف شكوى الى عبد الرحمن باشا كى يسمح بمولد الحسين ، جدهم فأصدر الوالى التوجيهات المرغوبة الى القاضى والشرطة . ويروى افليا أنه بعد ذلك ، تم الاحتفال بوليمة كبرى فى يوم عاشوراء (العاشر من المحرم ، يوم حداد الشيعة على استشهاده الحسين) (٥٠) .

وعلى النقيض من حماس افليا ، يعبر الجبرتى عن اتجاهه الساخر المرير نحو الموالد والذين يشتركون فيها فى روايته عن احياء مولد الحسين . اذ ان الوصى على وقف مسجد الحسين قد أصيب بمرض جلدى ، ربما تناسلى فأقسم بأن يعيد احياء المولد آملا فى أن يشفيه الله . فاستولى على أموال من الوقف ، وبدأ فى تنظيم المولد . ووضع شموعا ومصابيح فى المسجد ، وعين مقرئين نهازا وقراء لدلائل الخيرات (وهو كتاب شهير للأدعية) ليلا فجاء الكثير من أتباع الطرق الصوفية الشاذة للاحتفال ، ملطخين المسجد ، دون أن يظهر أى احترام للمكان . أما الرجل الذى أخذ المبادرة فى احياء المولد فلم تتحسن حالته ، كما استنتج الجبرتى بحدّة (٥١) .

ويصف الجبرتى ايجاد مولد آخر - احياء ذكرى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، الذى كان شيخ الأزهر ومتصوفا . وحددت أرملته وابنه مولده نى يوم وليمة العفيفى بعد أن حصل على موافقة الباشا . فأعلنت الشرطة عن الاحتفال فى الشوارع ، ودعى الجمهور لحضور الاحتفالات . وأقيمت الأعمدة أمام الضريح وعليها الشموع . وعلقت بها البيارق وشرايط ملونة . ودعى زعماء أو رؤساء الطرق الصوفية . وقدم الطعام .

ومرة أخرى يطلب الجبرتى من النخبة الأزهرية توبيخ الدهماء على سوء سلوكهم ، كاشفا عن الفجوة بين توقيره للشيخ الراحل واشمئزازه من المسولد (٥٢) .

أوقات الموالد ومددها

كانت الكثير من الموالد يحتفل بها حسب التقويم القمري الاسلامى ، ولكن القليل منها بما فى ذلك بعض أهم الموالد ، كانت تعقد طبقا للتقويم القبطى . وكانت موالد الفثة الأولى متناثرة عبر شهور السنة الاسلامية ، باستثناء شهر رمضان . وموالد أكثر كانت تعقد فى شعبان ، الشهر الثامن الذى يسبق رمضان ، مما يعقد فى أى شهر آخر . وبعد رمضان ، لم تكن هناك الكثير من الموالد ، لأن الاستعدادات تكون على قدم وساق من أجل الحج (٥٣) . وكان الكثير من الموالد تستمر من بداية شعبان حتى منتصفه ، أهمها فى الصعيد ، مولد أبى الحجاج فى الأقصر . وبعد الرحيم فى قنا ، الذى تقام احتفالاته الرئيسية فى الخامس عشر من الشهر (٥٤) .

وكان مولد الامام الليثى يعقد فى القاهرة فى أقرب جمعة من منتصف شعبان . وكان مولد الممردش فى يوم الخميس ، فى النصف الثانى من شعبان (٥٥) .

وكانت مواعيد الكثير من الموالد تحدد بشكل تصفى منتصف شعبان ، والسبب فى ذلك أن التراث يقول أن مصير الانسان فى السنة التالية يتحدد فى ليلة النصف من شعبان (٥٦) .

وكان توقيت بعض الموالد مرتبطا بالأعياد الاسلامية . فمثلا كان مولد الوفائى يتعقد بعد العيد الكبير بأربعة أيام (٥٧) . وكان مولد الدشطوطى يتعقد فى ليلة المعراج ، ليلة صعود النبى الى السماوات السبع ، فى السابع والعشرين من رجب (٥٨) . وكان مولد أبى القاسم الطهطاوى يتعقد مع مولد النبى (٥٩) .

وكانت تواريخ بعض الموالد الكبرى تتحدد عن طريق التقويم القبطى ، وبذلك ترتبط بالفصول ، وهو أمر مستحيل إذا تم التمسك بالتقويم الاسلامى .

وبعض الموالد كانت مرتبطة بالدورة الزراعية المرتبطة بفيضان النيل ، كما جرت العادة فى العصور الفرعونية (٦٠) . وأهم هذه الموالد هما مولدا أحمد البدوى ، اللذان كانا مرتبطين بالرئى . فكان مولد البدوى الكبير ينعقد فى شهر مسرى (من السادس من أغسطس) ، أما المولد الأصغر ففى بداية برمودة (الذى يبدأ فى الثامن من أبريل) .

ويروى مبارك أن مولد البيومى كان ينعقد (طبقا لأيام النيل) وبعض الموالد فى الصعيد كانت تقام حين تبدأ مياه النيل فى الارتفاع . وأخرى كانت تنعقد (فى الصيف) أو (فى زمن الحصاد) (٦١) .

وكان عدد من الموالد يحتفل بها فى أنحاء مصر ، رغم أن مركزها كان فى القاهرة ، مثل موالد النبى ، والحسين ، أو موالد نساء بيت الحسين ومولد الشافعى . وبما أن هذه الأعياد كانت تؤثر فى النشاط فى جميع أنحاء البلاد ، فهى كانت تحدد تواريخ الموالد الأخرى . ذلك أن جوار مساجد الأولياء أو أضرحتهم أحدهما من الآخر جعل من المناسب الاحتفال بموالدهم معا ، أو فى مواعيد متقاربة . فالحاجة الى تزامن النقل ، والتجارة وأمن الموالد المجاورة ربما أثر فى الترتيبات التى تتم من أجل الاحتفالات (٦٢) .

وجدير بنا أن نتذكر أن الحكومة كانت فى نهاية الأمر ، مسئولة عن الموالد ومسئولة عن سلوك الجمهور المنظم (٦٣) . كما يجب ملاحظة الصلات بين الأولياء الراعين أنفسهم . فمثلا ، يحتفل بجميع الأولياء المرتبطين بأحمد البدوى طبقا للتقويم القبطى . وكان الامبابى أحد مريدى البدوى . وكانت البيومية طريقة متفرعة عن الأحمدية والمرزوق كان من نسل البيومى . فكانت مواعيد موالد هؤلاء الأولياء مرتبطة بالأحمدية (٦٤) .

وكانت بعض الموالد تنعقد فى يوم معين من أيام الأسبوع (٦٥) . وكانت الاحتفالات بمولد فى القاهرة تستغرق أسبوعا واحدا (٦٦) ، رغم أن بعض موالد القاهرة كانت تستغرق ثمانية أيام ، مثل مولد الرفاعى ، الدشطوطى ، والبيومى (٦٧) . وعلى النقيض من ذلك ، فإن المدة المتوسطة

لموالد المهمة لم تكن تستغرق أكثر من ليلة واحدة • ومثل هذا المولد كان يسمى ليلة ولا يتكون الا من الدعاء دون الكثير من الأمور المعتادة فى المولد (٦٩) •

المشاركون فى الموالد

اجتذبت احتفالات الموالد أعدادا غفيرة من جميع مناحى الحياة • فالموالد تنتمى الى عوالم المعتقدات الدينية فى مصر ، ولكن النخبة أيضا كانت تحضر ، على الأقل ، جزءا من الاحتفال • ومع أن الموالد كانت دائما احتفالات صوفية ، الا أن العلماء والأمراء كانوا يشتركون فيها أيضا • اذ كانت الموالد مختلفة الألوان ومتنوعة بحيث يبدو أن كل شخص يمكنه أن يجد هناك شيئا يعجبه (٧٠) •

فبعض الموالد كانت أحداثا اقليمية ، مثل مولد جلال الدين السيوطى فى أسيوط ، وأبى حجاج فى الأقصر ، وعبد الرحيم فى قنسا (٧١) • ولم تجتذب الموالد الأصغر سوى أهالى الحى أو القرية التى يقع فيها المسجد أو القبر (٧٢) • وبعض الموالد ، مثل البيومى ، كانت تجذب القرويين الى المدينة • وأخرى فعلت العكس : اذ كان القاهريون يخرجون الى قرية فى مديرية المنيا كى يذهبوا للسوق الذى كان يقام مع المولد (٧٣) •

وكان مولدا أحمد البدوى ، فى طنطا أكثر الموالد ازدحاما من بين كل التجمعات • اذ كان الناس يسعون اليهما من أقصى الأماكن ، كما يصدق الحال الآن •

ويؤكد افليا صاحب التجربة والأسفار الكثيرة ، أنه لم يرقط جماهير بضخامة ما رآه فى مولد البدوى ، بمقارنته مع الميع احتفالات الدولة فى اسطنبول • وهو يلاحظ أن مولد ابراهيم الدسوقى ، الذى كان يعقد بعد ذلك بأسبوع ، أصغر وأكثر نظاما وأكثر جلبا للسورور (٧٤) •

وثمة موالد عديدة كانت تجتذب شريحة معينة من الأهالى • فمثلا كان الجزارون سائدين فى مولد معين فى القاهرة (٧٥) • وكانت هناك

موالد يشترك فيها العلماء خاصة : من مثل هذه مولد المطراوى فى
المطرية بالقرب من القاهرة (٧٦) . والشعرانى فى حى باب الشعرية
وعلى العكس من ذلك (٧٧) ، فان المشاركين فى مولد عمر بن الفارض ،
الشاعر المتصوف الشهير ، كانوا من بين الفقراء وغير المتعلمين (٧٨) .
وكان مولد ابراهيم جولشيني مقصورا على النخبة الدينية الفكرية
السياسية ، وبه طابع تركى قوى اذا كان وصف افليا له دقيقا (٧٩) .

لقد عرف الجبرتنى عن جدارة ، الملامح الأربعة للموالد على أنها
ليست زيارة وتجارة فقط وانما كانت حقا نزهة وفسوقا (٨٠) .

وكانت الموالد ، فى الأساس ، دائما أحداثا دينية بالرغم من جوانبها
العلمانية . فالمولد ركز دائما على الولى وضريحه . وهناك الكثير من
الأدلة التى تشير الى الجدبة والتقوى التى كان ينظر بها المصريون من
جميع الطبقات الاجتماعية الى أيام هؤلاء الأولياء . فيقول على مبارك فى
وصفه لأحد الموالد فى أحد بنادر مديرية أسيوط : لو أن أى انسان
أهمل طقس المولد ، فان الآخرين يقولون له : لا تتسبب فى خراب
قريننا لانهم يعتقدون أنهم اذا ما لم يؤدوا طقوس تلك الليلة ، فسيلحق
الضرر بمحاصيلهم - كما علمتهم تجربتهم - وحيواناتهم أو أبدانهم . وهم
مقيدون بهذا الاعتقاد مع أنهم يفعلون الطقوس بارادتهم الحرة . وهذه
هى الطريقة التى تنظر بها معظم القرى للموالد (٨١) . ويجب التأكيد على
أن على مبارك كان يشير الى الصعيد ، حيث كان تبجيل الأولياء وموالدهم
قويا بصفة خاصة .

ان الطقوس الدينية الرئيسية أثناء المولد هى :

١ - زيارة الضريح (زيارة)

يضع الزائر يديه على القبر ، ثم يغطى وجهه بيديه . ثم يدور حول
القبر ، ويقرا الفاتحة ، ويبارك الولى (٨٢) .

٢ - تلاوة القرآن

كان من المعتاد ترتيل القرآن بأكمله (ختمه) أثناء الموالد . وكثيرا
ما يستأجر مقرنون محترفون لهذا الغرض (٨٣) .

٣ - تلاوة أوراد صوفية

دلائل الخيرات ، وهو مجموعة منتقاة ، كانت كثيرا ما تقرأ وترتل أثناء الموالد . كما كانت الأوراد تقرأ فى كثير من الموالد وكان النص المفضل هو حزب الشاذلى ، المعروف أيضا بالبر الكبير . فاذا كان الولي المقصود له حزب باسمه ، فمن الطبيعي أن هذا النص كان يقرأ (٨٤) .

٤ - ترتيل مدائح نبوية أو مدائح الأولياء

وكان لقصيدة المولد الشريف ، التى ترتل فى مولد النبى بعد الحزب البكرى - شهرة خاصة (٨٥) .

وحسب ما يقول افليسا ، كان مولد الليشى مهرجانا أدبيا بالنسبة للعلماء . اذ اعتاد المؤلفون أن يقدموا ما كتبوه تمجيذا للمولد لكبار مفتي المذاهب . فاذا وافق المفتون على تلاوتها ، كانت الكتيبات توقع وتوضع فى صندوق عند المقام . ويتضمن وصف افليسا أن نفس هذا الشيء كان يتم فى مولد الشافعى (٨٦) .

٥ - الذكر

هو تكرار عبارات معينة فى مدح الله للوصول الى تجربة دينية . ولم يكن هناك مولد دون حلقات للذكر ، رغم أن الأذكار من الممكن أداؤها بشكل مستقل عن الموالد . اذ كانت هناك حلقات الذكر الحميمة التى يقيمها المتصوفة . غير أنه كان يوجد التجمع الكبير حيث يوجد الكثير من المشتركين فى المولد ، الذين اجتمعوا من أجل تأدية طريقة سوقية للذكر الصوفى .

وكان هناك الكثير من الرجال والنساء الذين يعتقدون أن وجودهم فى الذكر يكفى لمعالجهم من الأمراض . وأحيانا كان الحشيش وغيره من المخدرات تستعمل للوصول الى النشوة الدينية (٨٧) .

٦ - الموكب

لقد كانت الموكب الصوفية كثيرة الألوان هى أكثر ما يلفت النظر فى الموالد التى تعرف بالأشاعر . وما زالت كذلك . اذ كانت الطرق

تسير تحت راياتها ، أو تحمل المشاعل ليلا ، وهم ينشدون أذكارهم وهم يسيرون • وكان المتصوفة يعزفون على آلاتهم الموسيقية ويعرضون حيلهم الغريبة • وفى نهاية المولد ، يحدث موكب عام (الزفة) يضم جميع الطرق (٨٨) •

٧ - مراسم دينية أو شبه دينية خاصة

كان من المعتاد ختان الأولاد وحلق رؤوس الأطفال فى المولد • كما اعتاد الرجال والنساء أن يوفوا بما أقسموا عليه أثناء المولد ، كذلك كانت الصدقة التى تقدم للمتصوفة والفقراء أكثر كرما من المعتاد (٨٩) •

الجانب التجارى للموالد

لم يكن الجانب التجارى للمولد مجرد نتيجة طبيعية لتجمع الكثير من الناس فى نفس المكان ، وانما كان هدفا رئيسيا من وراء الأعياد • وهذا يظهر جليا فى تعريف الجبرتى الذى سبقته الاشارة اليه ، بل أكثر من ذلك فى وصف على مبارك لمولد البدوى ، الذى يقول : « انه سوق كبير يعرف بمولد أحمد البدوى ، حيث يجتمع الكثير من الناس من كل أنحاء البلاد ، لا يستطيع حصرهم الا الله وحده • وهم لا يأتون هناك ، فقط من أجل التجارة ، انما من أجل هذا الغرض وأيضا للبحث عن بركة فى الولى سيدى أحمد البدوى » (٩٠) •

ولقد تخصصت الأسواق فى سلع معينة • وكانت أسواق طنطا هى أكبر الأسواق وكانت مشهورة بأسواق النخاسة التى كانت بها • ويصف افليا التجارة فى قطن الفيوم التى كانت هذه الأسواق شهيرة بها (٩١) •

وإثناء مولد ابراهيم الدسوقى - الذى يقام على ضفة النهر - كانت القوارب تفد من موانئ البحر المتوسط المصرية والصعيد ، حامله الناس والتجارة • ويذكر افليا بصفة خاصة الأقمشة من اليمن والهند (٩٢) •

الجانب العلماني للموالد

تعلق جميع المصادر على الجو المرح الشبيه بالكرنفالات الذي كان موجودا في الموالد ، ذلك أن المهرجانات كانت تقدم للمصريين المحبين للمرح فرصة امتاع أنفسهم (٩٣) . بل ان الجبرتي المعروف بتحفظه الصارم ، يقول ان القاهرة كانت مضاءة بشكل جميل ومزينة أثناء مولد النبي ﷺ (٩٤) . اذ كان المحتالون وسحرة الثعابين ، وألعاب خيال الظل ، ورواة الحكايات ، والمغنون وغير ذلك من عروض متنوعة تبعث في الناس التسلية .

كما اشتمل المولد في الريف والبنادر على سباق جمال وخيول وغير ذلك من عروض الفروسية يقوم البدو العرب بأدائها (٩٥) . وكان بالموالد جانبها الخير المحسن أيضا . اذ كانت تمنح الفرصة لاطعام الفقراء . وفي وقت سابق في القرن السادس عشر ، أكد الشعراي على هذه الناحية في الموالد (٩٦) .

يقول على مبارك ، في وصفه لمولد ابراهيم الدسوقي ، في القرن التاسع عشر ، ان أحد أغراضه الرئيسية اطعام الفقراء ، والبؤساء ، وأبناء السبيل (٩٧) .

ومن الممكن أن الموالد انتشرت ، لأنها كانت تقوم الى حد كبير بدور وكالات الرعاية والاحسان غير الرسمية .

الجوانب موضع الاعتراض في الموالد

لقد كانت للموالد دائما سمعة مختلطة ، فبجانب ملامحتها الدينية الايجابية ، كانت بشعة من حيث ما كان بها من عنف وانعدام أخلاق ارتبطا بها .

ففي حقبة المماليك ، نصح العلماء السلطان بأن يحد من المولد في طنطا لأنهم اعتبروه غير أخلاقي (٩٨) .

الفصل السابع

الأشراف ونقيب الأشراف

الأشراف

مصطلحا الأشراف والسادة : الأشراف (مفردا شريف) والسادة (مفردا سيد) - يعتبرون عادة نسل النبي محمد ﷺ عن طريق زواج ابنته فاطمة من علي بن أبي طالب . وبشكل أدق ، فإن الأشراف هم نسل ابن علي الأكبر ، الحسن ، والسادة هم نسل ابنه الأصغر الحسين (١) .
وأثناء الحقبة العباسية ، كان لفظ الأشراف ينطبق على جميع آل البيت (أى عائلة النبي ، بمن فيها على سبيل المثال ، نسل محمد بن الحنفية ، وزوجة على الثانية ، وكذلك الهاشميون) ، غير أن حكام مصر الفاطميين ، (٩٦٩ هـ / ١١٧١ م) قصروا استخدام هذا اللفظ على نسل الحسن والحسين . وظل هذا التقييد سارى المفعول حتى بعد أن صار حكم مصر سنيا مرة أخرى (٢) .

أما الممارسة الاجتماعية فى مصر فلا تميز بين الأشراف والسادة . فالمصادر تتحدث عن أشراف كانوا يدعون بالسادة الأشراف وصار لقب سيد هو لقب الشريف (٣) . ومع ذلك ، فإن التفريق بين الأشراف الحسينيين (أى أشراف حسب التعريف القديم الكلاسيكى) (٤) والأشراف الحسينيين (سادة) ليس مجهولا (٥) .

ومما يجب ملاحظته أنه حتى عهد قريب ، أى أوائل القرن التاسع عشر ، لم يكن للقب سيد غير معنى الشريف فى مصر . لقد شعر عبد الرحمن الجبرتى بضرورة شرح أن سييدا سا ، وهو على القبطان ،

كان مملوكا وليس شريفا ، وربما كان هذا الاستنتاج الخاطيء بسبب لقبه : فاللقب - فى هذه الحالة - ناشى عن طبيعة الاستخدام المغربى عند التحدث الى أحد الأمراء (٦) . وفى الاستخدام الحديث ، فقد لفظ السيد مغزاه الدينى ولا يعدو الآن الا أن يكون - ببساطة - لفظ احترام .

لقد كان المتصوفة يسمون سادة فى المصادر فى الأزمنة الحديثة (٧) . ومن هنا يقال السادة القادرية والسادة الشاذلية وبعامه ، السادة الصوفية . ولا يتضمن هذا الاستخدام أن جميع المتصوفة أشراف ؛ ولكنه تكريم دينى (٨) قد يكون نشأ عن الاعتقاد بأن « الأقطاب » الأربعة مؤسسى الطرق الصوفية الرئيسية ، كانوا أشرافا ، أو عن الموقع الخاص للنبي ﷺ فى سلاسل المتصوفة التراثى وكذلك ، قد يكون راجعا الى التركيز القوى الذى أعطته الصوفية المتأخرة للنبي ﷺ (٩) (٩) .

لقد حظى الأشراف الحقيقيون بتكريم كبير كما قاموا بأدوار رئيسية فى الطرق الصوفية (١٠) . وهناك ما يدل على أن هذا التقليد ظل حتى القرن العشرين (١١) . ولما كانت مكانة الأشراف وراثية من خلال الأب أو الأم (١٢) ، فقد تزايد عددهم تزايدا مثيرا .

انشاء الشرافة

لما كان الأشراف فى مصر على وعى تام بأصلهم ، فلقد احتفظوا بسجلات للتسلسل النسبى وكان يعترف بهم ، اجتماعيا ، باعتبارهم نخبة دينية . ولا محيص من أن تشور الشكوك فيما يتعلق بأصل الكثير ممن يدعون هذا اللقب . ومن خير الأمثلة على ذلك ، تعليق الجبرتى على رجل يزعم عودة نسبه الى على : « انه من الأشراف صحيحى النسب ولقد حقق سيد محمد مرتضى نسبه » (١٣) .

لقد وصف على باشا مبارك كيف أنشأ نقيب الأشراف الشرافة وساعده فى ذلك عدة (شاوليشية) ، واتهم أحد الشاوليشية بتخصيص

(*) بمعنى اصناء كثير من الكرامات والمعجزات له واعتبار نوره أصل الخليقة .
(المراجع) .

اموال للأشراف • كما وطد مسئول آخر مكانة الأشراف كوكلاء فى كل منطقة أو مدينة • وعلى باشا مبارك ، هو مؤلف موسوعة جغرافية لمصر فى القرن التاسع عشر • وكان هؤلاء الوكلاء ، الذين كان ينتخبهم الأشراف المحليون ، مسئولين عن كل ما يتعلق بترسيخ الشرافة • فاذا أراد شخص أن يثبت نسبه الى الأشراف لأن تسلسل أصله كان قد فقد ، فعليه أن يقدم طلبا مكتوبا الى مكتب نقيب الأشراف ، الذى يقوم بالبحث عن اسمه فى كتب الأوقاف ، وعطايا الأشراف ، التى أنشأها الحكومة المصرية ، وغيرها من الأجهزة • فلو كان اسم مقدم الطلب من بين مستحقى الجعل يصبح عليه أن يقسم أنه ينتسب اليهم ، وأن يحضر شهودا يؤيدون ادعاءه • أما اذا كانت الأسماء غير موجودة فى السجلات ، فعلى الشهود أن يشهدوا بأنه من الأشراف (١٤) •

أصل الأشراف المصريين

لقد هاجر الكثير من العائلات الشريفة الى مصر • اذ يروى مبارك عن عائلة تسمى بيت الأشراف أتى جدها الكبير ، مجد الدين الى مصر من مكة فى بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، واستقروا فى منطقة الجيزة ، واشتغلوا بالتجارة ، خاصة تجارة الأغنام والماشية • واستمر أبناؤه من بعده فى مزاوله مهنته (١٥) • كما ينقل مبارك عن المقرئى ، المؤرخ المصرى الذى عاش فى القرن الخامس عشر ، والذى يكتب عن قرى الأشراف فى مديرية البحيرة ، حيث استقر الأشراف هناك مع أتباعهم ، وحلفائهم (١٦) • كذلك يكتب مبارك : حين تشتتت عائلات الأشراف فى مديرية أسيوط ، عسكرت جماعة من نسل مروان بن الحكم فى قرية تونة الجبل • واستقرت هناك • وكان أشراف أسيوط هؤلاء ينحدرون من الحسين بن على من جانب أمهم ، (وهو حفيد النبى ﷺ) • وكانت الأم هى ابنة مؤسس قرية درت سسيريان ، التى تعرف بدرت الشريف • وبعد ذلك ، استقروا فى سوهاج ، حيث ما زالوا يعيشون الى اليوم (١٧) • وثمة قرية أخرى اتخذت اسمها من أشراف غير معروفين ، وهى كوم الأشراف (١٨) •

ويزعم سكان عدة قرى فى الصعيد الانتساب الى جعفر الصادق ، فهم أشراف ويعرفون بالجعافرة (١٩) • كما أن غالبية عائلات الأشراف

التي سكنت قرية سرس الليان ، فى منتصف القرن العشرين من خارج القرية ، وأحيانا من خارج مصر ، أتوا من الحجاز والعراق والشام والصعيد (٢٠) .

ان الكثير من العائلات الأخرى والقرى التي يتكون سكانها من الأشراف ينتسبون الى رجل يشمار اليه بصاحب القرية ، أو مؤسس القرية ، والذي تتخذ اسمها منه . فحسب المقريرى سميت درت الشريف باسم مؤسسها أمير الأشراف العربى ، نعلب بن يعقوب . جد العرب الذين قادوا تمرد القبائل البدوية فى مصر ضد حكم المماليك أثناء حكم أيبك التركمانى ، أول سلاطين المماليك .

ولقد تم قمع التمرد وسجن زعمائه وشنقوا ، بعد ذلك ، بناء على أمر السلطان بيبرس (٢١) .

ان أكبر وأشهر مسجد فى جزيرة شندويل ، وهى مدينة بالقرب من سوهاج ، يعرف بمسجد سيدى على ابن سيدى أبو قاسم الطهطاوى ، جد أشراف البلدة (٢٢) .

كذلك يروى مبارك أنه فى زاوية البقلى ، وهى قرية فى مديرية المنوفية ، ينحدر معظم القرويين الألف وسبعمائة عن أبى ربيع السيد سليمان البقلى ، الشريف الحسينى الذى أسس القرية (٢٣) .

نفوذ الأشراف المصريين وتميزهم الاجتماعى

لقد حظى أشراف مصر ، شأنهم شأن الأشراف فى غيرها من البلاد الاسلامية ، بالاحترام لأسباب دينية ، وكثيرا ما كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية رفيعة ، وامتيازات اقتصادية . اذ كان ريع العديد من القرى يتحول الى وقف فيحقق دخلا يوزع على الأشراف (٢٤) . وكان الأشراف يتميزون بعباءاتهم الخضراء وكان يسمح لهم أيضا أن يرتدوا أثوابا خفيفة خضراء . ولقد أدخل هذا التمييز السلطان الأشرف شعبان ، عام ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م - ١٣٧٢ م . اذ أمر بأن يضع الأشراف شارة خضراء على عباءاتهم (٢٥) . واذا كان أحد الأشراف ثريا ومتعلما ، كان يفضل لقب

الشيخ على لقب السيد ، والعباءة البيضاء على الخضراء . وأحيانا كثيرة كان الأشراف العلماء يضعون شارة أو شريطا أخضر فوق العباءة البيضاء . (٢٦) .

وكان الأشراف غالبا ما يظهرون كتنظيم محدد في الموكب الاحتفالية أو غير ذلك من المناسبات الدينية والعامية ، مثل حفل افتتاح القناة أو رحيل قافلة الحج أو في الموالد . وحين كانت تنظم صلوات عامة بسبب انخفاض ملحوظ في فيضان النيل ، (صلاة الاستسقاء : المترجم) اعتاد الأشراف أن يخرجوا في مسيرة الى جامع عمرو بن العاص القديم ، حاملين معهم عباة النبي ﷺ (٢٧) . ويصفهم افليا شلبي كجماعة ، فكان بعضهم يمتطي الخيل ، والبعض يكون راجلا ، والجميع يرتدون ملابس محتشمة مجرد عباة خضراء (٢٨) .

ويعطى مبارك ، في القرن التاسع عشر ، وصفا حيا للأشراف وهم يسرون أثناء أحد الموالد في منفلوط (٢٩) .

ويروي م . دى تشابربول M. De Chabrol ، حين كان يكتب في بداية القرن التاسع عشر ، أن الأشراف يتمتعون عادة بوضع اجتماعي رفيع ، غير أن بعضهم قد يعمل بمهن وضيعة .

ولم يكن الأشراف يحاكمون سوى أمام نقيب الأشراف وكانوا يوضعون في زنزاة منفصلة . حتى حين كان أحد الأشراف يتم اعدامه ، كان يلقي معاملة أفضل من تلك التي يتلقاها مسلم من عامة المسلمين (٣٠) . ومع أن الأشراف لم يكونوا يتمتعون بحصانة ضد العقاب البدني ، الا أن الرأي العام اعتاد أن يستجيب بغضب حين كانت تساء معاملتهم أو يتعرضون للعقاب القاسي (٣١) .

وكان الأشراف في الازمنة العثمانية طبقه ذات شأن اجتماعي : اذ يروي افليسا شلبي أن ٤٦٠٠٠ من الأشراف كانوا تحت السلطة القضائية لنقيب الأشراف (٣٢) واذا كانت أرقام افليا (شلبي) متضخمة بشكل شنيع ، الا أنه لا شك في أن الأشراف كان عددهم كبيرا . اذ يكفي

ان نلاحظ أن الكثير من العرب المستقرين والرحل كانوا من أصل عربي ادعوا انتسابهم للأشراف وبالمثل ، فإن جزءا لا يستهان به من سكان المدن اشتملوا على أشراف . ومن الجدير ملاحظته أن الأوامر الرسمية الموجهة الى الجمهور كانت توجه الى طبقات المجتمع المدني الأساسية الثلاث : العسكرية ، والأشراف والرعية أو أبناء البلد (٣٣) .

ولقد كان الانتساب الى الأشراف يسبغ تميزا اجتماعيا وامتيازاً ، كما أشارت المصادر الى ذلك مرات عديدة ، وكما لاحظ الأجنبي . فعلى سبيل المثال ، هناك فرمان عثمانى لعام ٩٩٤ هـ / ١٥٨٦ م يؤكد على أن أحد صفار موظفي الدولة كان قد خطفه قراصنة مسيحيون هو من بين الأشراف حقاً ؛ ويبدو أن السلطات المصرية اقنعت اسطنبول بأن تفديه بمبلغ باهظ من المال وأن تستبدله بثلاثة من المسيحيين الأسرى في مصر (٣٤) . ويبدو من المؤكد أن مكانة الأشراف في مصر قد قويت وتعاضمت أثناء الحقبة العثمانية بالمقارنة مع أيام المماليك . وهذا التغير يتوازي مع نهضة معتقدات المصريين الاسلامية في مصر العثمانية وفي غيرها من البلاد . ويبدو لنا ، من واقع المعلومات المتاحة والشحيحة نوعاً ما فيما يتعلق بأوائل الحقبة العثمانية أن الأشراف كانوا جماعة مترابطة . اذ يروى أنه في عام ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ - ١٦٦٩ م هاجم حاكم المنصورة قرية مينبول (?) في مديرية الدقهلية (*) ، وخرّب القرية وقتل خمسة عشر من سكانها ، كانت غالبيتهم من الأشراف . فشكا الأشراف لديوان مصر ، وعرضت القضية على قاضى عسكر الذى حكم على الحاكم بالموت . ومع الوقت ، تم الوصول الى حل توفيقى ، وذلك بتعويض الأشراف بمبلغ ٣٠٠٠٠ نصف (٣٥) .

وثمة مواجهة حدثت عام ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م تعد مثالا على الاستقلال الشديد الذى كان ينعم به الأشراف . ففي ذلك العام ، تلقى عبد الله أفندى ، قاضى القدس ، أمراً بأن يذهب للتفتيش على الأشراف ، ربما فى تحقيق يتعلق بمخصصاتهم . فاحتج الأشراف احتجاجاً عنيفاً ، مدعين أن

(*) لم نستدل عليها في المعجم الجغرافى للبلاد المصرية - (المراجع) .

تفتيشا كهذا أمر لا سابقة له . فذهبوا الى الجامع الأزهر وحصلوا على فتوى من العلماء تقول بأن أخذ أموال الأشراف فعل غير شرعى . ثم ذهب الأشراف الغاضبون الى الديوان للاحتجاج : فلما لم يستجب لمطالبهم فورا ، نزلوا الى المدينة للتظاهر ، وأجبروا الناس على غلق محالهم ، وساروا نحو الأزهر . وهناك أخذوا البيزق النبوى من المسجد الحسينى ورفعوه فوق منذنة الأزهر . وأخيرا ، ألقى الباشا التفتيش ، وفر قاضى القدس سبيء الطالع (٣٦) .

وفى حادث آخر ، عام ١٦٥٩ ، يوصف الأشراف بأنهم جهاز عسكرى ، يتألف من الفرسان والمشاة اشتركوا فى حملة لقمع حاكم متمرّد فى جرجا ، عاصمة الصعيد .

وفى العرض العسكرى ، كان نقيب الأشراف يسير مع قاضى عسكر (٣٧) . ويصف نفس المصدر حادثة فى ١١٠٥ هـ / ١٦٩٣ م تورط فيها أشراف وبدو سمالوط . تلقى هذه الحادثة ضوئا على عسكرية الأشراف وتكبرهم . اذ قتل الأمير عبد الله بن وافى ، شيخ عرب المغاربة أحد الأشراف ، هو السيد محمد . ولم ينجح الأشراف فى أن يثأروا لدمه ؛ وبعد ذلك أعطى شيخ البدو ضريبة الأراضى فى تلك المنطقة وتصالح مع السيد هدية ، زعيم الأشراف ، وتقاسم معه الضرائب . ومن أجل تقوية الحلف ، أراد زعيم البدو أن يزوج ابنه من ابنة الشريف القتيلى . وحين استشار هدية عم الابنة وأبناء عمها قالوا : « حتى لو قتل آخر رجل منا فلا نوافق على زواج شريفة علوية من بدوى ليس له أى أصل نبيل ، وبالإضافة الى ذلك قتل أباه » . وبعد أن قرروا الانتقام لحادث القتل ، قتل الأشراف الشيخ عبد الله ، حين حضر الى منزل العم ، كما قتلوا بدوا محلين آخرين (٣٨) .

لقد اعتبر الأشراف أيضا عناصر غيرورة ذات خطر محتمل على الأهالى . وفى عام ١٧٠٣ م ، كان القنصل الفرنسى فى القاهرة يمارس ضغطا على الباشا كى يعزل أغا الانكشارية ، الذى ضرب تاجرا فرنسيا ضربا مبرحا ، بوصفه رئيس الشرطة ، وحدث ذلك فى وسط الشارع لإرتدائه عمامة بيضاء يفترض أنها مقصورة على المسلمين . وكتب القنصل

الى حكومته أن عزل الأغا سيؤدى بالجيش والأشراف والعلماء للجوء للحنف . وبخصوص الحادثة نفسها ، تم توضيح أن الراى العام الاسلامى لن يتسامح فى عزل الأغا صاحب النفوذ ، الذى أعدم بعض الأشراف ، لمجرد ضربهم لأحد المسيحيين (٣٩) . وفى ١١١٢ هـ / ١٧٠٠ أو ١٧٠١ م ، قتل جندى من كتية العزاب أحد الأشراف أثناء شجار فى إحدى الأسواق . فأمر الباشا بشنق الجانى ، غير أن دهماء القاهرة والعديد من الأشراف أمسكوا بالجندي من الضابط الذى كان يأخذه الى السجن وقتلوه بلا محاكمة ثم أحرقوا الجثة فى الميدان تحت القلعة (٤٠) . وفى حادثة مماثلة فى سنة ١٧١٢ ، قتل أحد المماليك شريفا ، فى شجار فى أسواق القاهرة ثم فر ، فوضع الأشراف الجثة فى تابوت ، وذهبوا الى الديوان ، وأثبتوا أنه قد تم ارتكاب جريمة قتل . ثم أوقفوا السوق ، وذلك بالقاء الحجارة على أصحاب الحوانيت الذين لم يغلقوا محالهم بالسرعة الكافية ضارين كل من قابلوه ، بمن فى ذلك الأمراء . واستمر هذا الحال لمدة يومين . كذلك استدعوا الأشراف من القرى المتاخمة للقاهرة كى يتجمعوا فى المسجد الحسينى . وبعد أن حمل الأشراف « البيرق النبوى » سار الأشراف الى منزل الدفتردار قايتاس بك ، حيث تقاطلوا مع مماليكه . ثم قرر الأمراء نفي جماعة من قادة الأشراف ، غير أنهم اضطروا الى العفو عنهم بعد أن توسط عدة مشايخ وعلماء . بعد ذلك ، اعتبر الأشراف أنه من الحكمة ارتداء عبايات بيضاء بدلا من العبايات الخضراء (٤١) .

ان الأحداث التى سبق ذكرها تظهر تضامن الأشراف بشكل قوى ، كما تظهر حساسيتهم لتعدى الحكام على حقوقهم ، كما تظهر نفوذهم فى المجتمع القاهرى ، والتأييد الذى يلقونه من العلماء .

ويروى الجبرتنى صداما بين الأشراف وحاكم مديرتى الغربية والمنصورة أثناء مولد أحمد البدوى فى طنطا ، فى جمادى الآخرة عام ١٢٠٠ هـ الموافق لأبريل ١٧٨٦ . تبين هذه الرواية استعداد الأشراف لتحدى الحكام . اذ تمت مصادرة جمال العديد من الأشراف (الذين ربما كانوا من البدو) وذلك لأن أصحاب هذه الجمال رفضوا دفع الضريبة الخاصة المفروضة على بيع الجمال أثناء المولد . فأيد ذلك الكثير من المشاركين

فى المولد بمن فيهم العالم الشهير الشيخ دردير ، ونجم عن ذلك شجار بين الجمهور وعسكر الحاكم (٤٢) .

ومن بين الفروق الملحوظة فى تركيبة الأشراف أثناء حقبة العثمانيين بالمقارنة بحقبة المماليك هو أن بعض أعضاء الطبقة الحاكمة هم الآن من الأشراف . أما فى حقبة المماليك ، فلم يكن فى استطاعة أى سلطان أو أمير أو جندى أن يكون شريفاً لسبب بسيط هو أن المملوك نظرياً وفعلياً هو ابن لوالدين غير مسلمين كما أنه قد ولد خاراج حدود الاسلام الجغرافية . وفى الحقبة العثمانية ، لم تعد الطبقة الحاكمة مقصورة على المماليك فحسب . رغم أن المماليك ، بعد ذلك ، فى نهاية الأمر أصبحوا حكام مصر مرة أخرى تحت السيادة العثمانية .

تذكر الحوليات أسماء العديد من الباشوات والضباط الأتراك الذين يطلق عليهم لقب سيد أو شريف ، كانوا أشرافاً وخدموا فى مصر (٤٣) . وكان أحد حكام مصر من أصل فارسى هو الشريف محمد باشا ، (حكم ١٠٠٤ - ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٦ - ١٥٩٨ م) وهو الذى أصدر مرسوماً بوجوب ارتداء الأشراف المصريين عباءة خضراء بدلاً من الشسارة الخضراء فوق عباءاتهم . إذ لا بد أنه كان حريصاً على التأكيد على الفوارق الاجتماعية ، لأنه أجبر اليهود أيضاً على ارتداء قلانس حمراء بغرض اذلالهم وتمسك بحزم بالحدود المفروضة على أولاد البلد (٤٤) .

قصارى القول ، بالرغم من أن المعلومات المتاحة عن الأشراف فى مصر العثمانية ليست شديدة الغزارة ، الا أننا نعرف المزيد عن هذه الطبقة الاجتماعية فى القرن التاسع عشر بشكل أفضل ، ويرجع الفضل فى ذلك الى موسوعة على مبارك الشاملة (٤٥) .

وعموماً ، يجب التأكيد على أن المعلومات الخاصة بالسلطنة المملوكية (التى تعد المصادر التاريخية أكثر ثراءً بالنسبة لها وأكثر تعدداً من الحقبة العثمانية) تظل مع ذلك أكثر فقراً . فالمرء يحدث لديه الانطباع بأن مكانة الأشراف الاجتماعية ، وتضامنهم وأحوالهم الاقتصادية قد تحسنت الى حد كبير أثناء الحقبة العثمانية ، آخذين فى الاعتبار معظم المعلومات الهامة - بخصوص هذا الموضوع - المتعلقة بالقرن السابع عشر وما تلاه .

ولا تعد هذه المعلومات مشاراً مفاجأة ؛ ذلك أن ضعف قبضة الحكومة العثمانية قرب نهاية القرن السادس عشر وما تبع ذلك من قلاقل سياسية قوى من شوكة العناصر المحلية ، كما بينا . فهذه العناصر ، بما فيها الأشراف ، قد عاشت فترة المماليك ، غير أن النظام القوى المتسلط فى ذلك الزمان كبح من حريتهم الى حد كبير أكثر مما حدث أثناء الحكم العثمانى . ومع كل ، فإن النظام المركزى الذى أقامه محمد على بالإضافة الى حركة التحديث التى بدأت فى القرن التاسع عشر ، أدت الى تدهور تدريجى لهذه العناصر . ذلك أن الأحداث التى اشترك فيها الأشراف توحى بقوة بأن ما كانوا يتمتعون به من ترابط وما كانوا يتسمون به من تأكيد الذات ، لم يكن سوى تعبير عبر به المصريون عن كرامتهم ومعارضتهم للظلم الذى كان الجند الأتراك يمارسونه .

نقيب الأشراف

الفتح العثمانى لمصر والسنوات الأولى للحكم العثمانى :

كان نقيب الأشراف بمثابة المسئول الذى تعينه الحكومة للأشراف على الأشراف . ويشترك لفظ نقيب من مادة نقب التى تعنى بحث وحقق فكان من واجبه أن يفحص أصل المدعين بأحقيتهم بمكانة الشريف وأن يمنع الدخلاء من أن تدرج أسماءهم فى سجل الأشراف ، حتى لا يستمتعوا بتخفيضات الضرائب التى تصحب ذلك وحتى لا يتلقوا مخصصات ليست من حقهم .

وقد تم إيجاد هذا المنصب أثناء الحقبة العباسية . وكان الفاطميون يطلقون على المتقدمين لهذا المنصب اسم نقيب الطالبين أو العلويين ، أما لقب نقيب الأشراف فظهر أول ما ظهر أثناء حقبة المماليك .

لقد كان شاغلو هذا المنصب تحت حكم العباسيين والفاطميين من أرباب السيوف تمييزاً لهم عن الموظفين الإداريين والدينيين (أرباب القلم) . أما فى السلطنة المملوكية ، فكان نقيب الأشراف يقوم بوظيفة دينية . ورغم أنه كان له الحق فى أن يعتبر (من أرباب السيوف) إلا أنه كان ينظر اليه تقليدياً على أنه «رجل قلم» ويرتدي عباءة كعالم (٤٦) . ويبدو

أن تفسير هذا التغيير أمر بسيط ، وذلك بسبب التركيب الاجتماعي للطبقة العسكرية الحاكمة في السلطنة المملوكية ، إذ لم يكن من المسموح لأى رجل ليس له أصل مملوكى بأن ينتمى الى أرباب السيوف ، وبالتالي الى المناصب العليا . وكما سبق أن ذكرنا ، لم يكن فى إمكان أى أمير مملوكى أن يكون من الأشراف ، وبالتالي لن يكون نقيباً للأشراف .

وفى نهاية الحقبة المملوكية ، وبداية الحكم العثماني فى مصر ، كان نقيب الأشراف يذكر بالفعل فى كتب التاريخ الحولى وحين يذكر ، فان الطريقة التى يتم بها ذلك لا تدع أى مجال للشك فى أن نفوذه محدود (٤٧) . ذلك أنه ، فى الحقبة المملوكية ، على سبيل المثال ، تذكر المصادر الخليفة العباسى ، والقضاة الأربعة ، ومن آن لآخر تذكر رؤساء الطرق الصوفية ، غير أنها لا تأتى أبداً على ذكر نقيب الأشراف ، وذلك هند وصفها للاحتفالات العامة أو مشاورات الحاكم مع الزعماء الدينيين . وبعد الفتح العثماني بعامين ، وصل أحد الأشراف من اسطنبول ومعه أمر من السلطان يقرر أنه قد تم تعيينه نقيباً لأشراف مصر (٤٨) . ومن الجدير ذكره ، أن ابن اياس المؤرخ الحولى الذى يصف الفتح العثماني والسنوات الخمس التى تلتها ، يروى هذا التعيين الخاص كأمر واقع عادى وباقتضاب رغم أنه كان قميناً بأن ينتقد أى تعيين أو بدعة نشأت عن اسطنبول بحدّة . والأكثر من ذلك ، أن حوليته التفصيلية لا تحتوى على أقل دليل يوحى بأن هذا التعيين قد لاقى أى نوع من المعارضة من جانب العناصر المحلية ، وهذا على النقيض الشديد مما حدث فى الفترة العثمانية بعد ذلك (٤٩) .

وكان المنصب نادراً ما يذكر أثناء السنوات الأولى للحكم العثماني فى المصادر ، وهو أمر يثير العجب ، مع شح المصادر التاريخية ، التى تناولت مصر فى القرن السادس عشر (٥٠) . وعموماً ، هناك ملحوظة قصيرة فى حولية الديار بكرى تتحدث عن تمرد أحمد باشا عام ١٥٢٣ . إذ رشح الباشا شخصاً يدعى فهد الدين المحلى . وكان هذا الشخص يتكسب من بيع الوسادات والحواشى . وأثار هذا التعيين لتاجر قاهرى لا أهمية له دهشة أهالى القاهرة ، ويبدو أن هذا التعيين كان يقصد منه إضعاف نفوذ اسطنبول فى مصر (٥١) .

نقيب الأشراف كموظف عثمانى

لا يعد منصب نقيب الأشراف مهماً في التاريخ الاجتماعي لمصر العثمانية فحسب ؛ وإنما تعكس التقلبات التي طرأت على هذا المنصب ، أيضاً ، تطورات سياسية في مصر بطريقة تذكرنا بالتغيرات التي طرأت على سلطة الباشا العثماني نفسه . فحتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، كان نقيب الأشراف موظفاً تركيا عثمانياً ، نمطياً ، شأنه شأن الباشا أو قاضي عسكر (٥٢) . إذ كان مسئولاً أمام نقيب الأشراف في إسطنبول ، رغم أنه (شأنه شأن غيره من نقباء الأقاليم) قام بدور أكثر نفوذاً إلى حد ما في شئون القاهرة أكبر مما قام به رئيس النقباء في العاصمة .

وكان التعيين محدوداً بعام واحد مع إمكانية التجديد ، ومثله مثل كبار المسئولين ، كان على نقيب الأشراف أن يدفع ثمناً كبيراً من أجل المنصب ويرسل هبة سنوية لإسطنبول (٥٣) .

وحتى أوائل القرن التاسع عشر ، كان النقيب يحاكم الأشراف (٥٤) . في كل شيء عدا القضايا الكبرى (٥٥) غير أنه فقد هذه السلطة تحت حكم محمد علي (٥٦) . واحتفظ النقيب ومندوبوه في البلدة بجداول العائلات التي كانت هناك حاجة لها لتحديد أصل من يدعون نسباً شريفاً (٥٧) . كما كانوا يرتبون دفع المخصصات المستحقة لهم (٥٨) .

وكان نقيب الأشراف يشارك في احتفالات مختلفة مثل فتح سد اترعة عند ارتفاع الفيضان ، أو موكب كسوة الكعبة (٥٩) . وكان يعنى بأن يشارك الأشراف في الاحتفالات ، مثل موكب المحمل (٦٠) . وكذلك كان يتخذ المبادرة في الأنشطة الدينية ، مثل إصلاح المساجد ، وبناء مساجد للدرأويش (٦١) .

وكان نقيب الأشراف يساعده عدد من معاونين والكتبة ، بمن في ذلك شاويشية ، يرأسهم باش شاويش (أو باش جاويش) الشرف ، وكاتب (خطيب) وهو منصب محترم يسدو أنه وراثي في عائلات

معيّنة (٦٢) . وبالإضافة إلى نقيب أشرف مصر ، كان هناك أيضا نقباء محليون مسئولون عن إحدى المدن أو المناطق . وهكذا ، يذكر أحد المصادر نقيب أشرف مدينة طهطا (٦٣) . ونقيب الأشراف في مديرية أسيوط (٦٤) ، ونقيب منفلوط ، الذي كان منصبه وراثيا داخل عائلة واحدة (٦٥) ، ونقيب أشرف بلدة أبيضار ، بالإضافة إلى نقابات أشرف المنوفية (٦٦) .

ومع مقدم القرن السابع عشر ، صار نقيب الأشراف واحدا من عليّة القوم البارزين ، وكان يلاحظ حضوره كثيرا إلى الديوان . ومن آن لآخر ، كان يذكر كواحد من المرموقين الذين يحاولون التفاوض على إقامة هدنة بين فصائل المماليك المتحاربة (٦٧) . وحين خلع الكبراء موسى باشا من أجل اغتيال قايتاز بك Qaytas Bey في يوليو ١٦٣١ ، كان نقيب الأشراف هو الذي وضع خلمة الشرف على الأمير الذي تم ترشيحه مندوبا للباشا (٦٨) .

في عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م ، انضم نقيب الأشراف برهان الدين أفندي إلى قاضي عسكر في إصدار فتوى أعلنت أن محمد بك ، حاكم جرجا ، متمرّد ، وصادق على حملة ضده ، اشترك فيها النقيب (٦٩) . وفي عام ١٢١١ هـ / ١٧٠٩ م ، توفى نقيب الأشراف السيد حسن أفندي . وكان آخر سلسلة في إحدى العائلات استولت على المنصب لأجيال عدة (٧٠) . ويقدم افليا (شلبى) بعض المعلومات عن هذه العائلة ، التي خدمت كنقباء للأشراف في مصر حوالي قرن ، وخاصة معلومات عن برهان الدين أفندي ، الذي سبق ذكره ، وتوفى عام ١٦٧٥ .

وكان برهان الدين شخصا تركيا ولد في مديرية حامد بالأناضول ، ودرس في مدرسة السليمانية الشهيرة في اسطنبول . ويوصف برهان الدين باعتباره رجلا كريما ثريا تحكم في عدة مؤسسات للوقف وكانت له عوائد من ضرائب أراض ، كان بعضها يتكون من قرى كاملة (٧١) . وحسب الاجراء العثماني المعتاد ، كان يتم تعيين مندوب مصري محل النقيب المتوفى وحين وصل النقيب الجديد من اسطنبول ، بعد ذلك بحوالي عام ، قضى الليلة في منزل باش جاويش الأشراف حيث

قتل أثناء نومه • ثم عرض المنصب على المنديوب ، فرفضه • وأخيرا تم ترشيح ضابط عثماني سابق ، نائب قائد ، كتخدا كتيبة العزاب (٧٢) • ويذكر أحد المؤرخين الحوليين الأتراك ، فى روايته لنفس القصة أن جميع الأشراف أيدوا هذا التعيين (٧٣) •

نقل المنصب الى أعيان محليين

أثناء النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، انتقل منصب النقيب الى عائلتين قاهريتين بارزتين ، السادات الوفاية (أو بنو السادات) ، والبكرى ، وكلتاهما عائلة صوفية قديمة ، ومن بين أكثر العائلات احتراماً وثراء فى مصر (٧٤) • اذ ادعت عائلة البكرى الصديقى النسب الى أبى بكر ، أول الخلفاء الراشدين ، والى الحسن بن على بن أبى طالب ، وبذلك جعلوا العائلة واحدة من عائلات الأشراف (٧٥) • وحسب تراث العائلة ، فانها وصلت الى مصر فى القرن الأول الهجرى ، أو القرن السادس على أبعد تقدير (٧٦) • وفى أى من الحالات يمكن أرجاع أصلهم اليه كعائلة متصوفة مرموقة فى القاهرة فقط فى القرن التاسع عشر ، حين أشير الى محمد جلال الدين البكرى (المتوفى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) كقاض بالفيوم • فأقام الوشائج مع المتصوف المتجول الشهير الشيخ عبد القادر الدشبطوطى ، وأشرف على شئونونه ، وعلى المنازل التى بناها فى القاهرة (٧٧) •

وفى أوائل الحقبة العثمانية ، كان البكرية شاذلية ، ولكن فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، أصبحوا مرتبطين بالطريقة الخلوتية عن طريق الشيخ مصطفى البكرى الدمشقى (المتوفى سنة ١٧٤٩) (٧٨) •

وزعمت عائلة السادات الوفاية نسبها الى العائلة المالكة الادريسية فى المغرب ، وكانوا ، مثل البكرية ، أشرافا من نسل الحسن بن على بن أبى طالب • وحسب تراث العائلة ، فانهم حضروا الى مصر من تونس ، وصفاقس فى بداية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى (٧٩) • وأنشأوا طريقة صوفية ، كانت أحد أفرع الشاذلية • وكان الوفاية معروفين بشروتهم وشعرائهم وتجمعاتهم ، حيث كان المتصوفة يعزفون على

الآلات الموسيقية ، رغم ما كان يحدثه هذا من ضيق المسلمين السنة (٨٠) .
 وقام رأس العائلة الشيخ السادات (المعروف أيضا بلقب شيخ السجادة
 أو خليفة الوفاية) فى القرن الثامن عشر كمعصر توازن للشيخ البكرى ،
 رغم أن الأخير كان يتمتع بمكانة اجتماعية ودينية أكثر رفعة (٨١) . إذ كان
 الشيخ البكرى مسئولاً عن مولد النبى ، بينما كان الشيخ السادات مسئولاً
 عن المولد الحسينى ، وهو الثانى من حيث الأهمية (٨٢) . كما أشرف
 السادات على وقف المسجد الحسينى (٨٣) . بالإضافة الى ما كان
 البكرية والوفائية يمتلكونه من أراض الى جانب دخولهم كمشرفين
 على الأوقاف ، وكان البكرية والوفائية بالإضافة لهذا يتلقون مخصصات
 حكومية (٨٤) .

من الأمور الهامة أنه فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ،
 انتقل منصب نقيب الأشراف الى العائلات المحلية التى تحتل مكانا رفيعا
 فى البناء الهرمى لمتصوفة القاهرة . فقوى هذا التغيير من المنصب ،
 الذى لم يرتبط أبدا من قبل بالمتصوفة ، وكان هذا مزامنا (مواكبا)
 للانهييار الذى حدث لتنفيذ الحكومة المركزية فى مصر .

لقد سبق أن ذكرنا زيادة نفوذ الأشراف فى الحقبة العثمانية ، غير
 أنه بعد أن حصل الوفاية والبكرية على منصب النقيب ، فاق النفوذ
 السياسى والاجتماعى الذى تمتع به صاحب المنصب ما كان للأشراف
 (من قبل) الى حد بعيد . وتقدم المصادر معلومات أكثر بكثير عن النقيب
 مما تقدمه عن الأشراف (قبل أن يكون لهم نقيب) ، إذ لم يعد منصب
 النقيب مقصورا على الجانب الإدارى ؛ بل انه تمتع أيضا بامتيازات
 اجتماعية ودينية .

وكان أول وفائى (مصرى) يعين نقيبا للأشراف هو رأس العائلة ،
 السيد محمد أبو الهادى (توفى سنة ١١٧٦ هـ / ١٧٦٢ م) (٨٥) وبعد
 وفاته ، عين قريبه السيد أحمد بن اسماعيل أبو الامداد (بكسر الهمزة)
 لخلافته (١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م) . وبعد ذلك بثمانى سنوات ، حين صار
 رئيس العائلة الوفاية ، رفض منصب سيدى محمد البكرى أول من تولى
 المنصب (٨٦) . وتشير ملحوظات الجبرتي عن الوفاية الأوائل الذين تولوا

المنصب بأنه لم ينتقل بطريقة تلقائية لرأس العائلة وكان يعد أقل أهمية من زعامة العائلة والطريقة الصوفية . كان محمد أفندي (الأب) أيضا رأس العائلة وعند وفاته عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨١ م ، ورث محمد أفندي البكرى الصغير (الابن) المنصبين . ويشير الجبرتي ، أن تعيين البكرى الصغير أعلن عنه مراد بك ، الذى خلع عليه ثوبا رسميا للمنصبين معا (٨٧) . ولم يعد التعيين من اسطنبول أمرا ضروريا ، وبدا الانتقال الوراثى للمنصب فى العائلة البكرية اجراء طبيعيا لا يتطلب سوى الموافقة الرسمية من قبل حاكم مصر (٨٨) .

عمر مكرم

انفصل المنصبان : نقابة الأشراف ورئاسة العائلة (الخلافة) مرة أخرى ، حين توفى محمد البكرى الصغير بلا وريث فى عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م . ورشح وريثه خليل البكرى رأسا للعائلة فقط ودفن مراد بك وابراهيم بك ، وهما المملوكان اللذان كانا حاكما مصر الفعلين ، دينا سياسيا بتعيين عمر مكرم ، وهو من أبناء أسيوط ، نقيباً للأشراف (٨٩) ، فحين كان البكوان الاثنان منفيين فى الصعيد ساندتهما عمر مكرم ، وأدى بنجاح مهمة دبلوماسية بالنيابة عنهما لدى الباشا العثماني ولدى شيخ البلد (أكبر أمراء المماليك نفوذا فى القاهرة) ولدى كبار العلماء فى ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م ، مما مهد الطريق لعودتهما الى القاهرة وأدى فى النهاية الى استيلائهما على السلطة (٩٠) .

لقد كان تعيين عمر مكرم نقيباً للأشراف أمرا غير عادى ، باعتباره كان غريبا دون صلات عائلية أو اجتماعية فى القاهرة (٩١) . كما لم يكن متصوفا أو عالما . ومع أن عمر مكرم حصل على موقعه من خلال الأمراء ، الا أنه أثبت استقلاله . ففي عام ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م ، وقف مع الشيخ البكرى والشيخ السادات ضد مراد بك وابراهيم بك مطالبين أن يمنعوا العسف الذى يقترفه الكثير من أمراء المماليك ضد سكان احدى القرى كانت ضمن حسبة الشيخ الشرقاوى ، وهو أحد علماء الأزهر البارزين (٩٢) .

وفى وقت فتح بونابرت لمصر عام ١٧٩٨ ، رفض عمر مكرم أن يظل فى منصبه ، وذهب للمنفى فى فلسطين . فعين الفرنسيون محله خليل البكرى ، وهو اختيار طبيعى ، لأن خليل تعاون معهم - على العكس من عمر مكرم والشيخ السادات - ونتيجة لموقف خليل هذا ، نهب منزله ، بعد ذلك ، وتم اعدام ابنته لاتصالاتها مع الغازين .

ومع عودة الحكم العثماني لمصر ، خلع خليل البكرى من منصبه (٩٣) . ان نشاط عمر مكرم كزعيم شعبى للتمرد على الفرنسيين ، واسهامه الحرج فى تعيين محمد على واليا على مصر ، وكذلك زعامته لمعارضة الغزو البريطانى فى عام ١٨٠٧ ، كلها أمور معروفة تماما ولسنا بحاجة الى تكرارها هنا . ومع ذلك ، يجب التأكيد فى هذا المجال ، على أن فراغا سياسيا قد طرأ فى الفترة المضطربة بين الجلاء الفرنسى وتدعيم أركان حكم محمد على . وأثبت عمر مكرم أنه زعيم شعبى من طراز جديد استمد سلطته مباشرة من الأهالى . وكانت سيطرته على المدينة سيطرة تامة (٩٤) .

ولا شك فى أن زعامته صارت ممكنة بفضل قوة شخصيته وشجاعته . ومع ذلك ، يمكن للمرء أن يفترض أنه بدون منصبه لم يكن له أن يصل الى الموقع الذى جلب له هذا النفوذ . اذ تجب ملاحظة أن نقابة الأشراف كانت الوضع الادارى الرفيع الوحيد الذى وصل اليه المصريون .

وبمجرد أن اكتشف عمر مكرم أنه تسبب فى صعود طاغية ، انقلب على محمد على ، الذى كان يخشى من سيطرة عمر مكرم التامة على الأهالى (٩٥) . ولما فشل الباشا فى رشوته ، قرر عزله . فبتحريض من محمد على ، كتب العلماء عريضة الى اسطنبول متهمين عمر مكرم بأنه قه شطب من السجلات أسماء أشراف يستحقون المعاشات ، زبابدال أقباط ويهود اعتنقوا الاسلام . كذلك اتهم بتجميع العصابات من المغاربة حوله ، وأهالى الصعيد ، والدهماء وكذلك حث الأمراء المصريين على التمرد ضد الحكم العثماني (٩٦) . ويعتقد الجبرتى أن هذه الاتهامات باطلة ، وأن العلماء وقعوا على العريضة من قبيل الخوف من الباشا وغيرتهم من عمر مكرم .

ان الاتهامات ضد عمر بأنه كان يختلط بالعناصر الدنيا يبدو أنها تعكس أسلوب زعامته التي لم تكن قائمة على العناصر الاجتماعية المحافظة .

وفى عام ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م ، تم عزل عمر مكرم من منصب نقيب الأشراف ونفى الى دمياط . وانتقل المنصب الى شيخ السادات الوفاية ، الشيخ محمد أبو الأنوار ابن عبد الرحمن ، وهو رجل طامح طموحا كبيرا ، اذ كان يتلهف للاستيلاء على هذا المنصب منذ وقت طويل .

وصار المنصب ، تحت حكم محمد على ، حكرا على البكرية وظل كذلك حتى منتصف القرن . فتولى الشيخ البكرى ثلاثة مناصب فى آن واحد : رأس العائلة البكرية ، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية فى مصر - وهو منصب أوجده محمد على لكى يجعل رقابته على الطرق مركزية - ومنصب نقيب الأشراف ، المنصب الذى أصبح أقل أهمية من منصب شيخ الطرق الصوفية (٩٧) .

وفى القرن التاسع عشر ، تحددت سلطة نقيب الأشراف مرة أخرى بالأشراف على شئون الأشراف . وابتداء من حكم محمد على حتى قلب الأسرة الحاكمة فى عام ١٩٥٢ ، ظل البكرية مرتبطين به . فتزاجوا من عائلة السادات ، وحسب شهادة محمد توفيق البكرى ، اندمجت العائلتان ، وذلك بأن أصبح الشيخ البكرى شيخ السادات أيضا نحو نهاية القرن التاسع عشر (٩٨) .

وقصارى القول ، فإن التقلبات التى طرأت على منصب نقيب الأشراف فى مصر العثمانية لم تكن تقلبات عادية ، حتى اذا ما نظر المرء فى التغيرات التى شكلت أهل النخبة السياسية والاجتماعية فى هذه البلاد . ذلك أن المنصب يبين بكل جلاء صعود أرستقراطية أصيلة من أهل البلد فى القرن الثامن عشر ، وكذلك أثرها المتنامى على حياة مصر السياسية والاجتماعية . كما يبين تقوية الطرق الصوفية ، الذى أوضحناه فى الفصل الخامس .

الفصل الثامن

الذميون : اليهود والمسيحيون

الفتح العثماني والذميون

لابد أن يشتمل أى مسح للأقليات فى مصر العثمانية مجتمعى الأقباط واليهود مع مزيد من التركيز على المجتمع الأول ، ربما لأنه أكبر بكثير من الثانى (١) . غير أنه بما أن المصادر تقدم معلومات أوفى بكثير عن اليهود ، فإن هذا الفصل سوف يتناولهم بمزيد من التفصيل . ان الاهتمام غير المتناسب الذى توليه المصادر لليهود بالمقارنة بالأقباط ، ربما يرجع الى المواقع الرفيعة التى حصل عليها بعض اليهود فى الادارة المالية فى مصر العثمانية . ولا يعنى ذلك ، على أية حال ، أن المصادر ثرية ، بصفة خاصة فيما يتعلق باليهود . وتقدم مواد المحفوظات (الأرشيف) والحوليات مجرد معلومات شحيحة متقطعة عن الذميين بالمقارنة مع غيرهم من العناصر فى المجتمع المصرى ، مثل الطبقة الحاكمة أو العلماء .

وثمة كلمة احترازية أخرى لها علاقة بهذا الأمر . ذلك أن كلا من انوثائق الرسمية ، مثل الفرمانات ، والحوليات كثيرا ما تذكر الذميين فى سياق سلبى واحد ، فمثلا حين يتهم وكيل مالى يهودى أو مسيحي بمعاملات تتسم بالتزوير ، أو حين يثير المسلمون الشغب ضد الذميين . بما أن المصادر قد تذكر مسئولين ذميين أمناء فى النادر ، أو تتحدث عن علاقات يسودها السلام بين المسلمين والذميين ، فإن الصورة التى تظهر قد تكون أكثر قتامة عما كانت فى الواقع . وعلى وجه العموم ، فإن الفتح العثماني

قد حسن من ظروف الجالية اليهودية . ذلك أن الحكم المملوكي كان حكما طاغيا ، ومستغلا وتعسفيا يميل الى ظلم الاقليات الدينية . اذ ارتفعت وتيرة أخذ الأموال عنوة ، وتدمير دور العبادة الخاصة بأهل الذمة وغير ذلك من أشكال الاضطهاد . فمثل هذا النظام ، كان بلاضافة الى ذلك (يسترشد بالاسلام السنى روحيا ، اذ شغل العلماء مكانا رفيعا ونفوذاً في السلطنة المملوكية) ، مما جعله يشكل عبئا ثقيلا بالنسبة للاقليات الدينية . كما خلقت المتاعب الاقتصادية وكذلك الاحساس بانعدام الأمن العسكري أثناء العقود الأخيرة للسلطنة بانعدام الأمن لدى الذميين (٢) . وبالمقارنة مع ذلك ، كان العثمانيون ، في القرن السادس عشر ، في قمة سلطتهم . فبالنسبة لمصر ، كانت حقبة سليمان القانوني ، تتسم بالحكم الحازم ، الواثق من نفسه ، المنظم الكفء الذي يتمتع بوعي اقتصادي متطور . اذ استفاد العثمانيون استفادة تامة من موارد امبراطوريتهم المادية والبشرية ، بما في ذلك ما تمتع به أبناء اقلياتهم من مواهب اقتصادية (٣) .

ورغم أن الدولة العثمانية كانت دولة سنوية محافظة ، الا أنها كانت برجماتية عملية ومستنيرة بالمقاييس المعاصرة . ذلك أن المعاملة العادلة ، عامة ، والتوجه النفعي المدبر أسهما في رفاهية الذميين بها . فبالرغم مما قيل عن موقف اليهود العام في السلطنة المملوكية ، الا أنهم قد نهضوا في ظل ادارة المالك الشركس (١٣٨٢ هـ - ١٥١٧ م) بالمقارنة مع فترة المالك الأتراك أو البحرية (١٢٥٠ هـ - ١٣٨٢ م) . غير أنه مع نهاية القرن السادس عشر ، فان المواقع التي احتلها اليهود في ادارة مصر المالية كانت أكثر رفعة وأكبر نفوذا من أي مواقع كانت لهم منذ الفاطميين (٩٦٩ هـ - ١١٧٢ م) .

الذميون اثناء الفترة الأولى من الحكم العثماني

بعد فترة قصيرة من فتح السلطان سليم لمصر ، كان يهود القاهرة من بين أولئك الذين تم ترحيلهم الى اسطنبول ، بمقتضى النظام العثماني التقليدي بالنفى الاجباري (السورجون) Sürgün (٤) ، ومع أن

الفاهريين اعتبروا هذا الترحيل اجراء قاسيا ، الا أنه لا يمكن اعتباره معاديا لليهود ، بل يجب النظر اليه باعتباره اعترافا عثمانيا بالمهارات الخاصة لدى الجالية اليهودية ، تماما مثل غيرهم من الجماعات الأخرى ممن تم ترحيلهم والتي كانت تتألف من التجار والحرفيين والكتبة ، أو صغار الموظفين الذين انتقاهم الفاتحون لممارسة مهاراتهم فى العاصمة العثمانية (٥) . وما يجدر ذكره فى هذا الصدد ، أن اليهود كان ينظر اليهم كطبقة مهنية أكثر من النظر اليهم كأقلية دينية . وبالمثل ، فان المسيحيين الذين تم ارسالهم الى اسطنبول كانوا من موظفى الخزانة ، كما تصفهم الحولية بعناية (٦) . وفى أثناء حكم خاير بك ، أول حاكم عثمانى لمصر (١٥١٧ - ١٥٢٢ م) ، لم يمر وضع الذميين بأى تغيير يمكن تمييزه . اذ ان المؤرخ الحولى ينحى باللائمة على خاير بك لاعطائه ابراهيم اليهودى ، مدير ادارة سك العملة ، السلطة فى أن يأخذ «نقود المسلمين» . كما عين خاير بك رجلا مسيحيا يسمى الشيخ يونس فى منصب المدير الأول لمكاتب الدولة ؛ مما جعل المسلمين مرؤوسين لديه . من ناحية أخرى، لم يتردد خاير بك فى فرض أحكام قاسية على الموظفين اليهود والمسيحيين بدار سك العملة ، وعلى الصرافين المتهمين بتقليل قيمة العملة . لقد ضرب أحد موظفى دار السك ثم أمر باقتياده خلال شوارع القاهرة وذراعه المبتور معلق على أنفه . وفى حادثة أخرى ، تم اعدام يهودى ومسيحى بالوضع على الخازوق لافساد العملات . ولا تثبت عقوبات كهذه أن خاير بك كان ضد الذميين ، وانما هى تثبت ، بالأحرى ، قسوته ، التى كثيرا ما وجهها ضد الجناة من المسلمين أيضا (٧) . فكما سبق أن ذكرنا ، أنه فى احدى القضايا الأولى التى نظرت أمام قاض عثمانى فى القاهرة أثناء فترة خاير بك ، كسب أحد اليهود الأتراك قضية ضد أحد أمراء المماليك . ففاجأ قرار القاضى الفاهريين الذين لم يعتادوا على أن يقاضى يهودى أميرا مملوكيا ، ناهيك عن أن يكسب القضية (٨) .

لقد اشترك اليهود والمسيحيون كجماعات منظمة فى الاحفالات التى أقيمت بمناسبة مد السلطان لفترة حكم خاير بك : اذ سار المسيحيون فى دوكب حاملين شموعا مضاءة ، ولم يحضر اليهود ، فى هذه المرة . بما أن الاحفالات تصادفت مع يوم السبت (٩) .

وكان اليهود معرضين للخطر ، خاصة حين تكون هناك أزمة سياسية ، كتحديد في الحكومة ، أو وقوع تمرد . فحين توفي السلطان سليم عام ١٥٢٠ ، هدد الانكشارية يهود القاهرة ، زاعمين أن هناك عادة قديمة تسمح لهم بنهب حارة زويلة ، وهي حي اليهود . وحين تدخل العديد من الأمراء ، هدد الانكشارية بنهب المدينة بأكملها ، غير أنهم تراجعوا بعد استرضائهم بدفع مبلغ من المال . وبعد ذلك بفترة قصيرة ، حين أصبح الجو مثوترا مرة أخرى ، في القاهرة ، خبأ اليهود أقمشتهم القيمة وحصنوا حيهم (١٠) .

وأثناء الحقبة العثمانية ، ربطت المصالح المشتركة بين اليهود والانكشارية بما أن الانكشارية اكتسبوا مقاطعات باعتبارهم أكبر وأقوى الكتائب فأدارها اليهود لهم (١١) . وأثناء تمرد أحمد باشا الخاين ، صار اليهود والانكشارية ضحايا لطغيانه . وحين أمر الباشا بسك اسمه على العملة ، فر ابراهام كاسترو Castro ، رئيس دار السك الى اسطنبول كى يبلغ السلطان بخيانة الباشا . فمارس أحمد باشا ضغطا على اليهود كى يزودوه بالمال ، مهددا بأعدام العديد منهم ، وطبقا لمصدر عبرى ، هددهم حتى بافناء الجالية بأكملها ما لم يتم الوفاء بمطالبه الباهظة ، حين اقتحمت قوات أحمد القلعة ، قتلت الانكشارية المعسكرة هناك ، وكذلك اليهود ، الذين كانوا هناك لأمر تتناق بعلمهم فى المكاتب المالية (١٢) .

وأثناء تمرد أحمد باشا ، عبرت كراهية المماليك لليهود عن نفسها ، مرة أخرى ، على هيئة هجمات على الحي اليهودى ، اذا جاز لما أن نصدق رواية المؤرخ الحولى اليهودى ، سامبارى Sambari (١٣) .

وطبقا لمصدر تركى ، لم يكن المهاجمون والناهبون من المماليك الشركاسة ، وانما كانوا من قوات غير نظامية (ليفيند) Leveny وزعر القاهرة فكان سقوط أحمد باشا بمثابة نجدة لليهود الذين اجتفوا بنجاتهم باعتباره عيد بوريم اليهودى (١٤) (عيد يحتفل به اليهود بمناسبة نجاتهم من مذبحه كاني بعد هيامان لها وتقع عادة فى فبراير أو مارس فى قلموس .

فرانكلين) : بما أن هزيمته وقعت فى مارس ، فى وقت قريب من الاحتفال بالفصح (البوريم تعنى الفصح) (١٥) .

وكان المماليك ، عموما ، أكثر عداء لليهود من العثمانيين ، باعتبارهم أكثر تعصبا للدين . إذ أن أكثر الصعوبات التى حاقت باليهود فى الحقبة العثمانية حدثت أثناء تمردين قام بهما المماليك ضد السيادة العثمانية - تمرد أحمد باشا الخاين ١٥٢٣ - ١٥٢٤ م - وتمرد على بك الكبير فى ١٧٦٩ - ١٧٧٣ م (١٦) .

ان قانونى - نامه مصر (أو القانون الادارى الذى وضعه ابراهيم باشا ، الصدر الأعظم ، بعد استعادة السلطان لمصر فى ١٥٢٥) ، لا يذكر اليهود بصفة خاصة ، أو المسيحيين ، غير أن هذه الوثيقة الأساسية تشتمل على فقرتين تشيران ضمنا الى الذميين ، وتقول احدهما : « ان الكشافة ، والمباشرين ، والمحاسبين وغيرهم من المسئولين كان يتبعهم مستشارون يغرونهم بأفعال تنتهك الشريعة وتضر بالمسلمين . فيجب التوقف عن تعيين مثل هؤلاء المساعدين . واذا نشأت حاجة بالاستعاضة عنهم بمستشارين آخرين ، فيجب أن يكونوا مسلمين متدينين ذوى قدرة » (١٧) . وهذا يعطى انطباعا قويا بأن المرسوم يطالب بعزل المستشارين الذميين . ان هذا الأمر مطابق ، من حيث صياغته لمراسيم أخرى تأمر باشا مصر بعزل موظفى الجمارك اليهود فى ميناء الاسكندرية والسويس ، الذين اتهموا بالتصرف على عكس الشريعة واحلال مسلمين محلهم (١٨) . ويقول فصل فى هذا القانون الآنف ذكره الذى يتعلق بالعملة : « لقد رفعت شكوى الى أعتابنا السامية (أى قصر السلطان فى اسطنبول) بأن الصرافين يغادرون المدينة ويذهبون الى الريف ويتنقلون من قرية الى أخرى . وحينما يجدون ذهباً فى حوزة أحد ، يشترونه ويحتفظون به . وبعد ذلك ، حين تحتاج الحكومة الى الذهب لا يكون متاحا ، ويضطر التجار لشراؤه من الصرافين ، بأى ثمن يطلبونه مهما كان . فمن الآن فصاعدا ، تحظر هذه الطريقة . اذ سيمنع البكلربكية فى مصر من خلال ناظر الاموال الطرفين من الخروج الى القرى وشراء الذهب من أجل كنزه . ومن يعص بعد أن أنذر فستصادر امواله وسيكون جزاؤه عسيرا » (١٩) . وهنا ،

ايضا ، لا يذكر اليهود بوضوح ولكن يجب أن يكون مفهوما أنهم كانوا عنصرا سائدا - بل حسب بعض المصادر كانوا الغالبية بين الصرافين .

• وكان الكثير من اليهود - تقليديا - من تجار المعادن الثمينة (٢٠) .
 فبعد سن القانون الآنف ذكره بحوالى ٣٠٠ سنة ، يروى الجبرتى أن هؤلاء اليهود ، الذين كانت مهمتهم تزويد دار السك بالذهب والفضة ، تم القبض عليهم وضر بهم بما أن العملات الذهبية اختفت من الأسواق (٢١) .
 اذن من المحتمل جدا أن تكون الفقرة التى سبق ذكرها من القانون اشارة الى اليهود ، رغم أنه لا يمكن اثبات أنها تشير اليهم وحدهم .

اليهود كصرافين

بالرغم من أهمية اليهود فى التجارة ، الا أن عدد من كسب قوته منهم من العمل كصرافين ، وصياغ وجباة ضرائب ورجال مصارف - كلهم كانوا يقعون تحت مظلة الصرافين - لابد أن يكونوا أكبر بكثير من اليهود المشتغلين بالهن الأخرى . ذلك أن هذه المهنة اليهودية النمطية حددت الى مدى كبير صورتهم وعلاقتهم مع السلطات ومع غير اليهود . فلم يكن جميع الصرافين من اليهود ؛ بل كان الكثير منهم من الأرمن والأقباط ، وفى القرن الثامن عشر ، كان هناك الكاثوليك الشوام الذين كانوا ينافسون اليهود بنجاح (٢٢) ، ومع ذلك ، فإثناء معظم الحقبة العثمانية ، سيطر اليهود على ادارة أموال الديوان ، وسك العملة كما عملوا كرجال بنوك لدى الانكشارية والباشوات الآخرين والأمراء . فلا غرو فى أن الصورة النمطية لليهود المستحوزين الحاذقين ، المألوفة من بلاد أخرى استمرت أيضا فى مصر . فالتجارة فى المال والمعادن الثمينة والمجوهرات كانت تجارة رابحة ولكنها أيضا خطيرة ، وحتما كانت تتسبب فى الغيرة والكراهية . فالأقباط أيضا كانوا متخصصين فى المال . فشأنهم شأن اليهود ، عمل الكثير منهم كصرافين ، وجباة ضرائب . وثمة أوجه شبه مثيرة بين المهن والتقاليد المهنية لدى الجاليتين . فكلاهما كان يستخدم لغته (القبطية والعبرية) ككتابة مقتضبة للحساب وحفظ الدفاتر (٢٣) . ونشأ الفرق الرئيسى بينهم فى أن اليهود كانوا من سكان المدينة ، والأقباط كانوا فى غالبيتهم

من سكان الريف • وكان اليهود تعينهم الحكومة المركزية عادة - الباشا والديوان - بينما كان الأقباط نشطاء فى القرى • وبينما كان اليهود مرتبطين عادة بالانكشارية - وهى قوة مدنية ومركزية - كان الأقباط يخدمون بكوات بعينهم وكشافا ، كأمناء سر وسكرتيرين ووكلاء ماليين (٢٤) • ومع أن الحوليات تقدم معلومات عن اجراءات اتخذت ضد أفراد من اليهود كانوا فى خدمة الديوان ، كما تقدم معلومات عن اجراءات ضد اليهود والمسيحيين ، الا أن الحالة الوحيدة (قبل حكم على بك الكبير) لمحاولة ازالة جميع الصرافين اليهود ظهرت أثناء حكم أحمد باشا الدفتردار • وفى عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٦ م ، عزل هذا الباشا جميع الصرافين اليهود الذين كانوا يعملون بديوان القاهرة ، وأحل مسلمين محلهم ، بصفة رئيسية ، صرافين قدموا من الحجاز • أما تفاصيل الظروف التى أدت الى هذا القرار فالمعلومات عنها شديد الندرة ، غير أن ريمون يرى أنها كانت تستهدف الانكشارية الذين كانت لهم مصالح مشتركة مع اليهود (٢٥) • وعلى أية حال ، من الواضح أن هذه السياسة كانت قصيرة الأجل ، بما أن السلطات اكتشفت أنه لا غنى عن اليهود • وتروى الحوليات تطهير الخدمة المالية من اليهود بالديوان بألفاظ بغیضة معادية للسامية •

لقد تم تحذير الناس من لصوصية اليهود وأعمال التزوير التى يقومون بها ولقد نظف الباشا الديوان من قذارتهم • ويطلق الحولى على اليهود لفظ (شيفيت) Civit وهو لفظ تركى تحقيرى يعنى اليهودى ، أى رجل لزج بغیض كرية (٢٦) • على ضوء هذا الاتجاه ، فإن وصف الصرافين اليهود الذى أطلقه افليا (شلبى) الذى أم يكن يحمل ودا للذمين أو اليهود بصفة خاصة أمر له أهميته : « ان الدفتردار مسئول عن الصراف (كبير الصرافين) وهو يهودى ، عين بدوره ، ٣٠٠ يهودى • وفوق ذلك ، لدى كل جامع ضرائب احدى الاقطاعات صراف يهودى فى المديرية • واليهود عادة شياطين أشرار ماكرون ، غير أنهم أمناء فى مصر • فاذا حدث ، أن اكتشف أحد الجنود ، عند تسلمه لراتبه ، أنه يوجد بين العملات ، ما قد قطعت حافته ، (من أجل المعدن الثمين) أو أنه وجد بينها عملات من النحاس ، ثم يقابل الصراف فى طريقه فلسوف يستبدل الأخير هذه بأخرى أفضل منها (٢٧) •

لقد قال لين Lane ، وهو يكتب بعد ذلك بمائة وستين سنة قائلا :
 رغم أن (اليهود) حاذقون جدا في عقد الصفقات التجارية ، إلا أنهم أمناء
 في الوفاء (٢٨) وحالة ياسف (وهو المتغير النطقى العثماني ليوسف)
 اليهودى معروفة جيدا . وهذه الرواية يسردها ليون زافير Leon Zaphir
 من القنصلية الفرنسية . لما كان يوسف رئيس دار القاهرة لسك العملة
 بالاهتاف الى كونه صرافياشى ، فلقد استدعى الى اسطنبول للتشاور معه
 عن الطرق والوسائل التى يقترحها لزيادة العائد . وعند عودته الى
 القاهرة ، حياه اليهود واحتفوا به وتبعوه فى موكب الى الديوان .
 وسرعان ما عرف الناس أن يوسف أحضر معه فرمانات امبراطورية تفرض
 ضرائب اضافية على البن الذى صار فى ذلك الوقت ، سلعة التداول
 الرئيسية وعلى المنازل والحوانيت . ووافق الباشا على هذه الضرائب ، غير
 أن التجار والأعيان الآخرين الذين عارضوها ، شكوا للأمير ، والجنود ،
 فطالب هؤلاء بموت يوسف . وحين كان الباشا يحاول انقاذ مستشاره
 المالى ، وضعه فى التحفظ لحمايته فى القلعة . وكان الباشا ، نفسه
 مهددا بالخلع من منصبه غير أن الجنود شقوا طريقهم الى الداخل وقتلوا
 يوسف . وسخب جسده الى ميدان الرميلة تحت القلعة ، وقد حرقتة
 الدهماء . فى السابع والعشرين من أبريل ، عام ١٦٩٥ (٢٩) .

فى بعض الأحيان كانت السلطات العثمانية تقتنع بأن يهودا معينين
 يسيئون استغلال صلتهم بدار العملة للحصول على مكاسب غير مشروعة .
 وفى احدى الحالات ، ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م ، وجهت الاتهامات الى ازاق Isaaq
 (التغير النطقى لاسحاق) وياسف (يوسف) ، اللذين كانا يعملان فى
 القسم الفنى فى دار السك (كاسط باشى ودجرماشى) وصدرت الاوامر
 للحاكم المصرى بفصلهما (٣٠) .

وثمة سلسلة من الفرمانات العثمانية صدرت ما بين ١١٧٩ هـ /
 ١٧٦٥ م و ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م ، تشتمل على اتهامات شديدة اللهجة ضد
 يهود لم تذكر أسمائهم يعملون مرابين (سيرمايسيس Sermayecis
 الذى قدم رؤوس أموال للتجار) ووكلاء الحكومة لشراء عملات أجنبية
 أو قديمة أو ماسحة من أجل دار السك . وتقدم الفرمانات تصرفاتهم

الفادرة وتدخلهم في عمل دار السك على أنه السبب الرئيسي لهبوط قيمة العملة المصرية ، التي يقال انها كانت ، في السابق ، من نوعية العملة التي كانت تسك في اسطنبول .

كما أن هناك نصيبا من النقد الحاد مخصصا للمسلمين المشتركين في الجريمة مع اليهود ، ألا وهم مسئولو دار السك الذين كان من واجبههم فحص جودة العملة ، (صاحبى ايسار) وللأمراء وخاصة مفتشى الشرطة .
Walis (٣١) .

يجب النظر الى مثل هذه الحالات في نسبها الحقيقية ، فمن المؤكد انها تعكس كراهية تشعر بها بعض عناصر السكان المسلمين نحو اليهود ، غير أن المسئولين والمستشارين المتسببين في الاجراءات المالية الجائرة كانوا غالبا ما يدفعون حياتهم ثمنا لرد فعل الجمهور الغاضب . وحين كان اليهود هم الضحايا ، لم يكن ذلك دائما بسبب عقيدتهم الدينية ، بالضرورة وانما كان ذلك يرجع الى المواقع الحساسة التي كانوا يشغلونها . ومع ذلك ، فان دور اليهود كصرافين ومصرفيين صفار ومرابين كان أمرا حيويا . وقد ظلوا يلعبون هذا الدور حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، حين فقدوا هيمنتهم بسبب اضطهاد على بك ، واحلال الشوام الكاثوليك محلهم وكذلك الاقباط . غير أنه ، كما يشهد لين ، وغيره من مصادر القرن التاسع عشر ، فان اليهود ظلوا صرافين نشطاء حتى في فترة ما بعد على (٣٢) .

موظفو الجمارك والتجار

لما كان اليهود يمتلكون مهارات لغوية ومالية ، فقد عين الكثير منهم مديري جمارك في الموانئ البحرية والنهرية ، كما عملوا في مناصب الملتزمين أو جباة الضرائب وهي مناصب كان يشغلها الباشا نفسه أو الانكشارية مع أن اليهود كانوا ، في بعض الأحيان يفضلون ادارة الجمارك كموظفين يتقاضون أجورا عن أن يعملوا كملتزمين (٣٣) . ولم تكن جميع مصالح الجمارك تحت تحكم اليهود ؛ ذلك أن هذا المنصب كان يعطى في بعض الأحيان للمسيحيين . اذ لاحظ بوبك ، وهو يكتب ، في أوائل القرن

الثامن عشر أن جمارك دمياط كانت عادة ما يديرها المسيحيون (٣٤) . ورغم أن هذه المناصب جلبت لليهود ثروة كبيرة ، إلا أنها كانت أيضا مصدر حسد وصراع بين المصالح فلا يكاد يوجد مجال للبهيمية ، من أن أصحاب السفن والتجار وغيرهم من مستخدمي الموانئ سواء كانوا مسلمين ، أو مسيحيين أوروبيين ، وكثيرا ما كانوا يشتكون للسلطات من مسئولى الجمارك (٣٥) .

وفى النصف الثانى من القرن السادس ، كانت الشكاوى ترفع الى اسطنبول من شخص يدعى سموثيل كوهين (أو كاهانا) أحد أغنياء رجال مصر وأكثرهم نفوذا ، وهو الذى كان ، فى الوقت نفسه ، مديرا لدار السك ومفتش العملة (صاحب ايار) وملتزم عوائد جمارك الاسكندرية ودمياط ، وملتزم الخيار المصرى (خيارشبير) والتوابل (٣٦) .

وثمة فرمان بتاريخ ٩٧٥ هـ / ١٥٦٨ م ، موجه الى بكربكية مصر ، مؤسس على عريضة قدمها بعض قباطنة السفن التجارية الى بيالى باشا Piyale ، الاميرال العثمانى الشهير ، ضد كوهين . كان كوهين متهما باحتجاز السفن فى المرفأ مدة اطول مما يجب ، وجمع رسوم جمركية باهظة . كما أنه كان متهما بالتحرش بالنساء المسلمات العائدات الى الوطن بعد أداء فريضة الحج : حيث كان يزعم أنهن يهربن بالبضائع وبذلك كان يدفع بيديه فى صدورهن وآباطهن . ويطلب من البكلر بك أن يعزله ، فورا ، اذ ثبتت صحة هذه الاتهامات ، ويحل محله مسلما كفئا متدينا ومعصما (أو ثريا) (٣٧) . ومن الواضح أن هذه الوثيقة لا تتعلق فقط بالاتهامات الموجهة ضد كوهين . فبينما لم يكن لي عزل دون تحقيق (وهى طريقة متكررة وجديرة بالثناء فى فرمانات العثمانية) ، غير أنه اذا ثبتت ادانته ، لا يسند المنصب ليهودى آخر .

وهناك فرمان آخر صدر تقريبا فى الوقت نفسه ، أكثر وضوحا مما سبق ذكره : أمر للبكلر بك ودفتر دار مصر : فى الماضى ، حين كان المسئولون والملتزمون فى جمارك السويس من المسلمين ، لم يؤخروا

الحجاج أثناء فترة الحج ، فكانوا يعدون لهم السفن ، ويقدمون لهم ما يحتاجون اليه ، بحيث يؤدون الحج في الوقت المناسب ، أما الآن ، وقد أصبح المنتزموون من اليهود ، كهم بالخروج بالحجاج بأهواز مختلفة ولا يصل المسلمون الى الحج الشريف في الموعد المحدد ، وعلاوة على ذلك ، فان اليهود حين يؤخرون سفر الحجاج فهم يتسببون في تحطم السفن في البحر (بجعلها تبحر في وقت تهب فيه العواصف) ومن المعروف أن المنتزمين اليهود يظلمون الحجاج ويسبون معاملتهم ، بل والتجار والركاب بضعة عامة . « فانا (السلطان) لذلك ، رسمت بأنه ، ابتداء من وصول هذا الأمر بالأى عين أى يهودى في الميناء (السويس) ، ان أى نفوس تخص الدولة يمتلكونها يجب أن تؤخذ منهم ، وأن يحل محلهم مسلمون أكفاء متدينون جديرون بالثقة ، يمتنون بالحجاج المسلمين كما كان يحدث في الايام الخوالي » (٣٨) . ويمكن للمرء أن يرى أن هذا الأمر مبنى على مزاعم ذات طبيعة دينية صرفة ، وليست اقتصادية : اذ ان السويس كانت هي الميناء الرئيسى على البحر الأحمر ولقد كانت هناك سياسة عامة في النصف الثانى من القرن الثانى عشر فى أيام صلاح الدين بالأى يسمح لغير المسلمين بالوصول الى البحر الأحمر بسبب قربه من مدينتى الاسلام المقدستين (٣٩) .

ويطرد أن يكون من الممكن تتيح فضلة شخص مثل كوهين الى نهايتها ، طالما كانت الوثائق ذات العلاقة بها فإلها غير متوافرة . غير أننا نعرف ، على أية حال ، أن المبادرة المضادة لليهود نجحت فى هذه الحالة ، على الأقل ، لفترة وجيزة : ذلك أن كمللق للأجور ، فيما بعد ، ببطع سنوات ، (٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م) ، يبين أن الأمين (وهو شخص مسئول وليس ملتزما) فى ميناء السويس رجل اسمه محمد ، أى أنه ، مسلم (٤٠) .

ان غالبية الشكاوى التى كانت ترفع ضد المسئولين اليهود من موظفى الجمارك كانت ذات طبيعة اقتصادية . فمثلا ، اتهم مدير الجمارك ، فى السويس ، عام ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م ، بالتآمر مع العديده من التجار لتهريب الرصاص والنحاس والقصدير وغيرها من المعادن الثمينة للهند ، بالرغم من وجود حظر صارم على سلب مثل هذه المعادن (٤١) . وثمة اتهامات

• وكانت معظم التجازة فى القاهرة تتم داخل اطار نظام الطوائف .
 • وكان أعضاء الطائفة عادة ما ينتمون الى نفس الجالية الدينية أو العرقية .
 • وهكذا فاننا نجد طوائف يهودية وإسلامية وقبطية وطوائف من المسيحيين
 الآخرين . فكان هناك ، مثلا ، طوائف للقصابين اليهود وباعة الجبن (٤٦) .
 يذكر افليا (شلبى) طائفة صغيزة من صناع العلب اليهود وطائفة يهودية
 أكبر من صناع الأزرار . وكان بعض اليهود حائكين ، غير أن معظم
 الحائكين كانوا من اليونان أو الأقباط . وكان الكثير من اليهود والمسيحيين
 صناع خمور أو أصحاب محال لبيع الخمور ، وكان الأمراء كثيرا ما يفلقونها
 لأسباب دينية (٤٧) . كما يروى افليا (شلبى) أن كبير صانعى الخلع
 (هيلعتسى باسى) كان يهوديا . وكان يصنع فى السنة ما يصل الى
 ٦٠٠٠ ، وهناك مهنة أخرى يصفها شلبى وهى من المهن التى احتكرها
 اليهود ، وهى « بيع البخور » فى الثانى عشر من المحرم ، أثناء مولد
 الحسين (٤٨) .

• وكان اليهود دائما مبرزين فى الطب ، غير أن المصادر لا تقدم سوى
 معلومات شحيحة تتعلق بالأطباء اليهود (والمسيحيين) (٤٩) . وكانت
 هناك أمثلة على الشراكة فى الأعمال بين اليهود والمسلمين ، بل بين اليهود
 والمغاربة ، رغم أن المغاربة كان يعرف عنهم تعصبهم الدينى (٥٠) .

سياسة الباشوات تجاه اليهود

لقد عكست سياسة حكام مصر إزاء الذميين غالبا اتجاهاتهم
 الشخصية . فبعضهم اضطهد اليهود . اذ فصل أحمد باشا الدفتردار
 جميع موظفى الديوان من اليهود . وكان الباشوات أحيانا يعذبون مدراءهم
 الماليين حتى الموت بعد أن يكونوا قد اغتصبوا أموالهم . وفى احدى
 الحالات الشهيرة ، تم القبض على يعقوب اليهودى الذى عمل كبيرا للصرافين
 تحت حكم العديد من الحكام وعذبه خليل باشا (١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ -
 ١٠٤٢ هـ / ١٦٣٣ م) متجاهلا توسلات أصحاب النفوذ الذين توسطوا
 نيابة عن يعقوب . وعبر الباشا عن عزمه على اعدامه ، حتى لو كان معنى
 ذلك أنه سيضطر الى دفع جميع ديون الصراف . ودفع الباشا ، بالفعل ،
 ٥٠٠٠ قرش ، وأمر باعدام يعقوب (٥١) .

غيرها من البلاد الإسلامية . ولهذا الامتياز ، كان عليهم أن يدفعوا (الجزية أو الجوالى أو ضريبة الرأس أو ضريبة المنفين - وكان الإصطلاح الأخير هو الشائع في مصر) . وكانت هذه الضرائب تدفع للعلماء والصلحاء ، والأغوات الذين كانوا يتلقون معاشات فى مصر (٥٩) . وامتحح رجال الدين النظام لتوظيفه النقود على هذا النحو (٦٠) . ويقدم المؤرخ أحمد شلبى تفاصيل اضافية ذات فائدة خاصة ، وذلك باعتباره مراقبا معاصرا . فهو يروى أنه فى عام ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م ، وصل فرمان عثمانى من اسطنبول يتعلق بالجزية . ويؤكد فرمان الملىء بآيات القرآن والحديث على أن الجزية تؤخذ من يدى المسئول المصرى المحلى وتنقل الى أحد جباة الضرائب من اسطنبول . وكانت الضرائب الجديدة أكثر ارتفاعا حتى ان حوالى ١٠٠٠ مسيحي تظاهروا احتجاجا عليها . وحين بلغ المركب ميدان الرميلى ، هاجمه الجنود الذين ضربوا المسيحيين ، مما أدى الى قتل اثنين منهم ، وتفرق الآخرون (٦١) .

وينهى المؤرخ الحولى حديثه قائلا انه منذ ذلك الوقت فصاعدا ، لم يعد المسئولون المصريون يجمعون العائد الذى يأتى من الجزية (ضريبة الرأس) أو دار السك وانما يجمعه مسئولون تبعثهم اسطنبول بدلا منهم . ويجب أن نلاحظ أن اليهود لم يشتركوا فى هذه المظاهرات ، كما لم يكونوا جزءا من المحاولات اللاحقة التى قام بها المسيحيون لغش القائمين على تقدير الضرائب الخاصة بدخولهم . وهذا المثال ما هو الا واحد من الأمثلة الكثيرة التى تلقى الضوء على الكيفية التى كان المسيحيون يستعدون بها لاتخاذ عمل حاسم باعتبارهم أكثر عددا من اليهود (٦٢) . وهناك بعض المعلومات المتاحة عن الطريقة التى كانت تجمع بهسا ضرائب الجوالى وعدد من الذميين الذين كانوا يدفعونها ، والمبالغ التى كان يدفعها المسيحيون ، والتى كان يدفعها اليهود . فطبقا لسلسلة من فرمانات الصادرة بين ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ - ١٧٤١ و ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ - ١٧٥٧ م ، فان جميع الذميين - من اليهود والمسيحيين الأقباط واليونانيين والأرمنيين - كان عليهم دفع الجزية . وكانت السنة القمرية محددة حسب التقويم القبطى الشمسى ، الذى كان ملائما للمواسم الزراعية . ولما كانت الحكومة على وعى بأن بها جاليات كبيرة من غير

المسلمين يمكنهم أن يدفعوا مبالغ كبيرة كجزية ، فلقد عينت موظفا كبيرا من اسطنبول كجواب للضرائب ، مثل الشيقق - ليفيل دفتردارى Shiqq-Leveel de Fredari (المسئول عن أموال مقاطعات الامبراطورية فى أوروبا ، التى كانت مصدرا لأكبر عائد) (٦٣) .

كان الذميون ينقسمون الى ثلاث فئات ضريبية : الموسرون ، والفقراء ، ومتوسطو الحال . وكان كل ذمى يتسلم شهادة (ورقة) ، ترسل فى لفة مختومة من اسطنبول الى السلطات المصرية للتوزيع على الذميين فى البنادر والقرى فى جميع المديريات المصرية (٦٥) . ويوجد فرمان بتاريخ المحرم ١١١٥ هـ / منتصف سبتمبر ١٧٣٤ م موجه الى الباشا ، والمسئول العثماني المكلف بجباية الجزية ، وبك جرجا (حاكم الصعيد) وحكام مديريات منفلوط ، والبحيرة ، والغربية ، والمنوفية ، والشرقية ، والمنصورة ، والقليوبية والجزية (٦٤) . ويذكر فرمان صادر عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م وجود ٧٥٠٠ شهادة للموسرين ، و ٢٠٥٠٠ للفقراء ، و ٤٠٠٠٠ للفتة المتوسطة ، مما يجعل دافعى الجزية ٦٨٠٠٠ . وفى عام ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢ م ، تم ارسال ٧٠٠٠٠ شهادة ، ولكن فى عام ١٧١٠ هـ / ١٧٥٧ م ، لم يزد المجموع الكلى عن ٤٠٠٠٠ (٦٦) ، وربما يرجع ذلك الى أن السلطات فى اسطنبول أدركت أن تقديراتها للسكان الذميين كانت متضخمة . وكانت الشكوى المتكررة فى فرمانات هى أن الكثيرين من الذميين كانوا يتهربون من الضرائب أو أن الكثير من الأسماء قد اختفت من سجلات الجزية عن طريق التزوير . وتحذر فرمانات بالأا يبقى أى شخص دون ورقة (٦٧) . وتذكر بعض فرمانات حجم الجزية : فى عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م ، كان على الثرى أن يدفع ١١ قرشا ، عن كل فرد ، وأولئك المسجلين فى الفئة المتوسطة يدفع كل منهم ٥٠٠ره والفقراء ٢٥٠ (٦٨) . وطبقا لما قال حسين أفندى ، وهو أحد الموظفين البيروقراطيين الذى كتب فى القرن الثامن عشر ، كان نفس المبدأ سارى المفعول ، اذ كانت الضريبة ٤٤٠ ، و ٢٢٠ و ١١٠ بارة على التوالي (٦٩) . أما الأرقام التى أوردها الجبرتي لعام ١١٤٦ هـ / ١٧٣٣ - ١٧٤٤ م ، فكانت ٤٢٠ ، و ٢٧٠ ، و ١٠٠ بارة (٧٠) .

يرتدوا طرايطر أو طواقى زرقاء (٧٣) ، وأن يرتدى المسيحيون قبعات خاصة (قلق) (٧٤) وأن يرتدى المسيحيون الأوربيون برانيظ . ولقد لاحظ بوكوك أن المسيحيين في مصر كانوا يرتدون شباشب حمراء واليهود يرتدون شباشب زرقاء ، وكلا من الأوربيين والآسراك يرتدون شباشب صفراء (٧٥) . بعد ذلك ، بما يزيد على قرن ، كتب لي أن كلا من اليهود والأقباط يرتدون عمامة ذات لون غامق ، أما سوداء أو زرقاء (٧٦) . وكان المسيحيون الأوربيون ، خاصة الجماعة التجارية الفرنسية (أمة حسب التقارير القنصلية) - كانوا يتلقون معاملة أفضل من تلك التي كان يتلقاها المسيحيون المحليون ، بسبب اتفاقيات شروط التسليم بين فرنسا والباب العالي . غير أنهم لم يكونوا بأى حال من الأحوال محصنين ضد أساءة المعاملة إذا ما قرر الانكشارية أنهم انتهكوا نظم الملابس . فهناك حادثة وقعت عام ١٧٠٢ ، رواها القنصل الفرنسي بالتفصيل ، إذ ضرب أغيا الانكشارية تاجرا فرنسيا هو م . لازار بلانك M. Lazere Blanc ضربا مبرحا ، في أحد شوارع القاهرة بسبب ارتدائه غطاء رأس من القماش الأبيض ، بدلا من أن يرتدى غطاء من الفرو فوق رأسه . وبناء على اصرار القنصل الفرنسي ، عزل الباشا الأغيا ، غير أنه بعد ذلك بضعة أيام ، شق جنود مسلحون طريقهم حتى صاروا في حضرة الباشا وجعلوه بعيد تعين الأغيا ، مدعين أن ضابطا قد قتل كثيرا من المسلمين المهمين ، بين فهم أشراف ، لا ينبغي عزله لمجرد ضربه تاجرا فرنسيا (٧٧) .

الحمامات

وارتبطت قولنين الحمامات بقولنين الملبس فكان هناك اجبلر للذمين بوضع علامات مميزة حتى يكونون في خصام عمومي ، رغم أنه يبدو أن هذه العظم كانت أقل مراعاة من سابقاتها ، إذ يروى المؤرخ الحولى أحمد شلبلى الواقعة الآتية : في المجرم ١١٣٦ هـ / أكتوبر ١٧٧٣ م ، أعلن أغيا الانكشارية في شوارع القاهرة أنه من غير المسموح للذمين بدخول الحمامات العمومية دون أن يعلقوا جرسا حول رقابهم كي يفرق بينهم وبين المسلمين . ولقد صدر هذا المرسوم لأن أحد المستحقين وجه السباب لأحد العلماء غير أنه لم يرد ومعتادا أن الرجل من الوجهاء . وحين علم العالم فيما بعد ، أن الذي سبه هو صراف يهودى للانكشارية ، أحرر

الأفا أن يصنّف هذا الأعلان ، الذي على أية حال ، لم يظلم ساردي المقبول لوقت طويل ، لأن اليهود فضلوا عدم دخول الحمامات بدلا من وخسج اليوس . ولما خشى العاملون في الحمامات من أن تتأثر دخولهم إذا قاطع الذميون الحمامات ، جمعوا ٨٠٠٠ نصف دفعوها للأفا الذي التقى الفرمان عندئذ (٧٨) . ويروي شلبي أن حمام باعة السكر والحلوى في القاهرة لم يسمح فيه بدخول اليهود والأقباط واليونان ؛ لأن مؤسس وقف هذا الحمام أصح على ذلك . ويقول شلبي : كما يتوقع منه ، أن هذا كان هو السبب في أن حماما مهيئا كان نظيفا يرتاده الأقباط (٧٩) .

العبيد الذين يملكهم ذميون

لا تمنع الشريعة الإسلامية الذميين من امتلاك العبيد ، غير أنها لا تمنع لهم باحتلاك عبيد من المسلمين . فعلى سبيل المثال ، يقرر ابن نجيم أنه يعطى الجبار الذمي على بيع العبد الذي يشتق الإسلام (٨٠) . ويروي محبته الملائك الحموي ، الكاتب والقاضي الشامي ، في وصفه لمصر عام ١٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ م ، أن القاضي زاده القاضي الشهير الذي كان في صحبته أثناء الرحلة ، التقى العديد من البدع موضع الحسنة التي رآها في مصر . ومن بين ما فعله ، فقد جعل الذميين يبيعون جواربهم المسلمات (٨١) . ولقد كانت جهود المحرمان المسلمين واليهود من حق امتلاك العبيد وهو حق يمتنع به المسلمون . وأن عدد الوثائق التي تتناول العبيد الذين يملكهم الذميون ، وعلى الأخص اليهود ، يعد أكبر بكثير من تلك التي تتناول غير ذلك من الأمور . فالفرمانات تردّد الشك في أن هؤلاء العبيد قد يكونون من المسلمين ، بل ما هو أسوأ من ذلك ، وهو أنهم كانوا مسلمين أثر عليهم مالكوهم الذميون كي يعتنقوا اليهودية . وتقول الفرمانات مرارا أنه يجب اجبار الذميين على أن يبيعوا عبيدهم للمسلمين ، غير أنه يوجد تأكيد على ألا يظلم أحد الذميين ، الذين يجب أن يتلقوا سعر السوق بالكامل مقابل عبيدهم (٨٢) . وتتضح مجبة الذمي الذي يملك عبيدا عن طريق حالة ظهرت في أوائل الحكم العثماني في مصر . إذ كانت لابراهيم رثيين دار البنك اليهودي فنانة من جارسته الحبشية . ففي أحد الأيام ، ذهبت المرأة الى القاضي المالكي وأعلنت أنها تريد أن تعتق

الاسلام . فرفض القاضى أن يرد المرأة وابنتها لابراهيم . وأجاب على
توسلات ابراهيم اليائسة : « اذا شئت أن تسترد ابنتك ، فلا تبك ،
وانما كن مسلما » . ولم تفد ابراهيم محاولاته أن يرشو القاضى أو يسعى
لتدخل خاير بك (٨٢) (كانت الجوارى الحيشيات دائما موضع طلب
كبير فى مصر العثمانية ، وهناك فرمان صدر ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م يمنع
اليهود من امتلاكهن وقد صيغ بشدة غير معهودة) (٨٤) .

لقد اتهم المسئولون اليهود والمسيحيون فى القاهرة والموانى أيضا
ببيع العبيد المسلمين للأوربيين . ولا حاجة للقول أن هذا لاقى استنكارا
شديدا (٨٥) .

وأحيانا كان يرتبط الحظر المتكرر بامتلاك الذميين عبيدا
باجراءات تهدف الى استعادة ما كان يعتبر هو النظام الصحيح . فحين
تمرد الجنود عام ١٥٨٩ ضد عويس باشا ، أعلنت السلطة فى الشوارع
أنه محظور على أولاد العرب امتلاك عبيد من البيض (يذكر أحد المصادر
أن المقصود هو « عبيد أترك » يقصد المماليك) ولقد صحب هذا الحظر
حظر آخر على المسيحيين واليهود من امتلاك أى عبيد (٨٦) . ولقد أدى
الى الحظر الأول رغبة الجنود المتكلمين بالتركية ، الذين كان الكثير منهم
مماليك أو سيباهيين ، أن يحتفظوا بامتيازاتهم . كذلك أُنذر الذميون
من استخدام أو توظيف المسلمين . ففى عام ١٧٢٢ ، وأثناء عراق فى
بيت أحد اليهود ، طعن ابن سيد البيت خادمه المسلم بالخنجر حتى
الموت . فكانت لهذه الحادثة خطورتها الخاصة ، ذلك لأن الضحية كان
من الأشراف . وحسب المعهود فى هذه الحالات ، اقتيد اليهودى خلال
شوارع المدينة يحيطه العار ، وقطع رأسه . ثم أمر اغا الانكشارية بأن
يعلن أنه غير مسموح لليهود والمسيحيين أن يستخدموا خدما مسلمين ،
وأن أى شخص يعصى هذا الفرمان سيستحق ما يقع له (٨٧) .

كذلك واجهت الجالية الفرنسية التجارية أيضا مشكلات سببها
شكوك تتعلق بالجوارى . ففى عام ١٦٨٩ ، انشئت شائعة فى الاسكندرية
بأن أنتوين ميشيل Antoine Michel ، وهو قبطان فرنى ، كان يحتفظ

بجارية مسلمة . ومرة أخرى ثارت المشاعر العامة لأن المرأة كانت من أصل شريف . ولم تنفع محاولات القنصل باقناعهم بأن المرأة مسيحية تحضر القداس . إذ هاجم الدهماء منزل نائب القنصل الفرنسى ، وأضرموا النار فى المدخل ونهبوا المكان (٨٨) .

وتقدم واقعة رواها الجبرتي مزيدا من التفهم للمشكلات التى كان الذميون يواجهونها ومحتهم بصفة عامة . وفى ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م ، قررت السلطات أن اليهود والمسيحيين ، الذين يتخذون أسماء أنبياء ، مثل إبراهيم وموسى وعيسى واسحاق ، ويوسف يجب عليهم تغيير أسمائهم . كما أمروا بأن يسلموا جميع عبيدهم قبل أن تفتش منازلهم . ودفع الذميون مبالغ كبيرة كى يتمكنوا من الغاء المرسوم المتعلق بالأسماء ، وربما كان هذا هو الغرض من المرسوم أصلا . أما عن عبيدهم ، فلقد سلم بعضهم ولكن البعض الآخر ، أخفى فى بيوت بعض الأصدقاء من المسلمين حتى الحسرت العاصفة (٨٩) .

لقد أقرت الحكومة فى اسطنبول والسلطات المحلية المبدأ القائل بعدم السماح للذمين بأن يمتلكوا عبيدا بصفة عامة ، وعبيدا مسلمين بصفة خاصة . ولكن شأن هذا التقييد شأن غيره . ذلك أن تكراره يعد خير دليل على أنه لم يطع أو أنه قد تم الاذعان له لوقت قصير ثم تم تجاهله . فالحياة أقوى من المحاذير الادارية ، وظسل اليهود يمتلكون العبيد حتى القرن التاسع عشر (٩٠) .

الأحياء اليهودية والمسيحية

فى المدينة الاسلامية التقليدية كان الأهالى يعيشون فى أحياء متجانسة من حيث الدين والخلفية العرقية وغير ذلك . ان مثل هذه الأحياء المنفصلة التى تخص الأقليات الدينية مذكورة فى التقارير التى كتبت عن جميع المدن الكبرى فى مصر . لقد كان أصل حياة الأقليات المنعزلة هو النظر الى الأمن وسياسة الحكومة فى التحكم فى الأقليات ، كذلك فى الرغبة الطبيعية فى السكن معا لأسباب دينية وعرقية واقتصادية

اجتماعية . ويلخص أندريه ريمون André Raymond المعلومات المتعلقة بأحياء اليهود والمسيحيين . ذلك أنه مؤرخ القاهرة وغيرها من المدن العربية فى الحقبة العثمانية . فكان الحى الاول ، حارة اليهود تغطى منطقة مساحتها ستة هكتارات فى وسط المدينة وكانت قريبة من حى الحدادين ، حيث كانت تشتري المعادن الثمينة ، وتباع وتستبدل النقود . وكان من السهل الوصول اليه عن طريق خمسة أحياء متصلة وبه جامع فى شارع الرئيسى (٩١) . وتؤكد جميع أوصاف الحى اليهودى على شدة ضيق شوارعه ، حتى أنه فى بعض أماكنه لا يكفى حتى لمرور حصان أو جمل أو لشخصين يسيران جنبا الى جنب (٩٢) . وكانت القذارة الداخلية خادعة ؛ ذلك أن الكثير من المنازل كانت مؤثثة بأثاث جيد وثمانين . اذ كان من الحكمة إخفاء ثروة الشخص عن السلطات والأهالى . وكان الجميع يتخذون هذا الاحتياط ، غير أنه كان مفهوما بصفة خاصة بالنسبة لليهود . ويؤكد وصف افليسا شلبى للحى أن حياة اليهود كانت منظمة جدا ، حتى أنهم كان لديهم سهولة فى أداء الصلاة الجماعية وكذلك كانت تعاملاتهم مع غيرهم من أهالى الأحياء الأخرى فى أضيق الحدود . فمثلا كانت لليهود سوق يوجد بها كل ما يحتاجون اليه (٩٣) . ولا توجد لدينا سجلات عن هجمات على حى اليهود أثناء الحقبة العثمانية . اذ كان من المتكهن أن يعرض الأزعر (المرد أزعر) حياة اليهود وممتلكاتهم للخطر أو عن طريق الجنود غير المنتضبطين كما حدث بعد الفتح بوقت قصير . ان اليهود ، باعتبارهم أقلية دينية ، يكرهها الكثير من المسلمين ويعرف عنها امتلاكها لثروات كبيرة كانوا ضحايا محتملين للعنف فى أوقات الأزمات . فكان حرس الانكشارية دائما معسكرين عند مدخل الحى ، لكي يحموهم بلا شك . (يذكر افليسا مدخلا واحدا ؛ ويصف بوكوك Pockocke حرسا مشابهاين عند مداخل أحياء المسيحيين) (٩٤) . وكان بالقاهرة سبعة أحياء مسيحية تنتشر عبر منطقة متصلة تغطى ١٦٧ هكتارا . وكان خمسة منها فى الجانب الغربى من المدينة . منها حيان رئيسان ملاصقان لبركة الازبكية والحليج وهى أفضل مناطق السكن لدى الأمراء والبرجوازية المسلمة الثرية . أما الأوربيون ، وعلى الأخص التجار الفرنسيون والايطاليون ، فكانوا يسكنون فى حارة الافرنج ، فى منطقة على طول الحليج

مستخدمين خدمات العائلة المتصوفة الشهيرة ، عائلة السادات الوفاية - شاكين من أن اليهود الملعونين ، أعداء الله ، ورسوله والمؤمنين ، الذين لهم حفرة (وهى كلمة احتقار لمقابر اليهود) لدفن من هلك منهم - وهى كلمات سباب تستخدم لموت (الكفار) منذ فتح مصر على يدى عمرو بن العاص (فى القرن السابع) هؤلاء اليهود قد استخدموا الطريق الممتد على طول النيل للوصول الى المقابر . اذ رشا بعض من هؤلاء الخاطئين (اليهود) شخصا لا يخشى الله ، فأعطاهم اذنا بأن يطأوا بأحذيتهم وبحيواناتهم خلال القرافة الصغرى المباركة (وهى احدى مقبرتى القاهرة الرئيسيتين) ، حيث تدفن رفات الأولياء وآل بيت النبى والعلماء . ولقد حصل اليهود على اذن بفعل ذلك انتهاكا للشريعة .

ورفع عبد الخالق بن وفاء ، رأس العائلة الوفاية ، عريضة لحاكم مصر مطالبا بالآلا يسمح لهم بالمرور وأن يعودوا الى طريقهم الأصلى (على طول النيل) والحققت فتوى ووثيقة بالعريضة وطلب العلماء أن يعاد التأكيد على فرمان يثبدهم . ثم أصدر نائب الباشا مرسوما يمنح فيه العلماء ما طلبوه . ويكرر المرسوم ، المكتوب بالتركية ، الحجج المعادية لليهود الموجودة فى العرائض العربية وان كان بلغة أدق وأكثر اعتدالا (١٠١) .

الجالية اليهودية فى الاسكندرية

عاشت الجالية اليهودية أيضا فى المدن الكبيرة نسبيا مثل رشيد ودهياط والمحلة الكبرى ومنفلوط وطنطا ، غير أن أكبر وأهم جالية بعد القاهرة كانت جالية الاسكندرية . ومع أن جالية الاسكندرية لم تكن بعد قد حققت الوزن الذى وصلت اليه أثناء القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، الا أنها كانت بارزة تماما بما أن الاسكندرية كانت ميناء مصر الرئيسى حتى فى ذلك الوقت . ومع أن عدد اليهود فى الاسكندرية العثمانية غير معرروف فلقد كانوا ، مع ذلك ، بارزين اذا ما أخذنا فى الاعتبار الحجم الصغير لمجمل السكان .

ويذكر يهود الاسكندرية مرات أكثر فى الوثائق العثمانية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بما يذكر به أبناء دينهم فى القاهرة ، وذلك لأن الاحتكاك بين اليهود والمسلمين كان أكثر احتداما مما هو فى العاصمة،

فيهود الاسكندرية كانت لهم علاقة خاصة بقلعة المدينة ، التي استكملت عام ١٤٧٩ / ١٨٨٤ ، بأمر من قايتباي ، السلطان المملوكي الذي وضع جنودا هناك .

وعند نهاية الحكم المملوكي ، عموما ، فقدت المدينة الكثير من أهميتها ، بلا شك بسبب انهيار تجارة العبور (الترانزيت) المصرية في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر (١٠٢) . وهناك وفرة من الأدلة التي تبين أن هذه التجارة استردت عافيتها بشكل ملحوظ أثناء القرن السادس عشر ، غير أن الأهمية العسكرية للقلعة ظلت هامشية . فأمر اليهود بالعيش في القلعة لحفظها من الدمار . ويبين هذا المرسوم أن القلعة لم تعد لها أى أهمية عسكرية ، خاصة وأن اليهود كانوا عزلا من السلاح . وتردد عدة فرمانات صدرت ما بين عام ٩٨٤ هـ / ١٥٧٦ م وعام ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م ، أن اليهود قد عاشوا في القلعة وبنوا هناك منازلهم ومعابدهم ، ولكنهم غادروها حديثا وأقاموا مبانيهم في الخارج على قبور الأولياء المسلمين والشهداء وصحابة النبي . وبفعلهم هذا ، قيل ان اليهود متهمون لسببين : فلقد تركوا سكناهم في القلعة دون صدور اذن بذلك ، متسببين في دمارها وتحويلها ملاذا للمجرمين ، كما بنوا منسازلهم وبالوعاتهم على أضرحة اسلامية شريفة . فأمر السلطان بوجود مراعاة اليهود للشريعة والقانون والأمر الواقع ؛ فعليهم أن يسكنوا القلعة مرة أخرى ، ويجب هدم مبانيهم اذا كانت بيت انتهاكا للشريعة . وتنذر هذه المراسيم باجراء تحقيق دقيق قبل اتخاذ أى اجراء وألا يستغل الموقف كذريعة لظلم أى شخص (١٠٣) . وثمة مرسوم آخر مرتبط بعريضة رفعها المسلمون في الاسكندرية ضد مدير الجمارك اليهودي على بنائه حسب ما يدعى ٦٠ - ٧٠ منزلا في المدينة . ولقد اتهم باستخدام مواد بناء أخذها من بيوت الوقف داخل القلعة وكذلك حجارة من المساجد المتداعية . وهذه الشكوى أيضا تستخدم حجة دينية ضد يهودى ثرى ، بينما يبدو من المؤكد أن الدافع الحقيقي وراء العريضة هو حسد جيرانه له (١٠٤) .

تروى حولية أحمد شلبي حادثة وقعت في الاسكندرية عام ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م قتل فيها أحد اليهود مسلما . فأمسك به المسلمون

وأرادوا أن يمزقوه اربا غير أن الانكشارية أنقذوا الرجل وأخذوه الى المحكمة الشرعية ، حيث أخبر القاضى المسلمين ، بعد توجيه الاتهامات : « ان اتجاهكم نحو هذا الذمى اتجاه متعصب » . فلما سمع المسلمون ذلك ، قذفوا القاضى بالحجارة ، واحتطفوا اليهودى ، وقتلوه . ثم أحرقوا جثته ونهبوا الخان الذى اعتاد أن يتاجر فيه هو وغيره من اليهود . وأبلغت القاهرة بالاغدام بدون محاكمة (التلنيس) ، غير أنه لم يتخذ أى اجراء ضد المسلمين (١٠٥) . وتكشف هذه الحادثة ، مرة أخرى ، الجو المتوتر بخاصة فى الاسكندرية . وكانت الاسكندرية كمركز للنشاط التجارى الأوروبى مدينة تقع فريسة لغارات القراصنة من كل نوع من آن لآخر . ذلك أن موقعها الحدودى ، وربما نفوذ الحجاج من شمال أفريقيا أيضا ، جعل المسلمين فى الاسكندرية أكثر تشددا من مسلمى القاهرة .

المسيحيون واليهود

لا ينبغى لاية مناقشة تتناول مكانة الذميين أن تتغاضى عن العلاقات بين المسيحيين واليهود تحت الحكم الاسلامى ، فمن ناحية ، كانت الجاليتان الذميتان متساويتين كليا ، غير أن اتجاه المسلمين نحوهما كان مختلفا . إذ ان هناك الكثير من المراجع التى تشير الى أن اليهود كانوا غالبا موضع كراهية واحتقار أكثر من المسيحيين بكثير ، وتوجد أصول هذا التفريق فى القرآن الكريم (١٠٦) . ويمكن رؤية تعبير واضح لهذا فى كتابات المتصوف الشهير عبد الوهاب الشعرانى (المتوفى ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م) الذى كان يحترم الرهبان المسيحيين ، وانما يمقت اليهود ، ومع ذلك ، لم يخل الأمر من اضطهاد للمسيحيين فى مصر العثمانية كما سبق أن لاحظنا ، اذ كان المسيحيون أكثر عددا ، الى حد كبير من اليهود ، وكانت الكثير من القرى مسيحية بالكامل . لذلك ، كان المسيحيون أكثر جسارة فى سلوكهم وردود أفعالهم من اليهود ؛ لاحظ ، على سبيل المثال ، مظاهرة المسيحيين ضد زيادة الجزية (١٠٨) .

وثمة اتهام كثير التردد ضد المسيحيين فى الوثائق الرسمية هو أنهم تجرأوا على أن يجاهروا بدينهم ورموزه ، كشرب الخمر ، ودق الاكف

الخشبية بصوت مرتفع ، كدعوة للصلاة وما الى ذلك ، وهى مزاعم لم توجه ضد اليهود (١٠٩) . ففي عام ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ م ، على سبيل المثال ، اقام العديد من المسيحيين فى الاسكندرية كنيسة فى موقع مسجد متهدم ومقبرة اسلامية . وحين حضر المسلمون كى يروا ماذا حدث ، طاردهم الرهبان بعيدا بالسلاح (١١٠) .

وفى عام ١٧٥٠ أو ١٧٥١ ، وفى حادثة أكثر أهمية الى حد بعيد ، خطط الأقباط أن يقوموا بالحج الى القدس . وكان أبرز أعضاء الجماعة هو نوروز ، وهو أمين سر لدى رضوان كنتخدا . فتحدث نوروز الى الشيخ عبد الله الشبراوى ، شيخ الأزهر فى ذلك الوقت ، وأعطاه هبة ودفع له ١٠٠٠ دينار . فأصدر الشبراوى فتوى وخطابا بمعنى ألا يعاق الذميون عن مراعاتهم لعاداتهم الدينية والحج . فغادر المسيحيون فى موكب مليء بالأبهة تصحبهم نساؤهم وأولادهم مصحوبين بموسيقا الطبول والنايات . بل انهم استأجروا بدوا لحراستهم فى طريقهم . غير أنه بعد ذلك ، فى اجتماع فى منزل الشيخ البكرى ، تم توبيخ الشيخ الشبراوى على الرأى الشرعى الذى أصدره . واتهمه البكرى بأخذ رشاوى من المسيحيين ، وقال ساخرا : « فى العام القادم ربما حتى يقيمون محملا ، وسيكون هناك حاج مسيحي ! » ثم غادر البكرى الفاضب المجلس وشجع الدهماء على مهاجمة المسيحيين . فهاجمهم طلبة الأزهر بالعصى والحجارة ، كما قاموا بنهب احدى الكنائس . ويستنتج الجبرتى أن المسيحيين فقدوا كل المال والجهد الذى استثمروه فى حجهم المخطط (١١١) .

وفى الكثير من الحالات ، كان المسيحيون هم فقط الذين يتعرضون للظلم والمضايقة حيث لا يذكر الجبرتى - مصدرنا الأساسى عن أواخر القرن الثامن عشر - معاملة سيئة مشابهة لليهود . واحتمال أن تكون تقاريره غير دقيقة أو غير تامة ، احتمال ضئيل ، بما أن الجبرتى مشهود له بالصدق والدقة خاصة فى الأمور المتعلقة بالتاريخ الاجتماعى . فهو يروى عن هدم الأمير المملوكى مراد بك الشهير للكنائس بالاسكندرية عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٦ م (١١٢) .

وفي مناسبة أخرى ، عام ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م ، أمر الباشا بهدم مساكن المسيحيين وحظر عليهم ركوب الحمير . وكما حدث كثيرا من قبل ، كانت هذه الاجراءات القاسية تتحول الى غرامة على المسيحيين الشوام وأقباط القاهرة (١١٣) .

كما يسجل الجبرتي المراسيم التي تحظر على المسيحيين ركوب الخيل ، واستخدام الخدم المسلمين ، وشراء العبيد ، وكذلك اجبارهم على مراعاة قواعد الملابس . ففتشت منازل المسيحيين بحثا عن العبيد ، وكان من يوجد منهم يباع في المزاد فانتزه دهماء القاهرة هذه المراسيم لمضايقة المسيحيين ، فكان على الحكومة أن تعلن أنها تنوى حمايتهم (١١٤) .

ولا ينبغي أن يداخل المرء الانطباع بأن حياة الأقباط في مصر العثمانية كانت حياة بؤس مقيم ، وحياة اضطهاد . ذلك أن مستوى معيشتهم كان عموما أعلى من مستوى معيشة المسلمين وشأنهم شأن اليهود ، احتل بعض زعمائهم مواقع نفوذ . اذ يكتب الجبرتي عن المعلم (وهو لقب مهذب لمخاطبة ذمي) ابراهيم الجوهري (المتوفى عام ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٤ أو ١٧٩٥ م) الذي كانت له سلطة على جميع الموظفين أو الكتبة الأقباط والصرافين . وازدهرت الكنائس والأديرة في عهده ، بسبب عوائد من مؤسسات الوقف التي أنشأها (١١٥) .

لقد كان هناك قدر كبير من الاحتكاك بين اليهود والطوائف المسيحية المختلفة - مثل الأقباط والأرمن والشوام الكاثوليك - بما أنهم كانوا يتنافسون على نفس مصادر الدخل : كانتاج وبيع الخمر وتجارة المجوهرات ، كالذهب والفضة وغير ذلك من البضائع والصرافة ، والربا والخدمة الحكومية في مجال المال . ولا بد أن هذه المنافسة زادت من حدة التوترات الدينية (١١٦) .

وهناك شهادة على وجود معاداة المسيحيين للسامية في مصر العثمانية في ثلاثة مراسيم صدرت في ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ م - ٩٧٣ هـ / ١٥٦٦ م - ٩٨٩ هـ / ١٥٨١ م) من جانب الباشوات المصريين لنوابهم في الطور (ميناء صغير في شبه جزيرة سيناء) . نفهم من الوثائق أن رهبان دير سيناء اشتكوا من أن مجموعة من اليهود استقروا هناك اقامة

دائمة . وهذا على عكس العادة القديمة القاضية بأنه حين يأتي يهودى الى الطور لعمل ما ، فعليه أن يفادر المكان بمجرد استكمال عمله . فاستقرارهم هناك انتهاك للشريعة والقانون والعادة المستقرة . وقال الرهبان ، أن يهوديا اسمه ابراهام ، انتقل الى الطور مع أسرته لتأليب المتاعب . كذلك بينت عريضة الرهبان أن الجبل مقدس وليس من المعتاد أن يعيش اليهود فى سيناء . فوجود اليهود هناك يدنس جبل سيناء الذى اكتسب قداسة بسبب كشف الله لموسى (١١٧) .

ومع أن الرهبان المسيحيين كان ينظر اليهم باعتبارهم كفارا ، الا أنه كان يسمح لهم أن يسكنوا جبل سيناء ، وقد منحوا عهدا بالحماية . ومن الجدير بالذكر أن حاكم مصر المسلم يكرر - بموافقة ظاهرة - الاتهامات الدينية وغير الدينية التى وجهها الرهبان ضد اليهود (١١٨) . ومع ذلك ، يمكن أن نستخلص منها أن اعتناق المسيحيين للاسلام كان شائعا ولكن اعتناق اليهود كان نادرا للغاية . بالطبع ، اعتنق بعض اليهود الاسلام ؛ فسير الجبرتى تشمل المعتنقين من اليهود الذين حسن اسلامهم بل والذين صاروا علماء . اذ كان العديد من المالك يهودا سابقين . غير أن حالات الاعتناق الكبيرة التى جعلت الجالية القبطية تتآكل فى مصر لم يكن هناك ما يضارعها بين اليهود . فبالنسبة للمسلمين ، كان المسيحيون فى مصر معتنقين محتملين للاسلام ، بينما لم يكن اليهود كذلك (١١٩) . اذ يناقش ابن نجيم المصرى ، (٩٧٠ هـ / ١٥٦٣ م) ، الذى كتب بغزارة فى الشريعة الاسلامية ، امكان اعتناق المسيحيين للاسلام ، مع أن نفس الصفحة فى كتابه تشمل العديد من الفتاوى المتعلقة باليهود (١٢٠) . وتشتمل الحوليات على بضعة أمثلة على مسيحيين اعتنقوا الاسلام للنجاة من الاضطهاد (١٢١) ، غير أن اليهودى كان يرفض العرض بأن يفعل الشيء نفسه . فى حالة واحدة حين كان يتم اعدام مسيحي ويهودى عن طريق الوضع على الحازوق ، صاح المسيحي وهو يتألم بالشهادتين (١٢٢) (وهى طريقه المسلمين لاطهار الايمان) ، ولكن اليهودى لم يفعل (١٢٣) .

فى تاريخ التصوف ، مررنا بمشايع متصوفة من الذين آثروا فى مسيحيين مصريين ، ولكن هذا لم يحدث مع اليهود (١٢٤) ، فلم يعتنقوا الاسلام .

الاتجاهات الدينية نحو الذميين

فى الشريعة الاسلامية الكثير مما يقال عن مكانة الذميين . وكان العلماء متداخلين فى الأجهزة القضائية والادارية فى النظام العثمانى ؛ ولقد بذلوا قصارى جهدهم كى يراعوا أحكام الشريعة المتعلقة بالذميين . وتحفظ الملخصات القانونية ومجموعات الفتاوى مكانا لموضوع الذميين . ان ابن نجيم الذى قد يصلح مثلا على اتجاهات الفقهاء المصريين ، لم يقترح أى آراء جديدة (ربما يقصد اجتهادية : المترجم) وبنى آراءه على سوابق من مذهبه الحنفى . ذلك أن نبرة حججه معتدلة ويعكس اتجاهه المزيج التقليدى من التسامح مع الذميين وازدراهم : فهو يصر على دمجهم فى المجتمع ، ودونيتهم ، غير أنه دافع عن حقهم فى حياة آمنة . فحكم ، مثلا ، أن القاضى لا ينبغى أن يقبل شهادة المسلم ضد الذمى ، اذا كان من المعروف أن الشخصين عدوان (١٢٥) .

لقد استفتى ابن نجيم كيف يجب دفن الزوجه اليهودية لمسلم كانت حاملا حين توفيت . وعلى عكس رأى (أبو يوسف) الفقيه الحنفى الشهير (المتوفى ٧٩٨) القائل بأن مثل هذه المرأة يجب أن تدفن فى مقابر المسلمين ، حكم ابن نجيم بأنها يجب أن تدفن فى المقابر اليهودية ، وظهرها الى القبلة بحيث أن الطفل غير الوليد (الذى يعد مسلما حسب الشريعة الاسلامية) يمكنه أن يواجه القبلة (١٢٦) . كما نظر ابن نجيم فى مسألة تدمير دور عبادة الذميين أو اغلاقها . ذلك أن تدمير الكنائس والكنس فى عهد المماليك فى مصر موضوع موثق بطريقة جيدة ، غير أن الأمر ليس كذلك فى مصر العثمانية . اذ وافق الكاتب المتصوف عبد الوهاب الشعرانى ، معاصر ابن نجيم على هدم الكنائس والكنس ، طالما على المؤمنين أن يتمسكوا بما هو صالح ويحظروا ما هو غير صالح . غير أنه حذر بأن هذا لا يتم الا اذا أمرت السلطات بذلك . وألا يفعل أحد ذلك بمبادرة شخصية منه (١٢٧) . غير أن ابن نجيم أفتى بأنه اذا ما أغلقت كنيسة أو كنيس ولو بلا مبرر ، كما حدث حين أمر بذلك قاض شهير هو محمد بن الياس - أى باغلاق كنيس فى حارة زويلة فى أوائل الحكم العثمانى فى مصر - فلا ينبغى فتحه . فحسب رأى ابن نجيم أنه حتى لو وصل فرمان سلطانى باعادة فتحها ، فلن يجرؤ حاكم محلى (الباشا) أن يطيع فرمان خوفا من رد فعل الأهالى (١٢٨) .

وعمليا ، كان على الذميين أن يمثلوا أمام المحاكم الاسلامية بالرغم من أنهم يسرون أمورهم فيما بينهم . فمثلا كان على الذميين أن يذهبوا الى قاض حين يلزم اعتماد احدى الوثائق من جانب المحكمة . كما حدث حين استأجر أحد اليهود ملكية تخص وقفا اسلاميا (١٢٩) والمشاجرات بين الجاليتين اليهوديتين : الرايين والقرايين التي لم يستطيعوا تسويتها بأنفسهما ، كانت تعرض على المحاكم الاسلامية . ففي احدى الحالات ، توجه اليهود القراءون الى أحد القضاة الذي أمر بأن يتم الاعتراف برغبتهم وهي أن يعتبروا جالية يهودية منفصلة (١٣٠) . وثمة خلافات داخلية أخرى يهودية عرضت على قاض تتعلق بالجالية المستقرة والقادمين الجدد من بلاد شرقية غير محددة يسمون مشاركة . وطلب من الفقيه الأجهورى المتوفى ١٦٥٦ أن يدلى برأيه فى المشكلة الآتية : ان اليهود فى مصر يملكون صندوقا للاحسان للعناية بالمحتاجين من أعضاء الجالية . وحديثا دخل أناس من الشرق يسمون أنفسهم يهودا . وهم أصحاء وليست لديهم أى حاجة للاحسان ، وبعضهم تجار . الا أنهم يطالبون باحسان من الصندوق ، غير أن المتبرعين أسهموا بالمال بشرط ألا تقدم المساعدة سوى للفقراء . ومن ثم فإن السؤال الموجه للأجهورى : هل للشرقيين حق فى طلب المساعدة من الصندوق ؟ وكما يمكن أن نتوقع ، فلقد حكم ضد القادمين الجدد (١٣١) .

ولم تكن العلاقة بين الذميين ورجال الدين مقصورة على الاسلام المعيارى السنى . اذ كان عبد الوهاب الشعرانى مثلا طبق الأصل لمن يمثل المعتقد الاسلامى فى مصر ، كتب أن كراهيته لليهود والمسيحيين كتبها الله ، ومع ذلك ، كان الشعرانى يؤمن أنه من بين الفضائل التى أسبغها الله عليه هى أن اليهود والمسيحيين اعتبروه رجلا مباركا وطلبوا منه أن يكتب تعويذة أو أحجبة للمرضى من أبناء دينهم (١٣٢) .

لا غرو أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، قال لين « Lane » : من السمات الملحوظة فى شخصية شعب مصر وغيرها من البلاد ، فى الشرق أن المسلمين والمسيحيين واليهود ، يؤمنون بخرافات بعضهم البعض بينما يمقتون المذاهب الرئيسية الموجودة فى عقيدة كل منهم (١٣٣) .

الفصل التاسع

الحياة فى القاهرة العثمانية

ديموجرافية السكان والنمو الحضرى

كانت القاهرة العثمانية تتألف من ثلاث وحدات : القاهرة وهي المدينة الفاطمية داخل الأسوار ، والأحياء الملاصقة لها الى الشمال والغرب والجنوب ، ومصر القديمة ، أو القاهرة القديمة وهي بلدة متبالكة نوعا ما ، وتقع جنوب غرب القاهرة وتبعد بحوالى ٢٣ كيلو مترا ، وببلاق ، وهي على بعد كيلو متر نحو الغرب من القاهرة .

كانت القاهرة ، أكثر اتساعا من حيث منطقتها ، وعدد سكانها من المدينتين التابعتين لها مجتمعتين . وكانت القاهرة القديمة تقدم الخدمات اللازمة للقوارب الآتية فى النيل من الصعيد ، بينما كانت ببلاق تفعل الشيء نفسه بالنسبة للسفن الواصلة اليها من موانى مصر الواقعة على البحر المتوسط . وبما أن فكرة اقامة بلدية أو حكم محلى كوحدة قانونية أو ادارية لم تكن فكرة معروفة فى مصر العثمانية ، فلم يطرح قط سؤال ما اذا كانت (القاهرة الكبرى) هي وحدة واحدة أو ثلاث وحدات ، أو أنها مدينة كبيرة مع ضواحيها أو المدن التابعة لها .

لقد كتب الكثير عن تدهور القاهرة ، ومدن عربية أخرى ، أثناء الحقبة العثمانية . وتعكس هذه النظرة تراجع القاهرة من حاضرة دولة الى عاصمة لاحدى الولايات ، وكذلك توقف تشييد منشآت عظيمة ، مثل المساجد والأضرحة العظيمة التى عرفت بها السلطنة المملوكية . فلقد لاحظ أندريه ريمون André Raymond أن القاهرة بدأت فى الانهيار

قبل الفتح العثماني ، بسبب تحويل طريق التوابل الهندية الى رأس الرجاء الصالح وكذلك عدم الأمن الذي ساد العقود الأخيرة من الحكم المملوكي . في الحقبة العثمانية ، استفادت القاهرة من التجارة التي نشطت بسبب الحج السنوي الى مكة المكرمة ، وتجارة البن الدولية ، التي بدأت في أوائل القرن السادس عشر ، ومع الوقت احتلت المكانة التي كانت تشغلها تجارة التوابل سابقا . وبالرغم من أن القاهرة العثمانية لم تعد حاضرة دولة إلا أنها كانت ما تزال مدينة بالغة الأهمية ، باعتبارها مقرا لأحد الباشوات (الولاة) ، ومركزا لعدد كبير من الجنود والموظفين الذين كانوا يستهلكون كميات كبيرة من البضائع الاستهلاكية . ذلك أن نشاط القاهرة المنتعش والحى ، وجد تعبيراً له في كثرة القوافل والأسواق الشرقية وطوائف الحرفيين والتجار (١) .

وأثناء قرون الحكم المملوكي ، لم تتوسع القاهرة الا توسعا ضئيلا خارج حدود القاهرة الفاطمية . أما أثناء القرنين الأولين من الحكم العثماني ، فلقد نمت مساحة المدينة . ذلك أن خريطة القاهرة عام ١٧٩٨ ، حين وصفها العلماء الفرنسيون بالتفصيل في كتاب وصف مصر ، تبين توسعات كبيرة في المناطق السكنية نحو الغرب الى ما وراء باب زويلة في أقصى جنوب القاهرة وفي اتجاه الغرب فيما وراء الخليج ، أى الترععة . ويلاحظ ريمون جانين لنمو المدينة : نقل المدايع بعيدا عن المناطق السكنية لما تبعثه من رائحة كريهة جدا من جنوب باب زويلة عام ١٦٠٠ الى جوار باب اللوق وهى منطقة في أقصى غرب المدينة ، وبذلك أصبح في امكان المناطق جنوب المدينة أن تتطور . بالإضافة الى هذا ، انتقلت مناطق الأثرياء السكنية نحو الجزء الغربى للمدينة . ففي بداية القرن السادس عشر ، بنى معظم الأمراء منازلهم فى القاهرة وبالقرب من القلعة ، وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، فضلوا المنطقة الواقعة حول بركة الفيل والخليج ، بينما فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كانت معظم الأحياء الراقية حول بركة الأزبكية (٢) .

لقد كانت الحقبة العثمانية حقبة زيادة سكانية . ولسوء الحظ ، لا توجد معطيات دقيقة تتعلق بسكان القاهرة فى أوائل القرن السادس

عشر • لقد كانت القاهرة هى أوسع مدينة عثمانية بعد اسطنبول •
ويندنا القانون الصادر عام ١٥٢٥ ببعض الأرقام التى قد تشير الى حجم
القاهرة بالنسبة لغيرها من بلدان مصر الأخرى • فمثلا كان على مخازن
الغلال العثمانية أن تبيع للقاهرة ١٠٠ر٠٠٠ أردب من القمح • ولرشيد
٢٠٠٠ ، ودمياط ٣٠٠٠ ، والاسكندرية ١٠ر٠٠٠ (٣) • لذا فمن المعقول ،
أن نفترض أن القاهرة كانت على الأقل ، أكبر من الاسكندرية بعشر
مرات • فطبقا لما ذكره بير Bear ، كان بالقاهرة ثلثا سكان مدن مصر
بالكامل (٤) • ولا تتوافر لدينا أرقام أقدم من عام ١٨٠٠ ، حين قام
جومار Jomard ، وهو أحد مؤلفى كتاب وصف مصر ، بتقدير سكان
القاهرة بـ ٢٦٣ر٧٠٠ (٥) • ويقول ريمون ، ان هذا الرقم يبين أن عدد
سكان القاهرة فى نهاية الحقبة العثمانية كان أكبر بكثير مما كان عليه فى
بداية القرن السادس عشر ، حين كان ، بالتأكيد أقل من ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة •
ويقدر ريمون أنه فى القرن السابع عشر ، فاق سكان المدينة ٣٠٠ر٠٠٠ •

لقد صمدت قوة المدينة السكانية فى العقود الأخيرة المليئة بالكوارث
من القرن الثامن عشر ، حين تقلص عدد السكان نتيجة لسلسلة من أوبئة
الطاعون والمجاعات ، والاستغلال الاقتصادى القاسى ، والنزاعات بين
الفرق (٦) •

ورغم ندرة المعطيات السكانية ، الا أنه يبدو أن التغيرات السكانية
فى القاهرة العثمانية ، نتجت كليا عن المواليد والوفيات حيث كانت
الهجرة الى الداخل أو الى الخارج مجرد هجرة هامشية • اذ كان
الانتقال قليلا من القرى الى المدينة • ففى زمن المجاعة ، كان الفلاحون
يحضرون بحثا عن الطعام غير أنه لم يكن مسموحا لهم بالبقاء • فكان
أولئك الذين لا يعودون الى بلادهم يعاقبون عقابا شديدا ثم تتم اعادتهم
لحرارة الأرض • وكانت هناك بعض الاستثناءات من هذه القاعدة ، وأهم
هذه الاستثناءات العلماء الذين كانوا يهاجرون الى القاهرة ، من الريف •
ولكن بالرغم من الأهمية الاجتماعية والثقافية لهذه الهجرة ، الا أنها لم
تكن تذكر من الناحية العددية (٧) •

لقد كانت القاهرة العثمانية ، مدينة شاسعة ، بالمقاييس المعاصرة وكان الرحالة يتأثرون تأثراً كبيراً بسعتها واختلاف أجناس سكانها . إن جميع الروايات التي كتبت عن القاهرة ، سواء كتبها أتراك كمصطفى على وافليا شلبي أو التي كتبها الزواد من المغاربة أو الكثير من الأوربيين ، تصف دهشة مؤلفيها من منظر هذه المدينة الواسعة بما فيها من أعداد كبيرة من الأجانب والتجار وغيرهم من شرائح المجتمع (٨) .

الجماعات العرقية في القاهرة العثمانية

اعتماداً على وصف مصر ، يعطى ريمون التقسيم العرقي التالي لسكان القاهرة عام ١٨٠٠ : أكثر من ٢٠٠.٠٠٠ من المسلمين من أهل البلاد المصريين ، ٢٥.٠٠٠ من المسلمين الأجانب (*) ، ١٠.٠٠٠ من الأتراك ، ١٠.٠٠٠ من المغاربة و ٥.٠٠٠ من الشوام و ٢٥.٠٠٠ من الأقليات الدينية (١٠.٠٠٠ من الأقباط ، ٥.٠٠٠ من اليونان ، ٥.٠٠٠ من الشوام الكاثوليك ، ٢.٠٠٠ من اليهود ، و ٢.٠٠٠ من الأرمن) ، و ١٢.٠٠٠ من أعضاء الطبقة الحاكمة من مماليك وجنود من أصل تركي أو أصول أخرى . وجالية صغيرة من التجار الأوربيين (٩) .

وكان الناس الذين ينتمون الى أصل عرقي مشترك أو دين يميلون لأن يحيوا ويعملوا معا في أماكن متجاورة محددة بوضوح أو أحياء (حارات) . وبصفة عامة كانت كل مجموعة تتخصص في أنشطة اقتصادية أو تجارية معينة . ولقد سبق لنا أن ناقشنا الأقباط واليهود في مكان آخر من هذا الكتاب (١٠) . وكان الأتراك يشكلون أكبر مجموعة أجنبية (**). وعاشوا في منطقة خان الخليل ، السوق الشهيرة . واشتغلوا

(*) لابد أيضاً أن يؤخذ هذا المصطلح بتحفظ ، فالفلاحون كانوا متبرعين من الإقامة في القاهرة ، إلا إذا التحق واحد منهم في الأزهر .

(**) استخدام لفظ أجنبية في هذه الحالة وحالات أخرى يجب أخذه بتحفظ ، فمفهوم « الوطنية » كما نعرفه اليوم لم يكن واضحاً في هذه الفترة على هذا النحو ، ومن المؤكد أن كل هذه العناصر - أو غالبها - لم تكن تعتبر نفسها أجنبية - (المراجع) .

بالتجارة على نطاق صغير ، بصفة رئيسية فى تجارة التبغ الذى كثيرا ما كان محل استياء المسلمين الأتقياء ، ولكنهم أيضا اشتغلوا بتجارة البن والأقمشة (١١) .

لقد استقر القادمون الجدد من المقاطعات التركية الأخرى فى مصر وكانت الفوارق الكبيرة بين الأتراك وأولاد البلد من المصريين من حيث الطبع والمظهر ، أبرز من أن تغيب عن ملاحظة الزحالة الأجانب والمراقبين المصريين على حد سواء . غير أنه لا بد أن التزاوج بين الأتراك وأهل البلاد من المصريين كان كثير الحدوث (وإن كان أكثر حدوثا بين الطبقات الدنيا منه بين الخاصة) ، كما يمكن أن يتضح فى ملاحظات مصطفى على عام ١٥٩٩ : « نادرا ما يكون أطفال الناس الذين هم من أصل مصرى يتسمون بالجمال وحين يظهر شاب حسن المنظر من آن لآخر ، بينهم ، فلسوف يتضح أنه بالتأكيد اما تركى (رومى) أو ابن تركى (رومى) زاده (Rumizade) . وحتى بين أولئك الذين هم من أصل (رومى) ، فإن أولئك الذين ينتمون الى الجيل الأول يكونون أحسن منظرا ويتدهور من ينتمون الى الجيل الثانى أو الثالث من حيث المنظر » (١٢) .

كما سبق أن لاحظنا ، فإن سمعة الأتراك بالافتقار الى التقوى كانت أسوأ من سمعة المصريين (*) كذلك فإن ميلهم لتجسيد الصوفية أمر أكثر شهرة من أن يحتاج الى تفصيل فى هذا المجال . غير أنه فى الحادث الشهير الذى وقع عام ١٧١١ م ، حرض واعظ تركى غيره من الأتراك فى القاهرة ضد عبادة الأولياء (١٣) (**).

لقد رسخت المجموعة المغربية الكبيرة المؤلفة من التونسيين والجزائريين نفسها بسبب الحج وبسبب صلاتهم التجارية . ولما كان المغاربة تجارا صغارا فى البن والأقمشة ، فلقد تحلقوا حول الأسواق الرئيسية فى الغورية والفحامين ، وبجوار مسجد ابن طولون .

(*) من المعروف ان المصريين من أكثر الشعوب تدينا وان اختلط تدينهم بالخرافة فى أحيان كثيرة ، وربما يشير المؤلف لجماعة العلوج (جمع علج) وهم الذين أسلموا ولم يحسن إسلامهم وكان لهم دور فى الحياة المصرية (راجع مقدمة المراجع لأخرة المالك لابن زنبل) . نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب - (المراجع) .
 (***) المقصود التمسح بالأولياء - (المراجع) .

باعتبارهما معرضتين للخطر بشكل خاص ، وباب اللوق فى أقصى غرب القاهرة كان معروفاً بكونه مركزاً للجريمة والرهبة . إذ كانت عصابات الشطار والزرع والحرافيش نشطة فى الأماكن المجاورة الفقيرة وكذلك الأحياء المتطرفة (الحارات البرانية) ، مثل الحسينية ، والعطوف (جمع عطفة) وكفر الزغاني ، والقرافة والحطابة وعرب اليسار وباب اللوق .

إذ يروى أفليسا شلبى أن المناطق المجاورة لباب اللوق كانت قصراً على المجرمين الذين كانوا يخدرون الشباب لى يسرقوهم بل ويقتلوهم (١٨) .

وفى ميناء بولاق النهري ، كان قطاع الطرق كثيراً ما يدهمون البيوت والحوانيت والقوارب . ويصف فرمان عثمانى بتاريخ ٩٢٨ هـ / ١٥٧٤ م بولاق كمكان خطير حيث ينشط المجرمون ، هم والعرب البدو ، الذين يذكرون بالتحديد . فيؤمر الوالى (رئيس الشرطة) بإرسال قوة كفى تقوم بالحراسة هناك ليل نهار (١٩) . وفى إحدى الحالات ، عام ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م ، داهم اللصوص الوقحين غرف نوم السكان وانتشلوا المجوهرات من النساء عنوة ، وقالوا لأزواجهن : « لقد أنقذت حياتكم ، لانكم تحت حماية نسائكم » (٢٠) . وتوجد روايات عن ضحايا السطو فى مناطق مزدهرة بالأعمال نسبياً تم التعويض عنها . ففى ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٣ م ، أفرغ اللصوص محتويات ثمانية مخازن فى السوق بالقرب من منطقة ابن طولون . فشكا الملاك ، وهم من التجار المغاربة ، فعوضهم رئيس الشرطة بكيسين . وبعد موجة مشابهة من السطو فى منطقة بركة الرطلى ، قدم السكان عريضة كانت نتيجتها عزل رئيس الشرطة (٢١) .

كان هناك نوع آخر من الجريمة يصعب منعه ، إذ إن مرتكبيه هم أنفسهم المسئولون عن الأمن ، أى الجنود . إذ تروى الحويليات عن الكثير من الحالات عن تحرش الجنود بالأطفال والنساء وكذلك ممارستهم السرقة . ومن أشجع الجنود ، بصفة خاصة ، من حيث عدم انضباطهم وقسوتهم السراجة Serrajs أى مساندو بكوات المالك الراكبون ، خاصة أثناء تسلّم جركس محمد بك للسلطة فى أوائل القرن الثامن عشر . فلقد ركبوا خيولهم خلال شوارع القاهرة شاهرين سيوفهم وبنادقهم وفعلوا ما حلا

لهم فعله . اذ انه في احدى الحالات الشهيرة ، فاجأ العديد من السراجة مجموعة من النساء وخداماتهن وهن يتنزهن ويتناولن الطعام بالقرب من بركة الأزبكية وجردوهن من حليهن وكل متعلقاتهن . بعد ذلك ، منعت السلطات النساء من مغادرة بيوتهن بلا حماية (٢٢) .

وتروى روايات أخرى عن جنود كانوا يسرقون الملابس من الحمامات العمومية أو يختطفون أغطية رؤوس الرجال في الشوارع .

كانت الايام السابقة على خروج الجنود في حملة ما لها خطورة خاصة بالنسبة للنسوة والصبية . وعلى سبيل الاحتياط ، كانوا يمنعون من الخروج الى الشوارع حتى ترحل القوات (٢٣) .

وثمة فرمان بتاريخ ٩٨١ هـ / ١٥٧٤ م ، يأمر بأن الجنود الذين يؤذون الأهالي يجب أن يحاكموا حسب الشريعة الاسلامية ، التي تفرض عقوبة الاعدام على جرائم القتل وألا يحميهم أربابهم في الجيش (٢٤) .

من الواضح أن الدعارة كانت منتشرة انتشارا تاما في المدينة ، بالرغم من اتجاه الحكومة واستنكار العلماء . فبالرغم من أن الدعارة غير مشروعة ، الا أنها تقابل بالتسامح ، ذلك لأن بضعة مسئولين كانوا يحصلون على دخول منتظمة من ورائها . لذا كانت المحاولات التي تجرى لقمعها دائما ما تصحبها اجراءات ضد المشروبات الروحية ، كالنبيذ والبوظة (نوع من البيرة) (٢٥) .

ويروى ابن اياس حالة تصرفت فيها السلطات تصرفا حازما ضد الدعارة والشراب ابتغاء مرضاة الله وذلك حين لا يرتفع النيل في مواعده . وفي رجب عام ٩٢٥ هـ / يوليو ١٥١٧ م ، أمر الباشا باغلاق جميع الحانات وغرز الحشيش واغراق عوامة تسمى أنس (بضم الهمزة وتسكين النون) في النيل . ويلاحظ المؤرخ الحولى بسخرية أنه بمجرد ارتفاع النيل ، عاد كل شيء الى حالته المعتادة ، حيث ان العثمانيين أنفسهم كانوا يبيعون المشروبات الروحية ، وسمح لبنات أنس أن يعملن بمهنة أمهاتهن (٢٦) .

وينص قانون البلاد (قانونى نامه مصر) أنه فى احدى المرات تجاهلت السلطات التعديت ضد الشريعة وذلك بالتساهل مع الشراب والدعارة ، اللذين كانا مصدرا للعوائد والضرائب (مقاطعة) (٢٧) . وبالرغم من هذا الموقف الرسمى القوى ، الا أن الشراب والدعارة لم يتوقفا ، رغم أن الباشوات ، من آن لآخر ، تصرفوا بمبادرة منهم ، أو دفعوا للتصرف بواسطة فرمان من اسطنبول . وفى احدى الحالات ، دفع الباشا ١٢ كيسا لرئيس الشرطة لتعويضه عن خسائره من الأرباح (الضرائب) التى تأتيه من الرذيلة وشرب الخمر (٢٨) .

يقدم افليا شلبى أكثر من وصف تفصيلى للدعارة فى القاهرة فى القرن السابع عشر . اذ كانت النساء - كما هو الحال فى المهن الأخرى - ينتظمن فى هيئة رغم أنها كانت توصم بأنها مهنة لا أخلاقية . فكانت بعض النساء يسرن فى الشوارع ويمكن مشاهدتهن بالقرب من باب اللوق . وكانت عاهرات الطبقة الراقية تستقبلن الزبائن فى بيوتهن ، وتعملن من خلال قواديهن (*) . وكانت جميع العاهرات مسجلات لدى الشرطة . يستثنى من هذا من كن تحت حماية الجيش ، (أو الشرطة الفلوارق بينهما كانت غير واضحة فى هذا العصر - المراجع) أى من كن يدفعن نقودا لضباط عسكريين ، (السوباشى أو الوالى) (**) ويدفعن الضرائب . كما يذكر افليا شلبى العاهرين الذكور (الشواذ) اللذين كانوا ينشطون بالقرب من باب اللوق (٢٩) (***) .

الامن وحفظ السلام فى القاهرة

كما أشرنا من قبل ، لم يكن للقاهرة وضع الحكم البلدى أو المحلى . لذا كانت هناك وحدات تحت امره الباشا مسئولة عن الأمن . ولم يكن

(*) أى أن لكل عاهرة منهن قوادها الخاص بها ، أو مجموعة القوادين الملحقين

بخدمتها .

(* *) الوالى هنا هو رئيس شرطة القاهرة ، وليس الباشا (والى مصر العثمانى) .

(* * *) تتفق كتب الرحالة اللذين زاروا مصر فى القرن السابع عشر على ما أورده

المؤلف . راجع على سبيل المثال رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) الهيئة

المصرية العامة للكتاب - الألف كتاب الثانى .

هناك فرق واضح بين الشرطة والجيش . اذ كانت بعض الفعاليات العسكرية والكتائب مسئولة عن واجبات الشرطة ، أما المسئولية النهائية فكانت مسئولية الباشا نفسه .

وفى القرن الأول من الحكم العثمانى ، حين كان الباشا الحاكم ما يزال قويا ، وأحيانا فى القرن السابع عشر أيضا ، كان الباشوات يتعاملون شخصا مع الجريمة فى القاهرة . فكثيرا ما تصف الحوادث سياسة أحد الباشوات ، بأنها حازمة أو ضعيفة كما تصف الكيفية التى كان ينفذ بها سياسته . اذ قمع خسرو Khusreu باشا (١٥٣٤ - ١٥٣٦) ، الجريمة بشكل شديد الفعالية ، حتى ان أصحاب الحوانيت كان يمكنهم أن يدعوا حوانيتهم مفتوحة ليلا . وقيل عن مسيح باشا (١٥٧٥ - ١٥٨٠) ، انه أمر بأن تقطع أذرع اللصوص وأقدامهم ، وأن يلقي بها فى الشارع . ولقد لقب حسين باشا (١٦٣٥ - ١٦٣٧) (المجنون) بسبب أفعاله القاسية والشاذة . فلقد أشرف شخصا على انفاذ فرمان يمنع التدخين علنا . اذ كان يتجول فى الشوارع متنكرا بحيث لا يتعرف عليه أحد وحكم بالاعدام الفورى على حوالى ٥٠ شخصا ضبطوا وهم يدخنون . ومن ناحية أخرى ، كان مصطفى باشا (١٦٤٠ - ١٦٤٢) ساذجا أطلق سراح المجرمين . اذ كان واليه (رئيس شرطته) فاسدا فاطلق سراح اللصوص فى مقابل دفع الرشاوى . ففى أثناء فترة حكمه ، تم السطو على ٤٨ خانوتا ، فى وقت واحد ، فاشتكى أصحاب هذه الحوانيت فعزل النوالى (٣٠) . ومع تدهور سلطة الباشوات ، بعد القرن السادس عشر ، تناقص أيضا دورهم فى المحافظة على القانون والنظام .

كما كان هناك ضباط برتبة بك مسئولون عن أمن بعض المناطق داخل القاهرة الكبرى . ويروى أن البكوات كانوا مسئولين عن الحرس الموجودين فى المناطق البعيدة مثل بولاق ومصر القديمة والامام الشافعى وسبيل علام . وطبقا لافليا شلبى ، كان على البك نفسه أن يعرض ضحايا السرقة أو السطو (٣١) . وكان يسمى الموظف المسئول عن المحافظة على السلام فى مناطق معينة باسم صاحب درك ، وهو لفظ يعرف بشكل أفضل من حيث علاقته بطريق الحجيج الى مكة (٣٢) . وكانت

القوة المسئولة مسئولية مباشرة ونظامية عن المحافظة على الأمن هى الحامية وكتيبتى المشاة الخاصتين بها ، وهما الانكشارية والعزاب . وكانت الانكشارية ، عادة ، عبارة عن دوريات ، والعزاب حراسة ليلية . كما كانت هناك أقسام حراسة ، تسمى قولوق ، تتألف من الجنود . ان الأغا ، أو قائد كتيبة الانكشارية ، الذى كان هو الضابط الحاكم للحامية العثمانية بكاملها فى مصر ، هو أعلى سلطة فى الشرطة ، وكان يتمتع بسلطات واسعة فى انزال أقصى العقوبات . وكان يخضع لرئاسته قائد الشرطة ، (الوالى) (٣٣) أو السوباشى (بانتريكية) أو زعيم وان كان ذلك يطلق فى مرات أقل . وكان هناك ثلاثة ولاة ، واحد للقاهرة ، وآخر لبولاق ، وثالث لمصر القديمة . وكان الأغا يقوم بالدورية أثناء النهار ، والوالى أثناء الليل (٣٤) . وكان المحتسب يمارس أيضا سلطة الشرطة .

اذ انه فى عصور الاسلام الوسطى ، كان المحتسب يراقب وينظم جميع الأسواق والحرف ، حتى فى قاهرة نهاية عصر المماليك وبداية عصر العثمانيين . فكان بركات بن موسى ، محتسبا شديداً لنفوذ ، وكانت سياساته للمحافظة على استقرار هادىء سياسات شديدة القسوة (٣٥) .

ومع الوقت ، فقد المحتسب قدرا كبيرا من سلطته . اذ كانت واجباته ، محدودة بصفة رئيسية ، بوضع الموازين موضع التنفيذ ، وكذلك المقاييس والأسعار فى أسواق الطعام . فكان يجول راكبا فى المدينة ، يسبقه ضابط يحمل ميزانين كبيرين ، ويتبعه جنود وخدم . كما كان يتزعم الاحتفال بليلة الرؤية عشية رمضان ، وهو ما سبق وصفه (٣٦) .

لقد زاد الفتح العثمانى من سلطة القاضى على حساب سلطة الوالى (المقصود هنا رئيس الشرطة) والمحتسب . اذ يحدد القانون أن الوالى لن تصبح له بعد الآن وظيفة قضائية ، اذ ان هذه الوظائف سوف تصبح من اختصاص القاضى دون سواه . وبالمثل ، فان أى شجار فى المدينة كان المحتسب يتعامل معه قبل الفتح ، صار الآن تحت حكم القاضى (٣٧) .

وكانت الحارات عبارة عن جاليات متجانسة . وكانت هذه الجاليات تتمحور حول انتماء معين (دينى أو عرقى أو مهنى) . وكانت تحمى هذه

الحارات بوابات عند المدخل ، عادة من طريق واحد يقضى الى الحارة . وكانت أبواب الحارة تغلق ليلا . ولم يكن الحارس الليلي يسمح بالدخول سوى لمن يعرفهم . وثمة مؤشرات الى أنه أثناء الحقبة العثمانية أصبحت الحارات أكثر حماية بل وتحصينا مما كانت عليه تحت حكم المماليك (٣٨) . فبعد الاحتلال مباشرة ، أمر السلطان سليم بفتح الدروب فى مدخل الحارات وأن تبني الأسوار لصد الدخلاء . ولقد فعل ذلك حين خشى من القوات غير المنضبطة . ويقول ابن اياس ، ان السكان قاموا بتضييق البوابات الواسعة لكى يسدوا الطريق أمام مرور الخيالة (٣٩) ويقول ان خسرو باشا قد طور الأمن العام وذلك بتقوية أسوار الحارات وبواباتها .

وفى أزمنة الأزمات ، كانت تصدر الأوامر للسكان بإغلاق البوابات ، غير أنهم أحيانا ما كانوا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم . اذ تكون انطباع جيد لدى مصطفى على (٤٠) عن يقظة خفر الليل المصريين والمسئولين عنهم الذين يبقى بعضهم البعض الآخر يقظا حتى الصباح بالصيحات (المتواليه) (٤١) .

لقد كان حظر التجول الليلي اجراء أمنيا فرض أثناء أوقات الخطر ، حين يكون هناك خوف من أن يتسبب الجنود - أو اللصوص - فى احداث المتاعب . اذ انه قد حدث ، على الأقل ، أن طلب السكان أنفسهم أن يفرض حظر للتجول (٤٢) .

العقوبة

كثيرا ما أعلن أن من يعصون الأوامر ، مثل تلك المتعلقة بالاجراء الاقتصادية (كمعدلات الصرف الجديدة ، أو فتح الحوانيت) وكذلك الأوامر المتعلقة بالأمن العام (كالبقاء داخل المنازل أثناء حظر التجول الليلي) سيدفعون حياتهم ثمنا لهذا العصيان .

ولقد تم اعدام الكثيرين فوراً بشكل عاجل بناء على قرار الحاكم ، أو رؤوسيه أو أحد الأمراء دون الاستماع لهم أمام أحد القضاة . اذ انه

اجراءات الشريعة كثيراً ما كانت تجعل اعدام هؤلاء أمراً صعباً ، كما أن الشريعة تحدد من العقوبات ، بما فى ذلك طريقة الاعدام . ذلك أن الكثير من الناس كانوا يعدمون على جناح تافهة حسب نزوة أحد الباشوات ، أو أحد الأمراء .

لقد تعددت طرق الاعدام ، مثل التمثيل بالجثة ، والتعذيب ، وغير ذلك من العقوبات القاسية والاذلال التى يصفها مؤرخو القاهرة العثمانية وصفا تفصيليا :

لقد كان الاعدام بالخازوق طريقة شائعة بصفة خاصة . ففى بداية تلك الحقبة ، وضع رئيس الشرطة أربعة وعشرين رجلاً على الخازوق ، فى يوم واحد ، كان معظمهم من اللصوص ومزيفى العملة . وكانت النساء اللاتى يتهمن بالسلوك الشائن أحياناً ما يربطن بذيل حصان ، ويتم جرحهن فى الشوارع (٤٣) .

وكانت هناك طريقة شنيعة للاعدام ، وهى تقشير جلد المذنب وهو على قيد الحياة ثم ملء جلده بالقش ، ثم يوضع على ظهر حصان ويعرض أمام الديوان (٤٤) . وكانت هذه الطريقة يختص بها قطاع الطرق (وهم غالباً من زعماء العرب) . وكانت هناك عقوبة أخرى قاسية وهى الخدمة كمسيرى الدفة فى غلايين البحرية العثمانية . وكانت هذه العقوبة يختص بها أولئك المجرمون الذين لا يستحقون الاعدام أو البتر . إذ كان المحكوم عليهم يتم ارسالهم الى الكابودان (القبطان) فى الاسكندرية أو السويس .

يتضح من العديد من فرمانات القرن السادس عشر أن الفترة التى كان على المتهمين أن يخدموا فيها كجدهافين لا يحددها القاضى ، وإنما تكون حسب احتياجات البحرية . وكان هذا مناقضاً للقوانين أو ارادة السلطان . ولم يكن يحتفظ بالرجال على السفن لغير ذلك من الأسباب . والأسوأ من ذلك ، أن الرجال كانوا أحياناً يتم اختطافهم من شوارع القاهرة ويرسلون الى السفن للعمل ، وكانوا عادة من الفلاحين والبدو الذين حضروا الى المدينة . ويقول أحد فرمانات بتاريخ ٩٨٩ هـ / ١٥٨١ م

أن أحد البكوات قد أرسل بخمسين أو ستين رجلا للمصل على الغلايين بلا مبرر ، ولذا يأمر الفرمان بإجراء تحقيق فى هذه الواقعة (٤٥) .

السجون

المعلومات الخاصة عن السجون بالقاهرة العثمانية شحيحة . إذ انه فى بداية الحقبة ، يتكلم الديار بكرى ، عن سجنين ، سجن الديلم وسجن الرحبة ، اللذين كانا تحت قضاء رئيس الشرطة وقاضى عسكر ، كل على حدة . إذ كان السجن الأول مخصصا للعسكريين والبيروقراط Ehl-i-öfrit أما السجن الثانى فكان للرعايا العاديين الذين حكمت عليهم محكمة يرأسها أحد القضاة . وكان هناك سجن آخر ، العرقانة ، يقع داخل القلعة . وكان من بين من يحتجزون هناك الموظفون والوكلاء المليون الذين يقصرون فى دفع ما عليهم من دين للخزانة . ويصدق ما قيل عن الرجال الذين كانوا يرسلون الى البحرية على المساجين . إذ تبين الفرمانات التى كانت ترسل من اسطنبول الى السلطات المصرية أن ادارة العدل كانت قاصرة لا تتسم بالكفاءة ، حتى أثناء عصر الدولة العثمانية الذهبى بالرغم من أفضل نوايا الحكومة المركزية (٤٦) . فمن ناحية كان أصحاب المناصب المصريون يتلقون أوامر بإجراء مسح لأحوال السجون فى القاهرة وغيرها من المديريات وأن يطلقوا سراح من سجنوا ظلما أو أولئك الذين قضوا مدتهم . ومن ناحية أخرى ، كانت السلطات تتلقى تحذيرات بألا تطلق سراح السجناء دون ضمان ملائم (٤٧) .

الصحة العامة

الطاعون

كانت أوبئة الطاعون تظهر كل بضع سنوات . وتسميها السلطات الطاعون أو فصل الوباء . بالنسبة لانتشار الوباء فى سنة بعينها ، غير أنها لا تقدم سوى النزر اليسير من المعلومات ولا تكاد تقدم أية أوصاف يمكن أن تعين على تحديد طبيعتها .

ومما لا شك فيه ، أنها كانت متنوعة • فمثلا ، أحد الأوبئة التي يقال انها وصلت من الهند عن طريق اليمن ومكة لم يكن قاتلا وأمكن علاجه على ما يقال ، بأكل السكر والبرتقال المر (٤٨) • غير أنه يبدو أن المؤرخين الحوليين لم يشعروا أن النوع المعتاد من الطاعون يحتاج الى توصيف : إذ كان دائما ما يقتل قسما كبيرا من الأهالي • وكان الافتراض السائد أنه نشأ في الاراضي الواقعة الى الجنوب من مصر ، وفي الحبشة ، بصفة خاصة •

وكان الطاعون كثيرا ما يعرف بنعت خاص ، يشير بشكل ما الى طبيعته وظروفه ، مثل الاثيوبي أو الأصفر ، أو الرهيب ، أو مرض النبلاء ولأطفال • ولقد عرف نوع من الطاعون في حكم مصطفى باشا (١٦٢٤ - ١٦٢٦) ، يذكره الناس « بالطاعون الهادى » لأن الباشا حظر نواح النساء المرتفع المعتاد أثناء مواكب الجنازات كما حظر ارتداء ثياب الحداد (٤٩) السوداء • لقد فعل ذلك بغرض احتواء الذعر الذى كان الناس يشعرون به • وعادة كان الطاعون يدوم ما بين شهرين أو أربعة ، وأحيانا كان يستمر الى مدة سبعة أشهر • ويقول لين Lane انه فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، حين كان يحل الطاعون بمصر ، فان ذلك يكون عادة فى الربيع ، ويشتد هذا المرض فى فترة رياح الخماسين ، (وهى فترة تستمر حوالى خمسين يوما من أبريل الى مايو) (٥٠) • غير أن حولى مصر العثمانية يشيرون أيضا الى فترات أخرى ينشب فيها الطاعون •

وتروى المصادر المعاصرة أرقاما شديدة المبالغة لعدد ضحايا الطاعون • ومع ذلك ، فمن الواضح أن بعض أوبئة الطاعون دمرت أهالي القاهرة والبلاد ككل • فلقد قدر أن الطاعون الذى عم البلاد عام ١٧٨٤ ، مثلا ، قد قضى على سدس سكان مصر (٥١) • ويروى لين أن الطاعون الذى حدث عام ١٨٣٥ ، دمر ما لا يقل عن ٨٠٠٠٠ نسمة فى القاهرة ، أى ثلث السكان (٥٢) • يتحدث المؤرخون الحوليون عن إفراز أحياء بأكملها بسبب الوباء ، كما يصفون عدد الجنازات الذى لا ينتهى (٥٣) •

وكما يمكن أن يتوقع ، بل كما يبين تاريخ الطاعون في حقبة المماليك ، فلم تتأثر جميع أقسام السكان تأثراً متساوياً (٥٤) . ذلك أن أشد المناطق إصابة هي تلك التي لم يطور أهلها مناعة طبيعية ، مثل المماليك الذين تم استيرادهم ، والجنود العثمانيين في الأيام الأولى من الحكم العثماني ، وكذلك الشباب . ففي الطاعون الذي نشب عام ١٧٩١ ، فنى ١٤ من ٢٤ من السنّاجق البكوات ، كلهم من المماليك . وفي السنة التالية ، قضى الوباء على الكثير من الملتزمين (٥٥) .

وفي إحدى هبات الوباء ، كان معظم الضحايا ما بين الرابعة عشرة والخامسة والعشرين وظلت الفتيات في عزلة عن العالم الخارجي . وفي عام آخر ، أكد الناس أن الضحايا كانوا أناساً تعدوا سن الستين ، وفي إحدى المرات ، دهم الفيضان ضحايا من بين الأجانب والعبيد بشكل رئيسي (٥٦) .

كان الدعاء هو وسيلة الأهالي المعتادة لمواجهة الطاعون . وكان ثمة مكان مفضل بصفة خاصة للدعاء . ذلك المكان ، هو مسجد الجيوشي في جبل المقطم وراء القلعة . ذلك لأن الناس كانوا يعتقدون أن الدعوات المرفوعة هناك يمكن الاستجابة لها . ولم تكن تتخذ إجراءات عملية . وفي هذا الصدد ، كانت القاهرة في أيام العثمانيين تشبه ما كانت عليه أثناء حكم المماليك . ذلك أن الجهل والحرافات كانت تعوق أى تقدم حقيقى في سبيل الكفاح ضد الأوبئة . فكان هناك اعتقاد قديم يمنع المسلم من أن يفادر منطقة موبوءة بالطاعون ، ولكن حتى بعض رجال الدين فروا مع أسرهم إلى صحراء سيناء أثناء اشتداد الوباء في المدينة ، بينما اعتبره معظم الناس إرادة الله الحتمية ويجب تحملها بصورة قدرية (٥٧) .

وفي القرن التاسع عشر فقط ، تم اتباع نظم للحجر الصحي لصد إدخال المرض من البلاد الأخرى ، وكان هذا الاجراء بفضل النفوذ الأوروبي .

وكانت أول مرة - وربما المرة الوحيدة - التي اتخذ فيها العثمانيون اجراءات للصحة العامة ضد الوباء في عام ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م ، حين أمر العثمانيون بأن تقتل جميع الكلاب في القاهرة وأن تعلق جثثها أمام

المحال ، اتباعا لعادة فى اسطنبول . وظن أحد المؤرخين الحوليين أن المقصود من هذا الأمر هو اخافة الطاعون لابعاده . ولم يكن الناس يحبون قتل الكلاب (رغم أن الاسلام يعتبر الكلاب نجسة) وكانوا يعتبرون ذلك فالا سيئا . بل انهم توسطوا لدى الحاكم لاعتناق الكلاب (٥٨) .

كان القانون المصري (المقصود الرأى الشرعى فى مصر) يحظر حرق الأموات ، سواء كان الميت مسلما أو ذميا ، قبل الحصول على اذن من الخزانة . ويبدو أن هذا كان للتأكد من أن الدولة حصلت على نصيبها من التركة (٥٩) . غير أنه ، أثناء طاعون عام ١٦١٨ العنيف ، أغفى الباشا الأسر من هذا الالتزام من قبيل الرحمة بالأهالى (٦٠) . إذ أمر الباشا الخزانة بأن تدفع نفقات الدفن نيابة عن الفقراء أثناء الطاعون (٦١) .

النظافة

كان العثمانيون مهتمين بالنظافة . ويأمر القانون حاكم مصر بأن يهتم بأن يتم كنس شوارع القاهرة بشكل منتظم وأن ترش بالماء . وكان كل شخص يتحمل مسئولية فى جعل المنطقة الواقعة أمام منزله نظيفة (٦٢) . وغالبا ما كان الحكام يصدرن الأوامر للأهالى بأن يزيلوا القمامة من أمام حوانيتهم أو بتنظيف الخليج ، أى الترععة التى كانت تحمل المياه أثناء شهور ارتفاع النيل . كما أمر محمد باشا بأن تنظف الأماكن الدينية نظافة تامة ؛ ففاز لعمله هذا بوصفه بأنه (أبو النور) . ويكتب مصطفى على :

« من اللطيف جدا أنهم احتفظوا بمنطقة أعمالهم نظيفة وأن عربات الرش ترش شوارع القاهرة وتنظفها ليل نهار . وكانت مصروفات جميع هذه الخدمات لكل حانوت هى منقور واحد ، (عملة صغيرة ، سدس بارة) فى الأسبوع ٠٠٠ » (٦٣) ويجب أن نضيف، عموما ، أن مثل هذا الوصف المواتى (والانتباه الرسمى) كان مقصورا على أقسام المدينة الخاصة بالأعمال بينما كانت الأحياء السكنية ، أى الحارات البعيدة عنها ، بخاصة تقسم بقدر شنيع من القذارة والاهمال . ولم يلحظ هذه الملاحظات افليا

شلبى فحسب • فيمكن أن نقول أن نزعتة الوطنية التركية جعلته يقارن الكثير من الأشياء فى مصر بمثيلاتها فى اسطنبول (بما فيها النظافة) ويجدها قاصرة (٦٤) • وإنما أيضا نجد أن الرحالة الألماني يوهان فيلد Wild ، الذى زار مصر فى بداية القرن السابع عشر ، يلاحظ الملاحظات نفسها بالضبط (٦٥) • ويستخدم حسن حجازى ، وهو شاعر محبوب من شعراء القاهرة ، لغة عنيفة فى وصفه لحارات أولاد العرب ، وهى أحياء القاهرة التى كان يسكنها الأهالى الفقراء ، ووصفها بأنها قذرة ومتربة. وشديدة الضوضاء (٦٦) •

ويشعر مصطفى على بالاشمئزاز العميق من المياه القذرة فى بركة الشافعى. حيث يتوضأ العامة (٦٧) •

ومرة أخرى ، يقدم لنا افليا شلبى وصفا تفصيليا وتقييما عن وضع الصحة العامة فى القاهرة • إذ كان هواء المدينة غير صحى ، كما يقول ، غير أنه كانت هناك بضعة أماكن بالقرب من المدينة تتمتع بالهواء النقى العليل ، مثل العادلية وسبيل علام والمطرية ، وبركة الحج وجبل المقطم • كما كان الهواء عتيلا فى المنازل المقامة على ضفاف البرك •

وكانت المدينة شديدة الازدحام ، ولم تكن هناك بين المباني سوى مساحات ضيقة • كذلك كان الكثير من المنازل تتكون من ثلاثة أو أربعة طوابق • وكان الهواء خانقا ، بوجه خاص ، فى الخانات وبلكات (*) الشقق • إذ كان يعانى سكان هذه الأماكن المتجاورة من الذباب وروائح المجارى التى تزكم الأنوف • ويقول افليا شلبى أن هذه الروائح ضارة بصحة الأطفال ، وأن كل شخص يمكنه أن ينتقل من القاهرة الى الريف لعدة أشهر لم يكن يتأخر فى فعل ذلك (٦٨) •

وطبقا لمصطفى على ، لم يكن الطعام فى القاهرة صحيا ، وإنما كان عديم الطعم به دهون وعسير الهضم بل وقذرا • فيقول :

أن أهل الريف والحضر يأكلون طعاما ثقيلًا عسير الهضم • فهم يستهلكون ، فى أيام الصيف الحارة ، أطباقا لا تهضم مثل رؤوس

(*) بضم الباء وتشديد الكاف وفتحها •

لقد اشتملت على قسم للمرضى العقلين ، وقسم للنساء ، به عاملات من النساء أيضا • ولقد أدهشه أن الأطباء الذكور كانوا يدخلون أماكن النساء فى المستشفى دون « خجل » لعلاجهن (٧٣) •

وعند نهاية الحقبة العثمانية ، تحول هذا المستشفى الى حطام (٧٤) •

لقد كانت مصر مشهورة بانتاج أنواع الترياق ، وهى أدوية مضادة للسموم ، يسمى ترياق فاروق • وكان يصنع عن طريق استخلاص السم من الشعابين • وتخصص أفراد قبيلة بنى خبير العربية الذين كانوا يسكنون فى منطقة الجيزة ، فى هذه المهنة • وكانوا يرتدون لباسا خاصا للوقاية حين يؤدون عملهم ، الذى يصفه افليا بتوسع اذ كرس فصلا كاملا لهذه الصناعة • « كان بإمكان العقار معالجة مختلف الأسقام » ويشهد افليا مثلا أن الدواء أعاد اليه فحولته (٧٥) •

وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، كانت طائفة صناع الأدوية المسكرة تعقد حفلا سنويا فى المستشفى الذى كان يصنع فيه الشيح الترياق • وكان الترياق يباع فى كل أنحاء الشرق الأوسط لتمويل الحفاظ على المؤسسة (٧٦) •

الحمامات العمومية

لقد تأثر الرحالة الأجانب تأثرا ايجابيا بحمامات القاهرة العمومية • فهم يصفونها بأنها نظيفة ومنظمة ومبهجة ، حتى ان مصطفى على الذى اعتاد على الانتقاد يكتب قائلا :

« ثمة نقطة أخرى هى جمال حماماتهم (العمومية) • فبمعظمها أحواض للاستحمام » • كما أن ما بها من رخام لا يفسد كما هو الحال فى حمامات البلاد الأخرى • ذلك أنهم يهتمون دائما بجعله براقا كالمرآة الصافية (٧٧) • ويقدم افليا شلبي بعض التفاصيل • ففى زمانه كان هناك ٥٥ حماما عموميا (٧٨) ، بالاضافة الى ذلك ، كانت هناك حمامات خاصة فى منازل الأثرياء مثل الأمراء ، والخصيان السود ، والعلماء

الأغنياء والتجار . وكان في كل حمام عمومي ، فسقية وحوض ونافورة للزينة (سلسبيل) . كذلك يلاحظ شلبي أن الحمامات المصرية لا يوجد تحتها فتحات (سيهينمليك) مثل الحمامات التركية (٧٩) .

النقل

كانت القاهرة تتمتع بشبكة واسعة من الطرق ، بعضها عامة رئيسية (مثل القصبية من باب الفتوح الى باب زويلة - وبين القصرين أو بين الصورين) ، وكذلك الكثير من الطرق الصغيرة والأزقة المؤدية الى الطرق الأكثر اتساعا (٨٠) .

وكان في امكان أهل القاهرة ، اما أن يسيروا أو يركبوا الخيل والبغال والبعوض والحمير . وكانت هذه هي وسائل النقل الوحيدة . ولم تكن ركوبة الشخص مسألة تتعلق بالملاءمة أو الراحة ، والوضع الاقتصادي فحسب ، وانما كانت أيضا تعبيرا عن المكانة الاجتماعية . إذ لم يكن من المسموح سوى للعسكريين بركوب الخيل . ولقد حظر الاسلام ، منذ أيامه الأولى ، على الأقليات غير المسلمة أن تفعل ذلك (*) . وثمة محاذير كانت أكثر صرامة بحيث كانت تحظر على الذميين استخدام البغال الغالية والحمير الصغيرة النشطة السريعة أو حتى الحمير التي يزيد ثمنها على ١٠ دراهم . بل ان فقهاء مصينين لم يسمحوا للذميين بركوب أي حيوانات على الاطلاق داخل احدى المدن (٨١) .

وفي حوالى عام ١٧٣٥ ، ذكر أحد الفرمانات العثمانية أهل البلاد من المصريين بأنه محظور عليهم ركوب البغال وأن يضعوا سرجا على الخيل، غير أنه كثيرا ما ركب العلماء والأثرياء ، بالاضافة الى صغار ضباط الجيش ، البغال (٨٢) (**) .

(*) لا علاقة للاسلام بمثل هذه المنوعات فليست هناك احاديث نبوية أو آيات قرآنية تمنع الذمي أو حتى غير الذمي من ركوب دابة بعينها أو ليس ثياب بعينها ، فالمسألة ان ذات أبعاد أمنية أو اجتماعية ولا علاقة لها بالدين - (المراجع) .

(**) هذا يؤكد ما ذكرناه في تعليق سابق من ان قيود اللباس والركوب مسألة اجتماعية وأمنية ولا علاقة لها بالدين - (المراجع) .

كان الحمار هو الركوبة الشائعة فى مصر . اذ كان الجميع يركبونها فيما عدا القلة المتميزة التى كانت تمتلك خيولا او بغالا .

وكان افليا شلبى دائما ما يقارن بين القاهرة واسطنبول . وهو يقول ان الحمير فى القاهرة أشبه بالقوارب فى اسطنبول ، أى أنها وسيلة الانتقال الشعبية ، فهى تعمدو بسرعة ، على حسد قوله . ويقول أحد الأوروبيين زار القاهرة عام ١٥٨١ ، وهو جان باليرم Jean palerme (٨٣) ان الحمير هناك أدت نفس الوظيفة التى أدتها جندولات البندقية (٨٤) .

وكان للمدينة جهاز مفصل وجيد التنظيم لاستئجار الحمير والجمال لنقل التجارة فى القاهرة وما يجاورها ، بما فى ذلك من محطات وأسعار ثابتة (٨٥) . فحسب كتاب وصف مصر ، كان بالقاهرة ٣٠٠٠ من سائقى الحمير (المكارين) (٨٦) .

واعتبر العثمانيون ، فى زمن فتحهم ، أنه من غير الأخلاقى أن تتركب النسوة حميرهن أو أن يستأجرن حميرا أخرى . اذ أعلن أحد المراسيم أن النسوة المتقدمات فى السن فقط يمكنهن أن يركبن الدواب فى السوق .

ويروى ابن اياس أن سائقى الحمير باعوا ، عندئذ ، حيواناتهم . واشتروا بدلا منها خيلا مسرجة ، كانت النساء يركبنها وهن يجلسن على سجاد بينما يمسك المكاريون بالألجم حسب ما جرت عليه العادة فى اسطنبول .

وبعض النساء كن يركبن البغال بدلا من الحمير (٨٧) . ولم يسر مفعول هذا المرسوم لفترة طويلة . اذ انه فى نهاية القرن السادس عشر يروى مصطفى على ، الكاتب التركى ، عما أحس به من صدمة : « ان نساءهم ، جميع نساتهم ، يركبن الحمير . حتى زوجات المروقين يركبن الحمير الى متنزه بولاق ٠٠٠ » ويشكل هذا السلوك غير اللائق عيبا خطيرا بالنسبة لمدينة القاهرة ، لأنهم فى البلاد الأخرى كانوا يضعون العاهرات على ظهور الحمير كنوع من العقاب . أما فى القاهرة ، فان النساء يركبن

الحمير بمحض ارادتهن ، ويعرضن أنفسهن للجمهور ، لذلك يسدو أنه من الملائم أنهن يجب وضعهن على ظهر الجمال على سبيل العقوبة (٨٨) .

ويعبر افليا وغيره من المراقبين عن دهشتهم من أنه حتى الناس المحترمون فى القاهرة كانوا يركبون الحمير ولم يعتبروا ذلك شيئا مثيرا (٨٩) . وفى عام ١٥٤٧ ، يتحدث الرحالة الفرنسى ، بيلون Belon بنفس النبرة : « غير أنه لم يكن من المشين بالنسبة للأهالى أو الأجانب أن يتنقلوا فوق ظهور الحمير ! » (٩٠) ويقول مصطفى على ان العلماء المصريين يرضون لأنفسهم بركوب حمار ، دون أن يشعروا بأى حرج . فهم يركبون حميرهم الصغيرة ، وأحيانا ما ينحشر ثلاثة منهم معا فوق حيوان واحد ، فيشكلون عبئا ثقيلًا بالنسبة للأتان الضعيف (٩١) .

الاحسان

كان اعطاء الصدقة للجياع والفقراء عملا مثاليا محببا غالبا ما يمارسه أثرياء القاهرة وأصحاب النفوذ فيها . اما وفاء لركن اسلامى أو خوفاً من أعمال الشغب الناتجة عن قلة الطعام ، اذا ما أصبح بؤس الفقراء شيئا لا يمكن احتماله ، أو كلا الأمرين معا ، بالطبع . ذلك أن أعمال شغب بسبب قلة الطعام ظهرت من آن لآخر ، فى القاهرة . وكان بعضها خطير الشأن حيث كانت الدهماء تلقى الحجارة على الجنود والأمراء (٩٢) . فكما بين ريمون Raymond بالتفصيل ، كانت الفجوة بين الفقراء والأغنياء فى القاهرة فجوة واسعة (٩٣) . لذا اعتبرت الطبقة الحاكمة أنه من الضرورى ، أن توجد مجموعة من المؤسسات من شأنها تخفيف أشد حالات المعاناة ، على الأقل ، فى أوقات الأزمات الاقتصادية . ففى أثناء المجاعات كان الباشا يحمل على عاتقه اطعام عدد معين من الفقراء ويحضر الأمراء على أن يحذوا حذوه . (كان لمثل هذا السلوك سوابق تاريخية فى السلطنة المملوكية) . (٩٤) . اذ انه أثناء احدى المجاعات عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م ، أطعم اسماعيل باشا ١٠٠٠ رجل فقير ، وأطعم كل امير ما بين ١٠٠ و ٢٠٠ شخص من الأيتام . كما أعطى كل صبي هبة قطعة ذهبية ومجموعة من الملابس .

وكما سبق أن ذكرنا ، كان الباشا يأمر بأن تدفع الخزانة مصروفات
 «فن الفقراء أثناء نشوب الطاعون» .

وكان بعض الكبراء ينتهزون بانتظام ، مناسبات مختلفة كى
 يمنحوا الطعام لفقراء القاهرة ، كما يشهد على ذلك مصطفى على والجبرتى
 وغيرهما (٩٥) . وتعد العلاقة التى أنشأها الأمير ابراهيم أبو شنب
 « ١١٣٠ هـ / ١٧١٧ أو ١٧١٨ م) مع الشحاذين ذات أهمية خاصة . إذ
 كان يعرفهم جميعا بشكل شخصى وكان يتذكر مقدار الصدقة الذى كان
 يعطيه لكل منهم . وفى احدى المرات ، بعد أن عاد الى القاهرة ، بعد غياب
 طويل ، حضر شيخ الشحاذين ورجاله للترحيب به . وقدموا له حصانا
 أصيلا وملتزماته الغالية . وفى مقابل ذلك ، منح ابراهيم بك جميع
 الشحاذين هبات من النقود والملابس وعقد وليمة خاصة لهم (٩٦) .

وكان المذهب السننى والمعتقدات الدينية المصرية ، تتيح الفرص
 لتقديم الاحسان والخير . إذ كان أعضاء الطبقة الحاكمة والأثرياء الذين
 كانوا يرغبون فى فعل الخير ينشئون مؤسسات للوقف تمول مدارس
 للأيتام ، وتصونها وكذلك تقدم الطعام للمحتاجين أثناء الموالد وغير
 ذلك من المناسبات الدينية . كما كانت زوايا من أمثال زاوية عبد الوهاب
 الشعرانى تقدم الطعام والمأوى للكثير من المتصوفة والفقراء (٩٧) .
 لقد كانت أشهر المؤسسات الخيرية هى مطابخ الحساء العمومية أو دور
 الفقارات أو (أماريت بالتركية) التى كانت تقدم الطعام مجانا للفقراء .
 وبما أن هذه المؤسسات تمويلها الأوقاف وكانت فى معظمها مرتبطة
 بمساجد ، فانها كانت أقل كرما من مثيلاتها فى اسطنبول ، على حد قول
 افليا شلبى ، حيث كان فى إمكان المحتاجين الحصول على الطعام مرتين
 يوميا . وكانت معظم دور الفقراء توزع الطعام فى أيام الجمعة ، وفى
 العطلات الخاصة .

وكانت أكبر الدور (العمارات) فى مسجد السلطان قلاوون ، تقدم
 الحساء يوميا والأرز واللحم أيضا فى أيام الجمعة ليلا (٩٨) .

الاحتفالات العامة

شعب محب للمرح

كان أهل القاهرة شغوفين بكل أنواع المراسم العامة والاحتفالات والاستعراضات . اذ كانوا يحبون أن يسترخوا ويسلوا أنفسهم ، ويخرجوا للنزهات ، والاكل فى الأماكن الخلوية . وهذا الميل لم يغيب عن ملاحظة الرحالة الأجانب ذوى الميول الأكثر خشونة من مقاطعات الدولة العثمانية الأخرى ، أو الرحالة من شمال أفريقية . فبعد الفتح العثمانى ، افتقد أهل القاهرة الاحتفالات الرائعة والعروض التى كانوا قد تعودوا عليها فى ظل حكم المماليك . ومع مرور الوقت ، على أية حال ، تمكنوا من امتناع أنفسهم وأن يحتفلوا ، مرة أخرى ، حين تبنى السادة الجدد هذا الملمح من حكم المماليك . فكتب مصطفى على عام ١٥٩٩ :

هناك احتفالات غريبة فى كل أسبوع ، حسب عادات أهل القاهرة . فهم يقولون عن حياتهم الاجتماعية انها تقدم الفراغ والسعادة . أى أنهم لم يكونوا قانعين بالوليمتين الشريفتين كما لم يقنعوا بالتجمعات الرائعة المرتبطة برحيل الحجاج ووصولهم . فعلى العكس من البلاد الأخرى ، فى القاهرة ، لا يكاد شهر يمر دون احتفال ما ، ودون أن يتقاطروا جماعات قائلين اليوم هو يوم النزهة الى هذا المكان أو ذاك ، أو اليوم هو الذى يمر فيه هذا الموكب أو ذاك . لذا ، فان معظم وقتهم يمر فى فراغ (٩٩) .

كذلك يتحدث مصطفى على عن تكرار التجمعات الاجتماعية المصرية - الى جانب العيدين الدينيين ، اللذين كانوا يحتفلون بهما بقدر كبير من الحبور ، اذ كان حاكم البلاد يظهر على صهوة جواد ، فى اليوم الثانى من كل عيد ، ويوزع الخلع على الجنود ، الذين كانوا يستعرضون مهاراتهم فى الألعاب الحربية (١٠٠) . ومما يؤكد وصف مصطفى على أقوال جون فيلد Wild الذى زار القاهرة عام ١٦٠٦ - ١٦١٠ . اذ يقول ان أهل القاهرة لديهم نوع من الاحتفال فى كل يوم تقريبا ، وخاصة فى بولاق أو على ضفاف النهر (١٠١) .

وفى المناسبات التى يتم الاحتفال بها طبقا للتقويم الإسلامى ، مثل رحيل الحجيج الى مكة فى كل عام ، فى الأسبوع الأخير من شوال ، أو الكسوة ، وهى الغطاء الأسود المزركش بالحريز ، أو المحمل اللذين كانا يعرضان فى مواكب بهيجة قبل رحيل الحج ، ثم تحملان الى مكة . كانت عودة الحجاج فى نهاية شهر صفر ، بالمثل تجتذب الجماهير (١٠٢) .

وثمة عيد اسلامى آخر هو ليلة الرؤية ، أى ليلة مراقبة الهلال . وكان أكبر العروض تأثيرا فى تلك الليلة موكب جميع الطوائف ، وهو حدث أتاح لافليا شلبى فرصة ليطالع جميع فنون القاهرة المنظمة وحرفها بالتفصيل . وكان لهذا الموكب ما يشابهه فى اسطنبول . وكان ، فى القاهرة ، يبدأ بالمحتسب ورجاله ، تتبعهم مختلف الطوائف تحمل كل منها راياتها ، ورموزها وممتلكاتها بين غزف الموسيقى والمشاجرات الهزلية وغير ذلك من حيل لتسلية المتفرجين .

يقول افليا ان هذه الليلة كانت تعرف لدى الأهالى « بليلة النساء » ، بما أنه كان يستحيل منعهم من مغادرة بيوتهن لمشاهدة الموكب . ومن الواضح أن السماح لهم بفعل ذلك كان يؤدى الى عقد الزيجات (١٠٣) .

وطبقا للمحوظة فى حولية أحمد شلبى ، فلقد انقطع موكب الطوائف لمدة تقرب من ٤٠ عاما ، من ١١٠٥ هـ / ١٦٩٤ م الى ١١٤٧ هـ / ١٧٣٥ م ، وذلك حين أمر المحتسب مشايخ الطوائف بأن يحيوا التقليد القديم المتمثل فى أسهامهم فى نفقات الطعام والشراب وفرق الموسيقى ، والشموع والمصاييح وأجور العاملين . غير أن تجار أسواق الغورية والجمالية الذين كان لهم نفوذ كبير وصلابة فى رأى رفضوا المشاركة والدفع ، مدعين أن الموكب غير أخلاقى (١٠٤) . ولقد وصفنا الموالد التى كانت تنعقد حسب التقويم الإسلامى (مع وجود استثناءات عديدة هامة) ، فى الفصل السادس (١٠٥) .

وأبرز الأعياد التى كان يحتفل بها حسب التقويم القبطى مرتبطة بايقاع النيل السنوى ، وفاء النيل ، حين يصل النهر الى أعلى مستوى

له • كان يحتفل بهذا الحدث أسبوعا بأكمله ، عادة بين الأول والحادى عشر من شهر مسرى القبطى (٦ - ١٦ من أغسطس) •

وكانت ذروة المراسم تتمثل فى فتح ترعة القاهرة ، حين يفتح السد الذى كان يغلّق الترعة بواسطة أمير رفيع الرتبة مع الخاصة الحاكمة والجماهير الغفيرة وهى تنفجر • وكان ذلك يتم مع ارتفاع المياه • وكان جميع أهل القاهرة يقضون الليل على ضفتى النهر •

وكان الكثير من القوارب المزركشة بها أناس يعزفون على الآلات الموسيقية مستعدة لدخول الترعة بمجرد فتح السد •

وكانت جميع الأعمال تتوقف فى المدينة، التى كانت تزخر بالتسلية من أنواع عديدة • اذ كانت تنطلق الألعاب النارية ، وتطلق المدافع (١٠٦) •

وكانت هناك عطلة أقل أهمية تسبق هذه العطلة الرئيسية ، تسمى ليلة النقطة ، فى حوالى الحادى عشر من بؤونة (السابع من يونيو) ، وكانت هذه تشير الى بداية ارتفاع النيل • كما كان هناك اعتقاد بأنه فى مثل هذه الليلة تسقط نقطة معجزة فى النهر فتسبب فى ارتفاعه (١٠٧) •

ومن حين لآخر ، كانت السلطات ، أيضا ، تأمر أهل القاهرة بمراعاة العطلات المرتبطة بالأسرة الحاكمة أو المتعلقة بالانتصارات العسكرية • فكان لا بد من الاحتفال بميلاد وريث السلطان وذلك بتزيين الحوائيت واطاءتها ليلا • وكانت مثل هذه الاحتفالات تفرض عبئا غير مرغوب فيه على السكان بسبب توقف جميع الأعمال والتعاملات فى هذه الأيام • ففى بضع حالات ، سحبت الحكومة العثمانية (المركزية) الطلب الخاص بتزيين المدينة واستعاضت عنه بدعوات الأهالى للسلطان من قبيل النظر الى ما يواجهه الناس من صعوبات • وفى احدى المناسبات ، قصر أحد الفرمانات الرسمية مدة الاحتفالات (١٠٨) • وربما يبدو أن الناس لم

يكونوا متحمسين بالنسبة لمناسبات الدولة هذه ، لأنها لم تكن تشكل جزءاً من التقاليد الشعبية كما لم تشتبل على ترفيه أو عروض .

الترفيه والتسلية

عادة ما كانت شوارع القاهرة زاخرة بالمسلمين من كل نوع : مثل الراقصات ، والرواة والمشعوذين واللاعبين بالثعابين (الحواة أو الرفاعية) ولاعبى العرائس فى ألعاب الظل وغير ذلك . وكان عددهم يتزايد فى العطلات والاحتفالات .

وكانت المقاهى أماكن محببة للالتقاء والاسترخاء . لقد أدخلت الى مصر فى أوائل القرن السادس عشر . ولاقى بعض المعارضة من جانب الأصوليين الدينيين الذين اعتبروا شرب القهوة بدعة تستحق اللوم ، ومع مرور الوقت أصبح شرب القهوة شيئاً شائعاً للغاية (١٠٩) . اذ يكتب مصطفى على : « ومن الملحوظ أيضاً تكاثر المقاهى فى القاهرة ، وتركز المقاهى فى كل خطوة ، وفى أماكن من الملائم للناس أن يتجمعوا فيها . اذ يذهب الى هناك المصلون الذين يستيقظون فى الصباح الباكر وكذلك الاتقياء . ذلك أن احتساء فنجان من القهوة يضيف حياة الى حياتهم ، (١١٠) . ويلاحظ الكاتب على كل حال ، أن المقاهى هى أيضاً ملتقى المنحليين ومدمنى الأفيون ، وهذا مما يؤسف له .

مع مقدم القرن الثامن عشر ، صار شرب القهوة مقبولاً حتى عند أكثر الناس تحفظاً وهم المغاربة ، كما تؤكد هذا روايات أسفارهم . وفى نهاية القرن الثامن عشر ، اعتبر أحد الرحالة المغاربة شرب القهوة عادة مصرية طبق الأصل وافق عليها ، على العكس من التدخين الذى اعتبره غير صحى ، بل وحراماً . فلقد وجد شرب القهوة شيئاً مقتصدًا جداً ، لما فيها من ميزة كبيرة وهى تقليل نفقات الضيافة . اذ لا يمكن تقديمها حتى الى أحد الباشوات وبالتأكيد يمكن تقديمها للمسئولين الأقل رتبة ، فتحرر المضيفين من المزيد من الالتزامات ، كتلك التى كانت لديهم حين يقدمون الطعام بدونها . فاذا فعلوا ذلك ، فسيعتبرون كأنهم لم يكرموا ضيوفهم مطلقاً (١١١) .

ويكتب افليا شلبى قائمة بالأماكن التى كان يذهب اليها المصريون للترفيه للهروب من حرارة المدينة وما بها من تلوث . فالتمشية على ضفتى النيل أو الخليج والابحار بالقوارب حين يكون النيل مرتفعا ، من الوسائل المفضلة لقضاء وقت الفراغ عند ساكنى المدينة . كما كانت المتنزهات والأماكن الخلوية لتناول الطعام وأماكن التنزه كثيرة فى القاهرة وما جاورها . كما تشتمل قائمة افليا على البرك الكبيرة (بخاصة الأزبكية) ، وقرية البساتين على بعد ساعتين مشيا من المدينة ، وجزيرة الروضة ، وكذلك الأهرام بالجيزة . كما كان بالقصر العينى حديقة بديعة . وهذا المكان هو موقع على ضفة النيل ، ومركز بقطاشى شهير . كما كانت تعرف المطرية بمياهها العذبة بينما كانت معظم الآبار تميل الى اللون الأسود . وتقع المطرية على بعد ساعتين سيرا نحو شمال القاهرة . كذلك كانت أشجار الجميز حول المدينة تجذب محبى الزهات الخلوية . وكانت عنك بضعة أماكن مخصصة لاستخدام الطبقة الحاكمة وحدها . اذ احتفظ بالقرب من مسجد السلطان حسن مثلا بمنطقة لأرستقراطية القاهرة حيث يمكنهم الاسترخاء واطلاق السهام . ويلقون بالجريد وهو نوع من لعب الرماح المثلثة مثلما يرى فى ألعاب الخيل (١١٢) .

التقسيم الطبقي الاجتماعى والاقتصادى لسكان القاهرة

ان الهوة التقليدية الاسلامية التى تفصل بين الخاصة والعامة (*) أو الخط العثمانى الذى يفصل بين العسكر والموظفين والرعية ، يجب أن يتم تصحيحه بما تقدمه المصادر من أدلة وكذلك ما أدركه المراقبون المعاصرون . ففى قاع السلم الاجتماعى فى القاهرة يوجد العبيد السود الذين كانوا يعملون خدما للمنازل وخدامات . وكان الكثير من الجوارى السود يحتفظ بهن كمحظيات . ولا توجد تقديرات لعدد العبيد السود

(*) كل ما يحدثنا عنه المؤلف وغيره من سلبيات هى فى الواقع تراث مملوكى تداخل مع الفكر الإسلامى فتداخل النسيجان واختلط الأمر ، لكن حقيقة الأمر أن الإسلام عندما ظهر سوى بين الملك والسوقة ، وجعل التفاضل بالقوى ، لكن القبيلة سرعان ما غلبت لفترة ثم اجتاح العالم الإسلامى تراث العبيد البيض - انظر مقدمة المراجع .

فى القاهرة فنادرا ما تذكرهم المصادر كأفراد ، ولا يذكرهم قط كجماعة
أو طبقة (١١٣) .

البروليتاريا : عادة ما يطلق على هذه الطبقة العامة أو السوقة
أو أهل الحرف الساقلة (أى المشتغلين بمهن حقيرة) * وكان هؤلاء أفقر
طبقة فى مجتمع المدينة * وفى نهاية القرن الثامن عشر ، قدر كتاب وصف
مصر عددهم بستين ألفا ، هو العدد الكلى للبروليتاريا ، الذين كان يتراوح
دخلهم اليومى بين ٥ و ٣٠ بارة * وكان هناك العمال الذين ليس لهم دخل
ثابت كالسقاين ، والمكاريين والباعة الجائلين والكناسين والحمالين
والشحاذين وما الى ذلك * وبما أن هؤلاء يعيشون تحت خط الفقر ، فلقد
كانوا يتأثرون تأثرا مباشرا بالأزمات الاقتصادية ، كما كانوا عرضة
للعنف حيث تصبح ظروف حياتهم لا تطاق (١١٤) .

ويروى المؤرخون الحوليون اضطرابات شعبية أثناء المجاعات
وحالات الندرة الشديدة فى أعوام ١٧١٤ ، ١٧١٥ ، ١٧٢٢ ، ١٧٢٣ ،
١٧٣١ ، ١٧٣٣ .

لقد كانت الفترة من ١٧٣٦ الى ١٧٧٠ فترة تميزت بالرخاء النسبى ،
ولكن حين عانى الناس من استيلاء البكوات على المال بالقوة ، فى الربع
الأخير من القرن الثامن عشر ، ساد التوتر بين البروليتاريا مرة
أخرى (١١٥) .

وكان الحرفيون والتجار - حوالى ١٥٠٠٠٠ فى نهاية القرن الثامن
عشر - هم العمود الفقرى للعنصر المنتج اقتصاديا فى القاهرة * ولما كانوا
منتظمين فى طوائف فان المؤرخين الحوليين يطلقون عليهم أهل الحرف
أو « المتسببون » ، أهل المهن وتجار القطاعى * لقد كان هناك تمايز
اقتصادى كبير داخل هذه الطبقة * اذ كان التجار أكثر يسرا عموما من
الحرفيين * بل ان بعض التجار كانوا يملكون ملتزميات ريفية .

وكان الحرفيون والتجار عادة يعملون فى أحياء الأعمال وأسواق
القاهرة الكبيرة ، مثل الغورية والحمزاوى وخان الخليلي والجمالية .

وعادة ما كانوا يسكنون بالقرب من حوائيتهم • اذ كان الأكثر ترفاً يحيون فى منازل يملكونها ، أما الآخرون فيسكنون فى مجمعات من المساكن المستأجرة ، تسمى الربع (١١٦) •

وكانت البرجوازية التجارية (١١٧) تقدر بحوالى ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ فى نهاية الحقبة ، وكانت الخاصة من بينهم تتكون من ٦٠٠ - ٧٠٠ تاجر • كانوا يشتغلون بتوريد واستيراد الأقمشة ، والتوابل ، والعبيد ، والأهم من ذلك ، اشتغالهم فى تجارة البن وكان عدد كبير من هذه المجموعة من الأجانب (*) : كالمغاربة والأتراك والشوام •

ويمكن اعتبار هؤلاء التجار الأثرياء طبقة اجتماعية بالمعنى الحديث للكلمة • اذ كانت ثرواتهم تصل أحيانا الى ما يبلغ ١٥ بارة • وكانوا يمثلون ترابطا داخليا ملحوظا ووعيا طبقيًا ويتزاوجون من داخل الطبقة الى حد كبير •

وكان التجار يتمتعون باستقلال حسب ما تسمح به ظروف ذلك الزمن ، فلم يخضعوا لاشراف المحتسب • فكان رئيسهم المنتخب ، الشهبندر دائما ثريا ذا نفوذ • وكان لهم أسنوب فى الحياة يتسم بالبذخ ويسكنون فى منازل رائعة فى أرقى أحياء المدينة • وابتداء من نهاية القرن الثامن عشر ، مال التجار الى الانتقال من القاهرة الغاصة بالأعمال، نحو الغرب الى الأماكن الطليقة المسيحة على الخليج حول بركة الأزبكية ، التى كانت آخذة فى أن تصبح المنطقة الراقية بلا منازع • كما كانت مفضلة لدى البكوات وأغنياء العلماء • اذ امتلك الكثير من التجار الأثرياء ممالك بالرغم من الحظر الذى كثر تكراره بعدم امتلاك المدنيين لعبيد من البيض •

(*) أى من غير الممالك ، فحين يقال المصريون فى الفترة منذ قيام دولة الجراكسة حتى الحملة الفرنسية ، فالمقصود هم ممالك القاهرة خاصة ، أما أهل البلاد فيطلق عليهم اسم (الفلاحون) - (المراجع) •

- كان من المعتاد بالنسبة للتاجر الغنى أن يحصل على التزامات
- وتبرع الكثير منهم بأراض للصدقات وبنوا المساجد وصفات للمتصوفة

وكانت هناك فى الغالب وشائج أسرية بين كبار التجار والمشايخ
الموسرين ، والعلماء والمتصوفة • واشتغل بعض العلماء بالتجارة ،
واستثمر المشايخ أموالا فى الورش والحمامات وغير ذلك من الأعمال ،
فاستشارهم الحكام فى الأمور الاقتصادية •

وتعد أسرة الجبرتى (المؤرخ) مثالا جيدا على أسرة من العلماء
الناجحين اقتصاديا • اذ اقامت صلوات وثيقة مع طبقات القاهرة العسكرية
والتجارية • ونحو نهاية القرن الثامن عشر تدهورت ظروف التجار
الأثرياء بسبب الأزمة التى ألمت بالاقتصاد المصرى • اذ اعتصر بكوات
الماليك الأهالى وفرضوا قروضا اجبارية على هؤلاء التجار • وعموما ،
فان بعض الصعوبات كانت ناتجة عن تطورات حدثت فى التجارة الدولية •

اذ صار الاقتصاد المصرى استعماريا تقريبا (*) ، يصدر المواد الخام ،
ويستورد المنتجات المصنعة ، مثل الأقمشة الانجليزية والفرنسية •
وكانت أسوأ صفقة للتجار هى المنافسة من البن الذى أنتجه الفرنسيون
فى الأنتيل Antilles • اذ انه بسبب جودته الأقل من البن المصرى
- وهو - أى البن المصرى أربع مادة فى التجارة التى تعبر مصر - فكان
ثمان بن الأنتيل أقل منه بخمسة وعشرين فى المائة • فغزا هذا البن
الفرنسى أخيرا الأسواق المصرية التقليدية المتنوعة فى سالونيك والمغرب ،
بل وأدخل فى مصر نفسها •

لقد كانت هذه التغييرات مواتية أيضا لمصالح التجار الأوربيين فى
مصر ، وكذلك اليهود والمسيحيين المحليين ، الذين كانوا يعملون معهم
على حساب التجار المصريين المسلمين والطبقة الحاكمة ، المكونة من
العسكريين - والباشا وحاشيته وضباط الكتائب السبع وبكوات الممالك

(*) almost Colonial ، والمعنى غير واضح تماما بالنسبة لى - (المراجع) •

وكانت قوة الجيش ١٠ر٠٠٠ رجل . ومن الطبيعي وجود فروق اقتصادية واجتماعية ضخمة بين الأمراء الأغنياء والجنود البسطاء .

وكانت الخاصة الحاكمة تتحدث بالتركية ومعظمهم ، وان لم يكن جميعهم لم يولدوا فى مصر . ان ثروة الطبقة المتجمعة من المرتبات ، وهى متواضعة فى حالة الأفراد غير أنها مرتفعة جدا بالنسبة للأمراء ، وذلك من خلال الاستغلال المنظم لعوائد مصر بفرض الضرائب فى المدن والريف وكذلك الأنواع المختلفة من الاتاوات ومشاركة الحرفيين والتجار بالاكراه .

وبعض أكثر الأمراء ثراء عاشوا أسلوب حياة فخما ، اذ عاشوا فى منازل ضخمة رائعة وكانت لديهم حاشيات كبيرة . كذلك تطلب نظام الرعاية للأفراد والتنظيم السياسى المملوكى من الأمراء أن ينفقوا مبالغ طائلة على منازلهم وأهل بيوتهم . فتلك البيوت كانت تقوم بدور المقار للفرق .

انتقل المالك ، شأنهم شأن كبار التجار ، من مناطقهم الأصلية أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد كانوا يغادرون السكن بجوار القلعة ، وربما كان ذلك بسبب انهيار سلطة الباشا ، وانما بالتأكد لأن هذه المنطقة كانت دائما مسرحا لقتال عنيف بين الوجقات العسكرية المتحاربة . وكان مسجد السلطان حسن القريب وغيره من الآثار أهدافا استراتيجية فى تلك المعارك . فانتقل الكثير من الأمراء الى الأجزاء الشمالية الغربية من المدينة أولا الى جوار بركة الفيل ، خاصة الى منطقة قوسون على الشاطئ الشرقى لهذه البركة . وأثناء الفترة من ١٦٥٠ الى ١٧٥٠ ، أصبحت الضفة اليمنى من الخليج هى المكان المفضل للسكن ، بالنسبة للخاصة من العسكريين .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فضل الأمراء الأماكن المحيطة ببركة الأزبكية .

وكان لكل أمير منزلان : واحد واسع يسكنونه مع أسرهم ، وآخر صغير يخفون كنوزهم فيه ويلجأون اليه فى الأوقات العصيبة . أما المسئولون أصحاب الرتب الأقل مثل الكشاف وقواد الكتائب ، فكانوا

يسكنون فى القاهرة ، بصفة أساسية فى أحيائها الجنوبية . وكان الكشف أدنى من البكوات بدرجة واحدة فى البناء الهرمى العسكرى (١١٨) .

الحرف

بعد ظهور شبكة متنامية من حوالى ٢٤٠ طائفة أحد التطورات المثيرة فى تاريخ القاهرة الاجتماعى والاقتصادى ويشير الى حيوية تجارتها وصناعتها الصغيرة (١١٩) . لأن الطائفة كانت تسمى سينيف Sinif (جمع اسناف Esnaf) حسب المصادر التركية وطائفة (مفرد طوائف باللغة العربية) والاصطلاح الأخير عام ويشير الى أية جماعة ، مثل الطريقة الصوفية أو الجماعة الدينية .

ويوجد أكثر الأوصاف تفصيلا للطائفة فى مقالة باللغة العربية كتبها كاتب مصرى مجهول فى أواخر القرن السادس عشر أو أوائل القرن السابع عشر (وهذا العمل لم ينشر ويسمى بمخطوطة جونا) ، وفى فصل طويل فى روايات الرحلات التى كتبها شلبى بعنوان كتاب السياحات (سياحات نامى) فى السبعينيات من القرن السابع عشر . وهناك معلومات اضافية متناثرة فى حولية أحمد شلبى ، والجبرتى وغيرهما (١٢٠) .

إن الأصول التاريخية للطوائف غير واضحة . ويبدو أن الدارسين يتفقون على أن الطوائف تم ايجادها تحت الحكم العثمانى (١٢١) ، غير أن هذا لا يعنى أنه لم توجد أى تنظيمات مهنية ، أو أن التضامن بين من يشتغلون بنفس المهنة لم يكن شيئاً معروفاً قبل عام ١٥١٧ . بل على العكس من ذلك ، هناك أدلة مستمدة من السنوات الأولى للسيطرة العثمانية على أن مشايخ الأسواق (وهذا الاصطلاح قد استخدمته المصادر فيما بعد ، للتكلم عن رؤساء الطوائف) وجماعات الحرفيين وهى تشير الى القلعة ومعهم رايات مرفوعة ونسخ من القرآن ؛ لاطهار شكواهم ضد الضرائب الجديدة ونظم العملة . إذ يروى الدياربكرى أنه فى الحادى عشر من ربيع الثانى من عام ٩٢٩ هـ ، الموافق السابع والعشرين

من فبراير ١٦٢٥ م ، تظاهرت الطوائف المهنية ضد محتسب عين حدينا ، من الأتراك العثمانيين . ويعتبر المؤرخ الحولى ، وهو قاض عثمانى ، الظاهرة تصيرا عن التعصب العربى ضد المحتسب الذى حل محل بركات بن موسى ، وهو مصرى يتكلم العربية (١٢٢) .

كما تعكس مخطوطة جوثا Gotha التوتر بين العرب والأتراك داخل الطوائف . اذ يتهم المؤلف المصرى العثمانيين بأنهم تسببوا فى تدهور الطوائف وبالتمييز ضد أولاد العرب . بل والأكثر من ذلك ، فان الأتراك متهمون بالفساد ، بينما يذكر السلاطين المماليك باعتبارهم حكاما يتسمون بالفضيلة وبأن حكمهم هو العصر الذهبى للطوائف . ويقال ان السلطات العثمانية قد تدخلت فى حياة الطوائف ؛ وذلك بتعيين مشايخ لم يكونوا سوى وكلاء الحكومة المالىين (١٢٣) .

ان مخطوطة جوثا Gotha لا تقدم معلومات ثرية عن الطوائف فحسب ، وانما أيضا معلومات عن الاتجاه المعادى للعثمانيين الذى كان سائدا بين الحرفيين المصريين .

ولا تقدم المخطوطة الكثير من حيث لقاء الضوء على أصل الطوائف ، بل انها اذا كانت قد فعلت شيئا ، فهو أنها أضافت الى البلبلة القائمة أصلا . اذ يفترض المؤلف - على عكس الأدلة التاريخية - أن الطوائف لم توجد تحت حكم السلاطين المماليك ، بل انها ازدهرت تحت حكمهم وتدهورت بعد الفتح العثمانى . فمن الواضح أن العثمانيين قد منهجوا وتوسعوا فى البنى التى كانت موجودة بشكل بدائى قبلهم بل وأعطوها شكلا رسميا . وكان هذا هو دأبهم بالنسبة للكثير من المؤسسات .

وثمة فرق بين الطوائف العثمانية (ومن ثم المصرية) ونظيرتها الغربية هو أن الطوائف الأوروبية كانت تنظيمات اقتصادية تتمتع بالحكم الذاتى ، وتمثل مصالح أعضائها فى مواجهة الحكومة ، بينما كانت الدولة تتحكم فى الطوائف العثمانية . وغالبا ما كان الحرفيون والتجار ينتخبون

رؤساء الهيئات العثمانية ، غير أنهم كان لابد من تثبيتهم من قبل سلطات الحكومة . وفى الكثير من الأحيان ، كان شيخ الطائفة يمثل الحكومة أمام أعضاء الطائفة ، وليس العكس . فلقد وفر نظام الطوائف للحكومة بوسيلة مناسبة الحصول على الضرائب من التجار والحرفيين . اذ كانت الدولة ، وليست الطوائف هى التى تحدد أسعار البضائع ، خاصة أسعار المواد الخام غير المصنعة .

وكان للطوائف تقاليد وأخلاقها ومراسمها . وكانت جميعا تعرف بالفتوة . وكان من أهم تقاليد الطائفة الشد ، أى التثبيت والربط حين يتقدم لعضوية التنظيم شخص جديد ، وكل طائفة أيضا كانت لها ممتلكاتها ، من رموز ورايات وكذلك لها وليها الذى يراعها ، غالبا ما يكون شخصية من الصحابة .

وتزخر جميع المراسم وكتابات الفتوة بالروح الاسلامية والمصطلحات الاسلامية ، وغالبا ما تذكر المرء بالمتصوفة بشكل قوى (١٢٤) .

لقد كانت الطوائف تشارك فى بعض المراسم العامة ، مثل الرؤية . وخاصة الطوائف التى يتحكم المحتسب فيها ، أو احتفالات قطع الخليج الذى كان اليوم الذى يفتش فيه كبير المهندسين المعماريين على الطائفة . كما كانت الطوائف تعقد احتفالا عاما فى أيام الموالد ، ورحيل المحمل ، وما شاكل ذلك .

يقدم شلبي قائمة من ثلاثين فئة من الطوائف كل منها تشتمل على تنظيمات فرعية مستغلة فى مجال خاص من النشاط الاقتصادى (١٢٥) .

كانت هناك مقاييس أخرى تميز الطوائف . فبعضها كان يعتبر غير أخلاقى ، على سبيل المثال ، طوائف : العاهرات ، والقوادين والشحاذين وتجار الرقيق الأسود والنشالين والكناسين . وتمتعت بعض الطوائف بمكانة اجتماعية رفيعة ، مثل طوائف الأطباء والحلاقين وباعة العقاقير وباعة الكتب وطوائف تجار الغلال الاثرياء ، وتجار الأرز والأوعيسة والنحاس

والفراء والسراجين . وكانت جميع الطوائف ذات المكانة الرفيعة طوائف أخلاقية . أما الطوائف ذات المكانة الدنيا فهي من حيث المبدأ ، تلك الطوائف التي يتألف أعضاؤها من الفلاحين ، والنوبيين ، الذين كانوا يعملون كخدم أو خفر وحداة جمال ومكاريين وسقائين وطهاة . وكانوا جميعا يحصلون على دخول متدنية نسبيا ، أو يشتغلون بمهن قذرة ، مثل باعة الزيت أو الباعة بالسمسرة أو المهن التي يشتهر فيها على أسس دينية ، مثل الحدادين والمهن الاجرامية وغير الأخلاقية .

كانت بضع طوائف مركزة تركزا جغرافيا ، مثلا حى الحسينية بما فيه من طائفة الجزارين (القصابين) الشهيرة أو ميدان الرميطة ، الذى كان مركز البقالين (البدالين) .

كما كانت الطوائف تصنف بنوع السيطرة الذى يمارس عليها . فعمار باشى القاهرة كان مسئولاً عن جميع أعمال التشييد . يجمع الضرائب من طوائف البنائين ، وبناء الحجر والمهندسين المعماريين وواضعى الحجارة . وكان أمين الخردة المسئول عن طوائف العاملين فى مجال التسلية يتحكم ويفرض الضرائب على جميع العروض العامة . وكانت الطوائف غير الأخلاقية تحت اشراف مفتشى الشرطة الذين كانوا يحددون الضرائب . وأخيرا ، كانت طوائف التجارة ، التي تبيع أو تنتج الطعام ، تحت سيطرة المحتسب .

وبعض الطوائف كانت لها ملامح عرقية مميزة . فمثلا ، سيطر المغاربة والأتراك والشوام على التجارة فى أنواع معينة من البضائع .

وكانت هناك أيضا طائفة الخدم النوبيين . وكانت عضوية طوائف معينة تتألف من اليهود أو المسيحيين .

ويكتب افليا شلبى عن طوائف كانت غالبية أعضائها من الأقباط او اليهود وان لم يكن كلهم . (كالحدادين) من القبط أو (صناع الأزرار) من اليهود ، وكانت بضع طوائف تضم أعضاء مسلمين وذميين . ويظن ويمون أن هذا لم يكن يشير الى اتجاه متسامح من جانب السلطات ، وانما

كان ، بالأحرى يعبر عن تردد السلطات فى السماح بوجود طوائف ذمية منفصلة (١٢٦) .

كانت الطائفة تنظيميا هرميا : اذ يوجد الشيخ على قمة الهرم ، وتحتة يوجد مندوبه (كاهيا أو كتخدة) وهو مساعد مسئول عن المراسم (نقيب) ، وكبار السن فى الطائفة (اختيارية) ، وربما كان تنظيم الاختيارية هذا غير رسمى . كما كان الأعضاء يلقبون حسب مكائهم المهنية : أسطة أو عامل صبى (١٢٧) .

لقد كانت طوائف القاهرة مظهرا مثيرا على قدرة المدينة الحرفية والتجارية . ومع ذلك ، فلم يكن أثرهم على الاقتصاد ايجابيا بالكامل . فلقد كانت تنظيمات شديدة الانغلاق ، وكان من المحتمل أن يتسبب اتجاهها المحافظ فى وجود الاحتكار والجمود التكنولوجى .

لقد كان المبدأ الورائى بارزا ، بخاصة فى طوائف الحرفيين . أما فى طوائف التجار ، فكان هناك مزيد من المرونة والمزيد من الفرص للتقدم الاجتماعى (١٢٨) .

علاقة الحرفيين والتجار بالجيش

كانت مصر كلها تعد مقاطعة واحدة ضخمة . فما هى الا مصدر للدخل يستغله السلطان . فى البداية ، كانت معظم المقاطعات توكل الى مسئولين يسمون أمناء وهم موظفون مأجورون ، مسئولون عن جلب العوائد من المقاطعة . وبالتدريج ، حل محل هذا النظام نظام الالتزام . وبواسطته ، كانت تخرج مصادر الدخل ، عادة عن طريق المزاد غالبا - لضباط الجيش الأقوياء والأثرياء ومشايخ العرب ، ولكن بعد ذلك كانت تعطن للأثرياء من المدنيين ، مثل التجار والعلماء . والكثير من الالتزامات قسمت فيما بعد ، على وكلاء أداروها من أجل الملتزم الأصلى . فمثلا كان اليهود يتعاملون فى جمع دخول جمارك مصر . وكانت هذه موكلة لحاكم مصر أو للانكشارية .

ومع نهاية القرن الثامن عشر ، لم يكن على ضباط الكتائب أن يشترتوا التزامات ، فلقد صار فى امكانهم ، عندئذ ، أن يتسلموها كميراث .
لقد كانت علاقة رعايا السلطان المنتجين ولعسكريين هى علاقة استغلال اقتصادى الى درجة لم تشهدا الحكومة العثمانية فى وقت الفتح (١٢٩) . ففى القاهرة وحدها ، كان هناك أكثر من ٩٠ مقاطعة فصار العبء المالى الجائهم على صدر القطاع المنتج من أهالى القاهرة ، عبئا أثقل فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر (١٣٠) .

عموما ، لم تكن الصورة ببساطة هى صورة علاقة طفيلية . ذلك أن عملية الدخول فى مشروعات بين الطوائف والعسكريين خلقت مجتمعا معقدا من المصالح بين الطبقة العسكرية وأصحاب الحرف والحوانيت والتجار . وكانت الانكشارية والعزب أكثرها انهماكا بشكل حميم ، مع الحرفيين فى المدينة .

ولا يمكن فصل أعمال النار الدموية بين هذه الكتائب عن خلفيتها الاقتصادية ، التى كانت كفاحا للتحكم فى مصادر الدخل المدنية هذه (١٣١) .

لقد سبقت الاشارة الى أن المدنيين قد اخترقوا الحاجز بين الطبقة العسكرية والرعية ، حين بدأ الأهالى المصريون فى الالتحاق بالجيش ، وكانت لهم طبيعة مختلفة ،

لقد كان الارتباط الشديد بين الحرفيين والتجار مع الكتائب اجتماعيا ، ان لم يكن مشروعا ، للحصول على الحماية والاعفاء من الضرائب . فلم تكن هذه الظاهرة جديدة على مصر ، كما لم تنفرد بها ، وانما اتخذت فى مصر نسبة ضخمة مع منتصف القرن السابع عشر . اذ كان مشايخ الطوائف ، بصفة خاصة ، واقعين تحت ضغط ثقيل من جانب الجيش كى ينضموا الى الكتائب ، كجزء من سياستها فى مصر

الخاصة بالتحكم فى المهن • فدخل الحرفيون والتجار الكتاب بأعداد متزايدة حين حققت الانكشارية سيادة سياسية ، عام ١٧٠٩ •

وحين أخطر أحد القضاة مشايخ الطوائف بأن الباب العالى حظر مرة أخرى ، على المدنيين الالتحاق بالكتاب ، تلقى الاجابة التالية :
« كلنا عسكر أولاد عسكر » (١٣٢) •

وانتشرت عادة وضع التجار الأثرياء لماليكهم فى الكتاب • وبالمثل ، فلقد شجع رجال الأمراء على الانشغال بالأنشطة الاقتصادية فى الوقت نفسه ، بدأ الجنود فى دخول المهن ، وهى عملية لها جذورها فى أيام الفتح الأولى ، حين افتتح الجنود الأتراك أكشاكا لبيع البيرة (١٣٣) • وازداد تدفق الجنود على المهن نحو نهاية القرن السادس عشر ، حين كان نظام الدفشمرة (نظام التجنيد العثمانى) ، قد أخذ فى الانهيار • وحين حدث تروخ فى تطبيق القواعد التى تحظر على الانكشارية الزواج وهم فى الخدمة العسكرية الفعلية ، وكذلك قواعد منعهم من الاشتغال بالتجارة • فما دامت رواتب الجنود غير كافية وغير منتظمة ، فقد تطلعوا لزيادة دخولهم بطرق قانونية أو غير قانونية • وفى سنة ١٧٨٣ ، وصف فولنى Volney الكتاب بأنها أقرب الى أن تكون مجموعات من المتشردين (الصميم) Vagabonds والحرفيين ، أكثر من كونها مجموعات من العساكر (١٣٤) • وشاعت التحالفات الناتجة عن النسب (التزاوج) بين التجار الأثرياء والأمراء والقادة العسكريين ذوى الرتب الأدنى والحرفيين وأصحاب الحوانيت • وثمة حوادث بعينها تبين الى أى مدى تشابكت مصالح الجيش مع التجار ، كوقائع حدثت مع يوسف اليهودى سنة ١٦٩٧ والأزمة التى دارت حول افرنج أحمد سنة ١٧١٠ •

الخاتمة

كان التغير الاجتماعى متباطئا فى مجتمع حديث مثل المجتمع المصرى . ذلك أن ايقاع الحياة وطريقة الحياة والتراكيب الاجتماعية الأساسية كانت فى نهاية الحقبة العثمانية تماما كما كانت فى البدء . اذ يتفق المؤرخون على أنه ، حتى فى اسطنبول ، حاضرة الامبراطورية ، والبتى كانت أكثر عرضة للمنفوذ الأوربى ، بما لا يدع مجالا للمقارنة ، مع القاهرة ، فان التغير الاجتماعى قبل القرن التاسع عشر كان محدودا .

لقد كانت مصر تقع فى عمق الامبراطورية العثمانية ، فى الفناء الخلفى ، بعيدة عن الأحداث المثيرة ، والتيارات الجديدة التى كانت تؤثر فى قلب الامبراطورية . ومع ذلك ، فان ضم مصر الى الامبراطورية فى حد ذاته أدخل بعض التغير الاجتماعى . ذلك أن ظهور شبكة قوية متنامية من الطوائف فى القاهرة لا شك كان نتيجة للحكم العثمانى على سبيل المثال . ومن الممكن اعتبار انتشار الطرق الصوفية فى مصر جزئيا ، على الأقل ، كتأثير للثقافة العثمانية والنظام الاجتماعى .

أثرت السيطرة العثمانية على مصر ببعض الطرق العميقة جدا وأسهمت بلا وعى ، فى ايجاد كيان مصرى . اذ لم يتم أبدا التعبير عن الحكم العثمانى ، بالمعنى التى نجدها أحيانا فى كتابة التاريخ الحديث بالروح الوطنية - أى أن المصريين كانوا مقهورين يستغلهم السادة الأتراك . ذلك أن العثمانيين لم يحكموا مصر ، أو غيرها من المقاطعات ، كاتراك بما أنهم يعتبروا أنفسهم كذلك . فكانت الامبراطورية (الدولة

العثمانية) دولة اسلامية ، بل أقوى دولة وقوة عالمية رئيسية . وكان من الممكن قبول حكمها في مصر كأمر له كامل المشروعية .

ومع مرور الوقت ، ومع تدهور الامبراطورية ، أخذ الوجود العثماني في مصر يشكل عبئا . فعبر المصريون عن مقتهم لسوء الحكم العثماني بالطريقة التي كانوا يعرفونها في تلك الأوقات السابقة على العصور الحديثة - وذلك من خلال الدين .

لقد أكد الاسلام ذو الطابع المصرى نفسه كما لم يفعل لعدة قرون : من خلال مركزية الأزهر وظهور شيوخ الأزهر (المقصود المنصب) ودخول الصفوة الدينية والقادة الشعبيين - علماء ومتصوفة وأشراف ، بالإضافة الى انتعاش الموالد . وفي القرن الثامن عشر ، أصبحت الصفوة العسكرية والمدنية في مصر أكثر تفتحا واستقلالية في التفكير من العثمانيين ، وصار الأمراء المماليك والقضاة أكثر مصرية وعروبة بالتدرج ، لكنه نادرا ما ظهرت الهوية المصرية في مواجهة الهوية العثمانية أو التركية وجها لوجه قبل القرن التاسع عشر ؛ لكنها كانت كامنة بالفعل قبل الحملة الفرنسية وحكم محمد على .

الحواشي وقائمة المصادر

- أثرنا الإبقاء على المراجع التركية بالحروف اللاتينية كما كتبها المؤلف ، إلا إذا كان المؤلف عربى الاسم رغم أنه تركى فقد كتبنا اسمه فى هذه الحال بالعربية (مثل عبد الكريم ، وعبد الرحمن ، حلاق ٠٠٠ الخ) .
- استخدم المؤلف بعض الاختصارات لمصادر وثائقية تركية وقد أبقينا عليها بحروفها اللاتينية لسبب بسيط وهو أن عناوين الدفاتر فى الأرشيفات العثمانية أصيحت الآن مكتوبة بحروف لاتينية ، ومن ذلك :
MD = Mühimme Defteri.
أى الدفاتر المهمة (أرشيف اسطنبول) .
MM = Mühimme Misr.
أى أرشيف الأمور المهمة المتعلقة بمصر - أرشيف الصدر الأعظم ، اسطنبول .
- استخدم المؤلف عدة اختصارات أخرى هى :
- أحمد شلبى (فقط) ليقصد كتابه أوضح الاشارات فيمن تولى مصر والقاهرة من الوزراء والباشاات .
- عبد الكريم بن عبد الرحمن (فقط) ليشير الى كتابه التركى الذى أوردنا اسمه بالتركية بحروف لاتينية .
- الدياريكوى (فقط) ليشير الى كتابه نكر الخلفاء والملوك المصرية .
- حلاق (فقط) ليشير الى كتابه التركى المدرج فى قائمة المصادر .
- ابن اياس (فقط) ليشير الى كتابه بدائع الزهور .
- الجبرتى (فقط) ليشير الى كتابه عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .
- مبارك (فقط) ليشير لكتاب على باشا مبارك الخطط التوفيقية الجديدة .
- مصطفى على ليشير الى كتابه :
Description of Cairo of 1599.
- أما اختصاراته لبعض المراجع الأوربية فكالاتى :
BSOAS : Bulletin if the School of Oriental & African studies.
EL = Ency. of Islam 1st ed.
EL 2 = Ency. of Islam 2nd ed.
IJMES = International Journal of Middle East Studies.
JESHO = Journal of the Economic & Social Histoty of the Orient.
LANE = E. W. Lane, the manners & Customs of the modern Egyp-
tians.
WZKM = Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes .

هوامش الفصل الأول

(١) عن دولة المماليك ومجتمعهم انظر :

- D. Ayalon's collected articles, *Studies on the Mamluks of Egypt (1250-1517)* (London, Variorum Reprints, 1977) and *The Mamluk Military Society* (London, Variorum Reprints, 1979) and R. Irwin, *The Middle East in The Middle Ages : The Early Mamluk Sultanate, 1250-1382* (London, 1986).

(٢) عن التكوين الاجتماعي في المدن في عصر المماليك . انظر :

- I. M. Lapidus *Muslim Cities in the Later Middle Ages* (Cambridge, Mass.. 1967).

(٣) عن الخلفية السيكولوجية للفشل المماليك في استخدام الأسلحة النارية انظر :

- D. Ayalon, *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom* (London, 1956).

(٤) عن التنافس العثماني المملوكي وتوابعه . انظر :

- On the Ottoman-Mamluk rivalry and its consequences, see Andrew C. Hess, 'The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth Century World War,' *IJMS*, vol. 4 (1973), pp. 55-76.

(٥) من الواضح من التواريخ الحولية العربية أن المماليك كانوا واعين للتفوق العسكري العثماني ، فكلما انتهت مشكلة مع العثمانيين سلميا ، تهدد السلطان المملوكي وحاشيته بارتياح .

(٦) من منظور تاريخي يبدو معقولا أن نناقش أن الفتح العثماني لمصر والشام لم يكن مجرد مخرج من سلسلة من سوء الفهم أو مجرد تحول غير واضح المعالم ، وإنما الأقرب أن يكون نتيجة لا مفر منها للوضع الذي يقتضي أن تكون هناك جبهة سنية تحت زعامة واحدة في مواجهة الهراطقة من شيعة ومسيحيين (فارس وحكم هبسبرج في الامبراطورية النمساوية) ، ومن الطبيعي أيضا أن الدولة العثمانية كانت تقصد من التوسع والغزو تدبير مزيد من الموارد مما أدى في النهاية الى ابتلاع الدولة المملوكية الهامدة . وقد تعرضت المراجع التالية للتطورات التاريخية بشكل موجز وذكي :

- P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent. 1516-1922.* (Ithaca, NY, 1966), pp. 33-45. On Ottoman policies towards the Mamluks, see D. Ayalon, 'Mamluk Military Aristocracy during the First Years of the Ottoman Occupation of Egypt.' in C.E. Bosworth, Ch. Issawi, R. Savory and A.L. Udovich (eds.), *The Islamic world : Studies in The End of the Mamluk Sultanate (Why Did the Ottoman Spare the Mamluks of Egypt and Wipe Out the Mamluks of Syria ?)*, *Studia islamica* 65 (1987), 125-48..

- Iyas, pp. 174-7. (٧)
- ibid., pp. 157-183. (٨)
- ibid., pp. 169-70, 186-7, 213, 219-20, 297, 366-7, 407-8, 420, 474-5. (٩)
- Ibid., pp. 150, 153-5, 162, 170, 207-8. (١٠)
- Ibid., p. 172. (١١)
- Ibid., pp. 178-9. 184-٤. (١٢)
- (١٣) القول بأن الخليفة العباسي كان بينهم يعد برهانا اضافيا على أن حكاية نقل الخلافة الى السلطان سليم ليست الا حكاية وضعت بعد ذلك . فاذا كان الخليفة شخصا مهما يمتلك صلاحيات ، تركه العثمانيون يعود الى دياره بهذه البساطة .
- See, for example, Iyas, pp. 174, 214, 223, 335. 356, 372. 452, (١٤)
462-3.
- Ibid., pp. 417-20, 427. (١٥)
- Ibid., pp. 165, 417-18, 242, 253-4, 460-466-7. (١٦)
- Ibid., p. 461, Diyarbakri, fol. 226 b-268 a. (١٧)
- Iyas, pp. 165-427. (١٨)
- The sources on Kha'ir Bey are Ibn Iyas and Diyarbakri. (١٩)
See also, J.-L. Bacqué-Grammont, 'Une dénonciation des abus de Ha'ir Bey, gouverneur de l'Egypte ottomane, en 1521,' *Annales ...Islamologiques*, vol. 19, 1982, pp. ٤-52.
- On the revolt of al-Ghazali. See Holt. op. cit., pp. 46-7. (٢٠)
- On that revolt see ibid., p. 48. and Diyarbakri, fol. 292b-302a, (٢١)
and Chapter 3 below.
- On Ahmet Pasha's revolt, see Holt, op. cit., pp. 48-51 and (٢٢)
Diyarbakri, fol. 310a-337b.
- (٢٣) نص قانوني - نامه مصر نشره :
- O. L. Barkan, XV ve XV iinci asırlarda Osmanlı İmparatorluğunda zırası, ekonominin hukuki ve mali esasları, vol. 1 (Istanbul. 1943), pp. 355-87.
- (٢٤) الدراسة الأساسية عن الإدارة في مصر العثمانية كتبها :
- S. J. Shaw. *The Financial and Administrative and Development of Ottoman Egypt. 1517-1798* (Princeton, NJ. 1962).
- (٢٥) اعتمدنا في هذا المسح على المصادر التالية :
- Holt op. cit., chapters 5, 6 : Holt. *The Pattern of Egyptian Political History from 1517 to 1798*, in Holt. ed., *Political and Social Change in Modern Egypt* (London, 1968), pp. 79-90 : Holt. *The Last Phase of the neo-Mamluk Regime in Egypt*, in *L'Egypte au XIXe siècle* (Paris. 1982). pp. 6٤-75 ; Raymond, *Artisans et commerçants* et D. Creelius, *The Roots of Modern Egypt : The Study of the Regimes of 'Ali Bey al-Kabir and Muhammad Abu al-Dhahab, 1760-1775* (Minneapolis and Chicago. 1981) : M. Winter. *Turks, Arabs and Mamluks in the Army of Ottoman Egypt. Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes.* vol. 72. 1980, pp. 97-122.

(٢٦) عن الجبلجورافيا (قوائم المصادر) لهذه الفترة انظر :

P. M. Holt, 'Ottoman Egypt (1517-1798) : An Account of Arabic-Historical Sources.' in Holt, ed., *Political and Social Change in Modern Egypt*. pp. 3-12 ; S.J. Shaw, 'Turkish Source-materials for Egyptian History.' in *ibid.*, pp. 28-48.

See Winter, 'Turks, Arabs and Mamluks, pp. 112-13. (٢٧)

حقيقة ان محمد باشا ابطال سجلات الجراكسة التي تسجل أعطياتهم ، ووضع سجلات اخرى (دفتري التربييع (daftari al tarbi) محمد بن ابي السرور البكري الصديقي ، النزهة الزاهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية (مخطوط رقم ٤٩٩٥ مجموعة يهودا جامعة برنستون) ورقة ٤٥ ب .

Mehmet Pasha abolished the Circassians' register, which recorded pensions and put another one in use (*daftari al-tarbi'*, Muhammad Ibn Abi'l-Surur al-Bakri al-Siddiqi, *al-Nuzha al-zahiyya fi dhikr wulat Misr wa'l-Qahira al-Mu'izziyya* (Ms. 4995, Yahuda Collection. Princeton University) fol. 45b.

P.M. Holt, 'The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century,' in Holt, *Studies in the History of the Near East* (London, 1973) pp. 177-219. (٢٨)

Holt. Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt.' in *Ibid.*, pp. 161-76. (٢٩)

Holt, 'The Exalted Lineage of Ridwan Bey : Some Observation on a Seventeenth Century Mamluk Genealogy,' in *ibid.*, p. 228. (٣٠)

Holt, 'The Career of Küçük Muhammad (1676-94),' in *Ibid.*, pp. 231-51. (٣١)

A Raymond, 'Une 'revolution' au Caire sous les Mamelouks. Le crise de 1123/1711.' *Annales Islamologiques*, vol. 6, 1965, pp. 95-120. (٣٢)

MM. vol. 3, no. 561, fol. 121b, mid-Rajab, 1138 (Decem-ber 9. 1726) ; vol. 4 no. 337, fot. 76 a, mid-Safar. 1143 (August 30. (٣٣)

Crececius, *op. cit.*, p. 173. (٣٤)

هوامش الفصل الثاني

- U. Haarmann, 'Ideology and History, Identity and Alterity : The Arab Image of the Turk from the 'Abbasids to Modern Egypt.' *IJMES.*, Vol. 20, no. 2, May 1988, pp. 175-96, for a broad and insightful discussion of the subject. (١)
- (٢) محمد بن طولون ، مفاكهة الخلال في حوادث الأزمان تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، خاصة الصفحات من ٢٩ الى ٣١ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٧٠ ، وكان هذا الكاتب الشامي مثملاً وواعياً بالجوانب غير السارة للحياة في ظل الاحتلال العسكري . انظر على سبيل المثال المرجع السابق ص ص ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٠ .
- (٣) عن الشعرائي انظر : *Winter, Society and Religion.*
- (٤) ابن نجيم ، الفتاوى الزينية (مخطوط - ٤١١٥ في مجموعة جاريت Garrett جامعة بريغستون) ورقة ١٥٠ أ ، ٦٢ أ .
- (٥) عبد القادر بن محمد الجزيري ، دزر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة . القاهرة ، ١٢٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، صص ١١٢ ، ١٢٦ ، ٢٦٤ ، وما بعدها .
- (٦) قطب الدين النهروالي المكي ، كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام . تحقيق ف . فستنفلد Wüstenfeld . بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٨٣ وما بعدها .
- (٧) انظر عبد الكريم رافق ، ابن أبي السرور وكتابه BSOAS مجلد ٣٨ ، ج ١ ، ١٩٧٥ . ص ص ٢٤ - ٣١ .
- (٨) النهروالي ، كتاب الاعلام ، ص ص ٢٨٣ - ٢٩٠ ، ٣٢١ - ٣٥٥ ، ٣٦٩ ، ٣٨٨ - ٣٩٧ ، ٤٠٦ - ٤٢٧ .
- (٩) مرجع سابق ، ص ٢٩١ .
- Winter, Society and Religion*, p. 268. (١٠)
- See M. Winter, 'A Seventeenth-Century Arabic Panegyric of the Ottoman Dynasty,' *Asian and African Studies* (Jerusalem), Vol. 13, no. 2. (١١)
- (١٢) النهروالي ، كتاب الاعلام ، ص ٤٠٥ .
- (١٣) أمثلة عن ذلك . انظر على سبيل المثال : مصطفى على ص ٤٠ (حاشية ٤١) ، ص ٥٧ (حاشية ٥٧) .
- (١٤) ابن اياس ، صفحات متفرقة .
- The article 'Ghuzz', in *El* 2 vol. 2, part 2, pp. 1106-11. (١٥)

المحبوبين والمكرومين . انظر على سبيل المثال : عبد الكريم بن عبد الرحمن ، وحلاص ،
ومحمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : النزعة الزاهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة
(مخطوط - ٤٩٩٥ ، مجموعة جاريت Garret - جامعة برنستون) .

Winter, 'the islamic profile'. انظر : (٢٨)

(٢٩) قانونى نامه مصر ، ص ٣٥٨ .

Barkan's edition. See also R. Mantran, «Note sur le Kanunname-i
Misir.' *Cahiers de linguistiques d'Orientalisme et de Savistiques : études
sémitiques et islamiques*. vol. 9, Juillet, 1977, pp. 35-44 ; P.M. Holt,
Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922 (Ithaca, NY, 1966), pp. 51-2.
Qanun-name-i Misir, p. 358. (٣٠)

Ibid., pp. 358-9. (٣١)

Ibid., p. 359. (٣٢)

See, for example, U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine*, (٣٣)
155٢-E615 (Oxford, 1960). pp. 68-9.

MD, vol. 7, no. 1335, pp. 462-3, Dhu'l-Hijja 1, 975 (May 29, (٣٤)
1568).

MD, vol. 35, no. 74٤, Ramadan 2, 986 (November 2, 1578). (٣٥)

M Winter, 'Military Connections between Egypt and Syria (٣٦)
(including Palestine) in the Early Ottoman Period,' in A. Cohen and
G. Baer, eds, *Egypt and Palestine A Millennium of Association*
(868-1048,) (Jerusalem, 1984), pp. 141 ff., based on the MD.

See ; for example, MD, vol. 50, no. 45, p. 12, Ramadan 1, (٣٧)
991 (September 18. 1583), no. 14, p. 14, Dhu'l-Qa'da 15, 991 (No-
vember 30, 1583).

MD, vol. 26, no. 551, . 199, Jumada 19, 982 (October 6, 1574). (٣٨)

(٣٩) قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى المكى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ،
تحقيق حمد الجاسر . الرياض ، ١٩٦٧ . ص ص ٤٠٨ ، ٤٢٢ - ٤٢٣ .

MD, vol. 7, no. 1329, *awa'il Dhu'l-Qa'da*, 1975 (May 1-10, (٤٠)
1567).

Winter., ' Military Connections between Egypt and Syria.' (٤١)

(٤٢) على سبيل المثال ، نجد أن النهروالى يذكر أن مصر قد أصبحت وطناً للجنود
الذين يخدمون فيها حيث يتمتعون بالهدوء فأحبوها وتآلفوا مع السكان . البرق
اليمانى ، ص ص ١٩ ، ١٩٩ .

M. Winter, 'Ali Efendi's (Anatoian Campaign Book' : a (٤٣)
Defence of te Egyptian Army in the Seventeenth Century', *Turcica*,
vol. 15, 1983, pp. 267-309.

MD, vol. 75, no. 199, p. 111, Shawwal 1013 (February- (٤٤)
March, 1604).

MD, vol. 26, no. 498, p. 183, Jumada I 10, 982 (August 28, (٤٥)
1574) ; vol. 73, nos. 634, 643, 644. Dhu'l-Hijja, 1003 (August-Sep-
tember. (1595) ; vol. 75, no. 199, p. 111, Dhu'l-Hijja, 1013 (April-
May. 1605).

- MD, vol. 7, no. 1329, p. 459, Dhu'l-Qa'da 1, 975 (April 28, 1568). (٤٦)
- MD, vol. 5, no. 1146, p. 430, Sha'ban 14., 973 (March 6, 1566) ; vol. 23, no. 693, p. 313. Dhu'l-Qa'da 23, 981 (March 16, 1573). (٤٧)
- Ali Efendi, fol. 23 a. (٤٨)
- Ibid., fol. 20 a. (٤٩)
- MD, vol. 50, no. 177 p. 42 Dhu'l-Qa'da 993 (November 8 1585). (٥٠)
- Ali Efendi Fol. 19 b. (٥١)
- MD, vol. 50, nos. 165, 182, 238, pp. 39, 42, 51. Safar-Dhu'l-Qada 993 (February-November 1585). (٥٢)
- MD, vol. 22 pp. 320, pp. 165-6 Rabi' the I 26. 981 (July 26, 1573) ; vol. 29, no. 9, p. 5. (٥٣)
- رمضان ، ١ ، ٩٨٤ ، (٢٢ نوفمبر ١٥٧٦) مجلد ٣٣ ، رقم ٢ ص ٢ ، رمضان ، ٢ ، ٩٨٥ (١٣ نوفمبر ١٥٧٧) عن كتاب الشاويشية والمتفرقة انظر :
- S.J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt*, 1517-1798, (Prinseton. NJ., 1962), pp. 193 ff.
- Winter, 'Ali Efendis Anatolian Campaign Book,' p. 275. (٥٤)
and note. Several décrees refer to the aghas. See, for example, MD, vol. 31, no. 190, p. 76, Jumada I 12, 985 (July 28, 1577) ; vol. 55, no. 605, p 264, 1004/5 ; vol. 60, no. 45, p. 20, Shawwal 21, 993 (October 16,1585).
- MD, vol. 26, no. 645, p. 226. Jumada II 7, 982 (September 24, 1574). (٥٥)
- MM, voli 7, no. 531, p. 245 b, *awakhir* Jumada I, 1127 (May 24, June 2, 1715). (٥٦)
- MM, vol. I, no. 237, p. 53 a, *awasit* Ramadan, 1124 (October 12-21, 1712) ; vol. 3, no. 137, p. 27a, *awa'il* Rabi' I, 1133 (January 1-10, 1722) ; vol. 5, no. 352, *awakhir* Ramadan, 1156 (November 8-17, 1743). (٥٧)
- MD, vol. 39, no. 201, p. 81, Shawwal 27, 987 (December 17, 1579). (٥٨)
- MD, vol. 22, no. 355, p. 184. Rabi' I 28, 981 (July 28, 1573). (٥٩)
- MD, vol. 23, no. 390, p. 184, Jumada II 27, 981 (October 24, 1577). (٦٠)
- See also MD, vol. 60, no. 31, p. 14. Shawwal 26, 993 (October 21, 1585), for another edict in the same vein.
- Qanun-name-i Misir, p. 376 (paragraph 36). (٦١)
- MD, vol. 26, no. 822, p. 284, Rajab 6, 982 (October 2, 1573). (٦٢)
- See al-Jaziri. Durar, pp. 374-6 : JR. Blackbourn, *The Collapse of Ottoman Authority in Yemen, 968/1560-976/1568.* Die Welt des Islams, N.S. vol. 19, nos. 1-4, (1979), p. 121. (٦٣)
- MD, vol. 14, no. 170, p. 120. Safar 9, 987 (July 23, 1570). Al-Nahrawali compares Yemen to a foundry in which the Egyptian soldiers melt like salt, al-Bark al-Yamani, p. 91. (٦٤)

- Holt, *the Beylicatc in Ottoman Egypt*, pp. 184-5. (٨٢)
- MD, Vol. 7, no. 2106. p. 771 Rabia 126, 976, September 18, (٨٣)
1568 Vol. 76 no 144, p. 58 Jumada I 1210 September, 4, 1607.
- MD, Vol. 39, no. 418, p. 203 Muharram 10, 988 (February (٨٤)
26, 1580). Vol 55, no 112, p. 63 Dhu'l. Hijja 4, 922 December 7,
1584).
- See Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, pp. 78-9; Combe, (٨٥)
'L'Egypte ottomane', pp. 21-39.
- ٠ (٨٦) عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٦٣ ب و ٦٤ ب ، حلاق ، ورقة ١٨٠ ا .
- (٨٧) أنظر على سبيل المثال : أحمد شلبي ، ص ص ٢٧٣ - ٣٩٢ ، عبد الكريم
ابن عبد الرحمن ورقة ٧٨ ب . Dehérain, *L'Egypte turque*, p. 104.
- See P.M. Holt. 'Al-Jabarti's Introduction to the History (٨٨)
of Ottoman Egypt,' BSOAS. vol. 25, part 1 (1962), pp. 38-51. See
also. Ahmad Shalabi, pp. 282-4.
- 'Ali Efendi, fol. 28a ; Hallaq, fol. 108a. (٨٩)
- Holt, *The Beylicatc in Ottoman Egypt*, pp. 181-6. (٩٠)
- Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, pp. 80-1 ; Winter. (٩١)
Ali Efendi, fol. 46b.-55b.; Hallaq, fol. 140a-148b.
- Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, p. 82 ; Hallaq, fol. (٩٢)
158a-178b.
- See P.M. Holt, 'The Exalted Lineage of Ridwan Bey : Some (٩٣)
Observations in a Seventeenth-Century Mamluk Geneology.
BSOAS, vol. 22, part 2, 1955, pp. 222-30.
- Evliya. p. 159. (٩٤)
- Ibid., pp. 131, 143, 328, 401. (٩٥)
- (٩٦) عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٢٦ ب .
- MD, vol. 55, no. 112, p. 63. Dhu'l-Hijja 4, 992 (December 7, (٩٧)
1584). vol. 75, no. 172 Shawwal 1, 1013 (February 20, 1605) :
vol. 76. p. 86 1013 (1605) : vol. 78. no. 746, p. 282. Dhu'l-Hijja.
1018 (February-March, 1610). عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٢٦ ب ،
fol. 36 b, 76 b : ورقة ١٢٥ ، حلاق ، fol. 125 b, 198 b, 208 a-b, 211
- ٠ محمد أبى السرور البكرى الصديقى النزهة الجلية مخطوط ٤٤٤٥ ، ورقة ٧ ب .
b. See Winter, *Turks, Arabs, and Mamluks.*' p. 104.
- Evliya. pp. 159-60 ;! Here Evliya provides a long list of (٩٨)
Arabic Words current in Egypt, which the Mamluks used with their
Turkish.
- Ibid., p. ٤81. (٩٩)
- Ibid., p. 602. (١٠٠)

- (١٠١) على عكس كتابات ايفيليا شلبي غير الدقيقة عن البلاد المختلفة فان وصفه
لصر يلقى قبولا من الكتاب الآخرين .
- Both show and Raymond use him extensively-See S. Ishaw Turkish
Source-materials for Egyptian History, in Holt, Artisans et commerçants, p. 205 note 1.
- (١٠٢) حلاق ، ورقة ٩٣ ب ، ٩٤ ب .
- MD, vol. 7, no. 2100, p. 769, Rabi' I 24, 976 (September 16, 1568) ; vol.
28, no. 120, p. 50, Rajab 25, 984 (October 18, 1576).
- On the *Sekban* see H. Inalcik. Military and Fiscal Transfor- (١٠٣)
mation in the Ottoman Empire, (1600-1700, 'Archivum Ottomanicum
(Louvin, 1980), vol. 6. especially pp. 292-330. On *sekban* in the
service of Egyptian emire, see for example, 'Abdulkarim ibn 'Abdär-
rahman, fol. 48b ; Winter, 'Turks, Arabs, and Mamluks,' p. 115.
- (١٠٤) عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٦٩ أ ، ٧١ أ ، حلاق ، ورقة ١٥٠ أ
وما بعدها .
- (١٠٥) نفسه ، ورقة ١٠٥ ب ، ١٨٦ أ .
- (١٠٦) نفسه ، ورقة ٢٣٧ أ ، ٢٣٧ ب ، أحمد شلبي ص ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .
- (١٠٧) حلاق ، ورقة ٢١٦ أ ، ٢٣٧ أ .
- See MD, vol. 22, no. 351, p. 182, Rabi' I 28, 981 (July 28,
1573);
- On the changes in the Ottoman armies in the period (١٠٨)
generally, see H. Inalcik, 'Military and Fiscal Transformation in
the Ottoman Empire.' For *firman*s ordering the governor of Egypt
to enlist *gharib yigit* Turkish troops. see MD, vol. 6, no. 412, p. 191,
Rabi' II 20, 972 (November 25, 1564) ; vol. 14, no. 912, p. 633, Rajab
19, 978 (December 17, 1570) ; vol. 22, no. 351, p. 181, Rabi' I 28, 981
(July 28, 1573). For *firman*s calling for an Egyptian contingent
of 3.00 troops see, for example, MM. vol. 1, no. 499, fol. 111a *awa'il*
Muharram. 1130 (December 5-14, 1717) ; vol. 5, no. 340, *awakhir*
Rajab, 1105 (November, 14-23, 1737).
- Evliya. pp. 125, 145. (١٠٩)
- Ibid., p. 222 : Ahmad Shalabi, pp. 187, 468 ; Jabarti, Vol. I, (١١٠)
p. 25.
- See Archives Nationales. Paris. Affaires Etrangères. B1 313, (١١١)
I, correspondente consulaire (de Caïre, 1669-98), pp. 148, 200-4, 407-
15 ; B1 315, III, pp. 203-5 (Mai, 1704).
- Raymond, Artisans et commerçants, p. 728. (١١٢)
- Archives Nationale, Paris, Affaires Etrangères, B1 313, I. (١١٣)
pp. 200-4.
- الجبرتي / وقائع ذى الحجة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م .
- Shaw, The Financial and Administrative Development, (١١٥)
pp. 35-8, 165, 168, 313-5.
- أحمد شلبي ، ص ٥٤٠ .
- See Ibid., pp. 489, 493 : MM, vol. 1, no. 182, fol. 42a, (١١٧)
awasit Rabi' I, 1123 (April 29-May 8, 1711) ; no. 196, fol. 44a,
awa'il Safar, 1124 (March 10-19, 1712).
- أحمد شلبي ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣١٥ ، ٤٤٨ - ٤٥١ .

- MM, vol. 4, no. 337, fol. 76a, *awasit* Safar, 1143 (August 26- (١١٦)
September 4, 1730) ; vol. 6, no. 268, fol. 59a-59b, *awasit* Muharram,
1159 (February 3-12, 1746).
- See, for example, MD, vol. 80, no. 1164, p. 419, Muharram 2. (١٢٠)
1023 (February 12, 1614) ; vol. 82. ni 272, pp. 126. Ramadan 18.
1026 (September 19, 1617) ; MM, vol. 3, no. 35, fol. 8 b, *awa'il*
Shawwal, 1131 (August 17-26, 1719) ; *ibid.*, no. 587, fol. 125 b.
awakhir Rajab, 1138 (March 25-April 3, 1726) ; vol. 6, no. 265,
fol. 58a-58b, *awasit* Rajab, 1158 (August 9-18, 1745).
- أحمد شلبي ، ص ٢٢١ (١٢١)
• نفسه ، ص ٤٤١ MM, vol. 1, no. 74. مايو ٢١ - ٣٠ ، ١٧٠٩ . (١٢٢)
• أحمد شلبي ، ص ٢٢٥ (١٢٣)
- MM. vol. 1, no. 615, 1126. (١٧١٤)
• ٤٧١ - ٤٧٠ ص ص (١٢٤)
Winter, Ali Effendi, *passim* . . . ص ١٣ ، مجلد ٣ ، الجبرتي
- MM. VII, 5, no. 180. (١٢٥)
- MM, Vol 5, no. 180, pp. 74-6, *awakhir* Ramadan, 1147 (١٢٦)
(February, 14-23, 1735).
- See for example, MM, vol. I, no. 372, fol. 83a-83b, *awa'il* (١٢٧)
Rajab, 1126 (July 13-22, 1714) ; *ibid.*, no. 499, fol. 111a, *awa'il*
Muharram, 1130 (December 5-14, 1713); vol. 3, no. 66, fol. 14a.
awakhir Rabi II. 1132 (March 2-11, 1720) ; *ibid.* no. 354, fol. 73b-
74 b. *awa'il* Ramadan. 1135 (June 5-14, 1723).
- Ibid.*, vol. 7, no. 164, fol. 79b-80a, *awasit* Ramadan, (١٢٨)
1167 (July 2-11, 1754) : no. 120, fol. 60a, *awaist* Rabi' II, 1167
(February 5-14, 1754).
- Ibir.*, vol. 3, no. 549, fol. 119 b, *awa'il* Rajab, 1138 (March (١٢٩)
5-14, 1726). See also Ahmad Shalabi, pp. 336, 359-60.
• الجبرتي ، مجلد ١ ، ص ١٢٩ (١٣٠)
- Raymond, *Artisans et Commerçants*, pp. 727-735.
- See D. Kimche, *The Political Superstructure of Egypt in the (١٣١)
late Eighteenth Century*, *Middle East Journal*, Vol. 22, no. 4, 1968,
pp. 454-6.,
- MM, vol. 7. no. 158, pp. 345 - zsha 'ban 10, 117, (April 8, 1759). (١٣٢)
- R. Pococke, *A Description of the East some other countries (١٣٣)
(London 1743)*, vol. 1, p. 167.
• عن ابراهيم كتنخدا ، انظر الجبرتي ، مج ١ ص ص ١٩١ - ١٩٢ (١٣٤)
Dehèrain, *L'Egypte Turque*. pp. 110-115.
- (١٣٥) أحمد شلبي ، ص ٤٥٧ : المعنى كما ورد بالنص : « الباشا الجديد الذي
وصل مصر في ١١٢٨ هـ / ١٧٢٥ م قدم خلع التشريف لاثني عشر من الصناجق (البكوات)
كان أربعة منهم من المماليك » ، ثم يذكر لنا هذا المؤرخ أسماء هؤلاء البكوات .
- D. Ayalon, « *Studies in al-Jabarti*, *JESHO*, vol. 3 (1960). (١٣٦)
pp. 148-74. 275-325.
- الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٤٥ (١٣٧)

(١٣٨) نمة مناقشة شائقة تؤكد بشدة على تركيز المجتمع المملوكي على مصالحه الشخصية دون النظر للاعتبارات المثالية من حيث النظر للولاء والأخوة أو حقوق الرابطة .
انظر :

R. Irwin, *The Middle East in the Middle Ages : The Early Mamluk Sultanate, 1250-1382* (London, 1986), chapter 8, especially, pp. 154-6.

• (١٣٩) أحمد شلبي ، ص ص ٣٧٤ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ .

See Ibid., p. 30 (*akhaḍha min atba'ihi thalathata mamalik.*). (١٤٠)

See P.M. Holt, 'The Career of Küçük Muhammad, *Studies in the History of the Near East* (London, 1973), p. 237. Compare to Ayalon, *Studies in al-Jabarti*. *JESHO*, vol. 3. part 3 (October 1960), pp. 278-83.

See D. Ayalon, *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom* (London, 1956), especially, pp. 96-7. (١٤١)

Ayalon, 'Studies in al-Jabarti,' p. 310, citing several instances from al-Jabarti. (١٤٢)

See D. Ayalon, 'Discharge from Servite, Banishments and Imprisonments in Mamluk Society,' *Israel Oriental Studies*, vol. 2, pp. 25-50. (١٤٣)

Ayalon, 'Studies in al-Jabarti,' p. 310, citing several passages in Jabarti. (١٤٤)

• (١٤٥) الجبرتي ، مج ١ ، ص ١١٦ .

Ahmad Shalabi, pp. 486, 615. (١٤٦)

Ayalon, 'Studies in al-Jabarti'. vol. 1, pp. 190, 259. (١٤٧)

• (١٤٨) الجبرتي ، مج ١ ، ص ١٩٠ .

Ibid., vol. 2, p. 28. (١٤٩)

• نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٨ .

• (١٥٠) نفسه مج ، ص ٣١٨ .

Ahmad Shalabi, p. 506. Dehérain, *L'Egypte turque*, p. 75. (١٥١)

Ahmar Shalabi, 481. (١٥٢)

• (١٥٣) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٤٥ .

Ahmad Shalabi, pp. 508-9. (١٥٤)

Ibid., pp. 391, 628 : Jabarti, vol. 1, p. 124. (١٥٥)

Ahmad Shalabi, pp. 345 ff : Jabarti, vol. 1, pp. 51-6. (١٥٦)

Ibid., vol. I, p. 278. (١٥٧)

Ibid., vol. 1, pp. 191-2. (١٥٨)

Ahmad Shalabi, p. 188 : Jabarti, vol. 1, p. 105. (١٥٩)

Ibid., vol. 1, pp. 203-4. (١٦٠)

• (١٦١) عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٢٦ ب وعلى أفندي Al. effendi ، ٢٤ .

Evliya, p. 144. (١٦٢)

Pococke, p. 193., (١٦٣)

Ayalon, 'Studies in al-Jabarti,' p. 154. الجبرتي ، مج ١ ص ص (١٦٤)

- Ahmad Shalabi, p. 427. (١٦٥)
- Ibid., p. 392. (١٦٦)
- (١٦٧) ابن اياس ، ص ١٨٣ .
- (١٦٨) انظر ما ذكرناه سابقا ، الجبرتي ، مج ١ ، ص ٢٠٧ .
- Pococke, p. 180. (١٦٩)
- (١٧٠) الجبرتي ، مج (٢) ، ص ٦١ .
- See, for example, Ahmad Shalabi, pp. 367, 518 : 207. (١٧١)
- (١٧٢) يذكر المؤرخ أن معظم ممالك خليل بك كانوا سودا مما يشكل تناقضا في استخدام المصطلحات ، ويعطى انطبعا قويا أن هذا الأمير واتباعه لم يكونوا أسوياء أى لم يكن أمرهم طبيعيا atypical
- On back Mamluks, see Ayalon, 'Studies in al-Jabarti,' pp. 316-7. (١٧٣)
- (١٧٣) الجبرتي ، مجلد ، ص ص ١٧ - ١٩ .
- Ayalon, 'Studies in al-Jabarti, p. 186. (١٧٤)
- (١٧٤) سنناقش ذلك تفصيلا في النصل الخامس .
- Ayalon. 'Studies in al-Jabarti,' pp. 318-21. (١٧٥)
- لم أستخد كلفة (عرق) أو (جنس) race بمعناها العلمي الدقيق وإنما وفقا للمفاهيم السائدة في العصور الوسطى وفي المجتمعات العثمانية .
- (١٧٦) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٨٠ .
- (١٧٧) نفسه ، مجلد ٢ ، ص ص ٥٤ ، ٢١٠ - ٢١١ .
- (١٧٨) أحمد شلبي ، ص ٤٧٢ ، الجبرتي ، مجلد ١ ، ص ٩٨ .
- (١٧٩) يرجع العداء بين الجنود العثمانيين من ناحية والمماليك من ناحية أخرى الى هدايات الحكم العثماني ولم يختلف بعد ذلك . انظر على سبيل المثال : الدياربيكري ، ورقة ٢٨٧ أ - ٢٩٦ ب وكتاب علي أفندي يوضح هذا أيضا ، وانظر أيضا العداء ضد العثمانيين كما تجلى في تصرفات اسماعيل بك بن أوأظ ، وذكر الجبرتي (مجلد ١ ، ص ١١٨) أنه لا أصدقاء للعثمانيين ولا يمكن الوثوق بهم .
- (١٨٠) الجبرتي ، مجلد ٤ ، ص ١٢٨ .
- (١٨١) نفسه ، مجلد ٤ ، ص ١٢٩ حقيقة أن المماليك كانوا قد أصبحوا جزءا من المجتمع المصري تتضح من خلال واقعة رواها الجبرتي في أحداث صفر ١٢٠٢ هـ / نوفمبر ١٧٨٧ إذ يذكر أن اسماعيل بك حاكم القاهرة القرى سأل العلماء أن يرسلوا الى اسطنبول لترسل قوات لغرض النظام في مصر ، فاجاب العروسي شيخ الأزهر (الذي كان انتخابه لمنصبه دون غيره من غير المصريين يمثل نقلة ذات طابع وطني) قائلا انه لا حاجة لذلك فالأتراك أو العسكر الرومية لن يقدروا على العسكر المصرية والأفضل هو اكرام العسكر المصرية والتودد لهم ، فهذا أفضل من تقديم أبناء وطنك (بلدك) للغرباء ، والذي تعطيه للغرباء أعطوه لأولاد بلدكم أولى) .
- (١٨٢) الجبرتي ، مجلد ٢ ، ص ص ١٥٣ - ١٥٤ .

هوامش الفصل الثالث

On the *Mühimme Defteri*, see U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine, 1522-1615* (Oxford, 1960). (١)

(٢) ابن اياس ، ص ١٥٥ يجب أن تعزى هذه المشاعر الى حقيقة أن ابن اياس كان ابن أمير مملوكي ، وعداؤه للبدو يعكس نارا قديما بين المالك والبدو يعود الى منتصف القرن الثالث عشر عندما تم تأسيس دولة المالك فقد ثار البدو في هذا الوقت ضد المالك بقيادة زعيم عربي من أصول شريفة (ينسب لآل البيت) . وقد قمع المالك هذه الثورة بقسوة . المقرئزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة ، ١٩٤٢)

المجلد ، ج ٣ ، صص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

(٣) ابن اياس ، ص ١٠٧ .

(٤) نفسه ، ص ص ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ .

(٥) نفسه ، ص ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٦) نفسه ، ص ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٧) ابن اياس ص ٢١٦ ، الدياربيكري ، ورقة ١٢٥ .

(٨) نفسه .

(٩) خطاب من خاير بك للسلطان سليم ، كتب في ١٥١٧/٨٩٢٣ م ، وثيقة E 5850/2

في أرشيف طوبقابي سرايى Topkapi Sarayi باسطنبول .

(١٠) ابن اياس ، صص ٢١٢٢ - ٢٢٦ ، الدياربيكري ، ورقة ١٢٥ ، ١٢٦ ب .

(١١) ابن اياس حصص ٢٦١ - ٢٦٤ ، الدياربيكري ، ورقة ١٢٣ ب ، ١٧٢ .

(١٢) ابن اياس ، صص ٢٢٠ - ٢٤١ ، الدياربيكري ، ورقة ١٢٦ ب - ١٢٧ .

(١٣) ابن اياس ، ٢٥٨ - ٢٥٩ ، لدياربيكري ، ورقة ١٧١ ب .

(١٤) ابن اياس ، صص ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، الدياربيكري ، ورقة ١٧٨ ب ،

١٨٠ ب .

(١٥) ابن اياس ، صص ٢٩٥ - ٢٩٦ ، الدياربيكري ، ورقة ١٩٣ ب - ١٩٤ .

(١٦) ابن اياس ، صص ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، الدياربيكري ، ورقة ١٩٦ ب - ١٩٧ .

(١٧) ابن اياس ، ص ٣٢٥ ، الدياربيكري ، ورقة ٢٠٧ ب .

(١٨) نفسه ، عن الزينى بركات بن موسى ، ابن اياس والدياربيكري ،

صفحات متفرقة .

(١٩) ابن اياس ، صص ٣٢٥ - ٣٢٦ ، الدياربيكري ورقة ٢٠٧ ب ، انظر ايضا

Evliya ، ص ص ٢٤٣ - ٣٤٤ .

(٢٠) ابن اياس صص ٣٢٦ - ٣٢٧ ، الدياربيكري ٢٠٧ ب - ٢٠٨ ب .

(٢١) ابن اياس ، صص ٣٢٨ - ٣٣٠ ، الدياربيكري ، ورقة ٢٠٩ ب ، ٢٢٢ -

٢٢٢ ب .

- (٢٢) ابن اياس ، ص ٣٧٢ ، الدياربيكرى ، ورقة ٢٣٣ ، ١ ، ٢٣٦ ب .
 (٢٣) ابن اياس ، ص ٣٧٥ ، الدياربيكرى ، ورقة ٢٣٤ ب .
 (٢٤) ابن اياس ، ص ٤٤٧ ، الدياربيكرى ، ورقة ٢٦٢ ، ١ - ٢٦٢ ب .
 (٢٥) نفسه ، ورقة ٢٦٢ ، ١ ، ٢٨٨ ، ١ ، ٢٩١ ، ابن اياس ، صص ٣٧٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ .
- (٢٦) الدياربيكرى ، ورقة ٢٩٢ ب .
 (٢٧) نفسه ، ورقة ٢٩٤ ب .
 (٢٨) نفسه ، ورقة ٢٩٥ أ .
 (٢٩) نفسه ، ورقة ٣٥٨ ب . - معلومات مهمة عن جانم الحمزاوى واعدامه المفاجيء
 فى ذى الحجة سنة ٩٤٤ هـ / مايو سنة ١٥٢٨ م بأمر سليمان باشا حاكم مصر ، أوردتها
 قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى المكي فى البرق اليماني فى الفتح العثماني (الرياض ،
 ١٩٦٧) ص ص ٧١ - ٧٥ .
- (٣٠) الدياربيكرى ، ورقة ٣٥٨ ب - ٣٥٩ ب .
 (٣١) نفسه ، ورقة ٣٥٩ ب ، ٢٩٦ أ .
 (٣٢) نفسه ، ورقة ٢٩٧ ب - ٢٩٨ أ .
 (٣٣) نفسه ، ورقة ٣٠١ ب - ٣٠٢ أ ، ٣٠٤ ب .
 (٣٤) نفسه ، ورقة ٣٠٥ أ - ٣٠٦ أ .
 (٣٥) نفسه ، ورقة ٣٠٧ ب - ٣٠٩ ب .
 (٣٦) نفسه ، ورقة ٣١٤ أ ، ٣١٧ ، ١ ، ٣١٧ ب ، ٣٢٢ أ ، ٣٢٨ ب .
 (٣٧) نفسه ، ورقة ٣٢١ أ .
 (٣٨) نفسه ، ورقة ٣٢٤ ب - ٣٢٥ أ .
 (٣٩) نفسه ، ورقة ٣٣٥ أ - ٣٤٤ أ .
 (٤٠) نفسه ، ورقة ٣٣٦ أ - ٣٣٧ ب .
- (٤١) لاحظ شو S. J. Shaw عن حق أن هذه الثورة المملوكية لم يتم القضاء عليها
 بسرعة فى عام ١٥٢٤ ، وأن أتباع أحمد ظلوا يواصلون المقاومة وسيطروا على مناطق ريفية
 كثيرة .
- J. S. Shaw, 'Landholding and Land-tax Revenues in Ottoman Egypt,
 in P.M. Holt, ed., *Political and Social Change in Modern Egypt*
 (London, 1968), p. 93, n. 3.
- ولابد أن نضيف أن هؤلاء الاتباع كانوا من شيوخ البدو وليسوا مماليك وان معركتهم
 لم تكن استمرارا للثورة المملوكية ، وإنما كانت تمردا بدويا .
- (٤٢) الدياربيكرى ، ورقة ٣٢٨ ، ١ ، ٣٤٠ ب .
 (٤٣) نفسه ، ورقة ٣٤١ ب .
 (٤٤) نفسه ، ورقة ٣٤٣ أ .
 (٤٥) نفسه ، ورقة ٣٤٣ ب .
 (٤٦) نفسه ، ورقة ٣٤٥ أ ، ٥٢٥ ب .
 (٤٧) نفسه ، ورقة ٣٤٢ ب .
 (٤٨) نفسه ، ورقة ٣٤٥ أ .
 (٤٩) نفسه ، ورقة ٣٤٢ ب ، ٣٤٣ أ .
 (٥٠) مصطفى على ، ص ٥٧ .

- MD, vol. 23, p. 209, no. 708, Dhu'l-Qa'da 23, 981 (March 16, 1574) ; vol. 50, p. 15, no. 59, Dhu'l-Qa'da 15, 991 (November 30, 1583) ; vol. 61, p. 107, no. 267, Sha'ban 24, 994 (August 10, 1585). (٧٥)
- MD, Vol. 22, p. 151, no. 300, Rabi' II 15, 981 (August 14, 1573). (٧٦)
- MD, vol. 22, p. 145, no. 290, Rabi' I 15, 981 (July 15, 1573) ; Ibid., p. 146, no. 291, same date ; ibid., no. 292, same date ; ibid., p. 149, no. 296, same date ; ibid., p. 151, no. 300 ; ibid., p. 152, no. 307, Rabi' I 26, 981 (July 26, 1573) ; ibid., pp. 161-2, no. 315, same date ; ibid., p. 162, no. 316, same date. (٧٧)
- MD, vol. 24, p. 312, no. 845, Safar 3, 982 (May 25, 1574). (٧٨)
- MD, vol. 23, p. 178, no. 376, Rajab 29, 981 (November 24, 1573) ; vol. 36, p. 153, no. 423, Safar 2, 987 (March 31, 1579). (٧٩)
- MD, vol. 26, p. 264, no. 757, Jumada II 24 982 (October 11, 1574). (٨٠)
- See, for example, D. Ayalon, 'Studies in al-Jabarti,' JESHO, vol. 8, 1960, part 2, p. 151 and part 3, p. 299. (٨١)
- (٨٢) حلاق ، ورقة ١٨٧
- MD, vol. 10, p. 312, no. 508, Dhu'l-Hijja 22, 987 (May 17, 1571).
- MD, vol. 22, pp. 181-2, no. 350, Rabi' I 28, 981 (July 28, 1573). (٨٣)
- On the office of amir al-hajj in Ottoman Egypt see Shaw, *The Financial and Administrative Organization*, by index. (٨٤)
- (٨٥) الرشيدى ، حسن الصفا والابتهاج ، ورقة ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٧ ب .
- MD, vol. 67, p. 123, no. 331, Rajab 23, 999 (May 17, 1591).
- MDI. vol. 59, pp. 36, 38, nos. 161, 164, 172, Rabi' I 12, 993 (March 14, 1585) ; ibid., p. 10, no. 34, Rabi' I 25, 993 (April 26, 1585). (٨٦)
- MD. vol. 10, p. 312, no. 508, Dhu'l-Hijja 22, 978 (May 17, 1571) ; vol. 22, p. 148, no. 295, Rabi' I 15, 991 (July 15, 1573) ; vol. 28, p. 178, no. 413, Rajab 25, 984 (October 19, 1576). (٨٧)
- MD, vol. 19, p. 276, no. 552, Rabi I 26, 980 (August 6, 1572). Vol. 28, p. 169, no. 393 Rajab 25, 984 (October 18, 1576). (٨٨)
- MD, vol. 22, pp. 163-5, no. 319, Rabi' I 26, 981 (July 26, 1573). (٨٩)
- MD, vol. 22, p. 163, no. 318, Rabi I 26, 981 (July 26, 1573) ; vol. 22, pp. 165-6, no. 320, Rabi I 26, 981 (July 26, 1573) ; vol. 27, pp. 5-6, no. 27, Rajab 1, 983 (October 6, 1575) ; vol. 28, p. 169, no. 393, Rajab 25, 984 (October 18, 1576) ; vol. 35, p. 291, no. 738, Shawwal 986 (December 1578). (٩٠)
- MD, vol. 21, p. 162, no. 398, Dhu'l-Qa'da 8, 980 (March 11, 1573) ; vol. 26, p. 173, no. 468, Jumada I 5, 982 (August 23, 1574) ; vol. 27, p. 104, no. 254, Sha'ban 18, 983 (November 22, 1575) ; vol. 27, p. 243, no. 565, Dhu'l-Qa'da 5, 983 (February 5, 1576) *al-fawa'id*. p. 381. (٩١)

والجزيرى هذا المؤرخ العربى متفق مع الأقوال الذاهبة الى ان سليمان باشا حاكم مصر من ٩٣١ هـ/ ١٥٢٥ م حتى ٩٤١ هـ/ ١٥٣٥ م ومرة أخرى من ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٦ م حتى ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨ م أمر بشنق داود بن عمر الذى كان معروفاً بالكرم والعدل ، للاستيلاء على ثروته واتهم الباشا البدر بارسال غلال غير نظيفة له ، وأمر باعدام شيخين آخرين معه : انظر : النهروالى . البرق اليماني ، ص ٧٦ .

MD, vol. 50, p. 59, Dhu'l-Qa'da 15, 991 (November 30, 1583) : Shaw, *The Financial and Administrative Organization*, p. 88. (٩٢)

MD, vol. 27, p. 243, no. 566, Dhu'l-Qa'da 5, 983 (February 5, 1576). (٩٣)

MD, Vol. 19, p. 276 no. 552 Rabi 126, 980 (August 6, 1572). (٩٤)

MD, vol. 27, p. 104, no. 254, Sha'ban 18, 983 (November 22, 1575). (٩٥)

(٩٦) محمد بن عبد المعطى الاسحاتى ، كتاب أخبار الأول ، القاهرة ، ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م ، ص ١٦٧ .

MD, vol. 61, p. 107, no. 267, Sha'ban 24, 994 (August 10, 1586).

MD, vol. 21, p. 92, no. 221, Shawwal 10, 980 (February 13, 1573). (٩٧)

MD, vol. 27, pp. 5-6, no. 27, Rajab 1, 983 (October 6, 1575) ; vol. 73, p. 464, no. 1023, Shawwal 29, 1008 (May 28, 1595). (٩٨)

MD, vol. 24, pp. 232-3, no. 616, Muharram 26, 982 (May 18, 1574). (٩٩)

MD, vol. 24, p. 250, no. 663, Muharram 26, 982 (May 18, 1574). (١٠٠)

MD, vol. 26, p. 229, no. 655, Jumada II, 982 (September, 1574) ; vol. 27, p. 243, no. 565, Dhu'l-Qa'da 5, 983 (February 5, 1576)

Holt, 'The Beylicate in Ottoman Egypt,' pp. 183 and 218, note 21. See also J.-C. Garcin, *Un centre musulman de la Haute Egypte médiévale : Qus* (Cairo, 1976), p. 516, note 1. عن سليمان بك انظر :

MD; vol. 28, p. 140, no. 333, Rajab 25, 984 (October 18, 1576). (١٠٢)

MD, vol. 28, p. 287, no. 715, Rajab 25, 984 (October 18, 1577 b) ; vol. 34, p. 264, no. 554, Rabi' I 16, 986 (May 23, 1578). (١٠٣)

MD, vol. 29, p. 226, no. 517, Dhu'l-Hijja 14, 984 (March 4, 1577). (١٠٤)
هذه أول إشارة بنقل سليمان .

MD, vol. 30, p. 325, no. 754, Rabi' II 14, 985 (June 30, 1577) : vol. 36, p. 343, no. 902, same date as above : vol. 43, p. 198, no. 358, Rajab 7, 988 (August 18, 1580). (١٠٥)

MD, vol. 33, p. 103, no. 213, Ramadan 20, 985 (November 30, 1577). (١٠٦)

- MD, vol. 36, p. 343, no. 901, Rabi II 9, 987 (May 6, 1579) ; (١٠٧)
vol. 36, p. 343, no. 902, same date as above ; vol. 43, p. 198, no. 358, Rajab 7, 988 (August 18, 1580).
- MD, vol. 36, p. 153, no. 423, Safar 2, 987 (March 31, 1579) ; (١٠٨)
vol. 40, p. 177, no. 391, Sha'ban 11, 987 (October 3, 1579).
- Compare with Garcin, *op. cit.*, p. 516, note 1. (١٠٩)
- Garcin, *op. cit.*, p. 521 ff. (١١٠)
- (١١١) انظر محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، كشف الكربة فى رفع الطلبة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٣ ، ١٩٧٦ ، ص ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .
- (١١٢) حلاق ، ورقة ١٤٤ - ١٤٤ ب .
- (١١٣) نفسه ، ورقة ١٧٢ ب - ١٧٥ ب .
- (١١٤) النهروالى ، مرجع سابق ، ص ص ٢١٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ .
Evliya, pp. 264, 776, 1003.
- (١١٥) أبو سالم العياشى ، الرحلة العياشية ، تحقيق محمد حجي ، الرباط ، ١٩٧٧ ، المجلد ١ ص ص ١١٨ - ١١٩ .
- (١١٦) أحمد شلبي ، ص ١٩٣ ، حلاق ، ورقة ٢٤٠ ب - ٢٤١ أ ، عبد الكريم ابن عبد الرحمن ، ورقة ٩٢ ب - ٩٤ ، الجبرتي ، مج ١ ، ص ص ٢٤ ، ٩٥ ، وانظر أيضا عبد الرحيم عبد الرحمن ، دور المغاربة فى تاريخ مصر فى العصر الحديث ، المجلة التاريخية المنقرية (تونس) ، يناير ، ١٩٧٨ ، مج ٢ ، أرقام ٥٣ - ٦٨ ، ص ص ٥٣ - ٥٦ .
- (١١٧) الجزيرى ، درر الفوائد ، ص ٤٨١ وما بعدها ، وعن نظام الدرك انظر :
R. Humbach, *Beiträge zur Geschichte des osmanischen Agypten* (Freiburg i. Br., 1979), pp. 81, 116, 118, 133.
- (١١٨) الجزيرى ، ص ص ١٥٤ ، ٤٠٥ - ٤٠٨ .
- (١١٩) نفسه ، ص ص ٩٠ ، ٤٠٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ .
- (١٢٠) انظر على سبيل المثال : نفسه ، ص ٣٧٤ ، أحمد شلبي ، ص ص ٣٤٠ ، ٣٥٥ ، الجبرتي ، مج ١ ، ص ٢٨٥ ، ويجب أن نلاحظ أن نعمت (الجزائر) قد أطلق عليه تشريفا له وتكريما لقتله آلاف البدو (الجبرتي ، مج ١ ، ص ١١١) وفى منتصف القرن السابع عشر مدح على أفندى الجيش المصرى (المملوكى) لحصدهم ٤٥٠٠ رأس بدوى شحونها كالبطيخ وأحضرها للديوان .
- M. Winter 'Ali Efendi Anatolian Campaign Book : A defence of the Egyptian Army in the 7th Century. Turcica, Vol. 15, 1983, p. 287.
- (١٢١) أحمد شلبي ، ص ص ٢٠٢ ، ٤٤٢ ، حلاق ، ورقة ١٢٢٧ ، ٢٢٧ ب .
- A. Raymond, 'Une "Revolution" au Caire sous les Mamelouks, La crise de 1123/1711,' *Annales Islamologiques*, vol. 6, 1965, pp. 107, 108, 112. (١٢٢)
- R. Pococke, *A Description of the East and Some Other Countries* (London, 1743). vol. 1, pp. 89, 162. (١٢٣)

هوامش الفصل الرابع

العلماء

- (١) H. A. R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West* (London, 1957), vol. 1, part 2, p. 99, and note.
- (٢) See, for example, I. M. Lapidus, *Muslim Cities in the Later Middle Ages* (Cambridge, Mass., 1967), pp. 107-13, 130-41. J. Heyworth-Dunnie, *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt* (London, 1939), pp. 28-38.
- (٣) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٤١٩ .
- (٤) نفسه ، مج ٢ ص ١٧ - ١٩ .
- (٥) نفسه ، مج ٢ ، ص ١٠٨ .
- (٦) انظر على سبيل المثال : أحمد شلبي ، ص ٢٢٤ ، ٤٦١ وعن طلب اسماعيل بك من العلماء طلب العون العسكري من اسطنبول ، انظر : الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٥٣ .
- (٧) انظر على سبيل المثال : أحمد شلبي ، ص ٣٧٠ ، ٥٦٧ .
- (٨) الجبرتي ، مج ١ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .
- (٩) نفسه ، مج ١ ص ٢٨ .
- (١٠) أحمد شلبي ، ص ٣٩٣ .
- (١١) قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي ، البرقي اليماني ، تحقيق حمد الحاسر ، الرياض ، ١٩٦٧ . ص ٤٠٠ .
- (١٢) انظر على سبيل المثال أحمد شلبي ، ص ٢١٤ ، ، ٢٢٤ ، ٣١٢ ، ٥٨٣ .
- (١٣) انظر الفصل الأول .
- (١٤) ابن اياس ، ص ١٦٥ .
- (١٥) نفسه ، ص ٤٥٨ استخدم مصطلح قاضي عسكر ليدل على رئيس القضاة (قاضي القضاة) خلال الحقبة العثمانية رغم انه في الحقبة الأخيرة كان يطلق عليه مثلا *Menla* وهو تحريف للفظ مولى *mawla* او *Mavla*
- (١٦) نفسه ، ص ٤١٧ - ٤١٩ ، ٤٥٢ .
- (١٧) نفسه ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ .
- (١٨) *The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century* (Minneapolis and Chicago, 1979), pp. 12 ff., 47.
- (١٨) سعد الدين
- Sa' duddin, *Tajül-tevarih* (Istanbul, n.d.), vol. 2, p. 375 ;
- قطب الدين النهروالي ، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، تحقيق ف . فستفلد ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٨٢ .
- (١٩) ابن اياس ، ص ٤٥٣ ، الدياربكري ، ورقة ١٣١٠ .

(٢٠) نفسه ، ورقة ٢١٧ ب ، يمكن القول استنادا الى استنتاجات عقلية ، ان سيادة المذهب الحنفى التركى تعود الى زمن قمع ثورة احمد باشا ، الا اننا لا نملك الدليل على هذا الاستنتاج .

Qanun-name-i Misir, p. 382.

(٢١)

MD, vol. 27, no. 248, p. 102, Sha'ban 18, 983 (November 22, 1575).

(٢٢)

(٢٣) محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، التحفة البهية فى تملك آل عثمان Ešliya, (مخطوط H.O. ٣٥ فينا) أوراق ١٤٦ - ١٥٦ ، p. 129 F.

(٢٤) انظر الفصل الخامس .

(٢٥) أحمد شلبى ، ص ص ٣٠٥ ، ٣١٥ .

G. H. El-Nahal. *The Judicial Administration of Ottoman Egypt*, p. 14 : A. Raymond. 'Le Caire sous les Ottomans, 1517-1798,'

in M. Maury, A. Raymond, J. Revault, M. Zakariya, eds., *Palais et Maisons du Caire. vol. 2, L'époque ottomane*, (Paris, 1983), p. 32.

See, for example, Winter, *Society and Religion*. pp. 219-27, 236-41. (٢٧)

See Lane, p. 65. (٢٨)

Gibb and Bowen, vol. 1, part 2, p. 123. note 4, citing Jabarti, vol. 4. p. 229. (٢٩)

Winter, *Society and Religion*, p. 227. (٣٠)

Ešliya, p. 448 ; Ahmad Shalabi, p. 519 ; Jabarti (mentioning the three chief muftis). vol. 1, p. 418. (٣١)

(٣٢) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ٨٠ - ٨١ .

J. Heyworth-Dunne. pp. 77-83 ; Jabarti, vol. 1, pp. 219. 304 vol. 2. p. 75. (٣٣)

الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ٢١٩ ، ٢٠٤ ، مج ٢ ، ص ص ٧٥ .

(٣٤) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ١٨٦ - ١٨٧ .

Gibb and Bowen, vol. 1, part 2 p. 155, note 1. (٣٥)

See G. Baer, *Fellah and Townsman in Ottoman Egypt, Asian and African Studies* (Jerusalem, 1972), vol. 8, no. 3, pp. 221-٤6,

(٣٧) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ١٦٤ - ١٦٥ ، ٣٦٩ .

See A. Loutfi el-Sayed. *A Socio-Economic Sketch of the 'Ulama' in the Eighteenth Century*, in *Colloque international sur l'histoire du Caire* (DDR. 1972), pp. 313-9. (٣٨)

(٣٩) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ٧٣ .

(٤٠) انظر على سبيل المثال : ابن نجيم ، الفتاوى الصغرى (مخطوط ٤١١٥ -

مجموعة جرت Garret - جامعة برنستون) ورقة ١٦٤ - ب .

MD, vol. 74, no 494, p. 205, Muharram 24, 1005 (September 18, 1597).

أحمد رفيق : مج ١ ، ص ٢٣ : on altin ca Istanbul hayan, 1988 .

E. Combe, 'L'Egypte ottomane,' *Precis de l'histoire d'Egypte* (Cairo, 1933), vol. 3, p. 27. (٤١)

- MM, vol. 5, no. 212, p. 91, Rabi II 1, 1157 (August 31, 1734). (٤٢)
- (٤٣) النهروالي ، كتاب الاعلام ، ص ٣٣٣ .
- MD, vol. 27, no. 249, p. 102, Sha'ban 18, 983 (November 22 1575) ; vol. 75, nos. 94, 9٤, 223, 270, 274, pp. 62, 121, 148, 149, 1013 (1604-5). (٤٤)
- (٤٥) انظر على سبيل المثال : أحمد شلبي ، ص ٣٣٢ ، والجبرتي ، ص ٢ ، ص ١٦٣ .
- G. Baer, *History of Landownership in Modern Egypt. 1800-1950* (London, 1962), pp. 50-61. (٤٦)
- (٤٧) محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، النزعة الذهبية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المزية (مخطوط - ٤٩٩٥ مجموعة جرت - جامعة برنستون) ورقة ٣٥ أ ، الجبرتي ، ص ١ ، ص ١٤٨ .
- (٤٨) على سبيل المثال : أحمد شلبي ، ص ٤٨٨ ، الجبرتي ، ص ١ ، ص ٦٩ ، ص ١٦٧ - ٨ ، محمد بن أبي السرور ، ص ٢ ، ص ٩٨ .
- See G. Baer, 'Jerusalem Notables in Ottoman Cairo,' in A. Cohen and G. Baer, eds, *Egypt and Palestine; a Millennium of Association* (868-1948) (Jerusalem, 1984), pp. 167-75 ; U. M. Kupferschmidt, 'Connections of the Palestinian 'Ulama' with Egypt and other Parts of the Ottoman Empire', in *ibid.*, pp. 182-4. See also Heyworth-Dunne, p. 35. (٤٩)
- Evliya, pp. 19٤, 196, 205, 216, 218-9, 225, 227; 231, 235, 293. (٥٠)
- (٥١) الجبرتي ، ص ٢ ، ص ٥٧ .
- (٥٢) ابن اياس ، ص ٤٢٧ .
- Winter, *Society and Religion, al-Azhar*, by index. (٥٣)
- Evliya, pp. 150. (٥٤)
- أبو سالم العياشي ، الرحلة العياشية ، ص ١ ، ص ١٢٦ .
- Heyworth-Dunne, pp. 17-18. (٥٥)
- See *Ibid.*, pp. 28-9 ; Gibb and Bowen, part 2, p. 154, note 3, citing Chabrol ; MM, vol. 4, no. 203, fol. 48 a, *awasit* Shawwal, 1141 (April 30, 1729). (٥٦)
- Heyworth-Dunne, p. 25. (٥٧)
- (٥٨) لوصف قيم لنظام الأزهر ودراساته في أواخر القرن التاسع عشر انظر : على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة (القاهرة - بولاق ، ١٨٨٧ - ١٨٨٩) ص ٤ ، ص ٢٠ - ٤٤ وانظر : Gibb and Bowen, vol. 1 part 2 pp. 98-99.
- See D. Crecelius, 'The Emergence of Shaykh al-Azhar as the Preeminent Religious leader in Egypt,' *Colloque international sur l'histoire du Caire* (DDR, 1972), pp. 109-23; See also : A. C. Eccel, *Egypt, Islam and Social Change : Al-Azhar in Conflict and Accommodation* (Berlin, 1984), y. 203 ; Sulayman al-Zayyat, *Kanz al-jawhar fita-rikkh al-Azhar* (Cairo, n.d.), pp. 123-34. (٥٩)
- Winter, *Society and Religion*, p. 228. (٦٠)

- (٦١) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٦٥ .
- (٦٢) .وفقا لقائمة Eccel (ص ١٣٦) فان ابراهيم البرماوى الشيخ الثانى للأزهر كان شافعيًا ، وقد سقط اسمه من قائمة الزييات (كنز الجواهر) .
- (٦٣) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٧٠ ، يجب أن نلاحظ أنه رغم أن الخراشي عادة ما يذكر كأول شيخ للأزهر الا أن أحمد شلبي يسجل موت شيخ الأزهر سلطان المرهمي (التعلق غير مؤكد) . فمن العاشر من جمادى الآخرة ١٠٧٦ (١٨ ديسمبر ١٦٦٥) ، الا أنه لا يقدم لنا تفاصيل أخرى . أحمد شلبي ، ص ١٦٢ .
- (٦٤) الجبرتي ، مج ١ ، ص ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .
- (٦٥) نفسه ، مج ١ ، ص ٧٣ ، ٨٧ .
- (٦٦) نفسه ، مج ١ ، ص ٢٠٩ .
- (٦٧) نفسه ، مج ١ ، ص ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .
- (٦٨) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٥ .
- (٦٩) نفسه ، مج ٢ ، ص ص ٥٢ - ٥٤ .
- (٧٠) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٥٢ .
- (٧١) نفسه ، مج ٤ ، ص ص ١٥٩ - ١٦٤ .
- (٧٢) See G. Baer, 'Popular Revolt in Ottoman Cairo,' *Der Islam*, vol. 54, no. 2 (1977), pp. 213-42.
- (٧٣) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ص ٨ - ٩ .
- (٧٤) نفسه ، مج ٢ ، ص ٩٣ .
- (٧٥) نفسه ، مج ٢ ، ص ١٥٢ .
- (٧٦) أحمد شلبي ص ٥٧٢ .
- (٧٧) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٨٩ .
- (٧٨) نفسه ، مج ٢ ، ص ص ٨ - ٩ ، ١٠٢ - ١٠٤ .
- (٧٩) أحمد شلبي ، ص ٤٣٣ .
- (٨٠) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٥٢ .
- (٨١) نفسه ، مج ٢ ، ص ١٥٨ .
- (٨٢) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٥٨ .

هوامش الفصل الخامس

الصوفية

- A. Schimmel 'Sufismus und Heiligenverhrung im spätmitele- (١)
lterlichen Agyptien (Eine Shizze),' in E. Gräf, ed., *Festschrift Werner*
Caskel (Leiden, 1968), pp. 274-89.
- Winter, *Society and Religion*. (٢)
- See *ibid.*, pp. 25-31. (٣)
- See Chapter 1, p. 10. (٤)
- See Schimmel, 'Sufismus'. (٥)
- J. Heyworth-Dunne. *Introduction to the History of Education* . (٦)
in *Modern Egypt* (London, 1939), p. 9, note, 3, based on al-
Jabarti.
- (٧) محمد محيي الدين المليجي ، المناقب الكبرى - تذكرة أول الألباب في مناقب
الشمرواني (القاهرة ، ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢) ص ص ٦٦ - ٦٧ ، وعن قائمة للطرق الصوفية
على مصر في القرن التاسع عشر ، انظر : علي باشا مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة
(القاهرة - بولاق ، ١٨٨٧ - ١٨٨٩) مج ٢ ، ص ص ١٢٩ - ١٣٠ ، وانظر أيضا :
- P. Kahle, 'Zur Organisation der Derwischorden in Egypten,' *Der Islam*,
vol. 6 (1916), pp. 149-69; F. de Jonh, *Turuq and linked Institutions*
in *Nineteenth Century Egypt* (Leiden, 1978), chapter 2.
- (٨) انظر De Jong ، الفصل الأول .
- (٩) المليجي ، المناقب الكبرى ، ص ٨٤ .
- See Winter, *Society and Religion*, pp. 25-8. (١٠)
- Ibid.*, pp. 88-101. (١١)
- See, for example, Jabarti, vol. 2, pp. 94, 99, 147. (١٢)
- See J. S. Trimingham, *The Sufi Orders in Islam* (Oxford, (١٣)
1971), pp. 47-51, 84-90 ; Winter, *Society and Religion*, pp. 88-93.
- (١٤) هناك استثناءات ، فقد ذكر Evliya (ايفيليا شلبي) تكية شاذلية في القاهرة
يقيم فيها صوفيون يمنيون . Evliya, p. 230.
- De Jong, pp. 27, 32. (١٥)
- Winter, *Society and Religion*, pp. 93-101. (١٦)
- Ibid.*, pp. 100-1 ; De Jong, p. 8; Jabarti, vol. 4, p. 120. (١٧)
- (١٨) الجبرتي ، مج ٤ ، ص ص ١١٩ - ١٢١ .
- (١٩) نفسه ، مج ١ ، ص ٨٤ .

- (٢٠) ابن اياس ، مج ٥ ، ص ٤٣ .
 Evliya, p. 428. (٢١)
 Lane, p. 249. (٢٢)
 De long, pp. 10, 117. (٢٣) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٣٧٦
 Winter, *Society and Religion*, pp. 98-9. (٢٤)
 (٢٥) مبارك ، مج ٣ ، حرمص ١٢٩ - ١٣٠ .
 Winter, *Society and Religion*, pp. 104-105, 121-122. (٢٦)
 وانظر أيضا : توفيق الطويل ، التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى . القاهرة ،
 ١٩٤٥ ، ص ١١٢ .
 Winter, *Society and Religion*, pp. 102-3, 120-1, note 47. (٢٧)
 Trimingham, pp. 37-40 ; De Jong ; pp. 18-19 ; Jabarti, (٢٨)
 vol. 1, p. 109.
 Lane, pp. 248-9, 489. See Trimingham, pp. 40-4 and by (٢٩)
 index.
 (٣٠) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٨٩ ، ١٥٠ .
 H. A. R Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West* (٣١)
 London 1965), vol. 1, part 2, pp. 190-6 ; De Jong, pp. 26-7.
 Evliya, p. 230. (٣٢)
 (٣٣) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٣٧ .
 Delong, p. 34, note 177. (٣٤) نفسه ، مج ٢ ، ص ١٨٨ .
 See B. G. Martin, 'A Short History of the Khalwati Order (٣٥)
 of Dervishes,' in N. R. Keddie, ed., *Scholars, Saints and Sufis :
 Muslim Religious Institutions in the Middle East since ٤500*
 (Berkeley and Los Angeles, 1972), pp. 290-30٤ ; Winter, *Society and
 Religion*, pp. 105-12 ; E. Bannerth, 'La Khalwatiyya en Egypte,'
Mélanges de l'Institut Dominicaine des Etudes Orientales, 8 (Cairo,
 1964-6), pp. 1-75.
 (٣٦) عبد الوهاب الشعرانى ، الطبقات الكبرى . القاهرة ، بدون تاريخ ، مج ٢ ،
 ص ١٣٣ .
 (٣٧) الدياربكرى ، ورقة ٢٤٦ ب - ٢٤٧ أ .
 (٣٨) عبد البروف المناوى (بضم الميم أو كسرهما) ، الكواكب الدرية فى طبقات
 الصوفية (مخطوط ، مجموعة جرت ، جامعة برنستون) ورقة ١١٦ أ .
 Winter, *Society and Religion* pp. 107-9. (٣٩)
 Ibid., pp. 69, 110-11. (٤٠)
 (٤١) المناوى ، الكواكب الدرية ، ورقة ٤٦٦ أ .
 (٤٢) نفسه ، ورقة ٤٦٥ ب ، ٤٦٦ أ ، ٤٦٦ ب .
 Evliya. pp. 219, 228, 229, 255, 429. (٤٣)
 (٤٤) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٦٠ .
 (٤٥) نفسه ، مج ١ ، ص ٣٠ .

- (٤٦) كان مصطفى البكرى « شريفا » ويدعى أيضا نسبه إلى أبى بكر الصديق ، ولا يجب الخلط بينه وبين أسرة البكرى الصديقى ذات الأصول المصرية القديمة (العريقة) (٤٧) عن مصطفى البكرى ، انظر الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٦٥ .
- P. Gran, *Islamic roots of Capitalism ; Egypt 1760-1840* (Austin and London, 1979), p. 43 f.
- C. Brockelmann, *Al Bakri, Mustafa Kamal Al-Din, El.* vol 1, p. 965 f.
- (٤٨) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٨٩ ، وما بعدها .
- (٤٩) فتح حفيد الحفنى منزله بعد موته . الجبرتى مج ٤ ، ص ٧٦ .
- (٥٠) عن سيرة حياته ، انظر ، الجبرتى ، مج ٢ ، ص ص ١٤٧ - ١٤٨ .
- (٥١) عن سيرة حياته كاملة انظر الجبرتى ، مج ٢ ، ص ص ٦١ - ٦٨ ، وعن ورد السحر ، انظر : Lane, p. 251.
- (٥٢) عن سيرة حياته انظر الجبرتى ، مج ٢ ، ص ص ١٥٩ - ١٦٥ .
- (٥٣) الجبرتى ، مج ١ ، مصر ٢٩٤ - ٢٩٥ . وليس مؤكدا ما اذا كانت العبارة للجبرتى ، وعلى أية حال فهو يكررها بما يفيد موافقه عليها ، وقد نظر الجبرتى للسماوية (فرع من الخلوتية) بغير تعاطف . انظر : De long, p. 28.
- وقد رجح للجبرتى ، مج ١ ، ص ٤١٧ .
- (٥٤) يوجد تاريخ باللغة العربية كتبه أحد أفراد الأسرة .
- انظر محمد توفيق البكرى ، بيت الصديق . القاهرة ، ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م وانظر ايضا : See also N.C.D., 'Bait al-Siddik. L'aristocratie religieuse en Egypt,' *Revue du Monde Musulman*, vol. 4 (1908), pp. 241-83.
- (٥٥) تسمى القرية أيضا دهرت الأشراف أو دهرت البكرية .
- De long, p. 9, note 10.
- See Winter, *Society and Religion*, pp. 222-3; De Jong, (٥٦) pp. 215-17, for a genealogy of the family, and by index.
- Winter, *Society and Religion*, p. 223. (٥٧)
- (٥٨) انظر الفصل الأول ، والفصل الثانى .
- (٥٩) محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، النزعة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية (مخطوط - مجموعة جرت ٤٩٩٥ برنستون) . ورقة ٢٧ ب - ١٢٨ .
- See de Jong, pp. 61-62 ; Evliya pp. 465-6 ; Jabarti, vol. 3, (٦٠) p. 25.
- See de Jong p. 11. (٦١)
- Evliya, p. 474. (٦٢)
- (٦٣) البكرى الصديقى ، النزعة الزهية ، ورقة ٥٣ ب - ١٣٦ .
- See, for example, *MM*, vol. 6, no. 227, fol. 48a, awasit (٦٤) Jumada I, 1158 (June 11-20, 1745) ; vol. 7, no. 758, p. 345, Sha'ban 10, 1172 (April 8, 1759).
- See pp. 195-6., (٦٥)
- (٦٦) محمد توفيق البكرى ، بيت السادات الوفاية القاهرة ، بدون تاريخ .
- (٦٧) الجبرتى ، مج ٤ ، ص ١١ .
- Trimingham, pp. 49, 87. Gran, *Islamic roots of Capitalism*, pp. 38 ff.
- (٦٨) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٢٨ .
- De long, p. 76, Note 205.,

- (٦٩) الجبرتي ، مج ٤ ، ص ١٨٥ وما بعدها .
 (٧٠) صدر عن الديوان في القاهرة عدة فراسيم (مودعة بدار الكتب بالقاهرة)
 فثبت أن الجبرتي لم يكن مبالغا بشأن المعاملة التفضيلية التي شملت أبا الأنوار من قبل
 الحكومة . والفرمانان المؤرخان في ١١٩٦ هـ و ١٢٠٧ هـ يخاطبان السلطات المحلية في
 فرسكور والغربية يأمرانها باستثناء ممتلكاته ، بما في ذلك الالتزام الخاص به من أمة
 ضرائب . انظر الوثيقتين رقم ٢ و ٣ رقم ٢٧٨٤ تاريخ ، دار الكتب ، القاهرة .
 See M. Winter. 'Ali ibn Maymun and Syrian Sufism in the (٧١)
 Sixteenth Century,' *Israel Oriental Studies*, vol. 7, 1977, p. 294.
 De Jong, p. 41. (٧٢)
 Winter, *Society and Religion*, p. 140. (٧٣)
 (٧٤) انظر على سبيل المثال : الجبرتي ، مج ١ ، ص ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، مج ٢ ،
 ص ص ٢٨ ، ٨٩ ، ١٢٧ - ١٢٨ .
 (٧٥) أوردنا ذلك في موضع سابق .
 Winter. *Society and Religion* pp. 57. 126. (٧٦)
 Ibid., pp. 143-4 ; Winter, 'Ali ibn Maymun,' p. 296. (٧٧)
 Winter, *Society and Religion*, pp. 184-8; Jabarti, vol. 1, (٧٨)
 pp. 69, 303-4 ; vol. 2, 61 ff. ; vol. 3, p. 238 ff.
 (٧٩) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٣٢٨ ، مج ٢ ، ص ٢٥٢ .
 (٨٠) نفسه ، مج ١ ، ص ١٥٩ .
 Winter, *Society and religion*, pp. 172-176.
 Winter, pp. 153-5 ; A. Lutfi al-Sayyid Marsot, 'A Socio- (٨١)
 Economic Sketch of the 'Ulama' in the Eighteenth Century, *Collo-
 que international sur l'histoire du Caire* (DDR, 1972), p. 315.
 (٨٢) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٢٨٦ .
 Winter, *Society and Religion*, pp. 128-9, 150-5. (٨٣)
 Lane, pp. 251-2. (٨٤)
 (٨٥) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ص ٦٩ - ٧٠ .
 See Trimmingham, Chapters IV and VII, for a discussion of (٨٦)
 the organization of the Sufi orders and their ritual and ceremonial:
 Lane, pp. 479, 489, 491. (٨٧)
 Winter, *Society and Religion*, p. 139. (٨٨)
 (٨٩) المليجي ، المناقب الكبرى - صفحة العنوان ، الجبرتي ، مج ١ ، ص ٢٨٧ .
 Winter, *Society and Religion*, pp. 142. (٩٠)
 See Lane, p. 251. (٩١)
 (٩٢) الشمراني ، الطبقات الكبرى ، مج ٢ ، ص ١١٨ .
 Evliya, pp. 467, 469-70. By the term 'fellahin' Evliya could (٩٣)
 Well mean just the native Egyptians in a derogatory way. See
 Lane, p. 27.
 (٩٤) الجبرتي ، مج ٣ ، ص ص ٣٩ - ٤٠ .
 (٩٥) نفسه ، مج ٤ ، ص ١٢٠ .

- (٩٦) عبد الوهاب الشعراني ، لطائف المنن (القاهرة ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٩م) مج ١ ،
Winter, Society & religion, pp. 275-276. ص ٣٣ .
- See G. Baer, 'Fellah and Townsman in Ottoman Egypt,' (٩٧)
Asian and African Studies (Jerusalem, 1972). vol. 8, no. 3, pp.
221-56.
- Winter, *Society and Religion*, p. 57 ; al-Sha'rani, *al-Tabaqat* (٩٨)
al-kubra, vol. 2, p. 120.
- (٩٩) الجبرتي ، مج ٤ ، ص ص ٦٣ - ٦٥ .
- See for example, H. Inalcik, *The Ottoman Empire : The* , (١٠٠)
Classical Age 1300-1600 (London, 1973), pp. 187-93.
- (١٠١) الشعراني ، لطائف المنن ، مج ٢ ، ص ص ١٥٨ - ١٦٠ .
- See, for example, Evliya pp. 240-2, 246-2, 246-7, 251, 255. (١٠٢)
- G. Baer, *Egyptian Guilds in Modern Times* (Jerusalem, (١٠٣)
1964), pp. 125-6.
- (١٠٤) أحمد الدمرداشي ، كتاب الدرّة المصونة في أخبار الكنانة (مخطوط ١٠٧٤ -
Or ١٠٧٣ المكتبة البريطانية) أوراق ٢٥ ، ٢٦ ب .
- See, for example, Evliya, pp. 242, 243, 244, 251, 253, 690. (١٠٥)
Lane, pp. 252-3, (١٠٦)
- L. Fernandes, "Two Variations on the Same Theme : The (١٠٧)
Zawiya of Hasan al-Rumi atd the Takhtyya of Ibrahim al-Gulshani -
Annales Islamologiques, vol. 21, (1985), pp. 95-111.
- Evliya, pp. 244-5. (١٠٨)
- Ibid, p. 380. (١٠٩) وانظر الجبرتي ، مج ١ ، ص ٤١٨
- (١١٠) مبارك ، مج ٢ ، ص ١٣٠ ، مج ٦ ، ص ٥٤ .
- (١١١) وردت هذه الحادثة في عدة مراجع : فمن المراجع التركية : حلاق ، ورقة
٢٩٦٤ ب - ٢٩٦٠ أ . ومن المراجع العربية : أحمد شلبي ، ص ص ٢٥١ - ٢٥٥ ، الجبرتي ،
مج ١ ، ص ص ٤٨ - ٥٠ ، وانظر :
- B. Flemming, 'Die vorwahhabische Fitna im osmanischen Kairo, 1711,'
Ismail Hakki Uzuncarsh'ya Armagan (Ankara, 1976), pp. 55-65 ; R.
Peters. *The Battered Dervishes of Bab Zuwayla : A Religious Riot*
in Eighteenth Century Cairo (a paper read at the Hebrew University
in June 1985 during the International Colloquium on 18th Century
Renewal and Reform Movements in Islam); Gibb and Bowen, vol. 1,
part 2, p. 160, note 1. *The fitna* had deeper ethnic connotations than
has been noticed.
- Lane, p. 237. (١١٢)
- (١١٣) الجبرتي ، مج ١ ، ص ص ٤٩ - ٥٠ .
- (١١٤) من الشائق أن نلاحظ أن الجبرتي عندما نكر أن حسن باشا استعاد التكية
اللبقاشية الشهيرة في القصر العيني ، قرر أن الباشا فعل ذلك بتحريض من الدرويش لأن
الترك يميلون لهذا النوع من التدين . الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٤٤ .

- (١١٥) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٤١٨ . وانظر :
MM, vol. 8, no. 668, fol. 18a, *awakhir Rabi' II*, 1188 (July 1-10, 1774).
 See Daniel Crecelius, 'The waqf of Muhammad Bey Abu al-Dhahab in historical perspective,' *IJMES*, vol. 23, no. 1 (February 1991), pp. 57-81.
- (١١٦) الشعرانى ، الطبقات الكبرى ، مج ٢ ، ص ١٩ .
- (١١٧) انظر على سبيل المثال حالة قاسم المغربى القصرى (المتوفى ١٠٩٥٦/١٠٥٦ أو ١٥٥٠) الذى وصل لمصر لأول مرة وهو فى طريقه لمكة ، ثم عاد مرة أخرى لبلده فاس الا أنه رجع الى مصر أخيرا ليستقر بها وتبعه ٥٠٠ من الصوفية . المناوى ، الكواكب الدرية ، الورقة ٤٤٦ ب - ٤٤٧ أ .
- (١١٨) انظر على سبيل المثال : الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢١٠ ، مج ٢ ، ص ١٣١ - ٢٦٢ . الحسين بن محمد الورثانى ، نزهة الانظار فى فضل علم التاريخ والاختبار بيروت ، ١٩٧٤ ط ٢ ، ص ٢١٠ .
 Heyworth-Dunne, p. 12. (١١٩)
- (١٢٠) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٣٩ . Lane, pp. 466-467.
 Evliya, p. 253. (١٢١)
- (١٢٢) Ibid., p. 242. (١٢٢)
- (١٢٣) Ibid., p. 251. (١٢٣)
- (١٢٤) See 'Kahwa,' in *El*, vol. 4, p. 451, by C. van Arendonk. (١٢٤)
- (١٢٥) See Winter, *Society and Religion*, pp. 58-9, 230-6. (١٢٥)
- (١٢٦) فى كتاب الشعرانى ، لواقع الأنوار القدسية فى بيان العهد المحمدية . القاهرة ، ١٩٦١/١٣٨١ مج ١ ، ص ٦٧ .
- (١٢٧) يعزى هذا القول الى أبى يزيد البسطامى (المتوفى ٢٦١/٨٧٥) وهو صوفى فارسى شهير ، وقد أورده الشعرانى فى الطبقات الكبرى ، مج ١ ، ص ٥ .
 See Winter, *Society and Religion*, pp. 192-5. (١٢٨)
- (١٢٩) Ibid., pp. 236-41. (١٢٩)
- (١٣٠) Ibid., pp. 58-9. (١٣٠)
- (١٣١) For a list of Sufi texts studied at al-Azhar, see Heyworth-Dunne, pp. 56-7. (١٣١)
- (١٣٢) See Winter, *Society and Religion*, pp. 47, 78 ; al-Sha'rani (١٣٢)
al-Tabaqat al-Kubra, Vol. 2, pp. 155-6 : 1 Goldziher *Überdenbrauch der Mahya*.
 — *Versammlungen im Islam.* WZKM, vol. 15 (1901). pp. 33-50.
- (١٣٣) المناوى ، الكواكب الدرية فى طبقات الصوفية ، ورقة ٤٥٥ ب .
- (١٣٤) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٣٣٧ .
- (١٣٥) انظر : توفيق الطويل : التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ص ١٨٠ .
- (١٣٦) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٨ - ١٧ .
- (١٣٧) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٥٢ .
- (١٣٨) نفسه ، مج ٢ ، ص ٥٢ .

- (١٣٩) نفسه ، مج ١ ، ص ٢١٠ .
- (١٤٠) Winter, *Society and Religion*, pp. 262-72.
- (١٤١) See, for example, Evliya, p. 241.
- (١٤٢) انظر على سبيل المثال : الجبرتي ، مج ١ ، ص ١٠٠ .
- (١٤٣) نفسه ، مج ١ ، ص ٢٨٢ .
- (١٤٤) انظر ملحوظة ١١٥ .
- (١٤٥) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٣٦٢ .

هوامش الفصل السادس

- (١) انظر : Lane, p. 234. • بعضهم يسيرون عراة تماما وهم موثرون ومبجلون تماما ، حتى أن النساء - بدلا من تجنبهم ، فأنهن يعانين من تصرف هؤلاء البيّساء معهن بحرية تامة في الطرقات العامة ، •
- (٢) انظر : M. Winter. *Society & religion*, pp. 112-116.
- (٣) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٢٨ •
- (٤) نفسه ، مج ١ ، ص ٤٧ ، مج ٤ ، ص ٦٥ •
- (٥) رضوان باشا زاده •
- Ridwan Pashazade, *Ta'rih-i Misir* (Ms. H.O. 6 ; Mxt 933, Vienna), the end of the ms.
- (٦) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ٢٤٨ •
- (٧) نفسه ، مج ٣ ، ص ١٤١ •
- (٨) مصطفى علي ، ص ٣٣ •
- (٩) Lane, pp. 243-245.
- (١٠) Ibid, p. 243. مصطفى علي ، ص ٤١ •
- (١١) H.A.R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West* (1957), vol. 1, part 2, p. 202, note 3.
- (١٢) See, for example, *Evliya*, pp. 471-3, 476, 551, 557, 560-3, 573, 575, 579-80, 629-30, 637, 647, 747, 749.
- (١٣) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٢٦٩ •
- R. and H.H. Kriss, *Volksqlaube im Bereich des Islams* (Wiesbaden 1960), vol. 1, p. 217.
- (١٤) See *ibid.*, pp. 69, 112 ; *Evliya*, pp. 260-2.
- (١٥) *Ibid.*, pp. 650, 652, 654.
- (١٦) علي باشا مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، ومدنها القديمة والنسهرية (القاهرة - بولاق ، ١٨٨٧ - ١٨٨٩) مج ١٠ ، ص ٦٠ ، مج ١٣ ، ص ٦١ •
- (١٧) Kriss, pp. 112, 115.
- (١٨) *Evliya*, p. 256.
- (١٩) أحمد بن محمد الفهرى الفاسي ، الرحلة (مخطوط - ١٤٠٣ دار الكتب - تاريخ) ص ١٠٥ ، ٢٠١ ، ٢٨٢ •

لا يكون التاريخ الذى يتم الاحتفال فيه متفقا ، من الناحية التاريخية الصحيحة ، مع أى من التاريخين (تاريخ الولادة أو تاريخ الوفاة) ، ودراسة النصوص المختلفة تبين أن مصطلح المولد يمتد ليشمل أى احتفال دينى أو صوفى حتى ولو لم يكن له صلة بأى ولى .
انظر :

Winter, *Society and Religion*, pp. 177-84 ; see H. Fuchs, 'Mawlid,' *El*, pp. 419-22.

(٤١) مبارك ، مج ٣ ، ص ١٣١

J. W. McPherson, *The Moulids of Egypt* (Cairo, 1941), p. 29 ; G.E. von Grunebaum, *Mohammadan Festivals* (London, 1958), pp. 73-6.

الاحتفال بأيام الأولياء (القديسين) ليس قصرا على الاسلام ، فهناك احتفالات شبيهة باحتفالات انجليزية فى القرن السابع عشر ، وكانت هذه الاحتفالات عبارة عن أسواق fairs وقد ارتبطت مثل المولد الاسلامى باسم أحد القديسين وان فقدت طبيعتها الدينية .
Blackman, *The fellahin of upper Egypt*. p. 253. انظر

(٤٢) انظر على سبيل المثال ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٢٠ ، مبارك ، مج ٢ ،

ص ٦ ، ٩٢ ، ١١٧ ، مج ٣ ، ص ٩٣ ، مج ٤ ، ص ٦٤ ، مج ١١ ، ص ٥٧ .
McPherson, pp. 13, 15, 18 ; Kriss, pp. 85, 79, 173-4. (٤٣)

See Evliya. pp. 473-4. (٤٤)

McPherson, p. 33.

(٤٥) مبارك ، مج ٢ ، ص ٧٨ .

(٤٦) مبارك ، مج ١٣ ، ص ٥٠

McPherson, pp. 31, 287. (٤٧)

Evliya, p. 472. (٤٨)

(٤٩) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٢٠ .

Evliya, p. 476. (٥٠)

(٥١) الجبرتى ، مج ٤ ، ص ٤٩ - ٤٠ .

(٥٢) نفسه ، ص ١٦٣ .

(٥٣) مبارك ، مج ٩ ، ص ٦١ .

McPherson, p. 132 ; Kriss, p. 106. (٥٤)

McPherson, pp. 232, 257. (٥٥)

Kriss, p. 61 ; Lane, pp. 476-7 ; McPherson, p. 306. (٥٦)

(٥٧) مبارك ، مج ١١ ، ص ١٩ .

McPherson, p. 183.

(٥٨) نفسه ، مج ٣ ، ص ٧٢ .

(٥٩) نفسه ، مج ١٣ ، ص ٥٢ .

McPherson, p. 228. (٦٠)

(٦١) مبارك ، مج ٢ ، ص ٦ ، مج ١٣ ، ص ٥٠ .

Evliya, pp. 624-626.

وعن وصف مولد البدوى فى بدايته انظر :

(٦٢) مبارك ، مج ١ ، ص ٩٢ .

(٦٣) نفسه ، مج ٢ ، ص ٣٩ ، مج ٨ ، ص ٢٥ ، ٤٣ ، مج ١٠ ، ص ٣٩ ، ٥٨ .

McPherson, pp. 17, 18, 246; Kriss, vol. 1, p. 71. (٦٤)

- McPherson, pp. 13, 18. (٦٥)
- Ibid., p. 52 ; Mubarak, vol. 1, p. 90. (٦٦)
- مبارك ، مج ٢ ، ص ٦ ، مج ٢ ، ص ٧٢ ، مج ٤ ، ص ١١٨ . (٦٧)
- (٦٨) نفسه ، مج ٩ ، ص ٦١
- نفسه ، مج ٣ ، ص ٤٠ ، مج ٨ ، ص ٧٧ . (٦٩)
- McPherson, p. 199 ; Meyerhof, Beitrage. p. 338 ; Kriss, (٧٠)
vol. 1, p. 106.
- مبارك ، مج ١ ، ص ٩٢ . (٧١)
- نفسه . (٧٢)
- نفسه ، مج ٢ ، ص ٦ ، مج ٨ ، ص ٢ ، مج ١٤ ، ص ٩٧ . (٧٣)
- Evliya, pp. 624-5, 644-5. (٧٤)
- مبارك ، مج ٥ ، ص ٩٤ . (٧٥)
- نفسه ، مج ١٥ ، ص ٤٧ . (٧٦)
- Evliya, p. 475. (٧٧)
- Ibid., pp. 469-70. (٧٨)
- Ibid., p. 476. (٧٩)
- الجبرتي ، مج ٤ ، ص ٣ . (٨٠)
- مبارك ، مج ١٢ ، ص ٩٦ . (٨١)
- McPherson, p. 70. (٨٢)
- مبارك ، مج ١ ، ص ٩٢ . (٨٣)
- Lane, p. 463 ; P. Kahle, Zur Organisation der Derwischor- (٨٤)
den in Egypten, *Der Islam*, vol. 6 (1916), p. 153, note 2.
- مبارك ، مج ٣ ، ص ١٣٣ . (٨٥)
- Evliya, p. 472. (٨٦)
- الجبرتي ، مج ٣ ، ص ٣٩ - ٤٠ ، مبارك ، مج ٤ ، ص ٦٩ ، ١١٤ .
مج ١٢ ، ص ٩٦ - ٩٧ ، مج ١٧ ، ص ٢٣ .
- أحمد بن محمد الفاسي الرحالة المغربي الذي زار القاهرة في نهاية القرن الثامن عشر
كان غير متعاطف مع (الذكر) بشكله الشعبي ، وكان قد شاهده في مسجد الحسين (رحلة
الفاسي - مخطوط بدار الكتب المصرية - تاريخ رقم ١٤٠٣) ص ٢٠٣ .
- مبارك ، مج ٣ ، ص ١٣١ ، مج ٤ ، ص ١١٨ . (٨٨)
- McPherson, pp. 68, 78 ; Kriss, vol. 1, p. 57. G. E. von Grune (٨٩)
baum, *Mohammedan Festivals*, p. 83 ; W.S. Blackman, *An Ancient
Egyptian Custom Illustrated by a Modern Survival*, *Man*, 1925,
pp. 25-6 ; Mubarak, vol. 1, p. 42 ; vol. 12, p. 106.
- مبارك ، مج ١٣ ، ص ٤٥ . (٩٠)

- (٩١) نفسه ، مج ٨ ، ص ٢ ، مج ٩ ، ص ص ٥ ، ٨٢ ، مج ١ ، ص ٨ ، مج ١٥ ، ص ٥ .
- (٩٢) Evliya. p. 644.
- (٩٣) مبارك ، مج ١ ص ٩٤ .
- (٩٤) الجبرتي ، مج ٣ ، ص ص ١٩٠ ، ٢٢٣ .
- (٩٥) مبارك ، مج ، ص ١٢٣ ، أحمد أمين ، قاموس ، ص ٢١٨ .
- (٩٦) McPherson, pp. 74-83.
See Winter. *Society and Religion*, pp. 128-3.
- (٩٧) مبارك ، مج ٢ ، ص ٧ .
- (٩٨) ابن حجر المسقلاني نقل عن :
- I. Goldziher, *Leculte des saints chez les Musulmans' Revue de l'Histoire des Religions* (Paris, 1880), vol. 2, p. 310.
- (٩٩) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٠٤ .
- (١٠٠) Winter. *Society and Religion*, pp. 57, 98, citing al-ha'rani's *al-Tabaqat al-kubra*, vol. 2, p. 57.
- (١٠١) الشمراني ، مج ١ ، ص ص ٢٢٠ ، مج . ص ٢٤٨ .
- (١٠٢) نفسه ، مج ٤ ، ص ٦ . منطق الجبرتي هنا فيه خلل ، فهو لكراهيته للفرنسيين نسي أنهم لم يدخلوا « الموالد » الى مصر ، فدوافع الفرنسيين لتشجيع الموالد لم تكن سوى لرغبتهم في أن تعود الأمور الى مسارها الطبيعي الذي كانت عليه بعد فترة الاضطرابات التي سببها الغزو الفرنسي .
- (١٠٣) مبارك ، مج ٤ ، ص ١١٨ ، مج ٨ ، ص ٢ ، مج ١٢ ، ص ٩٦ ، مج ١٤ ص ١٣٢

هوامش الفصل السابع

(١) See C. van Arendonk, *Sharif, El* vol. 4, pp. 32-9, P. Hitti, *History of the Arabs* (London 1960), p. 440, n. 4. This distinction between *sharif* and *sayyid* was adhered to particularly in Arabia. See H. A. R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West* (London, 1957), vol. 1, part 2, p. 93, n. 1.

(٢) خلال العصرين المملوكى والعثمانى كان قصر مصطلح (أشراف) قد آثار امتعاض العلماء والصوفية المصريين الذين كانوا - بوجه عام - من السنة . وعلى أية حال فقد ترسخ استخدام هذا المصطلح ولم يعد من الممكن تغييره . انظر :

محمد توفيق البكرى ، بيت الصديقي - القاهرة ، ١٣٢٣ هـ ص ٣٩٥ . جلال الدين السيوطى ، الجاوى للفتاوى ط ٢ القاهرة ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م مج ٢ . عبد الوهاب الشعرانى ، لطائف المتن - القاهرة ، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م . مج ١ ص ٥ ، ١٠٨ .

(٣) Lane, p. 135. In Persia, the descendants of both Hassan and Husayn are called *sada*, see H. Lammens. *Islam. Its belief and Institutions* (Hebrew trans., Jerusalem, 1955), p. 110. In Chubaysh in southern Iraq, only the term *sada* is used, see S. M. Salim, *Marsh Dwellers of the Euphrates Delta* (London, 1962), pp. 62-4.

(٤) انظر على سبيل المثال ، مبارك . مج ٢ ، ص ٨٤ ، مج ١٥ ، ص ١٠ .

(٥) نفسه ، مج ٢ ، ص ٨٣ ، مج ١٣ ، ص ٤٠ .

(٦) الجبرتى ، مج ٣ ، ص ٢٧٨ .

(٧) انظر على سبيل المثال : الأهرام ١١ مارس ، ١٩٣٧ ، ٢٩ نوفمبر ١٩٣٩ .

البلاغ ٢١ فبراير ١٩٤٢ ، ٢٦ مارس ، ١٩٤٢ .

(٨) اليافعى ، صوفى يبنى فى القرن الرابع عشر للميلاد شرح لنا أن أى واحد يناضل ببسطة هو (شريف) حتى إذا لم يكن من سلالة النبى (ﷺ) ، ومن هنا فإن الصوفية « أشراف » لأنهم يجاهدون نفوسهم فالنفس هى عدو الانسان الأول ، ومن هنا فهم أشراف . انظر :

عبد الله اليافعى : نثر المحاسن الغالية فى فضل المشايخ الصوفية - القاهرة ،

١٩٦١ ، ص ١٠٠ .

(٩) See J. S. Trimingham, *The Sufi Orders in Islam* (Oxford, 1971), p. 27.

(١٠) بالنسبة لعبارات الإعجاب والتوثيق التى يخاطب بها الأشراف كما ذكرها عبد الوهاب

الشعرانى الصوفى المصرى الشهير فى القرن السادس عشر للميلاد انظر : Winter, *Society and Religion*, pp. 278-82.

وانظر ترجمة الصوفى السيد محمد بن عثمان الدرمداشى الخلوتى فى الجبرتى ،

مج ٢ ، ص ٦٠ وعن السادة الأشراف فى الطريقة القادرية انظر الجبرتى أيضا ، مج ٢ ،

ص ٨٩ ، ١٥٠ .

- (١١) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد ٠٠ القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ١٩٩ .
- (١٢) زواج شريف من شريفة أمر مقبول اجتماعيا ، أما زواج غير الشريف من شريفة فتوضع ازاؤه بعض المحاذير ، وموضوع الشرافة هذا ليس مدرجا في صميم الاسلام الرسمي ، وانما هو قضية اجتماعية فليس هناك نصوص شرعية متصلة به ، وليس هناك ما يمنع من تغير وضع نسل الاشراف ، واختلعت الآراء في وضع ابن الشريفة من زوج غير شريف ، فبعض العلماء لا يقرون له بالشرافة . انظر : Van Arendonk, p. 327.
- اذ نقل فتوى ابن حجر الهيتمي ، وانظر أيضا : السيوطي ، الحاوي ، مج ٢ ، ص ٨٣ .
- وثمة بعض الشك أن مثل هذا الشخص كان يعتبر شريفا في المجتمع المصرى رغم أن دعواه للشرافة تكون أضعف . انظر : الشعراوى ، لطائف المنن ، مج ٢ ، ص ٣٣ Lane, p. 135.
- وفيما يتعلق بالنظرة في القرن العشرين ، انظر :
- J. Berque, Histoire Sociale d'un village egyptien au xx^e Siecle, Paris, 1957, p 62.
- (١٣) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ٥٦ .
- (١٤) مبارك ، مج ٣ ، ص ١٣٤ .
- (١٥) نفسه ، مج ٨ ، ص ٢١ .
- (١٦) نفسه ، مج ٨ ، ص ٢٢ ، مج ١١ ، ص ٥ .
- (١٧) نفسه ، مج ١١ ، ص ٩٦ .
- (١٨) نفسه ، مج ١٥ ، ص ١٢ .
- (١٩) نفسه ، مج ٩ ، ص ٨٤ ، مج ١١ ، ص ٦٤ .
- وانظر أيضا :
- A. Hammer, Growing up in an Egyptian Village, London, 1954.
- Berque, p. 61 Apparently, the majority of *ashraf* settled in (٢٠) the early Islamic period, many of whom moved to Lower Egypt only more recently. Awareness of *Sharifism*, Like other facets of popular religion, is stronger in Upper than in Lower Egypt.
- (٢١) مبارك ، مج ١١ ، ص ٤ ، المقریزی ، البيان والاعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١ ، صص ٩ - ١ ، ٢٨ . يقرر المقریزی بوضوح أن البدو (العربان) في مصر كانوا ثائرين ضد حكم المماليك الأتراك . وقد ثاروا بقيادة أمير عربي كان هو أيضا شريفا .
- (٢٢) مبارك ، مج ١٠ ، ص ٦٥ .
- (٢٣) نفسه ، مج ١١ ، ص ٨٤ .
- (٢٤) See, for example, *MM*, vol. 78, no. 1039, p. 404, Safar 14, 1022 (April 5, 1613).
- (٢٥) السيوطي ، الحاوي ، مج ٢ ص ٨٥ ، وانظر أيضا :
- Van Arendonk, El, pp. 324-329.

See the description of the French traveler Villamont, who (٢٦)
visited Egypt at the end of the sixteenth century. Villamont,
Voyages en Egypte des années 1589, 1590 et 1591 (Cairo, 1971), pp.
215-16, See also Lane. pp. 32, 135, Green is considered a 'good'
color, According to the Koran, 18 : 31, the clothes worn in paradise
are green.

(٢٧) عبد الكريم بن عبد الرحمن .
'Abdulkerim ibn 'Abdurrahman, *Ta'rikh-i Misr-i Qahire* (Ms.
Add. 7878, The British Library), fol. 97b.

وانظر أيضا : الجبرتي ، مج ٣ ، ص ١٩٥ :

See, for example, Evliya, p. 161.

(٢٨)

(٢٩) مبارك ، مج ١٥ ، ص ٩٥ .

M. de Chabrol, 'Essai sur les moeurs des habitants modernes (٣٠)
de l'Egypte,' Description de l'Egypte .(Paris. 1812), vol. 2, pp. 457-8.

(٣١) انظر على سبيل المثل : ابن اياس ، مج ٣ ، ص ٢١٨ ، مج ٥ ، ص ١٤٩ ،

وفيما يتعلق بحصانة الاشراف في حلب واستثنائهم من العقاب البدني انظر :

H. L. Bodman, *Political Factions in Aleppo 1760-1826* Durham, 1963,
p. 921.

Evliya, p. 161.

(٣٢)

MM, vol. 6, no. 268, fol. 59a, *awasit* Muharram 1159 (Feb-
ruary 3-12, 1746) ; Ahmad Shalabi, pp. 375-472.

(٣٣)

MD, vol. 60, no. ٤15, p. 217. Rabi II 3, 994 (July 2, 1586).

(٣٤)

(٣٥) مبارك ، مج ١٢ ، ص ٤٤

(٣٦) عبد الكريم بن عبد الرحمن

Abdulkerim Ibn 'Abdurrahman, *Tevarih-i Misr-i Qahire* (a manuscript
in the Süleymaniye Library. Istanbul. Hacci Mahmut Efendi, no.
4877), fol. 112b-113a.

(٣٧) مبارك ، مج ١٥ ، ص ٩٧ ، حلاق ، ورقة ١٧٠ ب

(٣٨) نفسه ، مج ١٥ ، ص ٩٩ .

Archives Nationales, Affaires etrangeres, Correspondance (٣٩)
consulaire, B 315. III, le Caire, pp. 110b, 120b.

(٤٠) حلاق ورقة ٢٤٣ ب - ٢٤٤ ا

(٤١) احمد شلبي ، صص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، حلاق ، ورقة ٢٠٢ ب - ٢٠٣ ا ،

الجبرتي ، مج ١ ، ص ٥٠ .

(٤٢) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٤٣) عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ١٥٦ ا ، ٨٧ ب ، ١١٠٦ حلاق ، ورقة

٩٣ ب ، وانظر أيضا الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٤٤) حلاق ، ورقة ٩٥ ب

See M. Winter, 'The *ashraf* and *niqabat al-ashraf* in Egypt (٤٥)
in Ottoman and Modern Times.' *Asian and African Studies* (Haifa),
vol. 19, no. 1, March 1985, pp. 17-41.

E. Tyan, *Histoire de l'organisation judiciaire en pays* (٤٦)
d'Islam, 2nd edn. (Leiden 1969), pp. ٢50-4 ; M. Gaudefroy-De-
mombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks* (Paris, 1923), p. 163.

(٤٧) ذكر ابن اياس (نقيب الاشراف) في موضع متواضع جدا في قوائم مناصبه
الدينية ، انظر ابن اياس ، ص ٥٠ .

(٤٨) نفسه ، ص ٣٠٢ .

(٤٩) يمكن للمرء ان يثبت ان التعمين قد تم بعد الفتح بوقت قصير ، وفي وقت
كان الناس فيه لا يزالون خائفين من اى اجراء عثمانى ، وعلى اية حال فان العلماء المصريين
لم يكونوا يترددون في الابتراض على الحكام الجدد اذا تدخلوا في الامور المهمة أو النظام
القضائى أو قيادة قافلة الحج . وهذا واضح من خلال كتب التاريخ الحولنى ، انظر
على سبيل المثال : ابن اياس ، صص ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٨ ، ويلاحظ أن
منصب نقيب الاشراف لم يكن مهما بدرجة تستوجب المواجهة مع السلطات العثمانية .

(٥٠) من البسائق أن نلاحظ أن عبد الوهاب الشعرانى ، الصوفى الذى كتب كتابا
كثيرة تضم تراجم للعلماء والصوفية خلال الأربعين سنة الأولى من الحكم العثمانى -
لم يذكر منصب نقيب الاشراف ولا حتى مرة واحدة ، رغم حديثه عن الاشراف . انظر :
الحاشية رقم ١٠ فيما سبق .

(٥١) الديار بكرى ، ورقة ٢١٦ ب .

(٥٢) يذكر الجبرتي أن منصب نقيب الاشراف كان بمثابة منصب (الوالى) لدى
العثمانيين .

See Gibb and Bowen, part 2, pp. 99-100. (٥٣)

(٥٤) الشكوى الموجهة ضد أحد الاشراف كانت تقدم لنقيب الاشراف ، والموجهة
ضد مسلم عادى كانت تقدم لقاضى الشرع ، والموجهة ضد جندى كانت تقدم لأوجاقه
(كتيبته) .

See R. Pococke, *A Description of the East and some Other* (٥٥)
Countries (London, 1743), vol. I, p. 171 ; de Chabrol, p. 458.

N.-C. D., 'L'aristocratie religieuse en Egypte-Bait as-Siddik,' (٥٦)
Revue du Monde Musulman, 4/2. p. 275.

(٥٧) مبارك ، مج ١٢ ، ص ٩٦ .

(٥٨) انظر الاتهامات الموجهة لعمر مكرم لدفعه اعطيات لأفراد لا يستحقونها في
الجبرتي ، مج ٤ ، ص ص ١٠ ، ١٩٤ .

(٥٩) نفسه ، مج ٤ ، ص ١٦ ، مج ٣ ، ص ٢٠١ .

(٦٠) نفسه ، مج ٣ ، ص ١٩٥ .

(٦١) مبارك ، مج ٤ ، ص ١٩ ، مج ٨ ، ص ٣٩ .

(٦٢) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٧٤ ، مج ٢ ، ص ١٥٠ ، مج ٣ ، ص ١٤٨ ، مج ٤ ،

ص ١٩٦ .

(٦٣) مبارك ، مج ١٣ ، ص ٥٢ .

(٦٤) نفسه ، مج ١٢ ، ص ٩٦ .

- (٦٥) نفسه ، مج ١٥ ، ص ٩٦ ذكر الجبرتي نقيب أشرف رشيد ودمياط ودمهور .
Gibb and Bowen, vol. 1, part 2, p. 101, no 4. انظر أيضا :
- (٦٦) مبارك ، مج ٨ ، ص ٣٠ .
- See, for example, *MM*, vol. 7, no. 758, pp. 345-6 Sha'ban (٦٧)
10, 1172 (April 8, 1759); Ahmad Shalabi, p. 320.
- وأحمد شلبي ، صص ٣١٢ ، ٤٧٢ .
- (٦٨) حلاق ، ورقة ١٢٤ ب ، وأحمد شلبي ، ص ص ٣١٢ ، ٤٧٢ .
- (٦٩) حلاق ، ورقة ١٦٩ ب .
- (٧٠) أحمد شلبي ، ص ٢٢٦ ، والجبرتي ، مج ١ ص ٧٤ .
- (٧١) *Evliya*, pp. 161, 288, 328, 639.
- (٧٢) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٧٤ .
- (٧٣) حلاق ، ورقة ٢٦٨ ب .
- (٧٤) انظر قائمة بإصحاب المناسب في نقابة الأشراف من حوالى سنة ١٧٥٠ الى سنة ١٩١١ في :
- F. de Jong, *Turuq and Turuq-Linked Institutions in Nineteenth Century Egypt* (Leiden, 1978), pp. 220-1.
- (٧٥) مبارك ، مج ٣ ، ص ١٢٢ ، وانظر أيضا : البكرى ، بنت الصديق ، ص ٧ .
فى هذا الكتاب يكتب الشيخ البكرى - الذى كان نقيباً للأشراف ورئيساً لطريقة صوفية فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - تاريخاً لأسرته ، ويقدم لنا معلومات طريفة عن حياته لكنه يقدم لنا القليل عن العصر العثماني نقله من كتابات الشعرائى والجبرتي والنابلسى وغيرهم .
- (٧٦) البكرى ، ص ٦ .
- (٧٧) الشعرائى ، الطبقات الصغرى ، تحقيق عبد القادر عطا ، القاهرة ١٣٩٠/١٩٧٠ ، ص ص ٥٠ - ٥٢ .
- B; G. Martin, 'A Short History of the Khalwati Order of (٧٨)
Dervishes, in N. R. Keddie, ed., *Scholars, Saints and Sufis* (Berkeley, 1972), pp. 297-8.
- (٧٩) محمد توفيق البكرى ، بيت السادات أوفائية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، لكن يمكن ارجاع طبعه لحوالى ١٩٠٠ ، ص ص ٣٣ ، ٥٧ .
- (٨٠) الشعرائى ، لطائف المنن ، مج ٢ ، ص ص ١٧ ، ١٠٦ - ١٠٧ .
- Gibb and Bowen, vol. 1, part 2. p. 101 ; Lane, p. 247. (٨١)
- (٨٢) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٥٤ ، مج ٣ ، ص ص ١٥ ، ٨٠ ، ٢٢٥ ، ٢٥٧ .
- (٨٣) نفسه ، مج ٤ ، ص ١٢٠ .
- See S. J. Shaw, *The Budget of Ottoman Egypt, 1005-1006/* (٨٤)
1596-1597 (The Hague-Paris 1968), p. 182 ; Idem, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798* (Princeton, NJ, 1962), p. 139 ; F. Vansleb, *The Present State of Egypt* (London, 1678; reprinted Westmead, England, 1972), p. 17٤.

- (٨٥) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٢٦٠ ، مج ٢ ، ص ص ٢٧ - ٢٨ ، أحمد أمين ، ص ١٧٢ ، البكري ، بيت الصديق (الترجمة الفرنسية) ص ٢٦٧ .
 (٨٦) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٣١٦ .
 (٨٧) نفسه ، مج ٢ ، ص ٧٢ .

(٨٨) يجب أن نلاحظ أنه في تاريخ مبكر لا نستطيع تحديده ، ربما كان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، منع الأمراء المماليك شريفا من حلب من شغل منصب نقيب الأشراف في مصر رغم أنه تلقى أمرا بالتميين من اسطنبول . وقد شغل هذا الشريف عدة مناصب في مصر وتزوج من أسرة البكري . الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٠١ .

- (٨٩) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٩٠) للخلفية التاريخية انظر :

For the historical background, see P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922* (Ithaca, NY, 1966), pp. 99-100.

(٩١) كان لعدم توفيق عمر لعلاقاته الاجتماعية بالعلماء الكبار في العاصمة أثره في اقتراح الشيخ المهدي بطرده من نقابة الأشراف وقوله « هو ليس الابن وإذا خلانا فلا يساوي بيشاي bishay ان هو الا صاحب حرفة أو جابي وقف يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين » الجبرتي ، مج ٤ ، ص ٩٦ . وكان عمر مكرم رجلا ثريا ويدير أوقافا مهمة كوقف الامام الشافعي ، ووقف سنان باشا في بولاق . انظر الجبرتي ، مج ٤ ، ص ٩٩ . وانظر أيضا عفاف لطفى السيد :

The Political and Economic Functions of the Ulama in the 18th Century, JESHO, vol. 16 (1973), pp. 141, 153-4. Al-Mahdi meant that all of 'Umar's.

وعبارة المهدي تعني أن كل وظائفه (عمر مكرم) كمدبر للوقف تعتمد على منصبه. كنقيب للأشراف ، وأنه اذا طرد من نقابة الأشراف فسيصبح بلا قوة اقتصادية ، فهو يختلف عن العلماء المهمين الذين كانوا مديريين للأوقاف وملزمين بسبب مكانتهم الاجتماعية والدينية رغم أنهم لا يشغلون مناصب في الحقيقة . وهناك دراساتان ظهرت في مصر عن عمر مكرم :
 - عبد العزيز محمد الشناوي ، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية . القاهرة ، ١٩٦٧ ،
 - محمد فريد أبو حديد ، السيد مكرم . القاهرة ، ١٩٥١ .

- (٩٢) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٩٣) انظر ترجمته في الجبرتي ، مج ٤ ، ص ص ٨٦ - ٨٨ .

- (٩٤) نفسه ، مج ٤ ، ص ٢٩٥ .

(٩٥) نفسه ، مج ٤ ، ص ٩٦ .

- (٩٦) نفسه ، مج ٤ ، ص ١٠٠ .

(٩٧) شيخ مشايخ الصوفية هو رئيس المجلس الأعلى للطرق الصوفية الذي يجب ان تعتمد الحكومة قراراته Der Islam, vol. 6, (1916), p. 152. ويؤيد De long رأينا عن تدهور قوة نقابة الأشراف في القرن التاسع عشر في دراسته عن الطرق الصوفية في هذا القرن .

- (٩٨) البكري ، بيت الصديق ، ص ٢٠ (الترجمة الفرنسية ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧) .

هوامش الفصل الثامن

الذميون : اليهود والنصارى

(١) الأرقام الدقيقة غير متوافرة ، فحتى نهاية القرن الثامن عشر كان اجمالى عدد الأقباط فى مصر يقدر بحوالى ١٥٠.٠٠٠ أو حوالى ١/٧ اجمالى السكان و ١/١٥) واحد على خمسة عشر (من الأقباط (أى حوالى ١٠.٠٠٠) كانوا يعيشون فى القاهرة . وكان معظم القبط يعيشون فى الصعيد والفيوم وكان اجمالى عدد اليهود فى الفترة نفسها حوالى ٥٠٠٠ غالبيهم (٣٠٠٠) فى العاصمة والباقى فى الاسكندرية ودمياط . ورشيد وغيرها من المدن . انظر :

H. Motzki, *Dimma und Egalité ; die nichtmuslimischen Minderheiten Agyptens in der zweiten Hälfte des 18. Jahrhunderts und die Expedition Bonapartes (1798-1801)*, (Bonn. 1979), pp. 25-6 ; J. Heyworth-Dunne *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt* (London, 1939), pp. 84-7.

See for example, E. Strauss (Ashtor). *The History of the Jews in Egypt and Syria under the Mamluks* (Jerusalem, 1944, in Hebrew), vol. 2, pp. 204-36 : idem, 'The Social Isolation of Ahl adh-Dhimma,' in O. Komlos, ed., *Etudes orientales à la mémoire de P. Hirschler* (Budapest, 1950), pp. 73-94.

Strauss, *History of the Jews in Egypt and Syria*, vol. 2, (٢) p. 176.

(٤) ابن اياس ، ص ١٨٢ .

(٥) نفسه ، ص ٢٢٢ .

(٦) نفسه ، ص ١٨٤ .

(٧) نفسه ، ص ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ، ٣٧٧ - ٣٧٨ ، ٤٥٣ ، ٤٨٠ .

(٨) على أية حال ، لا بد أن نلاحظ أن هؤلاء اليهود - على نحو خاص - لم يكونوا مصريين وإنما أتوا من الولايات التركية الأخرى ، إذا كان ما ذكره الدياربرى دقيقا إذ وصفهم بأنهم روميللى أو ترك Turk or Rumlu . انظر : الدياربرى ، ورقة ٢٦٦ ب ، ٢٦٨ .

(٩) ابن اياس ، ص ٢٨٩ .

(١٠) نفسه ، ص ٣٧٤ .

S. J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798* (Princeton, NJ, 1962), p. 103. (١١)

- See Diyarbakri, fol. 326a ; Eliyahu Kapsali, *Seder Eliyahu* (١٢)
Zuta (in Hebrew), A. Shmuelevich, Sh. Simonson, M. Benayahu, eds
 (Jerusalem and Tel Aviv, 1966), vol. 2, p. 188 ; Joseph Sambari,
Selections (in Hebrew), A. Neubauer, ed. (Oxford 1887), vol. I.
 p. 145 ; Diyarbakri, fol. 326 a.
- Sambari, p. 145. (١٣)
- (١٤) الدياربرى ، ورقة ١ ٢٢٧ - ب
- Kapsali, vol. 2, pp. 147-201 ; Sambari, p. 145. (١٥)
- (١٦) رغم ان (احمد) كان باشا عثمانيا الا ان تمرده (ثورته) يمكن النظر اليها
 كتمرده مملوكى ، مادام كان يعمل على عودة السلطنة المملوكية . انظر ما سبق ان نكرناه
 فى الفصل الاول .
- Qanun-name-i Misir*, pp. 381-2. (١٧) قانون نامه مصر .
- MD*, vol. 1. 7. no. 859, p. 302, Sha'ban 13, 975 (February 12, (١٨)
 1568) : vol 30, no. 691, p. 299, Rabi' I 28, 985 (June 15, 1577).
- Qanun-name-i Misir*, p. 386. (١٩)
- See for example, Evliya, pp. 135, 179 ; A. Raymond, *Arti-* (٢٠)
sans et commercants, pp. 228, 282, 335, 461-2 ; S.J. Shaw, ed. ;
Hüseyn Efendi, Egypt in the Age of the French Revolution (Cam-
 bridge, Mass., 1964), pp. 46, 115-6 and note 157.
- (٢١) الجبرتى ، مج ٤ ، ص ٢٠٥ .
- See Shaw, *Hüseyn Efendi*, pp. 115-16, note 157 ; Raymond, (٢٢)
Artisans et commercands, pp. 228, 282, 459, 460, Raymond says
 (p. 336).
- وليس صحيحا ان معظم الصرافين كانوا يهودا ، فقد كان منهم مسلمون اكثر من
 اليهود .
- (٢٣) من الطريف ملاحظة ان مهنة المحاسبة او حفظ الدفاتر ارتبطت بالقبيل اكثر
 من ارتباط مهنة الكتابة (كتبة) بهم ، حتى ان مسمى هذه المهنة الاولى اصبح مرادفا
 لقولنا (قبلى) .
- انظر الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٢٦٢ ، مج ٣ ، ص ص ١٥٤ - ١٥٥ .
- See R. Pococke, *A Description of the East and Some Other* (٢٤)
Countries (London, 1743), vol. I. 176-7 : H. Dehérain, *L'Egypte tur-*
turque in G. Hanotaux, *Histoire de la Nation Egyptienne* (Paris,
 1931), vol. 5, pp. 80-2.
- Raymond, *Artisans et commercants*, p. 740. (٢٥)
- (٢٦) عبد الكريم عبد الرحمن
- Abdulkerim ibn 'Abdurrahman, *Tevarih-i Misr-i Qahire* (Ms. 4877 Haccf
 Mahmut Collection. Suleymaniye Library, Istanbul), fol. 7a.
- Evliya, p. 135. (٢٧)
- Lane, p. 582. (٢٨)
- (٢٩) حلاق ، ورقة ١ ٢٢٥ ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٧ .
- Raymond, *Artisans et commercants*, vol. 1. p. 27.

- MM, vol. 8, no. 395, p. 197, *awasit* Jumada I, 1179 (October 26 December 4, 1765). (٣٠)
- MM, vol. 8, no. 343, pp. 171-2, *awa'il* Safar, 1179 (July 20-29, 1765) ; no. 345, pp. 172-3 (same date) ; no. 380, pp. 183-9, *awakhir* Ramadan, 1179 (March 3-12, 1766) ; no. 475, pp. 242-5, *awa'il* Muharram, 1180 (April 15-24, 1766). (٣١)
- See J.M. Landau, *Jews in Nineteenth Century Egypt* (New York 1969), pp. 134, 150, 157, 171, 205, 207, 215, 239, 243. (٣٢)
- MD, vol. 42, no. 1011, pp. 330-1, Shawwal 21; 988 (November 29, 1580). (٣٣)
- Pococke op. cit., p. 172. (٣٤)
- (٣٥) فى العصور الوسطى عندما كان موظفو الجمارك فى الاسكندرية مسلمين بالفعل كانت هناك نزاعات خطيرة بينهم وبين الحجاج المغاربة . انظر على سبيل المثال النقد الثمير الذى يوجهه ابن جبير الرحالة الاندلسى ضد موظفى الجمارك فى عهد صلاح الدين الأيوبي الذين قابلهم فى رحلته خلال الثمانينيات من القرن الثانى عشر الميلادى فى الاسكندرية وفى قوص بصعيد مصر . انظر ابن جبير ، الرحلة ، ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ص ٢٩ - ٤٠ .
- MD, vol. 30, no. 733, Rabi I 8, 985 (May 26, 1577). (٣٦)
- Ibid., vol. 7, no. 859, p. 302, Sha'ban 13, 975 (February 12, 1568). (٣٧)
- Ibid., vol. 3, no. 691, p. 299, Rabi' I 28, 985 (May 13, 1580). (٣٨)
- See A. S. Ehrenkreutz, *Saladin* (Albany, NY, 1972), p. 180. (٣٩)
- MD, vol. 50, no. 170, Dhu'l-Qa'da 1, 993 (October 25, 1585). (٤٠)
- Ibid., vol. 35, no. 750, p. 296. Sha'ban 19, 986 (October 21, 1578). (٤١)
- Ibid., vol. 53, no. 427, p. 147. Sha'ban 25, 992 (September 1, 1584). (٤٢)
- MM, vol. 8, no. 527, fol. 142 a. *awasit* Rajab, 1181 (December 3-12, 1767). (٤٣)
- Ibid., vol. 4, no. 334, fol. 75a. (the volume contains documents from 1139/1726 until 1146/1733), For the general Ottoman background, see O. L. Barkan, 'Teh Price Revolution of the Sixteenth Century : A Turning Point in the Economic History of the Near East,' *IJMES*, vol. 6 (1975), p. 6 f. (٤٤)
- MM., vol. 3, no. 63, fol. 13b, *awasit* Sha'ban, 1132 (June - 18-27, 1720). (٤٥)
- G. Baer. *Egyptian Guilds in Modern Times* (Jerusalem, 1964), p. 29. (٤٦)
- Evliva, pp. 366, 370-1. (٤٧)
- Ibid., pp. 406, 476. (٤٨)
- Sambari, *Selection* p. 156 ; Shaw, Hüseyin Efendi, p. 132 ; Raymond, *Artisans et commerçants*, pp. 440, 460, 649. (٤٩)

- (٥٠) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، دور المقاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث ، المجلة التاريخية المغربية (تونس) مجلد ١٠ - ١١ (يناير ١٩٧٨) ص ٥٩ .
- (٥١) حلاق ، ورقة ١٢٧ ب .
Sambari, Selections, p. 150.
Sambari, p. 161.
- (٥٢) MD, vol. 34, no. 42, p. 22, Safar 22, 986 (April 30, 1578);
vol. 36, no. 462, p. 169, Safar 9, 987 (April 7, 1579).
- (٥٣) No. 462 p. 169 Safar 9. 987 (April 7, 1579).
- (٥٤) Sambari, Selections, p. 150.
- (٥٥) See D. Crecelius, *The Roots of Modern Egypt : A Study of the Regimes of 'Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab 1760-1775* (Minneapolis and Chicago, 1981), pp. 132-3.
- (٥٦) Ibid., p. 133 : J.W. Livingston, 'Ali Bey al-Kabir and the Jews Middle Eastern Studies, vol. 7 (1971), p. 225.
- (٥٧) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٣٨٠ وما بعدها .
- (٥٨) Lane, p. 559.
- (٥٩) MD vol. 75, ni. 191, p. 108 (the volume contains documents from Dhu'l-Hijja 1011 through Sha'ban 1013).
- (٦٠) انظر قطب الدين النهروالي ، كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق ف . فستلفلد . بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .
- Winter, 'A Seventeenth-Century Arabic Panegyric of the Ottoman Dynasty, *Asian and African Studies*, Vol. 13 (July 1979), pp. 145-6.
- (٦١) أحمد شلبي ، ص ٥٩٠ - ٥٩١ .
- (٦٢) MM, vol. 7, no. 359, fol. 166a, *awasit Rabi' II*, 1170 (January 3-12 1757).
- (٦٣) MM, vol 5, no. 150, p. 60, *awasit Rabi' I*, 1147 (August 11-20, 1734).
- (٦٤) MM, vol. 5, no. 699, pp. 250-1, *awakhir* Muharram, 1155 (March 28 April 6, 1742).
- (٦٥) MM, vol. 5, no. 512, p. 188, *awasit* Safar. 1153 (May 8-17, 1740).
- (٦٦) MM, vol. 7, no. 367, p. 166, *awasit Rabi II*. 1170 (January 3-12, 1757).
- (٦٧) MM, vol. 8, no. 373, p. 185, *awa'sit* Muharram. 1180 (June 9-18. 1766).
- (٦٨) MM, vol. 7, no. 367, p. 166, *awasit Rabi' II* ; 1170 (January 3-12, 1757).
- (٦٩) Shaw, Hüseyin Efendi, p. 64.
- (٧٠) الجبرتي ، مج ١ ، ص ١٤٦ . تم الغناء الجزية في مصر سنة ١٨٩٥ .

- A. Raymond, 'Le Caire sous les Ottomans / 1517-1798,' in (٩١)
 M. Maury, A. Raymond, J. Revault, M. Zakariya, eds, *Palais et
 Maisons du Caire* (vol. 2 ; *Euoque Ottimane, XVIIe-XVIIIe Siècles*
 (Paris, 1983), p. 80.
- See, for example, Landau, *Jews in Nineteenth Century Egypt*, (٩٢)
 pp. 152, 157-8, 205.
- Evliya, p. 190. (٩٣)
- Ibid. ; Pococke, p. 170. (٩٤)
- Raymond. 'Le Caire sous les Ottomans,' p. 81. (٩٥)
- Ibid., p. 35. (٩٦)
- Sambari, *Selections*, p. 157. (٩٧)
- Evliya uses the expression merd olmak. Which is equivalent (٩٨)
 to the Arabic halaka, to denote the death of non- Muslims.
- Evliya, p. 514.. (٩٩)
- G. H. et-Nahal, *The Judicial Administration of Ottoman* (١٠٠)
Egypte in the Seventeenth Century (Minneapolis and Chicago, 1979),
 p. 57.
- See, *A Collection of documents concerning the Family of* (١٠١)
al-Sadat al-Wafa'iyya. Ms. Ta'rikh 2784. *Dar al-Kutub*, Cairo, docu-
 ments nos. 10, 22, 39.
- (١٠٢) ابن اياس ، ص ص ٤٢٣ - ٤٢٥ .
- MD, vol. 28, no. 348, p. 149, Jumada I 13, 984 (August 8, (١٠٣)
 1576) ; vol. 73. no. 933, p. 423, Shawwal 13, 1003 (June 21, 1595).
 vol. 78, no. 209, p. 85, Safar 13, 1018 (May 18, 1609).
- Ibid., voll. 3٤, no. 336, p. 132, Jumada II 5. 986 (February (١٠٤)
 21, 1561).
- (١٠٥) أحمد شلبي ، ص ٥٣٠ .
- (١٠٦) القرآن الكريم .
- Winter, *Society and Religion*, ppp. 284-5. (١٠٧)
- See p. 211 above. (١٠٨)
- See, for example, D. vol. 28, no. 616, p. 254, Rajab 25, (١٠٩)
 984 (October 18, 1576); vol. 29, no. 75, p. 31, Ramadan 25, (Decem-
 ber-16, 1576) ; no. 238, p. 98, D'hu'l-Qa'da 2, 984 (January 21, 1577).
- Ibid., vol. 33, no. 549, p. 269, Dhu'l-Qa'da 27, 985 (Feburary (١١٠)
 5, 1578.
- (١١١) الجبرتي ، مج ١ ، ص ١٨٨ .
- (١١٢) نفسه ، مج ٢ ، ص ١٠٣ .
- (١١٣) نفسه ، مج ٣ ، ص ص ١٥٤ - ١٥٥ .

- (١١٤) نفسه ، مج ٢ ، ص ص ٢٠ ، ٢١ ، ٥٤ ، ١١٩ - ١٢٠ .
 (١١٥) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٦٢ .
- :See, Shaw, *The Financial and Administrative Organization*, p. 140; idem, *Hüseyn Efendi*, pp. 94, 115-16, 132, 159; Raymond, *Artisans et commerçants*. pp. 228, 282, 460. (١١٦)
- R. Humbsch *Beiträge zur Geschichte des osmanischen Agyptens nach arabischen Sultans und statthalterurkunden des Sinai-klosters*, (Freiburg, 1976), pp. 347, 349. It is true that the monks possessed an imperial edict issued by Selim II forbidding the Jews to stay in Sinai. See K. Schwarz, *Osmanische Sultanurkunden des Sinai-Klosters in türkische Sprache* (Freiburg, 1970), pp. 41-2. (١١٧)
- (١١٨) الجبرتي ، مج ١ ، ص ١١٢ .
- Lane, p. 5٤6. (١١٩)
- (١٢٠) ابن نجيم ، فتاوى ، ورقة ٣٩ ب .
- (١٢١) ابن آياس ، ص ص ٤٤٥ ، ٤٧٥ - ٤٧٦ ، الدياربيكري ، ورقة ١٢٦ ب - . ١٢٧
- (١٢٢) أحمد نسلي . ص ٣٣٨ .
- (١٢٣) الدياربيكري ، ورقة ٢٦٢ ب - ٢٦٣ أ ، ابن آياس ، ص ٤٤٥ .
- (١٢٤) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٢٠١ ، محمد بن سليم الحضاوي ، منتهى العبارات (مخطوط - ٤٩٩٢ مجموعة جرت يهودا - جامعة برنستون) ورقة ٣٧ ب .
- (١٢٥) ابن نجيم ، فتاوى ، ورقة ٦٩ ب .
- (١٢٦) نفسه ، الأشباه والنظائر (مخطوط ٨٣٣ مجموعة جرت يهودا ، جامعة برنستون) ورقة ٢٢٥ أ .
- Winter, *Society and religion*, pp. 263-264. (١٢٧)
- (١٢٨) ابن نجيم ، الأشباه والنظائر ، أوراق ٢١٢ - ٢١٩ .
- Documents from a private collection in the United States on Jews in Ottoman Egypt. (١٢٩)
- El-Nahal, p. 42. (١٣٠)
- (١٣١) الأجهوري ، الزهرات الوردية من فتاوى الشيخ الأجهوري (مخطوط ٢٧١ من مجموعة ٨٩٥ جامعة كاليفورنيا - لوس أنجلوس) غير مرقم . وعن اليهود المشاركة انظر : Sambari, *Selections*, p. 150.
- Winter, *Society and Religion*, pp. 287-288. (١٣٢)
- Lane, p. 241. (١٣٣)

هوامش الفصل التاسع

- A. Raymond. The Ottoman Conquest and the Development (١)
of the Great Arab towns,' *International Journal of Turkish Studies*,
vol. I, no. 1, 1979-1980, pp. 84-101.
- Ibid., pp. 91-92. Idem, Essai de géographie des quartiers de (٢)
résidence aristocratique au, Cairo au XVIIIe siècle,' *JESHO*, vol. 6,
1963, pp. 58-103.
- See *Qanun-name-i Misir*, p. 369. (٣)
- G. Baer, Village and City in Egypt and Syria, 1500-1914.' (٤)
in G. Baer, *Fellah and Townsman in the Middle East; Studies in
Social History* (London, 1963, p. 56).
- (٥) يذكر J. A. McCarthy أن هذه الأرقام تشير إلى عدد البيوت لا عدد الأفراد ،
ووفقاً لهذا الفرض ، فإن عدد سكان القاهرة سنة ١٨٠٠ يكون ٢١٠٩٠٠ فقط . في :
J. A. McCarthy 'Nineteenth Century Egyptian population' in : E.
Kedourie (ed.) *Middle eastern economy* (London, 1976), pp. 1-39.
ويقول Lane الذى عاش في القاهرة ويعرفها جيداً ، أن عدد سكانها سنة ١٩٢٥ كان
٢٤٠٠٠٠ (وعدد سكان مصر كلها ٢٠٥ مليون) وهو تقدير يؤكد تقدير مكارثي .
Lane, p. 4.
- Raymond, 'The Ottoman Conquest,' p. 92. (٦)
- Baer, *Village and City in Egypt, and Syria*, pp. 56-57. انظر (٧)
- ومن الطريف أن نلاحظ أن على العكس من الفكرة الشائعة التي مؤداها أن الفلاحين
لا يفادرون قراهم أو نادراً ما يفادرونها ، فإن لدينا برهاناً واضحاً أن الفلاحين المصريين
قد هاجروا حتى اسطنبول بحثاً عن الرزق . وفي فرمان صدر سنة ١٥٧٦ نفهم منه أن
اسطنبول مليئة بالفلاحين المصريين الذين يتسولون في الأسواق ، ويأمر فرمان بضرورة
إعادتهم إلى قراهم . ونفهم من فرمان أن هذه ليست حالة فردية .
MD, vol. 27, no. 947, p. 369, Dhu'l-Hijja 8, 983 (March 10, 1576). See
also *ibid.*, Vol. 22, no. 311, p. 159, Rabi' I 26, 981 (July 26, 1573).
- ويقدم لنا المؤرخ الحولى التركى الدياربرى دليلاً على الطريقة المؤلة التي كان
يعاقب بها الفلاحون الذين يمشون في القاهرة . الدياربرى ، ورقة ١٣١٢ .
- (٨) مصطفى على ، أيفليا شلبى ، أبو سالم عبد الله العياشى في الرحلة العياشية
(الرباط ، ١٩٧٧ ، ٢ مج) ، الحسين بن محمد الوردلانى ، نزهة الأناظر في فضل علم
التاريخ والأخبار (ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٤) أحمد بن محمد القاسى ، الرحلة (مخطوط -
تاريخ رقم ١٤٠٣ دار الكتب بالقاهرة) .
- P. Belon, *Voyage en Egypte de Pierre Belon du Mans*, 1547
(Cairo, 1973).

- A. Raymond, 'Le Caire sous les Ottomans, 1517-1798,' in M. (١)
Maury, A. Raymond, J. Revault, M. Zakariya, eds., *Palais et
du Caire*, vol. 2, *Epoque Ottomane* (Paris, 1983), p. 28.
- See Shonter 8. (١٠)
- Raymond, 'Le Caire sous les Ottomans,' p. 35. (١١)
- (١٢) مصطفى علي ، ص ٤٠ .
(١٣) انظر الفصل الخامس .
(١٤) الورتلاني ، ص ٢٨٤ ، الفاسي ، ص ١٣٥ .
- Raymond, *Le Caire sous les ottomans*, p. 35.
- Ibid. (١٥)
- Ibid. (١٦)
- Evliya, p. 383. (١٧)
- Ibid., p. 382. (١٨)
- MD, vol. 26, no. 755, p. 263, Jumada II 24, 982 (October 11, (١٩)
1574).
- (٢٠) أحمد شلبي ، ص ٦١٨ .
(٢١) حلاق ، ورقة ١٣٦ أ .
(٢٢) انظر على سبيل المثال أحمد شلبي ، ص ص ٣٢٦ ، ٣٥٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ،
٥٨٣ ، ٥٨٢ .
- D. Aylon, «Studies in Aljabarti 1» JESHO, Vol. 3 (1960), pp. 304-
306.
- (٢٣) أحمد شلبي ، ص ص ٥٨٢ - ٥٨٣ .
- MD, vol. 23, no. 390, p. 184, Shawwal 3, 981 (January 26, (٢٤)
1573).
- (٢٥) أحمد شلبي ، ص ص ٥٧٤ - ٥٧٥ ، الجبرتي ، مج ١ ، ص ١٤٤ .
(٢٦) ابن اياس ، ص ٣٠٥ .
- Qanun-name-i Misir, p. 378 (33). (٢٧) قانون نامه مصر .
(٢٨) أحمد شلبي ، ص ص ٥٧٤ - ٥٧٥ .
- Evliya, pp. 281-282. (٢٩)
- (٣٠) محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، النزهة الزهية في ذكر ولاية مصر
والقاهرة المعزية (مخطوط مجموعة جرت ٤٩٩٥) جامعة برنستون ، ورقة ٢٩ ب ، ١٦٥ ،
٦٨ ب ، ٦٩ ب ، ٧٣ أ ، ٧٦ ب ، عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٧ ب ، ١١ ب ،
١٣ أ ، حلاق ، ورقة ٧٦ ب .
- Evliya, pp. 131, 306. (٣١)
- See Qanun-name-i Misir, p. 378. (٣٢)

- (٣٣) لا يجب الخلط بينه وبين منصب الباشا الذي كان يطلق عليه أيضا لفظ وال (حاكم الولاية) :
- A. Raymond, 'Problèmes urbains et urbanisme au Caire' in (٣٤)
Colloque international sur l'Histoire du Caire (DDR, c. 1972),
pp. 358-60.
- (٣٥) آياس ، ص ص ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٢٢٥ .
- A. Raymond, *Artisans et commerçants* pp. 588-96 ; S. J. (٣٦)
Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Deve-*
lopment of Ottoman Egypt, 1517-1798 (Princeton, NJ, 1962); pp.
118-21.
- Qanun-name-i Misir*, p. 382 (41); G. H. El-Nahal, *The Judi-* (٣٧)
cial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth century
(Minneapolis and Chicago, 1979), p. 63.
- On the hara, see A. Raymond, 'Quartiers et mouvements (٣٨)
populaires au Caire aux XVIIIe siècle,' in P. M. Holt, ed., *Political*
and Social Change in Modern Egypt London, 1968), pp. 104-16; idem,
Artisans et commerçants, pp. 441-8; idem, 'Problèmes urbains et
urbanisme.
- (٣٩) ابن آياس ، ص ص ١٦٤ ، ١٧٤ ، ٢٠٩ ، ٢٢٨ .
- (٤٠) عبد الكريم بن عبد الرحمن ورقة ٧ ب .
- (٤١) مصطفى علي ، ص ٣٤ .
- (٤٢) الدياربيكري ، أوراق ٢٩١ أ ، أحمد شلبي ، ص ص ٥١٤ ، ٦١٨ .
- (٤٣) انظر على سيديل المثال : ابن آياس ، ص ٢٩٠ ، ٤٦١ ، الدياربيكري ،
ورقة ٣١٢ أ .
- (٤٤) نفسه ، ص ص ١٦٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ .
- See, for example, 'Abdulkerim ibn 'Abdurrahman Tevarih-i (٤٥)
Misr-Qahire (Ms. 4877 Hacci Mahmut Collection, Süleymaniye Lib-
rary, Istanbul), fol. 30 b-31a : MD, vol. 5, no. 272, p. 118, Safar 29,
973 (September 25, 15٤5); vol. 33, no. 214, p. 105, Ramadan 20, 985
(December 1, 1577); vol. 34, no. 54, p. 27, Muharram 14, 986 (March
23 (1578) ; Ibid. no. 116 p. 55. Muharram 20, 986 (March 29,
1578); vol. 45, no. 1144, p. 97, Rajab 6, 989 (August 6, 1581).
- Evliya, p. 160. (٤٦) الدياربيكري ، ورقة ٢٨٤ ب ،
- MD, vol. 21, no. 24٤, p. 101, Shawwal 17, 980 (February 20, (٤٧)
1573) ; vol. 23, no. 114, p. 54, Jumada II 8, 981 (October 5, 1573).
- (٤٨) أحمد بن سعد الدين الغمري ، ذخيرة الاعلام (مخطوط - عربي - ١٨٥٠ ،
المكتبة الوطنية ، باريس) ورقة ١٨١ أ .
- (٤٩) مراجع عن الطاعون انظر عن سبيل المثال :
- مؤلف مجهول (بدون عنوان - مخطوط عربي - ١٨٥٤ - المكتبة الوطنية بباريس ،
ورقة ١٥٦ ب - ١١٥٧) .

- حلاق ، ورقة ١١٨ ب ، ١٥٦ ب .
- أحمد شلبي ، ص ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ٢٩٣ ، ٤٨٩ ، ٦٠٧ - ٦٠٩ .
- الجبرتي ، مج ٢ ، ص ٥١ ، ٢٩١ .
- E. Combe, 'L'Egypte ottoman' in précis de l'histoire d'Egypte Vol. 3, Cairo, 1933, pp. 28, 31, 34.
- Raymond, 'Problemes urbains et urbanisme' p. 365.
- Lane, p. 2. (٥٠)
- A. Raymond, 'Le Caire — Economie et société urbaines à la fin du XVIIIe siècle, L'Egypte au XIXe siècle (Paris 1982), p. 134. (٥١)
- Lane, p. 3, note 1. (٥٢)
- (٥٣) البكري الصديقي ، (مخطوط - مجموعة جرت ٤٩٩٥) ورقة ٧٦ أ ، حلاق ، ورقة ١٣٨ أ .
- See M. c. Dols, 'The Black Death in the Midde East (Princeton, NJ, 1977), chapter V : D Dyalon, 'The Plague and its Effects upon the Mamluk Army,' *Journal of the Royal Asiatic Society* (1946), pp. 67-73. (٥٤)
- (٥٥) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٩١ ، أحمد شلبي ، ص ١٧٠ .
- (٥٦) نفسه ، ص ٢٩٣ ، محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (مخطوط H.O. ، ٣٥ فينا) ورقة ١١٣ ب .
- (٥٧) ابن أياس ، مج ٤ ، ص ٢٩٨ .
- (٥٨) الدياربيكري ، ورقة ٣٤٠ أ ، ابن أياس ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .
- Qanun-name-i Misir. p. 379 (34). (٥٩) قانون نامه مصر
- The Continuator of Ishaqi, fol. 140-141a. (٦٠)
- (٦١) محمد بن يوسف الحلاق
- Mohammad ibn Yusuf al-Hallaq, *Ta'rikh-t Misr-i Qahire* (Ms. H.O.S), Vienna, fol. 87 b.
- مخطوط H.O. ، ٣٧ فينا ، ورقة ٨٧ ب .
- Qanun-name-i Misir, p. 383 (45). (٦٢) قانون نامه مصر .
- (٦٣) مصطفى علي ، ص ٣٤ .
- Evliya, pp. 195, 365. (٦٤)
- Johann Wild, *Voyages en Egypte, 1601-1610*, p. 316. (٦٥)
- (٦٦) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٧٩ .
- (٦٧) مصطفى علي ، ص ٣٨ .
- Evliya, p. 515. (٦٨)
- (٦٩) مصطفى علي ، ص ٤٤ .

- (٧٠) نفسه ، ص من ٤٢ - ٤٣ .
- Evliya, p. 385 ; See also Wild, op. cit., p. 103. (٧١)
- On the Physicians see ibid., pp. 367-8, 385; Raymond, 'Pro- (٧٢)
blèmes urbains et urbanisme,' p. 365 ; idem, *Artisans et commerçants*,
pp. 460, 493, 534, 551.
- Evliya, pp. 262-4. (٧٣)
- Raymond, 'Problèmes urbains et urbanisme,' p. 365. (٧٤)
- Evliya, pp. 264 ff. (٧٥)
- G. Baer, *Egyptian Guilds in Modern Times* (Jerusalem, (٧٦)
1964), p. 118.
- (٧٧) مصطفى علي ، ص ٣٤ .
- Lane (p. 343) enumerates between 60 and 70 *hammams*. (٧٨)
- Evliya, pp. 257-60. (٧٩)
- Ibid., pp. 588-9; Raymond 'Problèmes urbains et urba- (٨٠)
nisme' pp. 361-2.
- See E. Strauss (Ashtor), 'The Social Isolation of Ahl adh- (٨١)
Dhimma,' in O. Komlos, ed., *Etudes orientales à la mémoire de P.*
Hirschler (Budapest, 1950), pp. 82-5.
- (٨٢) أحمد شلبي ، ص ٢٧٣ ، الجبرتي ، مج ١ ، ص ١٠٤ .
- Evliya, p. 383. (٨٣)
- Jean Palerne Fordsien, *Voyage en Egypte 1581*, S. Saune- (٨٤)
ron, ed.. (Cairo : Institut Français d'Archrologie Orientale du
Caire, 19713, p. 69.
- Raymond, 'Problèmes urbains et uroanisme,' pp. 363-4. (٨٥)
- Raymond, '-Le Cairo sous les Ottomans,' pp. 54-5. (٨٦)
- (٨٧) ابن اياس ، ص من ٤٦١ - ٤٦٢ .
- (٨٨) مصطفى علي ، ص ٤١ .
- Evliya, p. 383. (٨٩)
- Belon, *Voyage en Egypte de Pierre Belon du Mans 1547* (٩٠)
Cairo, 1970), p. 106 b.
- (٩١) مصطفى علي ، ص ٤٢ .
- G. Baer, 'Popular Revolt in Ottoman Cairo,' *Der Islam*, vol (٩٢)
54, no. 2, 1977, pp. 213-42.
- A. Raymond, 'Le Caire — Economie et société urbaine à (٩٣)
la fin du XVIIIe siècle,' in *L'Egypte au XIXe siècle* (Paris, 1982),
pp. 124-5.

- I. M. Lapidus, *Muslim Cities in the Later Middle Ages* (٩٤)
Cambridge, Mass., 1967), p. 52.
- (٩٥) أحمد شلبي ، ص ٤٩ - ٥٠ الجبرتي ، مج ١ ، ص ص ٢٦ ، ٢٠٣ .
ورقة ٨٧ ب - ٨٨ أ .
مصطفى علي ، ص ص ٤٩ - ٥٠ الجبرتي ، مج ١ ، ص ص ٢٦ ، ٢٠٣ .
- (٩٦) أحمد شلبي ، ص ١٨٨ ، الجبرتي ، مج ١ ، ص ١٠٥ وانظر الفصل الثاني .
See Winter, *Society and Religion*, pp. 50-1. (٩٧)
- Evliya, pp. 256-7. (٩٨)
- (٩٩) مصطفى علي ، ص ٤٩ .
(١٠٠) نفسه ، ص ٣٦ .
- Wild, p. 278. (١٠١)
- Lane, pp. 439-ff., 486 ff. (١٠٢)
- Ibid., p. 478 f; Evliya, p. 356. (١٠٣)
- (١٠٤) أحمد شلبي ، ص ٦٠٦ .
(١٠٥) انظر الفصل السادس .
- Lane, pp. 498 ff. (١٠٦)
- Ibid., pp. 495-6; Evliya, p. 326. (١٠٧)
- Raymond, *Artisans et commerçants*, p. 386. (١٠٨)
- 'Kahwa, *El*, vol. 4, pp. 449-53 by C. van Arendonk. (١٠٩)
- (١١٠) مصطفى علي ، ص ٣٧ .
- (١١١) الفاسي ، الرحلة ، ص ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، الورتلاني ، نزعة الأنظار ، ص ٢٦٨ .
- Evliya, p. 479. (١١٢)
- G. Baer, 'Popular Revolt in Ottoman Cairo,' p. 214. (١١٣)
- Ibid., pp. 219-20; A. Raymond, *Le Caire-Economie et société*, pp. 121-5. (١١٤)
- Raymond, *Artisans et commerçants*, pp. 91-7; Baer Popular Revolt in Ottoman Cairo,' p. 220 ff. (١١٥)
- Ibid. ; Raymond, *Artisans et commerçants*, p. 391. (١١٦)
- Raymond, 'Le Caire-Economie et Société, p. 126. (١١٧)
- Idem, 'Essai de géographie des quartiers de résidence aristocratique au Caire au XVIIIe siècle JESHO, vol. 6, 1963, pp. 58-103. (١١٨)
- (١١٩) الجدير بالملاحظة أن اسطنبول التي كان سكانها أكثر من القاهرة بثلاث مرات لم يكن بها الا ١٥٠ طائفة حرفية في هذا الوقت .
- Raymond, *Artisans et Commerçants*, p. 511.

- G. Baer. *Egyptian Guilds in Modern Times*, pp. 2-3. (١٢٠)
- See, G. Baer, 'Guilds in Middle Eastern History,' in M. A. Cook ed. *Studies in the economic history of the Middle East* (London, 1970), pp. 27-28. (١٢١)
- الدياربيكري ، ورقة ٢٨٦ ب • (١٢٢)
- Baer, *Egyptian Guilds in modern times*, pp. 14-15. (١٢٣)
- Ibid, pp. 1-10. (١٢٤)
- Ibid, pp. 33-48. (١٢٥)
- Evliya, pp. 358-386. (١٢٦)
- Raymond, *Artisans et Commerçants*, p. 526. (١٢٧)
- Baer, *Egyptian Guilds in modern times*, pp. 6-10, 49-57. (١٢٨)
- Raymond *Artisans et Commerçants*, pp. 523 - 532. (١٢٩)
- نوقش هذا الموضوع بالتفصيل في المرجع السابق ، ص ص ٦٥٩ - ٧٢٦ • (١٣٠)
- Ibid, p. 650. (١٣١)
- كانت فرق الخيالة تقيم خارج القاهرة ، لذا فقد كانت تهاجم القرى وتنهبها • (١٣٢)
- أحمد شلبي ، ص ٢٢٥ ، الجبرتي ، مج ١ ، ص ٣٧ • (١٣٣)
- ابن أياس ، ص ٣٠٥ • (١٣٤)
- C. F. Volney, *travel through Syria and Egypt in the years 1784 and 1785*. (London, 1887), vol. 1, p. 166. (١٣٥)

قائمة المصادر

القواميس وقوائم المصادر ودوائر المعارف

- أمين ، أحمد ، قاموس العادات والتقاليد المصرية . القاهرة ١٩٥٣ .
— بروكلمان ، تاريخ آداب اللغة العربية .

Encyclopaedia of Islam. 1st edn. Eds M.T. Houtsma, T.W. Arnold, R. Basset, et al. 4 vols and suppl. Leiden/London, 1912-42.

Encyclopaedia of Islam. 2nd edn. Eds H.A.R. Gibb, J.H. Kramers, E. Levi-Provençal et al. 4 vols. Leiden/London, 1954.

Holt, P.M. Ottoman Egypt (1517-1798) : an Account of Arabic Historical sources.' In P.M. Holt (ed.), *Political and social Change in Modern Egypt*, pp. 3-12. London, 1968.

Redhouse, Sir James. *Turkish-English Lexicon*. Istanbul, 1890.

Shaw, S.J. 'Turkish Source-materials for Egyptian History.' In P.M. Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*, pp. 28-48. London. 1968.

الوثائق الأرشيفية

Basbakanlik Arçivi (*Pariml Ministers's Archive*) : **أولا**
Istanbul

— Mühimme Defteri

— Mühimme-i Misir.

Topkapi Sarayı Müzesi, Istenbul : **ثانيا**
Documents E 2283 (957/1550-1) ; E 5850/B 2 (923/1517).

Dar al-kutub (The National Library), Cairo : **ثالثا**
Ms. *Ta'rikh* 2784 - A collection of documents concerning
the family of al-Sadat al-Wafaiyya.

Archives Nationales, Paris. رابعا :
Affaires Etrangères. Correspondance Consulaire I-III, Le Caire.
1669-98.

وثائق منشورة

- Barkan. O.L. *XV ve XVI nci astrlada Osmanli Imparatorlugunda ziral ekonominin hukuki ve matli esoslan* vol. I, pp. 355-87. Istanbul 1943.
- Douin, S. (ed.), *Egypte de 1828 à 1830 : Correspondance des consuls de France en Egypte*. Rome, 1935.
- Humbach, R. *Beitraege zur Geschichte des osmanischen Agyp-ten Inach arabischen Sultans und statthalterurkunden des Sinai-Klosters*, Freiburg i.Br., 1976.
- Refik, Ahmet. *On altinci astrda Istanbul hayati*. Vol. I, Istanbul, 1988 (new printing).
- Schwarz, K. *Osmanische Sultanurkunden des Sinai-Klosters in türkische Sprache*. Freiburg, i. Br., 1970.

مراجع عربية وتركية وعبرية (تاريخية ودينية وتراجم)

- عبد الكريم بن عبد الرحمن :
Tevarih-i (tarikh'i) Misr-i Qahire.
1. Ms. Add. 7878, the British Library.
 2. Ms. 4877 Hacci Mahmut Efendi Collection, Süleymaniye Librery, Istanbul.

— أحمد شلبي بن عبد المغنى الحنفى المصرى :
أوضح الاشارات فيمن تولى مصر والقاهرة من الوزراء والباشات
الملقب بتساريح العيني . تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن
عبد الرحيم ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

— على أفندى :

A chronicle of pashas of Egypt.

(مخطوط ١٠٥٠ - مجموعة مظفر أوقاق Otaq - جامعة انقرة) .

- مؤلف مجهول ، استمرار للاسحاقى - لا عنوان له
(مخطوط عربى - ١٨٥٤ ، باريس ، المكتبة الوطنية
(Bibliothèque Nationale)
- البكرى الصديقى ، محمد بن أبى السرور ، كشف الكربة فى رفع
الطلبة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، فى المجلة
التاريخية المصرية ، ٢٣ (١٩٧٦) : ٢٩١ - ٣٨٤ .
- البكرى الصديقى ، محمد بن أبى السرور ، النزهة الجليلة فى ذكر
ولاية مصر والقاهرة (مخطوط - ٤٤٤٥ ، جامعة برنستون - مجموعة
جارت (Garrett) .
- البكرى الصديقى — ، التحفة البهية فى تملك آل عثمان
الديار المصرية (مخطوط - H.O. ، ٣٥ فيينا Vienna) .
- البكرى الصديقى — ، النزهة الزهية فى ذكر ولاية مصر
والقاهرة المعزية ، (مخطوط - ٤٩٩٥ ، مجموعة جارت يهوذا
Garret Yahuda - جامعة برنستون) .
- الدمرداشى ، أحمد ، كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة
(مخطوط - المكتبة البريطانية Or - British Library
١٠٧٣ - ١٠٧٤) .
- الدياربكرى ، عبد الصمد ، ذكر الخلفاء والملوك المصرية
(مخطوط - المكتبة البريطانية - Add ٧٨٤٦) .
- الغمري ، أحمد بن سعد الدين ، ذخيرة الاعلام (مخطوط ، باريس ،
المكتبة الوطنية 1850 arabe) .
- الحلاق (أو الخلاق - بالخاء) محمد بن يوسف .
al-Hailaq (al-Kallaq), Muhammad ibn Yusuf. Tarih-i Misri
Qahire.
1. Ms. T.Y. 628. Istanbul University Library.
2. Ms. H.O. 37, Vienna.
- الحفناوى ، محمد بن سالم ، منتهى العبارات (مخطوط ٤٩٩٢
مجموعة جارت يهوذا - جامعة برنستون) .
- ابن اياس محمد بن أحمد ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ،
تحقيق محمد مصطفى ، مجلد ٥ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ،
١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .

- ابن نجيم ، عمر بن ابراهيم ، الأشباه والنظائر (مخطوط ، مجموعة جرت يهوذا - جامعة برنستون) .
- ابن نجيم — ، فتاوى (مخطوط ، ٥٧٧٧ ، مجموعة جرت يهوذا ، جامعة برنستون) .
- ابن نجيم — ، الفتاوى الزينية (مخطوط ، ٤١١٥ ، مجموعة جرت يهوذا ، جامعة برنستون) .
- ابن طولون ، محمد ، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، حققه محمد مصطفى . جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- الاسحاقى ، محمد بن عبد المعطى ، كتاب أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول . القاهرة ، ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م .
- الجبرتى : عبد الرحمن ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ٤ م ، القاهرة (بولاق) ١٢٩٧ هـ / ١٨٨٠ م .
- الجزيرى : عبد القادر بن محمد ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة . القاهرة ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
- Kapsali, Eliyahu. *Seder Eliyahu Zuta*. Eds. A. Shmuelevich, Sh. Simonson, M. Benayahu. 2 vols. Jerusalem/Tel Aviv, 1966.
- المليجى : محمد محيى الدين ، المناقب الكبرى - تذكرة أولى الألباب فى مناقب الشعرانى ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م .
- المقريزى : أحمد بن على ، البيان والاعراب ، حققه عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- المقريزى : — ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . ٤ مج ، القاهرة ، ١٩٤٢ .
- مبارك : على باشا ، الخطط التوفيقية الجديدة ، القاهرة (بولاق) ، ١٨٨٧ - ١٨٨٩ .
- المناوى : عبد الرؤوف ، الكواكب الدرية فى طبقات الصوفية (مخطوط ، ٢٤٩ ، مجموعة جرت Garret ، جامعة برنستون) .
- النهروالى المكي ، قطب الدين محمد بن أحمد ، البرق اليماني فى الفتح العثمانى . تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ، ١٩٦٧ .

- النهروالى — ، كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق
و . فستنفلد Wüstenfeld ، بيروت ، ١٩٦٤ (طبعة جديدة) .
- الرشيدى : أحمد ، حسن الصفاء والابتهاج بذكر من ولى امارات
الحج (مخطوط) المكتبة الوطنية بباريس
(bibliotheque Nationale) .
- رضوان باشا زاده :
- Ridwen. Pashazade. *Ta'rih-i Misir* (Ms. H.O. 6 : Mxt 933.
Vienna).
- سعد الدين :
- Sa'düddin. *Tajül-tevarih*. 2 vols. Istanbul, n.d.
- سامبارى : جوزيف :
- Sambari. *Joseph Selections*. Ed. A. Neubauer. Oxford, 1887.
- الشعرانى ، عبد الوهاب ، الطبقات الكبرى ٢ مج ، القاهرة ، بدون
تاريخ .
- الشعرانى : — ، الطبقات الصغرى ، تحقيق عبد القادر عطا ،
القاهرة ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
- الشعرانى : — ، لطائف المنن ، ٢ مج ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ /
١٩٣٨ م .
- الشعرانى : — ، لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهد
المحمدية ، ٢ مج ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .
- Shaw, S.J. (ed.), *Hüseyn Efendi. Egypt in the Age of the
French Revolution*. Cambridge, Mass., 1964
- ed. *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century : The Ni-
zamname-i Misir of Cazzar Ahmed Pasha*. Cambridge.
Mass., 1962.
- السيوطى : جلال الدين ، الحاوى للفتاوى ، ٢ مج ، ط ٢ ،
القاهرة ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م .
- الأجهورى ، على ، الزهرات الوردية من فتاوى الشيخ الأجهورى
(مخطوط ٢٧١ من مجموعة ٨٩٥ ، جامعة كاليفورنيا ،
لوس أنجلوس) بدون ترقيم .
- Winter, M. 'Ali Efendi's « Anatolian Campaign Book » : a De-
fence of the Egyptian Army in the Seventeenth Century,'
Turcica 15 (1983), 267-309.

— اليافى ، عبد الله ، نشر المحاسن الغالية فى فضل المشايخ الصوفية ،
القاهرة ، ١٩٦١ .

الرحلات

— العياشى : أبو سالم ، الرحلة العياشية ، ٢ مج ، الرباط ، ١٩٧٧ ،
طبعة جديدة .

Belon, P. *Voyage en Egypte de Pierre Belon du Mans 1547*.
Cairo, 1970.

Evliye Celebi. *seyahatname*. Vol. X Istanbul, 1938.

— الفاسى ، أحمد بن محمد الفهرى ، ، الرحلة ، (مخطوط ، دار الكتب
المصرية ، تاريخ ١٤٠٣ هـ .

Foresien, Jean Palerne. *Voyage en Egypte 1581*. Ed. S. Saune-
ron. Cairo, 1971.

— الحموى ، محب الدين ، الدررة المضيئة فى الرحلة المصرية ،
مخطوط - لاندبرج ، ٤٢٧ ، جامعة ييل (Yale) .

Lane, E. W. *The Manners and Customs of the Modern Eryp-
tians*. London. 1963.

Procoke, R. *A Description of the East and Some Other Coun-
tries*. Vol. I. London, 1743.

Tietze, A. *Mustafa 'Ali's Description of Cairo of 1599*. Vienna.
1975.

Vansleb, F. *The Present State of Egypt*. London, 1678 (repr.
England. 1972).

Villamont. *Voyages en Egypte des années 1589, 1590 et 1591*.
Cairo, 1971.

Volney, C.F. *Travels through Syria and Egypt in the Years
1784 and 1785*. Vol. I. London, 1887 (repr. England, 1972).

— الورتلانى ، الحسن بن محمد ، نزهة الأنظار فى علم التاريخ
والأخبار ، بيروت ، ١٩٧٤ .

Wild, Johann. *Voyeges en Egypte 1601-1610*. Ed. and trans.
O.V. Volkoff. Cairo, 1973.

مراجع ثانوية

— عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : دور المغاربة في تاريخ مصر
في العصر الحديث ، المجلة التاريخية المغربية ، ١٠ - ١١ / ٥٣ -
٦٨ (١٩٧٨) : ٥٣ - ٥٦ .

Ammar, H. *Growing Up in an Egyptian Village*. London, 1954.

Arendonk C. van. 'Kahwa.' *Encyclopaedic of Islam* 4 : 449-53.
— 'Sharif.' *Encyclopaedia of Islam* 4 : 324-9.

Ayalon, D. 'Discharge from Service. Banishments and Imprisonments in Mamluk Society.' *Israel Oriental Studies* 2 (1972) : 25-50.

— 'The End of the Mamluk Sultanate (why did the Ottomans spare the Mamluks of Egypt and wipe out the Mamluks of Syria ?), ' *Studia Islamica*, 65 (1987), 125-48.

— *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom*. London, 1956.

— 'Mamluk Military Aristocracy during the First Years of the Ottoman Occupation of Egypt.' In C.E. Bosworth. Ch. Issawi ,R. Savory and A.L. Udovich (eds), *The Islamic World : Studies in Honor of Bernard Lewis* (Princeton. NJ. 1989), pp. 413-31.

— *The Mamluk Military Society*. Variorum Reprints. London, 1979.

— 'The Plague and its Effects upon the Mamluk Army.' *Journal of the Royal Asiatic Society* (1946) ; 67-73.

— 'Studies in al-Jabarti I : Notes on the transformation of Mamluk society in Egypt under the Ottomans.' *JESHO* 3/2 and 3/3 (1960) : 148-74. 275-325.

— *Studies on the Mamluks of Egypt (1250-1517)*. Variorum Reprints, London, 1977.

Bacqué-Grammont, J.-L. «Une dénonciation des abus de Ha'ir Beg, gouverneur de l'Égypte ottomane, en 1521.» *Annales Islamologiques* 19 (1982) : 5-52.

- Baer, G. *Egyptian Guilds in Modern Times*. Jerusalem, 1964.
- 'Fellah and Townsman in Ottoman Egypt.' *Asian and African Studies*, 8/3 (1972) : 221-56.
- 'Guilds in Middle Eastern History.' In M.A. Cook (ed.), *Studies in the Economic History of the Middle East*, pp. 3-10. London, 1970.
- *History of Landownership in Modern Egypt, 1800-19508*. London, 1962.
- 'Jerusalem Notables in Ottoman Cairo.' In A. Cohen and G. Baer (eds.), *Egypt and Palestine ; a Millennium of Association (868-1948)*, pp. 167-75. Jerusalem, 1984.
- 'Popular Revolt in ottoman Cairo.' *Der Islam* 54/2 (1977) : 213-42.
- 'Villagel and City in Egypt and Syria, 1500-1914.' in G. Baer. *Fellah and Townsman in the Middle East : Studies in Social History*, pp. 49-106. London. 1982.
- البكرى ، محمد توفيق ، بيت السادات الوفائية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، حوالى ١٩٠٠ .
- *Bayt al-Siddiq*. Cairo 1323/1905.
- Bannerth, E. 'La Khalwatiyya en Egypte,' *Mélanges de l'Institut Dominicaine des Etudes Orientales*, 8 (1964-66) : 1-75.
- Barkan, O.L. 'The Price Revolution of the Sixteenth Century : A Turning Point in the Economic History of the Near East.' *IJMES*, 6 (1975) ; 3-28.
- Berque, J. *Histoire sociale d'un village égyptien au XXe siècle*. Paris, 1957.
- Blackburn. J.R. 'The Collapse of Ottoman Authority in Yemen, 968/1560-976/1568.' *Die Welt des Islams* N.S. 19/1-4 (1979) : 119-76.
- Blackman. W.S. 'An Ancient Egyptian Custom Illustrated by a Modern Survival.' *Man*, 25 (1925) : 25-6.

- 'Some Social and Religious Customs in Modern Egypt with Special Reference to Survivals from Ancient Times.' *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Égypte*. 13-14 (1924-26) : 46-61.
- *The Fellahin of Upper Egypt* London. 1927.
- Bodman. H.L. Jr. *Political Factions in Aleppo, 1760-1826*. Durham, 1963.
- Brockelmann, C. 'Al-Bakri (Mustafa Kamal al-Din).' *Encyclopaedia of Islam*, 1 : 865-6.
- Cahen. C. 'Ghuzz.' *Encyclopaedia of Islam*, 2/2 : 1103-11.
- Chabrol, M. de 'Essai sur les mœurs des habitants modernes de l'Égypte.' *Description de l'Égypte, Etat moderne*, vol II, Paris, 1812.
- Combe, E. 'L'Égypte Ottomane.' *Précis de l'histoire d'Égypte*, vol. III. pp. 1-128. Cairo, 1933.
- Crecelius. D. 'The Emergence of Shaykh al-Azhar as the Pre-eminent Religious Leader in Egypt.' *Colloque International sur l'Histoire du Caire*, (Cairo), Grafenhainchen (DDR) pr. (1972) : 109-23.
- *The Roots of Modern Egypt : A Study of the Regimes of Ali Bey al-Kabir and Muhammad Abu al-Dhahab, 1760-1775*. Minneapolis/Chicago, 1981. —
- Deherain, Henri. 'L'Égypte turcque.' In G. Hanotaux (ed.), *L'Histoire de la Nation Égyptienne*, vol 5, Paris, 1931. —
- Dols, M.W. *The Black Death in the Middle East*. Princeton, NJ, 1977.
- Eccel, A.C. *Egypt, Islam and Social Change : Al-Azhar in Conflict and Accommodation*. Berlin, 1984.
- Ehrenkreutz, A.S. Saledin. Albany, NY, 1972.
- Fernandes, L. 'Two Variations on the Same Theme : The Zawiya of Hasan al-Rumi and the *Takiyya* of Ibrahim al-Gulshani,' *Annales Islamologiques*, 21 (1985) : 95-111.

- Flemming B. 'Die vorwahhabische Fitno in osmanischen Kairo, 1711.' In *Ismail Hakki Uzunçarsuili'ya Armanan*, pp. 55-65. Ankara, 1976.
- Fuchs, H. 'Mawlid.' *Encyclopaedia of Islam*, 3 : 419-92
- Garcin, J.-C. *Un centre musulman de la Haute Egypte médiévale : Que.* Cairo, 1976.
- Gaudefroy-Demombynes, M. *La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes.* Paris, 1923.
- Gibb, H.A.R. and Bowen, H. *Islamic Society end the West*, vol. 1, *Islamic Society in the Egypteenth Century.* (Parts 1 and 2). London. 1950-7.
- Goldziher, I. 'Le culte des saints chez les Musulmans.' *Revue de l'Histoire des Religions.* 2 (1980) : 257-351.
- 'Über den Brauch der Mahya — Versammlungen in Islam.' *WZKM*, 15 (1901) : 33-50.
- Gran, P. *Islamic Roots of Capitalism : Egypt 1760-1840.* Austin/London, 1979.
- Grunebaum, G. E. von. *Mohammaden Festivals.* London. 1958.
- Haarmann. U. 'Ideology and History, Identity and Alterity : The Arab Image of the Turk from the 'Abbasids to Modern Egypt.' *IJMES*, 20/2 (1988) : 175-96.
- Hacmer. M. de Histoire de l'Empire Ottomane, Trans. M. Donchez. Paris. 1844.
- Hess A.C. 'The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth Century World War.' *IJMES.* 4/1 (1973) : 55-76.
- Heyd. U. *Ottoman Documents on Pelestine, 1552-1615.* Oxford. 1960.
- Heyworth-Dunne, J. *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt.* London. 1939.
- Hitti. P. *History of the Arabs.* London, 1960. (ترجم للعربية)

- Holt, P.M. *Egypt and the Fertile Crescent. 1516-1922. A Political History*. Ithaca, NY, 1966.
- 'Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt.' In P.M. Holt. *Studies in the History of the Near East*, pp. 161-76. London, 1973.
- 'The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century.' in P.M. Holt. *Studies in the History of the Near East*. pp. 177-219. London, 1973.
- 'The Career of Küçük Muhammad (1676-94).' In P.M. Holt. *Studies in the History of the Near East*, pp. 231-51. London. 1973.
- 'The Exalted Lineage of Ridwan Bey : Some observations on a Seventeenth Century Mamluk Genealogy.' In P.M. Holt. *Studies in the History of the Near East*, pp. 220-30. London, 1973.
- 'The Last Phase of the neo-Mamluk Regime in Egypt,' In *L'Égypte au XIXe siècle* (Colloques Internationaux du C.N.R.S., 594), pp. 65-75. Paris, 1982.
- 'The Pattern of Egyptian Political History 1517 to 1798.' In P.M. Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*, pp. 79-90. London, 1968.
- Inalcik, H. 'L'Empire ottoman.' *Actes du 1er congrès international des études balkaniques et sud-est européennes*, 3 (Sofia, 1969) 75-103.
- 'Military and Fiscal Transformation in the Ottoman Empire, 1600-1700.' *Archivum Ottomanicum*. 6 (1980) ; 283-337.
- *The Ottoman Empire : The Classical Age, 1300-1600*, London, 1973.
- Irwin, R. *The Middle East in the Middle Ages : The Early Mamluk Sultanate, 1250-1382*. London, 1986.
- Jong, F. de. *Turuq and Turuq-linked Institutions in Nineteenth Century Egypt*. Leiden, 1978.

- Kahle, P. 'Zur Organisation der Derwischorden in Egypten.' *Der Islam*. 6 (1916) : 149-69.
- Kimche, D. 'The Political Superstructure of Egypt in the late Eighteenth Century.' *Middle East Journal*, 22/4 (1968) : 448-62.
- Kriss, R. and Kriss, H.H. *Volks Glaube im Bereich des Islams*. 2 vols. Wiesbaden, 1960. '
- Kupferschmidt, U.M. 'Connections of the Palestinian 'Ulama' with Egypt and other Parts of the Ottoman Empire.' In A. Cohen and G. Baer (eds.), *Egypt and Palestine : a Millennium of Association (868-1948)*, pp. 176-89. Jerusalem. 1984.
- Lammens. H. *Islam : Its Beliefs and Institutions*. Hebrew translation. Jerusalem. 1955.
- Landau, J.M. *Jews in Nineteenth Century Egypt*. New York, 1969.
- Lapidus, I.M. *Muslim Cities in the Later Middle Ages*. Cambridge, Mass., 1967.
- Livingston, J.W. 'Ali Bey al-Kabir and the Jews.' *Middle Eastern Studies*. 7 (1971) : 221-28.
- McCarthy, J.A. 'Nineteenth-century Egyptian Population.' In E. Kedourie (ed.), *The Middle Eastern Economy : Studies in Economics and Economic History*, pp. 1-39, London 1976.
- McPherson, J.W. *The Moulids of Egypt*. Cairo. 1941.
- Mantran, R. 'Note sur le Kanunname-i Misir.' *Cahiers de Prestigieuses d'orientalisme et de Slevistiques : études sémitiques et islamiques* 9 (1977) : 35-44.
- Marsot. Afaf Lutfi al-Sayyid. 'A Socio-Economic Skitch of the 'Ulama in the Eighteenth Century.' international *sur l'Histoire du Caire*. (Cairo), Grafenhainchen (DDR) pr. (1972) : 313-19.
- 'The Political and Economic Functions of the Ulama in the Eighteenth Century.' NESHO, 16 (1973) : 130-54.

- 'The Ottoman Conquest and the Development of the Great Arab Towns.' *International Journal of Turkish Studies*, 4/1 (1970-80) : 84-101.
- 'Une Revolution' au Caire sous les Mamelouks. La crise de 1123/1711.' *Annales Islamologiques*, 6 (1965) : 95-120.
- Salim, S.M. *Marsh Dwellers of the Euphrates Delta*. London, 1962.
- Schimmel, A. 'Sufismus und Heiligenverehrung im spaetmittelalterlichen Agypten (Eine Skizze).' In E. Graef (ed.), *Festschrift Werner Caskel*, pp. 274-89. Leiden, 1968.
- Shaw, S.J. *The Budget of Ottoman Egypt, 1005-1006/1596-1597*. The Hague/Paris. 1968.
- *The Finincial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798*. Princeton, NJ. 1962.
- 'Landholding end Land-tax Revenues in Ottoman Egypt.' In P.M. Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*, pp. 91-103. London, 1968.
- Strauss (Ashtor), E. *The History of the Jews in Egypt and Syria under the Mamluks*. 2 vols. Jerusalem, 1944. (In Hebrew).
- 'The Social Isolation of Ahl adh-Dhimma.' In O. Komlos ed.), *Etudes orientales à la mémoire de P. Hirschler*. pp. 73-94. Budapest. 1950.
- Stripling, G.W.F., *The Ottoman Turks and the Arabs. 1511-1574*. Urbana, III., 1942. —
- الطويل : توفيق ، التصوف فى مصر اىبان العصر العثمانى .
القاهرة ، ١٩٤٥ .
- Trimingham. J.S. *The Sufi Orders in Islam*. Oxford. 1971.
- Tyan, E. *Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam*. Leiden, 1969.
- Winter, M. ' 'Ali ibn Maymun and Syrian Sufism in the Sixteenth Century.' *Israel Oriental Studies*, 7 (1977) : 281-308.

- 'A Seventeenth-Century Arabic Panegyric the Ottoman Dynasty.' *Asian and African Studies*, 13/2 (1979). 130-56.
- 'Military Connections between Egypt and Syria (including Palestine) in the early Ottoman Period.' In A. Cohen and G. Baer (eds.), *Egypt and Palestine ; A Millennium of Association (868-1048)*, pp. 139-49. Jerusalem, 1984.
- *Society and Religion in Early Ottoman Egypt : Studies in the Writings of 'Abd al-Wahhab al-Shu'rani*. New Brunswick, NJ, 1982.
- 'The *ashraf* and *niqabat al-ashraf* in Egypt in Ottoman and Modern Times.' *Asian and African Studies* (Haifa), 19/I (1985) : 17-41.
- 'The Islamic Profile and the Religious Policy of the Ruling Class in Ottoman Egypt.' *Israel Oriental Studies*, 10 (1988) 132-45.
- 'Turks, Arabs and Mamluks in the Army of Ottoman Egypt.' *WZKM*, 72 (1980) ; 97-122.
- الزيات : سليمان ، كنز الجواهر في تاريخ الأزهر . القاهرة ،
بنون تاريخ .
- Zwemer, S.M. *The Influence of Animism on Islam*. London, 1920.

صدر من هذه السلسلة

فانس بكأرد ، إنهم يصنعون البشر (ج ٢)

مارتن فان كريفند، حرب المستقبل

ألفين توفلر ، تحول السلطة (ج ٢)

ممدوح حامد عطية ، إنهم يقتلون البيئة

د. السيد أمين شلبي ، جورج كينان

يوسف شرارة ، مشكلات القرن الحادي

والعشرين والعلاقات الدولية

د. السيد عليوة ، إدارة الصراعات الدولية

د. السيد عليوة ، صنع القرار السياسي

جرج كاشمان ، لماذا تنشب الحروب (ج ٢)

إيمانويل هيمنان ، الأصولية اليهودية

أنجيلو كودفيللا ، المخابرات وفن الحكم

آلان أنترمان ، اليهود (عقائدهم الدينية

وعباداتهم)

ثالثاً: العلوم والتكنولوجيا

ميكايل أبى، الانقراض الكبير

فيرنو هيزنبرج، الجزء والكل: محاورات فى

مضمار الفيزياء الذرية

فريد هويل، البذور الكونية

ويليام بينز، الهندسة الوراثية للجميع

د. جوهان دورشنر، الحياة فى الكون كيف نعلمت

وأين توجد

إسحق عظيموف، الشمس المتفجرة (أسرار

الموبرتوفا)

روبرت لافور، البرمجة بلغة السى باستخدام

تيربوسى (ج ٢)

إدوارد ايه فايجينباوم، الجيل الخامس للحاسوب

أولاً: الموسوعات والمعاجم

ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية العالمية

ويليام بيتر، معجم التكنولوجيا الحيوية

ج.كارفيل، تبسيط المفاهيم الهندسية

ب. كوملان، الأساطير الإغريقية والرومانية

و. د. هاملتون وآخرون، المعجم الجيولوجى

المصور فى المعادن والمخخور والحفريات

حسام الدين زكريا، المعجم الشامل للموسيقى

العالمية (ج ١)

خيرية البشلاوى، معجم المصطلحات السينمائية

دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية

ثانياً: الدراسات الاستراتيجية وقضايا

العصر

د. محمد نعمان جلال، حركة عدم الانحياز فى

عالم متغير

إريك موريس؛ آلان هو، الإرهاب

ممدوح عطية، البرنامج النووى الإسرائيلى

د. ليوار تشامبرز رايت، سياسة الولايات المتحدة

الأمريكية إزاء مصر

إيزرا ف. فوجل، المعجزة اليابانية

د. السيد نصر السيد، إطلاقات على الزمن الآتى

بول هاريسون، العالم الثالث غدا

مجموعة من العلماء، مبادرة الدفاع

الاستراتيجى: حرب الفضاء

و. مونجمرى وات، الإسلام والمسيحية فى العالم

المعاصر

هادى أونيمود، أفريقي الطريق الآخر

ديفيد ألدرتون، تربية أسماك الزينة
أندريه سكوت، جواهر الطبيعة
إيجور إكموشكين، الإيثولوجي
باري باركر، السفر في الزمان لكوني
ديمتري ترايفونوف، ظلال الكيمياء
بول ديفز، جونز جريبين، أسطورة المادة
جيفري ماوسيف ماسون، حين تبكى الأفيال
ليونارد أ. كول، السلاح الحادى عشر
و. جراهام ريتشاردز، أسرار الكيمياء
د. زين العابدين متولى، وبالنجم هم يهتدون

رابعاً: الاقتصاد

ديفيد وليام ماكدوال، مجموعات النقود (صيانتها،
تصنيفها، عرضها)
د. نورمان كلارك، الاقتصاد السياسى للعلم
والتكنولوجيا
سامى عبد المعطى، التخطيط السياحى فى مصر
جابر الجزار، ماستريخت والاقتصاد المصرى
ولت ويطمان روستو، حوار حول التنمية
الاقتصادية

فيكتور مورجان، تاريخ النقود
د. تشارلز سى مانز، إدارة الأعمال بلا مدبرين

خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، للحكم والأمثال والنصائح عند
المصريين القدماء

فرانسوا ديماس، آلهة مصر

سيريل ألريد، إخناتون

موريس بيرلير، صناعات الظاهر

د. محمود سرى طه، الكمبيوتر فى مجالات الحياة
د. مصطفى عنانى، الميكروكمبيوتر
ى. رادو نسكاياى، الإلكترونيات والحياة الحديثة
جلال عبد الفتاح، الكون ذلك المجهول
إيفرى شاتزمان، كوننا المتمد
فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء
كاتى ثير، تربية الدواجن
د. محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج
لارى جونيك ومارك هوبليس، الوراثة والهندسة
للوراثية بالكاريكاتير
جينيا كولاتا، الطريق إلى دولى

دور كاس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة

على حيوانات أفريقيا

إسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة

د. مصطفى محمود سليمان، الزلازل

بول دانيز، الدقائق الثلاث الأخيرة

ويليام هـ... ماثيوز، ما هى الجيولوجيا؟

إسحق عظيموف، العلم وأفاق المستقبل

ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان

والزمان

د. محمود سرى طه، الاتجاهات المعاصرة فى

عالم الطاقة

ماتش هوفمان، أينشتين

زافيلسكى ف. س.، الزمن وفلسفه

ر. ج. فوربس، تاريخ العلم والتكنولوجيا

(ج ٢)

د.فاضل أحمد الطانى، أعلام العرب فى

الكيمياء

رولاند جاكسون، الكيمياء فى خدمة الإنسان

إبراهيم القرضاوى، أجهزة تكييف الهواء

بكتف أ. كتنش، رمسيس الثاني: فرعون المجد والانتصار

ألن شورتر، الحياة اليومية في مصر القديمة ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر

جاك كرايس جونيور، كتابة التاريخ في مصر نفتالي لويس، مصر الرومانية

عبد مياشر، البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥ - ١٩٧٣)

د. السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات في مصر الإسلامية.

جابريل باير، تاريخ ملكية الأراضي في مصر الجديدة

عاصم محمد رزق، مراكز الصناعة في مصر الإسلامية

ت. ج. هـ. جيمز، كنوز الفراعنة حسن كمال، الطب المصري القديم

أ. أ. س. إدواردز، أهرام مصر

سومرز كلارك، الآثار القبطية في وادي النيل كريستيان ديروش نوبلكور، المرأة الفرعونية

بيل شول وأدبنيث، القوة النفسية للأهرام جيمس هنري برستد، تاريخ مصر

د. بيارد دودج، الأزهر في ألف عام

أ. سبفر، الموتى وعالمهم في مصر القديمة ألفريد ج. بقر، الكنائس القبطية القديمة في

مصر (ج ٢)

روز أليندم؛ الطفل المصري القديم ج. و. مكفرسون، الموالد في مصر

جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية

سوزان راتيه، حتشبسوت

مرجريت مري، مصر ومجدها الغابر

أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة د محمد أنور شكري، الفن المصري القديم

ت. ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة

إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة تشارلز نيمس، طيبة (آثار الأقصر)

رندل كلارك، الرمز والأسطورة في مصر القديمة ديمتري ميكس، الحياة اليومية للآلهة الفرعونية

محمد عبد الحميد بسويوني، باتوراما فرعونية

حمدي عثمان، هؤلاء حكموا مصر

جوزيف دلي، العمارة العربية في مصر

ميكل ونتر، المجتمع المصري تحت الحكم العثماني بربارة واترسون، أقباط مصر

ليريك هورنونج، فكرة في صورة

بيير جراندبيه، رمسيس الثالث

سادساً: الكلاسيكيات

جاليليو جاليليه، حوار حول النظامين الرئيسيين للكون (ج ٣)

وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (ج ٣)

أبو القاسم الفردوسي، الشاهنامه (ج ٢)

إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (ج ٣)

ناصر خسرو علوي، سفر نامه

فيليب عطية، ترانيم زرادشت

جورج جاموف، بداية بلا نهاية

محمد كرد علي، بين المدنية العربية والأوروبية

سابعاً: الفن التشكيلي والموسيقى

عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نفسي ومنطوق

ألويز جرايتر، موتسارت

شوكت الربيعي، الفن التشكيلي المعاصر في
الوطن العربي

ليوناردو دافنشي، نظرية التصوير

د.غبريال وهبه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتى فى
الفن التشكيلي

روبيى جورج كولنجوود، مبادئ الفن

مارتن جك، بوهان سباستيان باخ

ميخائيل ستيجمان، فيفالدى

هبربرت ريد، التربية عن طريق الفن

أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف

حسام الدين زكريا، أنطون بروكنر

جيمس جينز، العلم والموسيقى

هو جولا يختنتريت، الموسيقى والحضارة

محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع

الأوركستراالى

د.صالح رضا، ملامح وقضايا فى الفن التشكيلي
المعاصر

إدموندو سولمى، ليوناردو

سيونايد ميرى روبرتسون، الأشغال الفنية والثقافة
المعاصرة

ثامناً: حضارات عالمية

جاكوب برونوفسكى، التطور الحضارى للإنسان

س.م. بورا، التجربة اليونانية

جوستاف جرونبيوم، حضارة الإنسلام

أ.د. جرنى، الحيثيون

ل. دبلابورت، بلاد ما بين النهرين

ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية

آدم متز، الحضارة الإسلامية (ج٢)

جوزيف نيدهام، تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ستيفن رانسيمان، الحضارة البيزنطية

سبتيانو موسكاتى، الحضارات السامية

تاسعاً: التاريخ

جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة فى العصور

الوسطى

هنرى بيرين، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى

أرنولد توينبى، الفكر التاريخى عند الإغريق

بول كولز، العثمانيون فى أوروبا

جوناثان ريلى سميت، الحملة الصليبية الأولى

وفكرة الحروب الصليبية

د. بركات أحمد، محمد واليهود

ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (ج٣)

و. بارتولد، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيسمانيانو، تاريخ أوروبا الشرقية

د.ألبرت حورانى، تاريخ الشعوب العربية (ج٢)

نويل مالكوم، البوسنة

جارى ب. ناش، الحمر والبيض والسود

أحمد فريد رفاعى، عصر المأمون (ج٢)

آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ناجى متشيو، الثورة الإصلاحية فى اليابان

محمد فؤاد كوبريلى، قيام الدولة العثمانية

د. إبرار كريم الله، من شمم التنار؟

ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية

ألبان ويدجرى، التاريخ وكيف يفسرونه (ج٢)

جوسيبى دى لونا، موسولوىنى

جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية

هـ.ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (ج٤)

هـ. سانت موسى، ميلاد العصور الوسطى

بوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى

هـ . ج . ويلز ، موجز تاريخ العالم
لورد كرومر ، الثورة العربية
و . مونتجمري وات ، محمد في مكة

عاشراً: الجغرافيا والرحلات

ت . و . فریمان ، الجغرافيا في مائة عام
ليسترديل راي ، الأرض الغامضة
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)
إميليا إدواردز ، رحلة الألف ميل
رحلات فارتوما (الحاج يونس المصري)
رحلة بيهتون إلى مصر والحجاز (ج ٣)
رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (ج ٣)
بوميات رحلة فسكو داجاما

س . هوارد ، أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا
إريك أكسيلون ، أشهر الرحلات في جنوب أفريقيا
وليم مارسدن ، رحلات ماركو بولو (ج ٣)

هادى عشر: الفلسفة وعلم النفس

جون بورر ، الفلسفة وقضايا العصر (ج ٣)
سوندرای ، الفلسفة الجوهرية

جون لويس . الإنسان ذلك الكائن الفريد
سدنى هولك ، التراث الغامض : ماركس
والماركسيون

إدوارد دو بونو ، التفكير المتجدد

رونالد دافيد لانج ، الحكمة والجنون والحماقة
دوتوماس أ . هاريس ، التوافق النفسي: تحليل
المعاملات الإنسانية

د . أنور عبد الملك ، الشارع المصرى والفكر
نيكولاس ماير ، شارلوك هولمز يقابل فرويد

أنطونى دى كرسينى ، أعلام الفلسفة المعاصرة
جون وروبرت هاندلى ، كيف تتخلصين من
القلق؟

هـ . ج . كريله ، الفكر الصينى

د . السيد نصر السيد ، الحقيقة الرمادية

برتراند راسل ، السلطة والفردي

مارجريت روز ، ما بعد الحدائة

كارل بوبر ، بحثا عن عالم أفضل

ريتشارد شاخت ، رواد الفلسفة الحديثة

جوزيف داهموس ، سبعة مؤرخين في العصور

الوسطى

د . روجر ستروجان ، هل نستطيع تطعيم الأخلاق

للأطفال؟

إريك برن ، الطب النفسى والتطويل النفسى

بيرتون بورتر ، الحياة الكريمة (ج ٢)

فرانكلين ل . باومر ، الفكر الأوروبى الحديث (ج ٤)

هنرى برجسون ، الضحك

أرنست كاسيرر ، فى المعرفة التاريخية

و . مونتجمري وات ، الفضاء والفرد

إدوارد دو بونو ، التفكير الصلى

ثانى عشر: العلوم الاجتماعية

د . محى الدين أحمد حسين ، التنشئة الأسرية .

والأبناء الصغار

م . و ثرنج ، ضمير المهندس

رايموند وليامز ، الثقافة والمجتمع

روى روبرتسون ، الهيروين والإيدز

بيتر لورى ، المخدرات حقائق نفسية

د . ليو بوسكاليا ، الحسب

برنسلو مالينوفسكى ، السحر والعلم والدين .

بيتر ر. داي، الخدمة الاجتماعية والاضطباط
الاجتماعي

بول جيرهارت، تعليم المعوقين

أرولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة
رونالد د سميون، العلم والطلاب والمدارس

ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس، المرشد إلى فن المسرح

برونو ياتينسكي، حفلة ماتينكان

جلال للشري، فكرة المسرح

جان بول سارتر، جورج برناردشو، جان أنوى

مختارات من المسرح العالمي

د. عبد المعطى شعراوي، المسرح المصري

المعاصر: أصله وبيدائه

توماس ليبهارت، فن الماييم والباتنومايم

زيجمونت هينز، جماليات فن الإخراج

أوجير يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ ج)

ألان مكدونالد، مسرح الشارع

نك كاي، ما بعد الحداثية والفنون الأدائية

بيتر بروك، التفسير والتفكيك والإيديولوجية

أندريه فيليب، الممثل الكوميدي

لي ستراسبرج، تدريب الممثل

جلال جميل محمد، مفهوم الضوء والظلام في

العرض المسرحي

رابع عشر: الطب والصحة

بوريس نيدروفيتش سيرجيف، وظائف الأعضاء

من الألف إلى الياء

دجون شغلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة

دجاخوم بيتروفيتش، النحل والطب

م. هـ. كنج، التغذية في البلدان النامية

خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخرى

أدس مكسلي، نقطة مقابل نقطة

جول ويست، الرواية الحديثة: الإنجليزية

والفرنسية

أنور المعداوي، علي محمود طه: الشاعر والإنسان

جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصي

تاجور شين ين بنج وآخرون، مختارات من الآداب

الآسيوية

محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية

جابريل جارسيا ماركيز، الجنرال في ماتهة

سوربال عبد الملك، حديث النهر

د. رمسيس عوض، الأدب الروسي قبل الثورة

البشافية وبعدها

مختارات من الأدب الياباني: الشعر، الدراما،

الحكاية، القصة القصيرة

ديفيد بشندر، نظرية الأدب المعاصر

نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص

أخرى

رالف نى ماتلو، تولستوى

والتر آلن، الرواية الإنجليزية

هادى نعمان الهيتي، أدب الأطفال

مالكوم برايدري، الرواية اليوم

لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة

د. جابريل جارسيا ماركيز، سيمون بوليفار

ديلاسى أوليري، الفكر العربي ومكانه في التاريخ

د. علي عبد الرؤوف البمبي، مختارات من الشعر

الإسباني في العصور الوسطى (١ ج)

ب. إفور إيفانز، موجز تاريخ الدراما الإنجليزية

ج. س. فريزر، الكاتب الحديث وحفظه (ج٢)

جورج ستاينر، بين تولستوى وستوفيسكي (ج٢)

ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية

فيكتور برومبير، استدلال

فيكتور هوجو، رسائل وأحداث من المنفى

يانكو لالارين، الرومانتيكية والواقعية

د.نعمة رحيم الغزاوي، أحمد حسن الزيات كاتباً

ونقاداً

ف.برميلوف، دستوفيسكي

لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الدليل

البيبلوجرافي: روائع الآداب العالمية (ج١)

محسن جاسم الموسوي، عصر الرواية : مقال من

النوع الأدبي

هنري باربوس، الجحيم

ميجيل دي ليبس، الفئران

روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمي

يانيس ريتسوس، العهد (مختارات شعرية)

ب. إفور إيفانز، مجمل تاريخ الأدب الإنجليزي

فخرى أبو السعود، في الأدب المقارن

سليمان مظهر، أساطير من الشرق

ف.ع. أدينكوف، فن الأدب الروائي عند تولستوى

د. صفاء خلوصي، فن الترجمة

بلدوميرو ليلو وآخرون، قصص من أمريكا

الثلاثينية

سادس عشر: الإعلام

فرانسيس ج. برجير، الإعلام التطبيقي

بيير ألبيير، الصحافة

هربرت ثيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية

سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، الهوية القومية في السينما العربية

ج.دادلي أندرو، نظريات الفيلم الكبرى

روى أرمز، لغة الصورة في السينما المعاصرة

هاشم النحاس، صلاح أبو سيف (محاورات)

جان لويس بوري وآخرون، في النقد السينمائي

الفرنسي

محمود سامي عطا الله، الفيلم التسجيلي

ستانلي جيه سولومون، أنواع الفيلم الأمريكي

جوزيف وهاري فيلدمان، دينامية الفيلم

قدري حفني، الإنسان المصري على الشاشة

موني براح، السينما العربية من الخليج إلى

المحيط

حسين حلمي المهندس، دراما الشاشة: بين النظرية

والتطبيق للسينما والتلفزيون (ج٢)

إدوارد مري، عن النقد السينمائي الأمريكي

جوزيف م. يوجز، فن الفرجة على الأفلام

سعيد شيمي، التصوير السينمائي تحت الماء

دوايت سوين، كتابة السيناريو للسينما

هاشم النحاس، نجيب محفوظ على الشاشة

يوجين فال، فن كتابة السيناريو

دانيل أريخون، قواعد اللغة السينمائية

كريستيان ساليه، السيناريو في السينما الفرنسية

ألان كاسبيار، التذوق السينمائي

توني بار، التمثيل للسينما والتلفزيون

بيتر نيكولز، السينما الخيالية

بول وارن، خلفا نظام النجم الأمريكي

دافيد كوك، تاريخ السينما الروائية

ثامن عشر: كتب غيوت الفكر الإنساني

سلسلة لتلخيص التراث الفكرى الإنسانى فى صورة
عروض موجزة لأهم الكتب التى ساهمت فى
تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصحوبة بتراجم
لمؤلفيه وقد صدر منها ٩ أجزاء.

تاسع عشر: الأعمال المختارة

يوهان هويزنجا، أعلام وأفكار
دمصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى
ت. كويلر پنج، الشرق الأدنى

جيمس نيومان، ميشيل ويلسون، رجال عاشوا للعلم
ابن زهبل الرمال، آخرة المماليك
د. محمد عوض محمد، نهر النيل
آرثر كريستنسن، إيران فى عهد الساسانيين
أوجست ديبس، أفلاطون
يعقوب فام، البراجماتية
بلوطرخوس، العظماء
روبرت دييو جراند وآخرون، مدخل إلى علم لغة
النص

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠١/١٥٩٤٧

ISBN — 977 — 01 — 7575 — 7